آية الله العظمى مكارم الشيرازي

نفحات الولاية

شرح عصري جامع لنهج البلاغة

بمساعدة مجموعة من الفضلاء
إعداد: عبد الرحيم الحمراني

الجزء الرابع

www.haydarya.com

آية الله العظمى الشيخ ناصر مكارم الشيرازي

نفحات الولاية

شرح عصري جامع لنهج البلاغة

الجزء الرابع

مكتبة الروضة الحيدرية
الرقم ١٠٠٥٥
التاريخ ١/١٠/٢٠٠٥

بمساعدة مجموعة من الفضلاء
إعداد: عبد الرحيم الحمراني

مكارم شيرازى، ناصر، ١٣٠٥ -
نفحات الولاية: شرح عصرى جامع لنهج البلاغة / ناصر مكارم الشّيرازى؛ بمساعدة مجموعة من الفضلاء؛ إعداد عبدالرحيم الحمراني. ـ قم: مدرسة الامام على بن ابى طالب عليه السلام، ١٤٢٦ ق. = ١٣٨٤.
ج.
ISBN 964-8139-58-X (دوره)
ISBN 964-8139-18-0 (ج. ٤)

كتابنامه
فهرستنويسى بر اساس اطّلاعات فيپا.
عنوان اصلى: پيام امام اميرالمؤمنين: شرح تازه و جامعى بر نهج البلاغه
١. على بن ابى طالب عليه السلام، امام اوّل، ٢٣ سال قبل از هجرت ـ ٤٠ ق. نهج البلاغه ـ ـ نقد و تفسير ٢. على بن ابى طالب عليه السلام، امام اول، ٢٣ قبل از هجرت ـ ٤٠ ق. ـ ـ كلمات قصار. الف. على بن ابى طالب عليه السلام، امام اول، ٢٣ قبل از هجرت ـ ٤٠ ق. نهج البلاغه. شرح. ب. حمرانى، عبدالرحيم، ج. عنوان. د. نهج البلاغه. شرح
BP ٣٨ / ٠٢ / ٧م
٢٩٧/٩٥١٥

هوية الكتاب

إسم الكتاب: .... نفحات الولاية (شرحٌ عصريٌّ جامعٌ لنهج البلاغة) / الجزء الرابع
المؤلف: .... سماحة الشيخ ناصر مكارم الشيرازي بمساعدة مجموعة من الفضلاء
اعداد: .... عبدالرحيم الحمراني
المطبعة: .... سليمانزاده
الطبعة: .... الاولى
الكميّة: .... ١٠٠٠ نسخة
عدد الصّفحات: .... ٤١٦ صفحة
حجم الغلاف: .... كبير
الناشر: .... مدرسة الامام على ابن أبي طالب عليه السلام
عنوان الناشر: ...... قم، شارع الشّهداء، فرع ٢٢، تلفكس: ٧٧٣٢٤٧٨-٢٥١-٩٨-٠٠
ردمك: ٩٦٤-٨١٣٩-١٨-٠
عنواننا في الإنترنت: www.Amiralmomeninpub.com
السّعر: ٣٠٠٠ تومان

بسم الله الرحمن الرحیم

بمساعدة مجموعة من الفضلاء

١ ـ محمد جعفر الامامي

٢ ـ محمد رضا الاشتياني

٣ ـ محمد جواد أرسطا

٤ ـ إبراهيم البهادري

٥ ـ سعيد داودي

٦ ـ أحمد القدسي

الخطبة ٩١[١]

ومن خطبة له عليه السلام

تعرف بخطبة الأشباح وهي من جلائل خطبه عليه السلام

روي عن مسعدة بن صدقة عن الصادق، جعفر بن محمد عليه السلام أنّه قال: خطب أميرالمؤمنين عليه السلام بهذه الخطبة على منبر الكوفة، وذلك أنّ رجلاً أتاه فقال له: يا أميرالمؤمنين صف لنا ربّنا مثلما نراه عياناً لنزداد له حبّاً وبه معرفة، فغضب ونادىٰ: الصلاة جامعة، فاجتمع الناس حتى غص المسجد بأهله، فصعد المنبر وهو مغضب متغير اللون، فحمدالله وأثنى عليه وصلى على النبي صلى الله عليه وآله ثم قال...

نظرة إلىٰ الخطبة

هذه من الخطب القيمة التي تفيض رقة وفصاحة وبلاغة وعذوبة، وهي شهادة اُخرىٰ على

---

١. سند الخطبة: قد كفانا الرضى (ره) مؤنة البحث عن مصادر هذه الخطبة إذ ذكر أنّه نقلها عن مسعدة بن صدقة العبدى عن أبي عبدالله عليه السلام ومسعدة هذا له كتب منها كتاب (خطب اميرالمؤمنين عليه السلام) كما ذكرنا ذلك في أوائل هذا الكتاب تحت عنوان الكتب المؤلفة في كلام أمير المؤمنين عليه السلام وقلنا هناك إنّ كتاب مسعدة هذا كان باقياً إلىٰ زمن السيد هاشم البحراني (ره) إذ نقل عنه كثيراً في تفسيره المعروف بالبرهان كما نوه به في مقدمة الكتاب المذكور ثم صار في ضمائر الغيوب. وعلى كل حال ان الخطبة الاشباح هذه من خطب أمير المؤمنين المشهورة رواها العلماء قبل الرضى أيضاً أحمد بن عبد ربّه المالكي في العقد الفريد والشيخ الصدوق في التوحيد باختلاف في بعض الألفاظ والفقرات مع رواية الرضي. ورواها الزمخشري في ربيع الأبرار وإبن الأثير في النهاية. و الخطبة شاهدة لنفسها لا تحتاج مع لفظها الباهر، ومعناها الظاهر، إلىٰ اسناد متواتر كما قال السيد ابن طاووس (حيث من المستبعد إن تصدر مثل هذه المضامين من غير المعصوم) (مصادر نهج البلاغة ١٦٨/٢).

عظمة أمير المؤمنين علي عليه السلام وإرتباطه بالعالم القدسي وانفتاحه علىٰ خزائن العلم الإلهي.

قال ابن أبي الحديد في تعليقه علىٰ هذه الخطبة: «**إذا جاء هذا الكلام الربانيّ، واللفظ القدسي، بطلت فصاحة العرب، وكانت نسبة الفصيح من كلامها إليه، نسبة التراب إلىٰ النضار الخالص؛ ولو فرضنا أنّ العرب تقدر على الألفاظ الفصيحة المناسبة، أو المقاربة لهذه الألفاظ، من أين لهم المادة التي عبرت هذه الألفاظ عنها؟ ومن أين تعرف الجاهلية بل الصحابة المعاصرون لرسول الله صلى الله عليه وآله هذه المعاني الغامضة السمائية؛ ليتهيأ لها التعبير عنها أمّا الجاهلية فانّهم إنّما كانت تظهر فصاحتهم في صفة بعير أو فرس أو حمار وحش، أو ثورة فلاة، أو صفة جبال أو فلوات؛ ونحو ذلك. وأمّا الصحابة فالمذكورون منهم بفصاحة إنّما كان منتهى فصاحة أحدهم كلمات لا تتجاوز السطرين أو الثلاثة، إمّا في موعظة تتضمن ذكر الموت أو ذم الدنيا، أو ما يتعلق بحرب وقتال؛ من ترغيب أو ترهيب...**».

ثم أضاف ابن أبي الحديد بعد أن أشاد بالخطبة قائلاً: «**وأقسم أنّ هذا الكلام إذا تأمله اللبيب اقشعر جلده، ورجف قلبه، واستشعر عظمة الله العظيم في روعه وخلده، وهام نحوه وغلب الوجد عليه وكاد أن يخرج من مسكه شوقاً؛ وأن يفارق هيكله صبابة ووجداً**»[1].

على كل حال فانّ هذه الخطبة تشتمل علىٰ عدّة أقسام، يكمل كل واحد منها الآخر. وهي علىٰ عشرة أقسام:

القسم الأول: في جانب من صفات الله سبحانه وتعالىٰ من أجل إعداد الأفكار لتقبل ما يرد عليها من حقائق.

القسم الثاني: يتضمن إجابة عن سؤال السائل عن صفات الله و يجعل القرآن ميزانا في دائرة أسماء الله و صفاته، و يوصيه بالتمسك بآياته سيّما في هذا البحث.

القسم الثالث: الإشارة إلىٰ عجز الإنسان عن الاحاطة العلمية بكنه الذات و الصفات

---

١. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٤٢٥/٦.

الإلهية المقدسة وما تنطوى عليه من صفات.

القسم الرابع: بحث القدرة الإلهية في تدبير عالم الخلقة ـ الذي يمثل المرآة التي تعكس صفاته سبحانه ـ.

القسم الخامس: الحديث عن خلق السموات العلى والتي تمثل جانباً من عظمة البارئ سبحانه.

القسم السادس: الحديث عن خلق الملائكة وصفاتهم وخصائصهم.

القسم السابع: لفت انتباه الناس إلىٰ العالم العلوى؛ إلىٰ جانب الحديث عن خلق الأرض.

القسم الثامن: خلق آدم‌عليه السلام وبعث الأنبياء وارسال الرسل.

القسم التاسع: يتحدث عن علم اللّه سبحانه بالغيب واحاطته بكافة أسرار وجود الإنسان وخفاياه و ما يضمره من أعمال و أفكار ونيات.

والقسم العاشر: والأخير حيث يختتم الإمام‌عليه السلام خطبتة العميقة المضامين بأدعيه روحية عظيمة، لتشكل الخطبة بكافة أقسامها لوحة روحية سامية تلطف روح الإنسان وتأخذ بيده إلىٰ السير نحو اللّه واصلاح فكره وأعماله[1].

وأمّا سبب تسمية هذه الخطبة بالاشباح فهناك اختلاف بين الشرّاح بهذا الخصوص. فقد ذهب البعض إلىٰ أنّ **«الاشباح»** كناية عن الملائكة، حيث تضمنت الخطبة جانباً مهما في الحديث عنها ومن هنا سميت هذه الخطبة بالأشباح.

كما رأى البعض الآخر أنّ مفردة الأشباح ذكرت في الخطبة، وحيث اعتاد السيد الرضي(ره) علىٰ اختيار قطوف من الخطبة، فقد اسقط تلك العبارة والتي احتمل البعض أنّها وردت بهذا الشكل في الخطبة **«وكيف يوصف بالأشباح وينعت بالألسن الفصاح»**. وهى العبارة التي أوردها المرحوم الشيخ الصدوق في كتاب التوحيد ضمن خطبة قسما من خطبة الاشباح[2].

الاحتمال الآخر في سبب هذه التسمية هو أنّ الخطبة طويلة، وأحد معاني الشبح هو الطول

---

١. لابدّ من الالتفات هنا إلىٰ أنّ الخطبه تقسم بشكل عام إلىٰ عشرة أقسام، حيث تقسم هذه الأقسام بدورها إلىٰ عدّة أقسام أخرى. ولذالك عمدنا في النهاية إلىٰ شرحها على أساس جعلها أربعة وعشرين قسماً.

٢. توحيد الصدوق /٧٩ ح ٣٤.

والامتداد. حيث أورد ابن فارس في مقاييس اللغة في تفسير «**الشبح**» قائلاً: «**أصل صحيح يدل على إمتداد الشئ في عرض، من ذلك الشبح**» وهو الشخص سمى بذلك، لأنّه فيه إمتداد أو عرضاً[1].

وهنا يبرز هذا السؤال: ورد في مقدمة الخطبة أنّ رجلاً سأل أميرالمؤمنين‏ؑ صف لنا ربّنا مثلما نراه عياناً لنزداد له حبّاً وبه معرفة. فغضب ونادى: الصلاة جامعة، فاجتمع الناس فصعد المنبر وخطب بهذه الخطبة. والسؤال مم كان غضب الإمام‏ؑ؟

يبدو أنّ هناك بعض النقاط التي ينبغي الالتفات إليها لتتضح الإجابة علىٰ هـذا السـؤال ومنها: صيغة السؤال تفيد أنّ السائل كان يتوقع للّه صفات على غرار صفات مخلوقاته، حيث عبر عن ذلك بالرؤية «**مثلما نراه عيانا**»؛ الأمر الذي يكشف عن عقيدة المجسمة الذين كانوا يرون اللّه جسماً.

أمّا النقطة الثانية فلعل غضبه‏ؑ كان لهذا السبب وهو: لم لا يزال بعض المسلمين لا يملكون الرؤية الواضحة عن صفات اللّه سبحانه رغم تقادم الزمان على انبثاق الدعـوة الإسـلامية وسعة المعارف والعلوم والخزين الديني.

أو تأسفاً علىٰ تلك الحادثة التي أقصت الإمام‏ؑ عن الساحة وجعلته رهـين الدار مـدة خمس وعشرين سنة ليحول دونه ودون تعليم أبناء الأُمّة الإسـلامية وتـعريفهم بـالمفاهيم الإسلامية الحقة والمعارف الدينية.

۞

١. ابن فارس، مقاييس اللغة.

القسم الأول

«الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لا يَفِرُهُ الْمَنْعُ وَالْجُمُودُ وَلا يُكْدِيهِ الْإِعْطَاءُ وَالْجُودُ إِذْ كُلُّ مُعْطٍ مُنْتَقِصٌ سِوَاهُ وَكُلُّ مَانِعٍ مَذْمُومٌ مَا خَلاهُ وَهُوَ الْمَنَّانُ بِفَوَائِدِ النِّعَمِ وَعَوَائِدِ الْمَزِيدِ وَالْقِسَمِ عِيَالُهُ الْخَلائِقُ ضَمِنَ أَرْزَاقَهُمْ وَقَدَّرَ أَقْوَاتَهُمْ وَنَهَجَ سَبِيلَ الرَّاغِبِينَ إِلَيْهِ وَالطَّالِبِينَ مَا لَدَيْهِ وَلَيْسَ بِمَا سُئِلَ بِأَجْوَدَ مِنْهُ بِمَا لَمْ يُسْأَلْ الْأَوَّلُ الَّذِي لَمْ يَكُنْ لَهُ قَبْلٌ فَيَكُونَ شَيْءٌ قَبْلَهُ وَالْآخِرُ الَّذِي لَيْسَ لَهُ بَعْدٌ فَيَكُونَ شَيْءٌ بَعْدَهُ وَالرَّادِعُ أَنَاسِيَّ الْأَبْصَارِ عَنْ أَنْ تَنَالَهُ أَوْ تُدْرِكَهُ مَا اخْتَلَفَ عَلَيْهِ دَهْرٌ فَيَخْتَلِفَ مِنْهُ الْحَالُ وَلا كَانَ فِي مَكَانٍ فَيَجُوزَ عَلَيْهِ الِانْتِقَالُ وَلَوْ وَهَبَ مَا تَنَفَّسَتْ عَنْهُ مَعَادِنُ الْجِبَالِ وَضَحِكَتْ عَنْهُ أَصْدَافُ الْبِحَارِ مِنْ فِلِزِّ اللُّجَيْنِ وَالْعِقْيَانِ وَنُثَارَةِ الدُّرِّ وَحَصِيدِ الْمَرْجَانِ مَا أَثَّرَ ذَلِكَ فِي جُودِهِ وَلا أَنْفَدَ سَعَةَ مَا عِنْدَهُ وَلَكَانَ عِنْدَهُ مِنْ ذَخَائِرِ الْأَنْعَامِ مَا لا تُنْفِدُهُ مَطَالِبُ الْأَنَامِ لِأَنَّهُ الْجَوَادُ الَّذِي لا يَغِيضُهُ سُؤَالُ السَّائِلِينَ وَلا يُبْخِلُهُ إِلْحَاحُ الْمُلِحِّينَ».

الشرح والتفسير

جوده لا ينضب

أنّ الدافع إيراد من هذه الخطبة كما وردفي مقدمتها هو أنّ شخصاً سأل الإمام عليه السلام قائلاً: صف لنا ربّنا مثلما نراه عياناً؛ الكلام الذي تشم منه رائحة القول بالتجسم على الله، أو على الأقل الاشتمال على صفات الممكنات. فغضب الإمام عليه السلام غضباً شديدا و تغير وجهه وأورد هذه الكلمات من أجل تهذيب هذه العقائد الفاسدة والأفكار المنحرفة وهدايتها إلى الصراط المستقيم من خلال استعراض صفاته الحقه سبحانه ولذالك فقد استهل عليه السلام الخطبة بأدق

صفاته سبحانه التي تشير إلىٰ مباينتها لصفات كافة مخلوقاته. فقد قال عليه السلام بادئ ذي بدء: «**الحمدالله الذي لا يفره[1] المنع والجمود، ولا يكديه[2] الاعطاء والجود**». ثم خاض عليه السلام في الدليل علىٰ ذلك قائلاً: «**إذ كل معط منتقص سواه، وكل مانع مذموم ما خلاه**». نعلم جميعاً أنّ أحد الأركان الأصلية لمعرفة صفات الله سبحانه وتعالىٰ يكمن في الاعتقاد بأنّه وجود مطلق من جميع الجهات وليست هناك من حدود لذاته المقدسة وصفاته. فمن الطبيعي أنّ اللامحدود يبقىٰ كذلك مهما أخذ منه؛ أي ليس للنقصان والقلة من سبيل إليه. وعلىٰ هذا الضوء فلو وهب كل إنسان عالماً من المادة، لما نفدت خزائن نعمه. ولهذا أيضاً إذا منع أحد شيئاً فلا يذم عليه. لتعذر تصور البخل علىٰ الذات المطلقة. فليس هنالك من سبيل سوى إسناد المنع إلىٰ الحكمة والمصلحة. بعبارة أُخرى فانّ عطائه ومنعه يتوقف علىٰ الاستعداد والاستحقاق والأهلية، وعليه ينقطع كل كلام ويخرس كل لسان عن الخوض في هذا الموضوع. جاء في الحديث القدسي: «**يا عبادي لو أنّ أولكم وآخركم وانسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد، فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك ممّا عندي شيئاً إلّا كما ينقص المخيط إذا دخل البحر**»[3]، فمن الطبيعي أن لا يعلق شيئ من الماء بالأُبرة إذا ما القيت فيه سوىٰ بمقدار الرطوبة العالقة بها. وهذا أروع مثال لأدنى نقص يطيل أعظم مصدر ومنبع للماء. فالمثال صورة واضحة لعدم تناهى الخزائن الإلهية التي لا تزيدها كثرة العطاء إلّا زيادة. كما ورد في حديث قدسي آخر: «**إن من عبادي من لا يصلحه إلّا الفاقة، ولو أغنيته لأفسده ذلك**»[4]، ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه عن سائر صفاته سبحانه ذات الصلة بجوده وكرمه وعطائه فقال: «**وهو المنان بفوائد النعم، وعوائد المزيد والقسم**» فالالتفات إلىٰ النعم الإلهية على أساس أنّ وجدان الإنسان يوجب عليه شكر هذه النعم ويشده إلىٰ الحق سبحانه، نرى الإمام عليه السلام يطرق بادىء الأمر هذا المعنى ليعد القلوب لما سيرد عليها من حقائق. والتعبير «**منان**» من مادة من بمعنى كثير العطاء. أمّا فوائد النعم فتنطوي علىٰ مفهوم واسع يشمل كافة النعم المادية

---

١. «يفره» من مادة «وفور» بمعنى الكثرة والزيادة.
٢. «يكديه» من مادة «كدى» على وزن كسب بمعنى البخل، وهى هنا بمعنى يفقره وينفد خزائنه.
٣. منهاج البراعة ٢٨٨/٦.
٤. بحار الانوار ١٤٠/٦٨ ح ٣١.

والمعنوية. وأمّا الفارق بين هذه العبارة وقوله: «**عوائد المزيد والقسم**» فقد وردت بشأنه عدّة احتمالات: الأول: أنّ العبارة الاولىٰ إشارة إلىٰ ضروريات الحياة، والثانية إلىٰ الرفاه والدعة وما يدعو إلىٰ الاستقرار واللذة والراحة؛ أي كماليات الحياة. والاحتمال الثاني: أن يكون المراد بالعبارة الاولىٰ النعم الفردية، والعبارة الثانية: «**بالنظر إلىٰ مفردة القسم من مادة قسمة**»المنافع والنعم الاجتماعية. والاحتمال الثالث: أن يكون المقصود بفوائد النعم الأرزاق التي تشمل الإنسان من قبيل الماء والهواء ونور الشمس وضياء القمر وبالتالى مايصله من رزق دون سعى وجهد، والعبارة: «**عوائد المزيد والقسم**» ناظرة إلىٰ الارزاق التي يحصل عليها الإنسان بفعل جده واجتهاده وسعيه ونشاطه وإدارته الصحيحة لشؤون حياته. ثم واصل الإمامعليه‌السلام كلامه بهذا الخصوص فقال: «**عياله الخلائق، ضمن أرزاقهم، وقدر أقواتهم**» فالتعبير بعيال تشير من جانب إلىٰ محبّة اللّه ولطفه بعباده، كما أنّها مقدمة لبيان ضمان أرزاقهم من جانب آخر، وذلك لأنّ كل فرد يشعر بعظم مسؤوليته إزاء عياله وأهل بيته. فلا يمكن على اللّه أنّ يخلق عبداً دون أن يتكفل برزقه. وأمّا ما نراه من جوع في عالمنا المعاصر و فيما مضى قدأدى بحياة الناس، فذلك ممّا تفرزه طبيعة الحرص والظلم التي انطوت عليها سيرة الطغاة والظلمة والاستغلال الذي يمارسونه بحق الضعفاء والفقراء ونهب أموالهم وخيراتهم. كما لا ينبغي أن ننسى خنوع البعض وعدم السعي الجاد في هذه الحياة والافتقار إلىٰ الإدارة الصحيحة. وإلّا فانّ السفرة الإلهية علىٰ درجة من السعة والشمول بحيث تلبي احتياجات كافة العباد إلىٰ يوم القيمة. ثم خاضعليه‌السلام في النعم المعنوية ليكشف اللثام عن فتح باب الميسرة إلىٰ اللّه والفوز بقربه وجواره فقالعليه‌السلام: «**ونهج سبيل الراغبين إليه، والطالبين ما لديه**». وهكذا أبانعليه‌السلام توفر كافة أسباب سعادة الناس علىٰ الصعيد المادي والمعنوي ليهديهم إلى الطريق دون أن يكون هناك من اجبار لنهج هذا السبيل أو ترك ذاك. فللإنسان بمحض إرادته أن يستثمر هذه النعم ويوظفها في الاتجاه الصحيح. ثم اختتم كلامه بشأن هذه النعم حيث تعرض إلى صفة أخرى من صفاته قائلاً: «**وليس بما سئل باجود منه بما لم يسأل**». فالعبارة تختزن إشارة لطيفة إلىٰ حقيقة وهى أنّ جوده وكرمه على أساس الاستحقاق والاستعداد لا علىٰ ضوء الطلب والسؤال، وإن كان الدعاء أحد أسباب نزول النعم الإلهية

فذلك لأنّ الداعي إذا أعد في نفسه شرائط الدعاء إنّما يكون قد وسع دائرة استحقاقه واستعداده؛ فالدعاء الصحيح يسوق الإنسان إلىٰ التوبة والإنابة وإصلاح الذات وذكر اللّٰه، وكل من هذه المعاني يسهم بقدر في اتساع حجم الاستحقاق.

قال ابن أبي الحديد في تفسيره للعبارة: «**وليس بما سئل بأجود...**» فيه معنى لطيف، وذلك لأنّ هذاالمعنى ممّا يختص بالبشر: «**لأنهم يتحركون بالسؤال وتهزهم الطلبات، فيكونون بما سألهم السائل أجود منهم بما لم يسألهم إياه. وأمّا البارئ سبحانه فانّ جوده ليس علىٰ هذا المنهاج، لأنّ جوده عام في جميع الأحوال**»[١].

أضف إلىٰ ذلك فانّ الناس وإثر نقصهم وحاجتهم إنّما يشحون في العطاء بما هم إليه أحوج من سائر الأشياء التي لا حاجة لهم فيها؛ الأمر الذي ليس به من سبيل إلىٰ الذات الإلهية المطلقة المنزهة عن كل نقص وحاجة. ثم انتقل الإمام عليه السلام إلىٰ بيان أربع صفات من صفات الذات فقال: «**الأول الذي لم يكن له قبل فيكون شئ قبله، والآخر الذي ليس له بعد فيكون شئ بعده**». فالمفروغ منه هو أنّ الأساس في معرفة ذات وصفات اللّٰه يكمن في كونه مطلقاً سبحانه لايعرف القيود والحدود واللامتناهي، و هو الكمال المطلق والوجود الدائم من جميع الجهات، فهو كائن ويكون إلىٰ أبد الأبدين.

فالأول في عالم الممكنات يقال للشيء بالنسبة لمايليه، وفي نفس الوقت لما سبقه بعض الأشياء لأنّ البداية والنهاية في الممكنات أمر نسبي؛ وتنفرد الذات الإلهية المطلقة بعدم وجود شئ قبلها ولا بعدها. ومن البديهي علىٰ هذا الاساس أنّ أوليته وآخريته لا تعني الأول الزماني ولا الآخر الزماني و ذلك لأن الزمان يأتي من حركة الموجودات حيث أن الزمان يمثل مقدار الحركة؛ فلا يطلق عليه البعدية والقبلية كما يطلق على الزمانيات؛ وإنّما لم يكن وجوده زمانياً لأنّه لا يقبل الحركة، والزمان من لواحق الحركة، وإنّما لم تطلق عليه البعدية والقبلية إذا لم يكن زمانياً؛ والحركة إمّا نحو الكمال أو النقصان. ونعلم أنّه كمال مطلق لا يشوبه أي نقص. ثم قال عليه السلام في الصفة الثالثة: «**والرادع أناسي[٢] الأبصار عن أن تناله أو تدركه**» فلا العين

---

١. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٦/٤٠٠.

٢. «اناسي» جمع «إنسان» و يطلق على أفراد بني الإنسان كما يطلق هذا اللفظ علىٰ بؤبؤ العين، لانعكاس صورة الأفراد فيها.

الظاهرة تراه لأنه ليس بجسم فلا مكان له ولا جهة، ولا العين الباطنه يسعها مشاهدة كنه ذاته. فالمحدود يعجز عن رؤية اللامحدود. فالتعبير بالرادع لا يعني إنّ اللّه تعالى خلق في الأبصار مانعاً عن إدراكه، بل كناية عن ذاته أعظم واسمى من أن ترى بالعين الظاهرة أو الباطنة. فقد قال القرآن الكريم بهذا الشأن: **﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصارَ﴾**[1] ولما سأل بنو إسرائيل موسىٰ﵇ رؤية اللّه، جاء الخطاب: **﴿انْظُرْ إِلىٰ الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكانَهُ فَسَوْفَ تَرانِي فَلَمّا تَجَلّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً وَخَرَّ مُوسىٰ صَعِقاً فَلَمّا أَفاقَ قالَ سُبْحانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾**[2]. ثم قال﵇ في الصفة الرابعة والخامسة المكملة للصفات السابقة: «**ما اختلف عليه الدهر فيختلف منه الحال، ولا كان في مكان فيجوز عليه الانتقال**» فالواقع هو أنّ هاتين الصفتين إنّما تشيران إلىٰ نفي الزمان والمكان وعوارضهما عن الذات الإلهية المقدسة؛ الذات المطلقة التي تأبى الحركة، ومن هنا لم تخضع لسيطرة الزمان، ولذلك أيضاً لم يكن للحالات المختلفة والحركة نحو الكمال أو النقصان من سبيل إلىٰ هذه الذات. فاللّه ليس بجسم ليحتاج إلىٰ مكان. ليس بمحدود ليضمه موضع معين، ومن هنا انعدم تصور المكان عليه سبحانه. ثم عاد الإمام﵇ ثانية إلىٰ وصف جوده وعطائه سبحانه ليحدث عن سعة نعمه استثاره لحس الشكر والحمد لدىٰ العباد والأمل بهذه الذات إلىٰ جانب الإرشاد للمعرفة بصفات الجلال والجمال فقال﵇: «**ولو وهب ماتنفست عنه معادن الجبال، وضحكت عنه أصداف البحار، من فلز اللجين[3] والعقيان[4] ونثارة[5] الدر، وحصيد المرجان، ما أثر ذلك في جوده، ولا انفد سعة ما عنده، ولكان عنده من ذخائر الانعام، مالا تنفده مطالب الأنام، لأنّه الجواد الذي لا يغيضه[6] سؤال السائلين، ولا يبخله الحاح الملحين**».

---

١. سورة الانعام/١٠٣.
٢. اقتباس من سورة البقرة/٢٥٥؛ سورة الاعراف/١٤٢.
٣. «لجين» علىٰ وزن حسين بمعنى الفضة.
٤. «عقيان» الذهب الخالص.
٥. «نثارة» من مادة «نثر» علىٰ وزن نصر التناثر والتشتت، حيث تتشقق أغلفة الأصداف فتتناثر منها حبيبات الدر هنا وهناك.
٦. «يغيض» من مادة «غيض» علىٰ وزن فيض النقصان وذهاب الماء في الأرض ووردت في العبارة بمعنى عدم نقصان منابع الفيض الإلهي بالعطاء.

حقاً ليس هناك من تعبير أروع وأبلغ من هذا التعبير لوصف جوده وكرمه سبحانه وسعة رحمته وشمول آلائه. فلو صبت الدنيا بما فيها من كنوز ومعادن مستترة في بطون الأرض وأوديتها وجبالها على شخص، لما كان لها تأثير قطرة في بحر بالنسبة لعظم خزائنه وسعة بحر جوده وكرمه. كيف لا وقوله «كن» الذي يتبدل إلى «فيكون» يخلق ما لا نهاية من هذه الخزائن في عالم الوجود ومن هنا أيضاً فانّ الحاح الملحين وكثرة طلبات السائلين لاتدعوه ال القبض والبخل أو الغضب والغيظ. فانما يغضب من كانت مصادر جوده محدودة ينقصها السؤال والعطاء فتشرف على الانتهاء وعليه فاذا كانت لدينا من حاجة لابدّ من طرحها على الكريم فهو الكريم والجواد الرحيم في عطائه وكرمه. والتعبير بالتنفس عن معادن الجبال إشارة لطيفة إلىٰ طرحها المعادن من جوفها بفعل تصدعها والزلازل و التعرية التي تصيبها مع مرور الزمان و أما تعبير «ضحك» فهى إشارة إلىٰ الشقوق التي تحدث في فوهات الصدف ليستخرج منها اللؤلؤ. وهى علىٰ غرار الأسنان الناصعة التي تبدو كحيات اللؤلؤ حين يضحك الإنسان ذا الجمال. فاذا ما ضحكت هذه الاصداف بانشقاقها ظهرت حبات لؤلؤها وقذفتها خارجاً.

تأمّل

شمول النعم الإلهية

اشتمل هذا القسم من الخطبة على عدّة أُمور مهمّة بشأن سعة نعمه سبحانه وافاضتها علىٰ العبيد من معادن الفيض الازلى الجياش؛ ليثير الإمام عليه السلام بذلك أحاسيس السامعين ويوقظ ضمائرهم، فيستشعروا ضرورة الشكر بحكم بداهة العقل، وهذا ما يقودهم بالتالى إلىٰ الانفتاح على معرفة اللّٰه سبحانه والالمام بصفاته. فقد أشار في موضع آخر إلىٰ سؤاله عن كل ماتريد ودون سؤال غيره وذلك أنّ كثرة الجود والعطاء ليس لها أن تنقص خزائن كرمه ولو مثقال ذرة، بل أنّها لتربو علىٰ الجود والعطاء. وصرح في موضع آخر بأنّه علىٰ درجة من الجود والكرم بحيث لايحتاج إلىٰ السؤال كما هى طبيعة الممكنات. فحيثما كان الاستحقاق والاستعداد كان الفيض والعطاء. ولعلنا نلمس هذا المعنى في بعض الأدعية الرجبية: **«يا من**

يعطى من سأله، يا من يعطى من لم يسأله ومن لم يعرفه تحننا منه ورحمة»[١]، وقد عبر الإمامﷺ عن ذلك بقوله: «**وليس بما سئل بأجود منه بما لم يسأل**»، وأخيراً ما أروع عبارتهﷺ التي تعرضت لسعة جوده وكرمه وعدم تأثرها من قريب أو بعيد بكثرة السؤال: «**ولو وهب ما تنفست عنه معادن الجبال وضحكت عنه أصداف البحار، من فلز اللجين والعقيان ونثارة الدر وحصيد المرجان، ما أثر ذلك في جوده، و لا أنفذ سعة ما عنده ما لا تنفذه مطالب الأنام**». والحال ليس الإنسان كذلك مهما كان جوده وكرمه وعطائه، فمثل هذه الأمور تؤثر مباشرة عليه، وليس ذلك إلّا لأنّ كافة إمكاناته ومصادره محدودة، ينقصها العطاء. بينما تتصف نعمه سبحانه بالدوام وعدم التناهي والانقطاع فهي كذاته سبحانه مطلقة لاتعرف من معنى للحدود والقيود.

٨٠٠٣

١. مفاتيح الجنان، أعمال شهر رجب.

القسم الثاني

«فَانْظُرْ أَيُّهَا السَّائِلُ فَمَا دَلَّكَ الْقُرْآنُ عَلَيْهِ مِنْ صِفَتِهِ فَائْتَمَّ بِهِ وَاسْتَضِئْ بِنُورِ هِدَايَتِهِ وَمَا كَلَّفَكَ الشَّيْطَانُ عِلْمَهُ مِمَّا لَيْسَ فِي الْكِتَابِ عَلَيْكَ فَرْضُهُ وَلاَ فِي سُنَّةِ النَّبِيِّ ﷺ وَأَئِمَّةِ الْهُدَى أَثَرُهُ فَكِلْ عِلْمَهُ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ فَإِنَّ ذَلِكَ مُنْتَهَى حَقِّ اللَّهِ عَلَيْكَ وَاعْلَمْ أَنَّ الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ هُمُ الَّذِينَ أَغْنَاهُمْ عَنِ اقْتِحَامِ السُّدَدِ الْمَضْرُوبَةِ دُونَ الْغُيُوبِ الْإِقْرَارُ بِجُمْلَةِ مَا جَهِلُوا تَفْسِيرَهُ مِنَ الْغَيْبِ الْمَحْجُوبِ فَمَدَحَ اللَّهُ تَعَالَى اعْتِرَافَهُمْ بِالْعَجْزِ عَنْ تَنَاوُلِ مَا لَمْ يُحِيطُوا بِهِ عِلْماً وَسَمَّى تَرْكَهُمُ التَّعَمُّقَ فِيمَا لَمْ يُكَلِّفْهُمُ الْبَحْثَ عَنْ كُنْهِهِ رُسُوخاً فَاقْتَصِرْ عَلَى ذَلِكَ وَلاَ تُقَدِّرْ عَظَمَةَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ عَلَى قَدْرِ عَقْلِكَ فَتَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ».

الشرح والتفسير

معرفة الله عن الله

أشار الإمام ﷺ في هذا الكلام إلى قاعدة كلية مهمّة وخالدة في فهم صفات الحق سبحانه وتعالى، بحيث لو انطلق الجميع في حركتهم الفكرية من خلالها لما بقي هناك من اختلاف بما يرتبط بصفاته سبحانه. فقال ﷺ: **«فانظر أيّها السائل فما دلك القرآن عليه من صفته فأئتم به، واستضئ بنور هدايته، وما كلفك الشيطان علمه ممّا ليس في الكتاب عليك فرضه، ولا في سنة النبي ﷺ وائمة الهدى أثره؛ فكل عمله إلى الله سبحانه، فان ذلك منتهى حق الله عليك»**. فالواقع أنّ الإمام ﷺ قد حدد وظيفة الجميع في ضرورة معرفة صفات الله بالاستناد إلى القرآن وسنة النبي ﷺ وهدى أئمّة العصمة ﷺ، والابتعاد تماماً عن الاستبداد

والتمسك بالرأي والتعويل علىٰ الأفكار الإنسانية المحدودة بهذا الخصوص، فكل هذه الأُمور من وساوس الشيطان ومكائده. لأنّ صفات اللّه مطلقة كذاته ليست محدودة من جانب، ومن جانب آخر فانّ معارف الإنسان وعلومه إنّما تقتصر على المخلوقات، فاذا اتجهوا صوب صفات اللّه خشى عليهم السقوط في مستنقع التشبيه على غرار صفات مخلوقاته، ومن هنا فانّ أغلب من ولى ظهره لهذا الأصل الأساسي المتمثل بالرجوع إلىٰ القرآن والوحي وكلمات المعصومين عليهم السلام بُلي بالانحراف وإجراء صفات المخلوق على الخالق، من جهة اُخرىٰ فهذا القرآن يهتف بأنديتنا صباح مساء: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيءٌ﴾[1] و﴿وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً﴾[2] فأنى للإنسان بهذا الفكر القاصر أن يطمع في معرفة ذات اللّه وصفاته ولا يكتفي بمعرفته الإجمالية على ضوء نور الوحي وهدى العصمة الذي ينأى به بعيدا عن الزلل. فلا يمكن معرفة اللّه إلّا به، وهو كما عرف نفسه وصفاته. وهنا يبرز هذا السؤال: هل صفات اللّه توقيفية؟

يعني لا يجوز وصفه إلّا من خلال ما ورد في الكتاب والسنة؟

ونقول في الإجابة على هذا السؤال نعم هذا ما عليه أغلب المحققين والعلماء الأعلام، إلىٰ جانب ضرورة مراعاة الحيطة والحذر في مبحث صفات اللّه والانفتاح عليها انطلاقاً من الوحي وكلمات المعصومين عليهم السلام. بعبارة اُخرى فانّ السبيل إلىٰ معرفة اللّه وصفاته إنّما يمر عبر خط مستقيم يقع على جانبيه مطبين عظيمين؛ مطب التشبيه ومطب التعطيل.

وتوضيح ذلك: إنّ مبحث معرفة ذات اللّه وصفاته كسائر المباحث التي اكتنفها الإفراط والتفريط. فقد شبه البعض صفات اللّه بصفات مخلوقاته، حتى اعتبروا صفاته سبحانه زائدة علىٰ ذاته على غرار صفاتنا الزائدة على ذاتنا من قبيل العلم والقدرة وسائر الصفات، فقد كنا لانعلم يوماً ثم أصبح لنا علم، ولم نكن أقوياء ثم أصبحنا كذلك، وهكذا اعتقدوا اشتماله سبحانه على هذه الصفات المشوبة بأنواع النقص، ثم اندفعوا أكثر من ذلك ليصوروا له سائر ما لخلقه من جسم وزمان ومكان وجهة، بل ويد ورجل وشعر مجعد وأمثال ذلك.

بينما خالف البعض الآخر هذا الاتجاه تماماً حتى قال بتعطيل معرفة صفات اللّه، فزعم أننا

---

١. سورة الشورىٰ/١١.
٢. سورة طه/١١٠.

لانعرف شيئاً عن صفات الله ولا يسعنا ادراكها، وكل ذلك حذراً من التورط في مستنقع التشبيه الذي هوى فيه الفريق الأول.

والحق أنّ الفريقين الأول والثاني على خطأ، فهما لم يستضيئا بنورالوحي وهدى أئمة العصمة عليهم السلام، ومن هنا غرقا في هالة من الظلام الدامس والجهل المطلق. ولو التزما وصية أميرالمؤمنين علي عليه السلام لما قالا بالتعطيل ولا التشبيه، ولا قتنعا بالمعرفة الإجمالية ـ التي وردت في العبارات القادمة من هذه الخطبة ـ ولركنا إلىٰ القرآن وكلمات المعصومين عليهم السلام ليصونا أنفسهما من الزلل والانحراف ولا كتفيا بما وردت عنهم عليهم السلام من كلمات في صفاته سبحانه، دون أن يحكموا عقوهم القاصرة بهذا المجال فليس للعقل من فعالية تذكرفي هذا الخصوص دون الاستناد إلىٰ الوحي ومعادنه الواضحة. فالحق أنّ هذا الوادي خطير فلا ينبغي أن يقتصوه، وأنّه بحر لجى لا ينبغي لسهم أن يلجوه. فهي ظلمات بعضها فوق بعض ولا يمكن اختراقها الا بمعونة من كشفت له.

جدير بالذكر أنّ الإمام عليه السلام عبر عما ورد في القرآن بالفرض وسنة المعصومين عليهم السلام بالأثر، ولعل هذا الاختلاف في التعبير بينها يشير إلىٰ حقيقة وهى لزوم ووجوب التعرف على ما جاء في القرآن في باب صفات الله سبحانه. وما وصل عن المعصومين عليهم السلام إنّما هو مبين ذلك الذي جاء في القرآن.

ثم أشار الإمام عليه السلام إلىٰ نقطة بالغة الأهمية وهى هداية الراسخين في العلم عن الانحراف في معرفة الحقائق القرآنية وذلك لتسليمهم واقرارهم بما خفي عنهم، فاذعنوا لعجزهم عن الخوض فيا غاب عن علمهم. فمدح الله سبحانه هذا الاذعان والاعتراف «**واعلم ان الراسخين في العلم هم الذين اغناهم عن اقتحام السدد المضروبة دون الغيوب، الاقرار بجملة ما جهلوا تفسيره من الغيب المحجوب فمدح الله تعالى اعترافهم بالعجز عن تناول ما لم يحيطوا به علماً، وسمى تركهم التعمق فيما لم يكلفهم البحث عن كنهه رسوخاً**»، ثم أوصى عليه السلام بالاكتفاء والقناعة بهذا المقدار دون تحكيم العقل في الاحاطة بعظمة الله؛ الأمر الذي يؤدي إلىٰ الهلاك «**فاقتصر على ذلك، ولا تقدر عظمة الله سبحانه على قدر عقلك فتكون من الهالكين**». فالواقع هو أنّ الإمام عليه السلام قد حذر ذلك السائل الذي سأل عن

صفات اللّه في أنّ صفات الله ـ وعلى غرار كنه ذاته ـ ليست ميسرة لأي من النـاس؛ وذلك لأنّها غير محدودة، بينما محدود هو الإنسان في وجوده وذاته وعلمه، ليس للمحدود أن يحيط بكنه وحقيقة الذات والصفات اللامحدودة. وبناءاً على ماسبق فالسبيل الوحيد في مثل هذه الأُمور هو الاكتفاء بالمعرفة الإجمالية، ونعنى بذلك الوقوف على هذا الأمر من خلال آثـاره سبحانه التي ملأت عالم الوجود، دون إدعاء معرفة كنه الذات، فنقف عـلى عـلمه سـبحانه وقدرته وسائر صفاته على نحو الإجمال دون الاحاطة بهذا العلم والقدرة ومـا إلىٰ ذلك مـن الصفات، من خلال تأمل النظام العجيب والمذهل الذي يسود عالم الوجـود. ولا بأس هـنا بالاستعانة بهذا المثال من عالم المخلوقات؛ فاننا نعلم بوجود ذات وصفات أغلب موجودات وكائنات عالم الخلقة، بينما لانعلم كنهها وحقيقتها. كما نعلم بوجود الزمان والمكان الذان يجريان على حياتنا، ولكن ماحقيقة الزمان والمكان؟ هذا هـو المـوضوع الذي عـجز عـن إدراكـه كبارالفلاسفة فقدموا لهما عدّة نظريات. كلنّا نعلم بوجود الجاذبية و نلمس آثارها إلّا أنّ أحد لا يعرف ماهي حقيقة الجاذبية؟ فهل هي أمواج خاصة؟ أم ظاهرة مجهولة تؤثر من مسافات بعيدة؟ وأوضح من ذلك أننا ندرك جميع الأشياء بعقولنا، لكن ماحقيقة العقل؟ ليس هناك من إجابة واضحة فالواقع هو أننا نكتفي بالمعرفة الإجمالية في أغلب ظواهر عالم الممكنات دون العلم التفصيلي بها، وعليه فليس من الغرابة أن نتعرف سطحيا على نحو الإجمـال عـلىٰ ذات وصفات الحق سبحانه واجب الوجود دون أن يكون لنا علم تفصيل بها.

وعليه فمن الواضح أنّ الاصرار على إدراك كنه هذه الذات والتعمق في الصـفات امّـا أن تزيد من حيرتنا وذهولنا، أو أن تقذف بنا في متاهات الضلال ومسـتنقع التشـبيه و تشـبيه الخالق بالمخلوق؛ و هو الهلاك المعنوى الذي حذر منه الإمامعليه السلام بقوله: «**فتكون من الهالكين**».

تأمّل

الراسخون في العلم وتفسير المتشابهات

هنا يقتدح إلىٰ الأذهان هذا السؤال: صرح الإمامعليه السلام في هذه الخطبة قائلاً: «**ان الراسخين في العلم هم الذين اغناهم عن اقتحام السدد المضروبة دون الغيوب، الاقرار بجملة مـا**

جهلوا تفسيره من الغيب المحجوب فمدح الله تعالىٰ اعترافهم بالعجز عن تناول ما لم يحيطوا به علما» ونعلم أنّ عبارته ﷺ إشارة إلىٰ الآية السابعة من سورة آل عمران **﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾** فتأويل الآية هو أنّ الله وحده العالم بتأويل آيات القرآن المتشابهة والراسخون في العلم يعربون عن عجزهم إزاء ذلك؛ أي أنّ جملة والراسخون إستئنافية. إلّا أنّ ما ورد في أغلب روايات الأئمّة المعصومين ﷺ ولعلها تربو علىٰ الثلاثين رواية أنّهم ﷺ قالوا: «**نحن الراسخون في العلم**» معطوفة على الله. والسؤال المطروح: كيف يمكن حل هذا التضارب بين ما ورد في خطب نهج البلاغة وما جاء في الروايات؟ وبعبارة أُخرى: هل للراسخين في العلم من معرفة بمتشابهات القرآن واسرار صفات الحق سبحانه وتعالىٰ؟ أم أنّهم استحقوا صفة الرسوخ في العلم بسبب قناعتهم بذلك العلم الإجمالي وعدم التعمق في ماوراء ذلك؟

هناك عدّة روايات ذهبت إلىٰ التصريح بالمعنى الأول، ويصعب تجاهل كل هذه الروايات. هذا من جانب، ومن جانب آخر فانّ الخطبة التي نحن بصددها تؤيد المعنى الثاني، وهذا ما أصاب أغلب محققي المسائل الإسلامية والمفكرين بالحيرة والذهول. إلّا أنّ قدراً من الدقة من شأنه أن يجمع بين المعنيين وإزالة ذلك التضارب، ولا يتيسر ذلك من طريق واحد بل من طريقين:

الأول: أنّ الراسخين في العلم مهما كانت منزلتهم وعلو مقامهم حتى الأئمّة المعصومين ﷺ فليس لهم ذاتاً العلم بمتشابه القرآن وأسرار صفات الحق سبحانه؛ وما علمهم إلّا من ذلك التعليم الإلهي و الوحي والالهام الغيبي. وهذا ما ذكرناه مسبقاً في بحث علم الغيب والشفاعة بشأن الآيات القرآنية النافية لعلم الغيب عن أولئك الكرام ﷺ والآيات المثبتة لهم علم الغيب في أنّهم لا يتمتعون ذاتياً بهذا العلم، وان كان لديهم من علم فبتعليم الله، كما أنّهم لا يمتلكون الشفاعة ذاتاً، ولا يشفعون إلّا باذنه وإلّا لمن ارتضى له الله.

الثاني: أنّ المتشابهات و أسرار المعارف الدينية المعقدة على نوعين: نوع يعلمه الراسخون في العلم (كتفسير أغلب متشابه القرآن). أمّا النوع الثاني المرتبط بتفسير الآيات القرآنية ذات الصلة بذات الله وصفاته. فالعلم التفصيلي به ليس ميسرا لأي إنسان، وكل ما يسع الإنسان

إدراكه فعلى أساس المعرفة السطحية والعلم الإجمالي الذي ورد بيانه سابقاً. بعبارة أُخرىٰ: فانّ المتشابهات علىٰ قسمين؛ قسم يعلمه المعصومين﷈ والراسخون في العلم، وآخر يتعلق بذات البارئ وصفاته لا يعلمه أحد من الناس، والروايات المذكورة ناظرة إلىٰ القسم الأول، بينما التي نشرحها واردة في القسم الثاني.

والنتيجة فانّ الواو في الآية الشريفة عاطفة، ومفاد الآية هى علم الله والراسخين في العلم بتفسير المتشابهات، أمّا العبارة الواردة في الآية: **﴿يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾** فهى عبارة منفصلة تعالج بعض المسائل من قبيل كنه الذات والصفات أو زمان القيامة وأمثال ذلك[١].

ومن هنا يتضح ما تعارف بين العلماء الأعلام من أنّ صفات الله توقيفية؛ أي لا ينعت سبحانه إلّا بتلك النعوت والأسماء التي وردت في الكتاب والسنة. وإلّا لو فسح المجال أمام الأفكار البشرية لتأخذ سبيلها إلىٰ أسماء الله وصفاته، لنعتته بما لا يليق بشأنه بفعل قصر هذه الأفكار واقتصار تعاملها مع الممكنات المعروفة بالحدود. ومن هنا وردت التحذيرات التي تميط اللثام عن مدىٰ المخاطر التي تعترض هذا السبيل لو سلك دون الاستضاءة بنور الكتاب وهدي السنة المطهرة. لذلك ردّ الإمام﷣ على السائل عن صفات الحق سبحانه وتعالىٰ بالقول **«فما دلّك القرآن عليه من صفته فائتم به، واستضئ بنور هدايته،... إلى أن يقول﷣ فاقتصر على ذلك، ولا تقدر عظمة الله سبحانه على قدر عقلك فتكون من الهالكين»**.

---

١. قال ابن أبي الحديد في شرح هذه الخطبة يمكن أن تكون جملة يقولون نصباً على أنّه حال من الراسخين، ويمكن أن يكون كلاماً مستأنفاً، أي هؤلاء العالمون بالتأويل، يقولون: آمنا به (٤٠٤/٦).

القسم الثالث

«هُوَ الْقَادِرُ الَّذِي إِذَا ارْتَمَتِ الْأَوْهَامُ لِتُدْرِكَ مُنْقَطَعَ قُدْرَتِهِ وَحَاوَلَ الْفِكْرُ الْمُبَرَّأُ مِنْ خَطَرَاتِ الْوَسَاوِسِ أَنْ يَقَعَ عَلَيْهِ فِي عَمِيقَاتِ غُيُوبِ مَلَكُوتِهِ وَتَوَلَّهَتِ الْقُلُوبُ إِلَيْهِ لِتَجْرِيَ فِي كَيْفِيَّةِ صِفَاتِهِ وَغَمَضَتْ مَدَاخِلُ الْعُقُولِ فِي حَيْثُ لَا تَبْلُغُهُ الصِّفَاتُ لِتَنَاوُلِ عِلْمِ ذَاتِهِ رَدَعَهَا وَهِيَ تَجُوبُ مَهَاوِيَ سُدَفِ الْغُيُوبِ مُتَخَلِّصَةً إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ فَرَجَعَتْ إِذْ جُبِهَتْ مُعْتَرِفَةً بِأَنَّهُ لَا يُنَالُ بِجَوْرِ الِاعْتِسَافِ كُنْهُ مَعْرِفَتِهِ وَلَا تَخْطُرُ بِبَالِ أُولِي الرَّوِيَّاتِ خَاطِرَةٌ مِنْ تَقْدِيرِ جَلَالِ عِزَّتِهِ».

ﮰﮯ

الشرح والتفسير

العالي على الخيال والقياس والظن والوهم

واصل الإمامؑ كلامه بالتطرق إلىٰ ما أورده سابقاً بشأن عجز العقول البشرية عن إدراك صفات الله سبحانه بعبارات عميقة ورصينة. كاشفاً النقاب عن حقيقة من خلال قضية شرطية ـ بأربع جمل شرطية معطوفة على بعضها وجزائين للشرط ـ وهي أنّ الإنسان مهما كان عميقاً في تفكيره جاداً عن طريق العقل والشهود لبلوغ كنه صفات الله سبحانه. فانّ ذلك لن يتكلل بالنجاح ولا ينبغي أن يكتب له النجاح؛ وذلك لأنّه ذات فوق: «**ما لا يتناهى بما لا يتناهى**»، فعقول الناس قاصرة من جميع الجهات فقد قالﷺ: «**هو القادر الذي إذا ارتمت**[1]

---

١. «ارتمت» من مادة «رمي» على وزن نهى تعنى اطلاق السهم، ولما كان السهم يتحرك بسرعة فان جملة «ارتمت» تعنى سرعة حركة الأفكار.

الأوهام، لتدرك منقطع[١] قدرته. وحاول الفكر المبرأ من خطرات الوساوس أن يقع عليه في عميقات غيوب ملكوته، وتولهت[٢] القلوب إليه، لتجرى في كيفية صفاته، وغمضت مداخل العقول في حيث لا تبلغه الصفات لتناول علم ذاته، ردعها وهي تجوب[٣] مهاوى[٤] سدف[٥] الغيوب، متخلصة إليه سبحانه».

فالواقع هو أنّ الإمام عليه السلام أشار إلىٰ أربعة عوامل للبحث في إطار السعي لمعرفة كنه الصفات؛ الأول: الأفكار العادية الملوثة، والثاني الأفكار المنزهة عن الوساوس، والثالث: القلوب المفعمة بحب الله والتي تحث الخطى باتجاه الشهود. والرابع: والأخير العقول الحادة والدقيقة التي تعتمد الطرق الاستدلالية والنظرية في تعاملها مع المسائل، ليصفها الإمام عليه السلام في خاتمة المطاف بالعجز عن إدراك كنه ذاته وصفاته. وأنّ لتلك الذات والصفات أنوار خاطفة تسلب العقول لبها وتردع أصحاب هذا السبيل من الخوص والتقدم. فهو كما قال الشاعر:

فيك يا أعجوبة الكون غدا الفكر كليلاً أنت حيرت ذوي اللب وبلبلت العقولا

كلما قدّم فكري فيك شبراً، فرّ ميلاً ناكصاً يخبط في عمياء لايهدي سبيلا

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه بأنّ عاقبة حركة هذه العقول والقلوب والأوهام هو العجز، فلا ترىٰ أمامها سوىٰ الاعتراف بسذاجة السعي وتفاهة الحركة التي ليس من شأنها الانفتاح علىٰ ذاته وصفاته، فعقول البشر قاصرة عاجزة ليس لها إدراك ذلك بل لاتخطر عظمته وعزته علىٰ أفكار العلماء: «**فرجعت إذ جبهت[٦] معترفة بأنّه لاينال بجور الاعتساف[٧] كنه معرفته، ولا**

---

١. «منقطع» الشئ ما إليه ينتهي حيث يحصل القطع عادة آخر الشئ.
٢. «تولهت» من مادة «وله» بمعنى العشق وشدة حب الشئ حتى تجعل الإنسان حيراناً وتصيبه بالذهول.
٣. «تجوب» من مادة «جوب» علىٰ وزن ذوب بمعنى القطع والثقب. فقد ورد في الآية التاسعة من سورة الفجر بشأن قوم الثمود ﴿وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ﴾ في اشارة إلىٰ دورهم التي كانوا يبنوها في الجبال من جراء قطع الحجر والصخر.
٤. «مهاوي» جمع «مهواة» و«مهوى» تعني في الأصل الوادي بين جبلين، أو الحفرة بين جدارين، ولما كان مثل هذا المكان مطبا، فقد وردت هذه الكلمة بمعنى الهلاك.
٥. «سدف» جمع «سدفة» بمعنى الظلمة.
٦. «جبهت» من مادة «جبهة» بمعنى الجبين با لبناء للمجهول ضربت جبهتها والمراد عادت خائبة.
٧. «اعتساف» السلوك على غير جادة، كما وردت بمعنى مطلق الانحراف والعدول عن الشئ.

تخطى ببال أولى الرويات[١] **خاطرة من تقدير جلال عزته**». فالعبارة «**إرتـمت الأوهـام**» إشارة إلىٰ سرعة حركة الأفكار العادية للناس من أجل كشف عمق وسعة صفات اللّـه. والعبارة: «**حاول الفكر المبرأ...**» إشارة إلى أفكار العلماء والمفكرين الذين طهروا أرواحهم من وساوس الشيطان فاصبحت أفئدتهم علىٰ درجة من الصفاء بحيث عادت كالمرآة تعكس الحقائق. والعبارة: «**تولهت القلوب إليه...**» اشتد عشقها حتى أصابها الوله وهو الحيرة، فهى دائبة السعي وحث الخطى لمعرفة اللّٰه والانفتاح علىٰ ذاته وصفاته والعبارة: «**وغـمضت مدخل العقول...**» إشارة إلىٰ العقول المقتدرة التي انطوت على أدق السبل النظريه الاستدلالية. فالإمام عليه السلام أشار إلىٰ أنّ الإنسان وإن حكم هذه الطرق الأربع فانّها قد تمكنه من إدراك بعض الحقائق. إلّا أنّ أي من هذه الطرق لا يمكنها إدراك كنه الذات وحقيقة الصفات. والحق أنّ هذا أروع بيان وأبلغه يصور عجز البشر عن إدراك كنه ذاته وصفاته سبحانه. طبعاً هذا ليس معلولاً لخفاء ذاته وصفاته سبحانه، بل اشتد ظهوره حتى حارت الأبصار عن الوقوف على كنهه؛ الأمر الذي نلمسه في تعذر رؤيتنا لقرص الشمس وهل ذاك لظلامها أم لشدة نورها وضوئها. فاذاكان هذا وضع الشمس التي تعد كوكباً ضائعاً ضمن ملايين الكواكب والمجرات، فما ظنك بذات الحق؟ وبعبارة اُخرى: فالإنسان كلما إقترب اكثر غرق في بحر وهالة من النور والعظمة، لكي لا يجد من سبيل أمامه سوىٰ الاعتراف بالعجز.

وبالطبع فهذا لا يعنى أننا نعتقد بتعطيل صفاته وذاته ونزعم أننا لا نستطيع مطلقاً التعرف على اللّٰه، بل ملأت آثار علمه وقدرته وذاته وصفاته عالم الوجود، بحيث نراه في كل مكان ونستمع لتسبيحه وتنزيهه في كل موضع؛ وإن كان علمنا علىٰ نحو الإجمال لا التفصيل.

﴿﴾

١. «رويات» جمع «روية» وهى الفكر.

القسم الرابع

«الَّذِي ابْتَدَعَ الْخَلْقَ عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ امْتَثَلَهُ وَلاَ مِقْدَارٍ احْتَذَى عَلَيْهِ مِنْ خَالِقٍ مَعْبُودٍ كَانَ قَبْلَهُ وَأَرَانَا مِنْ مَلَكُوتِ قُدْرَتِهِ وَعَجَائِبِ مَا نَطَقَتْ بِهِ آثَارُ حِكْمَتِهِ وَاعْتِرَافِ الْحَاجَةِ مِنَ الْخَلْقِ إِلَى أَنْ يُقِيمَهَا بِمِسَاكِ قُوَّتِهِ مَا دَلَّنَا بِاضْطِرَارِ قِيَامِ الْحُجَّةِ لَهُ عَلَى مَعْرِفَتِهِ فَظَهَرَتِ الْبَدَائِعُ الَّتِي أَحْدَثَتْهَا آثَارُ صَنْعَتِهِ وَأَعْلاَمُ حِكْمَتِهِ فَصَارَ كُلُّ مَا خَلَقَ حُجَّةً لَهُ وَدَلِيلاً عَلَيْهِ وَإِنْ كَانَ خَلْقاً صَامِتاً فَحُجَّتُهُ بِالتَّدْبِيرِ نَاطِقَةٌ وَدَلاَلَتُهُ عَلَى الْمُبْدِعِ قَائِمَةٌ».

الشرح والتفسير

الحديث عن تدبيره

جرى حديث الإمام﴿ع﴾ سابقاً عن التحذير في التعمق في كنه الذات والصفات، وذلك لتعذر إدراكها علىٰ العقل البشرى مهما كانت إمكاناته. فواصل هنا الكلام وبغية عدم تصور غلق باب معرفة الله فتطرق﴿ع﴾ علىٰ نحو الإجمال إلىٰ طرق معرفة ذاته وصفاته ليكشف عن حقيقة فحواها سمو هذه الذات وغناها المطلق عن الحدود. فهو الذي أفاض الوجود على المعدومات دون الاحتذاء بمثال سابق، أو الاستمداد من خالق آخر «**الذي ابتدع الخلق على غير مثال امتثله ولا مقدار احتذى عليه، من خالق معبود كان قبله**». فالعبارات إشارة إلىٰ أزليه ذاته المقدسة سبحانه من جانب، ومن جانب آخر أنّ مخلوقاته قد وجدت دون تجربة وسابقة؛ فهو خلق جديد وتام بكل معنى الكلمة.

وتعتبر مسألة «**الابداع**» (الخلق دون تجربة) من المسائل المهمّة. حيث تتضح هذه الأهمية من خلال العلم بانّ كافة الابداعات والاختراعات البشرية إنّما تستند لما قبلها من الأمثلة في

عالم الخليقة. فهي تقتدى أحياناً في عملها بظاهرة من ظواهر مختلفة في ما تقوم به من إبداع، و أحيانا أخرى بظواهر تركيبية و تلفيقية مختلفة بالضبط كالرسام الماهر الذي يعكس بريشته بعض الصور الرائعة والجميلة بالاستناد إلىٰ من سبقه في الرسم والتصوير. فبالطبع لولا وجود هذه الصور والأشياء لما وسع ذلك الرسام هذا الابداع والجمال. أمّا الحق سبحانه فليس كذلك فعمله الابداع دون الاقتداء بالمثال وليس ذلك لأحد سواه. وقد مرّ علينا شبيه هذا المعنى البديع في الخطبة الاولىٰ من نهج البلاغة بعبارته ﷺ «**أنشأ الخلق إنشاءاً، وابتدأه إبتداءاً...**»، ثم قال ﷺ موضحاً ما أورده أن أرانا من عجائب قدرته والآثار الحالية عن تناهي حكمته وحاجة كافة الأشياء إليه بما يدعونا تلقائيا إلىٰ معرفته: «**وأرانا من ملكوت قدرته، وعجائب مانطقت به آثار حكمته، واعتراف الحاجة من الخلق إلىٰ أن يقيمها بمساك قوته، ما دلنا باضطرار قيام الحجة له على معرفته**» بعبارة أُخرى فانّ اللّٰه سبحانه قد أبان آثار قدرته في عالم الوجود وهي تجري وفقاً لنظام دقيق وقوانين معقدة تفيد أنّ الابقاء عليها يتطلب علمه وتدبيره الحكيم. فذرات الكون برمتها محتاجه إليه في خلقها وكذلك في ادامة حياتها واستمرارها، وهي تحكي بكافة تفاصيلها عن تناهي قدرته وحكمته. بما يجعل الإنسان يقر بضعفه وعجزه والاستضاءة بنور معرفته. ثم واصل الإمام ﷺ قائلاً: «**فظهرت البدائع التي أحدثتها آثار صنعته وأعلام حكمته، فصار كل ما خلق حجة له، ودليلاً عليه؛ إن كان خلقاً صامتاً، فحجته بالتدبير ناطقة، ودلالته على المبدع قائمة**»[1] نعم فقد غصت أرجاء العالم بعلمه وقدرته وشع نور التوحيد من جبين كافة مخلوقاته وكائناته سبحانه. كما عطر فضاء العالم بحمده وتسبيحه ﴿**سَنُرِيهِمْ آياتِنا فِي الآفاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحَقُّ**﴾[2].

وهو المعنى الذي عبر عنه أبوالعتاهية حين أنشد قائلاً:[3]

فيا عجبا كيف يعصى الاله | أم كيف يجحده الجاحد

١. الضمير في حجته ودلالته يعود إلىٰ الخلق لا الخالق.

٢. سورة فصلت/٥٣.

٣. الكنى والالقاب ١٢١/١.

وفي كـــــل شيئ له آيـــــة تـــدل عـــلى أنـــه واحـــد

نعم فاينما وليت وجهك طالعتك آيات الله، وإذا أعرت أذنك أى كائن طرقت سمعك ألسنة حـال التسبيح والتقديس. فما أكثر الأدلة والبراهين التي تجعلك تدرك تلك الذات المـقدسة، أنّهاتمتد لتشمل عدد أوراق الأشجار وقطرات المطر والذرات وخلايا البدن ونجوم السموات والمجرات، وبالتالى جميع ذرات وجود هذا العالم.

والعبارة «**ما دلنا باضطرار قيام الحجة**» لا تعنى أننا نذعن علىٰ نحو الإجبار بـوجوده المقدس، بل تعنى أنّ الدلائل على وجوده على درجة من الظهور بحـيث لم يـبق مـعها مجـال لانكار. كمثل من أحضر إلىٰ المحكمة وقد نصبت للشهادة عليه الأفلام والأشرطة والشهود والقرائن المختلفة، بحيث لا يسعه التنكر لاعماله وأفعاله. فيعبر هنا بانه مضطر للاقرار، فهذا لا يعنى أنّه ارغم علىٰ الاقرار من خلال ممارسة الضغوط والتعذيب، حيث أنّ المسألة علىٰ قدر من الوضوح، بحيث لا يسعه الانكار.

والعبارة: «**فحجته بالتدبير ناطقة، ودلالته على المبدع قائمة**» إشارة إلىٰ أنّ تدبير عالم الوجود دليل علىٰ علمه المطلق وقدرته، كما أن تنوع موجودات العالم المفعمة بـالابداعـات المذهلة هو الآخر دليل علىٰ قدرته المطلقة وعلمه.

ഇ ❀ ഇ

القسم الخامس

«فَأَشْهَدُ أَنَّ مَنْ شَبَّهَكَ بِتَبَايُنِ أَعْضَاءِ خَلْقِكَ وَتَلاحُمِ حِقَاقِ مَفَاصِلِهِمُ الْمُحْتَجِبَةِ لِتَدْبِيرِ حِكْمَتِكَ لَمْ يَعْقِدْ غَيْبَ ضَمِيرِهِ عَلَى مَعْرِفَتِكَ وَلَمْ يُبَاشِرْ قَلْبَهُ الْيَقِينُ بِأَنَّهُ لا نِدَّ لَكَ وَكَأَنَّهُ لَمْ يَسْمَعْ تَبَرُّؤَ التَّابِعِينَ مِنَ الْمَتْبُوعِينَ إِذْ يَقُولُونَ تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ كَذَبَ الْعَادِلُونَ بِكَ إِذْ شَبَّهُوكَ بِأَصْنَامِهِمْ وَنَحَلُوكَ حِلْيَةَ الْمَخْلُوقِينَ بِأَوْهَامِهِمْ وَجَزَّءُوكَ تَجْزِئَةَ الْمُجَسَّمَاتِ بِخَوَاطِرِهِمْ وَقَدَّرُوكَ عَلَى الْخِلْقَةِ الْمُخْتَلِفَةِ الْقُوَى بِقَرَائِحِ عُقُولِهِمْ».

الشرح والتفسير

انت المنزه عن الشبيه والمثيل

عاد الإمام ﷺ هنا ثانية إلىٰ بيان صفات اللّٰه سبحانه وتعالىٰ، محذراً من الاقتراب من وادي التشبيه، فلعل دلائل وجود اللّٰه في عالم الخلقة والبحث عن آثار عظمته في كل موضع من مواضع هذا العالم توسوس للإنسان أن يعتقد ببعض الصفات للّٰه علىٰ غرار صفات مخلوقاته، حتى أنّه ليسقط في مطب التجسيم على اللّٰه، ليراه جسماً كسائر مخلوقاته.

ومن هنا ابتهل الإمام ﷺ إلىٰ اللّٰه قائلاً: **«فاشهد أن من شبهك بتباين أعضاء خلقك وتلاحم[1] حقاق[2] مفاصلهم المحتجبة لتدبير حكمتك، لم يعقد غيب ضميره على معرفتك، ولم يباشر قلبه اليقين بأنه لا ند لك، وكأنه لم يسمع تبرؤ التابعين من**

١. «تلاحم» من مادة «لحم» بمعنى الاتصال، شبيه اتصال عضلات الجسم.
٢. «حقاق» جمع «حقه» وهو رأس العظم عند الفصل.

المتبوعين إذ يقولون تالله إن كنا لفى ضلال مبين إذ نسويكم برب العالمين».

فهذه العبارات إشارة واضحة إلىٰ ضلال المجسمة أو المشبهة وشركهم وكفرهم، حيث جعلوا الله جسماً ذا أعضاء ويد ورجل وعين واذن فهووا وافي وادى التشبيه ليروه سبحانه مخلوقاً ضعيفاً وعاجزاً فانياً، حتى عبر عنهم القرآن في الآية الشريفة بأنّهم على ضلال مبين.

والعبارة: «**من شبهك بتباين أعضاء خلقك**» إشارة إلىٰ من له جسم، وجسمه مركب من أعضاء مختلفة. والعبارة: «**تلاحم حقاق مفاصلهم**» إشارة إلىٰ الإرتباط السائد بين الأعضاء وبناء علىٰ هذا فانّ أعضاء البدن منفصلة عن بعضها البعض ومنظمة مع بعضها أيضاً، وهذا من حكمة الله في خلقه المخلوقاته، بحيث لولا اشتماله علىٰ الأعضاء المختلفة لتحددت أعمالها، كما لو كانت منفصلة تماماً لتعذر تعاضدها وتعاونها في القيام بانشطتها وفعالياتها. كما أنّ البارئ بحكمته ولطفه قد أخفي هذا الإرتباط بين الأعضاء تحت طبقات اللحم ليصونها من مختلف الحوادث الخارجية. ولا يمكن تصور هذا الأمر إلّا في عالم الخليقة، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، فهو منزه عن الأجزاء والأعضاء ولايحتاج إلىٰ الجسم.

فالإمام عليه السلام يشير إلىٰ أنّ هؤلاء الأفراد الجهال قد إصيبوا بثلاثة انحرافات: الأول: عدم معرفتهم الحقيقية لله، الثاني: عدم اعتقادهم بوحدانيته، الثالث: أنّهم لم يسمعوا آيات القرآن ولم ينفتحوا على تعليمات هذا الكتاب السماوى، ومن هنا شهدوا على أنفسهم بأنّهم **﴿فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾**. أمّا يوم القيامة حين ترفع الحجب وتتضح الحقائق سرعان ما يقفون على خطأهم، فيتبرأ التابع من المتبوع ويلعن بعضهم بعضا ولا يملكون سوىٰ الندم والخجل يوم لا ينفع الندم؛ الأمر الذي ورد بشكل صريح في هذه الخطبة.

الجدير بالذكر أنّ الإمام عليه السلام قد نسب كلامه السابق إلىٰ الناس، ثم انتقل هنا إلىٰ الله؛ الأمر الذي ينبه إلىٰ خطورة القضية التي حذر منها لأنّ التأمل في الكلام يتوقف على درجة ومكانة المخاطب فكيف به إذا صدر من المشفق. ثم واصل عليه السلام الحديث عن طائفة اُخرى من المنحرفين ـ أي المشركين والوثنيين الذين يعدون جزء من المشبهة ـ فقال «**كذب العادلون**[1] **بك، إذ**

---

١. «عادل» مادة «عدل» علىٰ وزن قشر بمعنى المعادل والشبيه والنظير والعادلون بك الذين عدلوا بك غيرك، أي سووه بك وشبهوك به.

شبهوك بأصنامهم، ونحلوك[١] حلية المخلوقين باوهامهم، وجزأوك تجزئة المجسمات، بخواطرهم، وقدروك على الخلقة المختلفة القوىٰ بقرائح[٢] عقولهم» فقد نفي الإمام ﷺ بهذه العبارات الرصينة القاطعة ـ والتي بينت بأربع صور ـ كافة أنواع الشرك والتشبيه للّـه سبحانه بمخلوقاته، وتحذر الجميع من السقوط في مستنقع الشرك و التشبيه، إلىٰ جانب تعيين الحد الفاصل بين توحيد الموحدين وشرك المشركين. فق العبارة الاولىٰ نفي التشبيه بالأصنام.

والعبارة الثانية صرحت ببطلان اضفاء صفات الزينة للمخلوقات على اللّٰه (من قبيل وصفه من بعض الجهال بأنّه فتى جميل أمرد له شعر مجعد).

والعبارة الثالثة التي تنفي عنه التركب من الأجزاء والأعضاء من قبيل اليد والرجل. والعبارة الرابعة سذاجة الاعتقاد باتصافه بمختلف الحواس (التى لمخلوقاته) من قبيل الباصرة والسامعة والشامة وهكذا تتحطم معاقل الشرك من مختلف الجوانب.

تأمّل

من هم المجسمة؟

تطلق المجسمة (بكسر السين) على من نسب الجسمية لله و هم الذين يقولون بأنّ له يد ورجل واذن وعين، كما يقال هؤلاء المشبهة بكسر الباء، وذلك أنّهم يشبهون اللّٰه سبحانه بمخلوقاته المادية. ويبدو أنّ مثل هذا الاعتقاد كان سائدا بين أفراد البشر منذ قديم الزمان حيث جعلهم قصر فكرهم يعجزون عن تصور ماوراء هذه الطبيعة المادية، حتى ألفوا الماديات والجسام فظنوا أنّ اللّٰه سبحانه مثلهم أو كسائر الأجسام المادية. ومن هنا نشأ الاعتقاد بسائر المعبودات كالشمس والقمر والكواكب وسائر أجسام المشابهة. ويفيد تأريخ اليهود رسوخ عقيدتهم بجسمية الحق سبحانه وتعالىٰ، ومن ذلك مدىٰ اصرارهم على نبيهم

---

١. «نحلوا» من مادة «نحل» بمعنى الهبة والعطية، وحلية المخلوقين صفاتهم الخاصة بهم من الجسمانية وما يتبعها.

٢. «قرائح» جمع «قريحه» تعنى في الأصل أول ماء يسحب من البئر، ثم اطلقت علىٰ النتاجات الفكرية والذوقية للإنسان.

موسىﷺ في أن يريهم الله سبحانه جهرة ولا تخفي علينا قصة جبل الطور والصاعقة التي أخذت طائفة من بني إسرائيل فبعد أن نجى بني اسرائيل من البحر أتوا موسىﷺ وقد مروا بقوم يعكفون على أصنام لهم فقالو لنبيهم موسىﷺ اجعل لنا إلها كما لأولئك، بل لم يثوبوا إلى رشدهم حتى بعد أن أخذتهم الصاعقة، ثم سارعوا لعبادة العجل الذي أخرجه لهم السامري، حتى ضلت فيه جماعة من بني اسرائيل. فرجع اليهم موسىﷺ غضبان أسفاً وآخذهم بما فعلوا.

تاريخ النصارى أيضاً يشهد بأنّ عقيدة التثليث (اللّٰه والابن والروح القدس) كانت شائعة بين النصارى والتي تفيد القول بالجسمية على اللّٰه. فهم يصرحون جهرة بأنّ المسيحﷺ ابن اللّٰه وأنّه أحد الآلهة الثلاث. والحال لم يكن المسيحﷺ سوى بشراً من سائر الناس.

ولما نزل القرآن الكريم على صدر الرسول الأكرمﷺ أبطل هذه العقائد الفاسدة بما فيها القول بالتجسيم والتشبيه. والشاهد على ذلك الآيات القرآنية: **﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيءٌ﴾**[1] و: **﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصارُ﴾**[2] و**﴿لَنْ تَرانِي﴾**[3] و**﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ ما كُنْتُمْ﴾**[4] و**﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الوَرِيدِ﴾**[5] و**﴿فَأَيْنَما تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللّٰهِ﴾**[6] التي تنفي جسمية اللّٰه سبحانه وتعالى. إلّا أنّ المؤسف له هو أنّ بعض الأفكار الانحرافية الموروثة من الأُمم الوثنية واليهودية والنصرانية والمجوسية قد وردت الإسلام لتخترق عقائد بعض السذج من المسلمين الذين اصطلح عليهم بالمجسمة أو المشبهة.

ولعل بعض التعبيرات الكنائية التي وردت في بعض الآيات القرآنية من قبيل الآية الكريمة: **﴿يَدُ اللّٰهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾**[7] والآية: **﴿الرَّحْمنُ عَلَى العَرْشِ اسْتَوى﴾**[8] قد أصبحت ذريعة لدى بعض المنحرفين من أصحاب النظرة القاصرة والأفكار الضيقة و المنحرفة ليحثوا

---

١. سورة الشورى/١١
٢. سورة الانعام/١٠٣.
٣. سورة الأعراف/١٤٣.
٤. سورة الحديد/٤.
٥. سورة ق/١٦.
٦. سورة البقرة /١١٥.
٧. سورة الفتح/١٠.
٨. سورة طه /٥.

الخطى نحو هذه المذاهب المشركة الفاسدة؛ والحال من المسلم به أنّ اليد في الآية تعني القوة والقدرة واستوىٰ بمعنى السلطة والسيطرة، لا بمعنى الجلوس والاستقرار على الشيّ. وبالطبع فانّ هذه الكنايات كانت سائدة لدىٰ مختلف الأقوام قبل نزول القرآن وبعده، من قبيل قولهم، ليس له يد علىٰ هذا الأمر، وهكذا فإن مفردة الاستواء التي تستعمل بشأن استيلاء سلطان وسيطرته علىٰ بلاد.

وناهيك عما سبق فانّ الأدلة العقلية والمنطقية هي الأُخرىٰ تنفي بوضوح أية جسمية عن اللّٰه؛ لأنّ كل جسم محدود وله زمان ومكان واجزاء، وعليه فهو محتاج من مختلف الجهات، ونعلم أن ليس للحاجة والمحدودية من سبيل إلىٰ ذاته المطلقة سبحانه. والأهم من كل ذلك أنّ كافة الأجسام يعتريها التغيير بل وحتى الزوال، في حين ليس لهذا التغيير والزوال أن يدنس ساحة كبريائه وعظمته.

ورغم كل ما مرّ من أدلة واضحة، فما يؤسف له ـ كما أشرنا إلىٰ ذلك سابقاً ـ فانّ عقيدة الجسمية المنحطة قد طالت جمعاً من جهال المسلمين حتى أوغلوا في الانحراف والضلال، و حسب ما نقله «المحقق الدواني» فان البعض يعتقد بأنّه جسم مركب من لحم ودم تنبعث منه أشعة قضية شفافة وله قامة من سبعة أشبار، كما اعتقد البعض الآخر بانه علىٰ هيئة شاب أمرد له شعر مجعد حسب ما ذكره المحقق الدواني بشأن هذه الفئات الضالة.

فقد أورد العلّامة الحلي في كتابه منهاج الكرامة قصة عن بعض المجسمة، لا بأس أن أنقلها. فقد حكى عن بعض المنقطعين التاركين من شيوخ الحشوية أنّه إجتاز عليه في بعض الأيام نفاط ومعه أمرد حسن الصورة قطط الشعر على الصفات التي يصفون ربّهم بها. فألح بالنظر إليه ليلا وكرره، فتوهم منه النفاط أمراً، فجاء إليه ليلاً وقال له: رأيتك تلح بالنظر إلىٰ هذاالغلاموقد أتيتك به، فان كان لك فيه نية فأنت الحاكم. فرد عليه وقال: إنّما كررت النظر لأنّ مذهبي: أن اللّٰه ينزل على صورة هذا الغلام، فتوهمت أنّه اللّٰه. فقال له النفاط: واللّٰه ما أنا عليه من النفاطة أجود ممّا أنت عليه من الزهد مع هذه المقالة.[1]

١. شرح نهج البلاغة للعلّامة التستري ١/٣٣٣

القسم السادس

«وَأَشْهَدُ أَنَّ مَنْ سَاوَاكَ بِشَيْءٍ مِنْ خَلْقِكَ فَقَدْ عَدَلَ بِكَ وَالْعَادِلُ بِكَ كَافِرٌ بِمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ مُحْكَمَاتُ آيَاتِكَ وَنَطَقَتْ عَنْهُ شَوَاهِدُ حُجَجِ بَيِّنَاتِكَ وَإِنَّكَ أَنْتَ اللَّهُ الَّذِي لَمْ تَتَنَاهَ فِي الْعُقُولِ فَتَكُونَ فِي مَهَبِّ فِكْرِهَا مُكَيَّفاً وَلاَ فِي رَوِيَّاتِ خَوَاطِرِهَا فَتَكُونَ مَحْدُوداً مُصَرَّفاً».

الشرح والتفسير

الممتنع على احاطة العقول

عاد الإمامعليه السلام هنا مرة أُخرى إلىٰ قضية انحراف المشركين والقائلين بالتشبيه، ليشهد عند اللّٰه ثانية بانحرافهم، وما ذلك الا لسماع المخاطبين وتحذيرهم من الوقوع في هذا المستنقع النتن. فقد قالعليه السلام: «**وأشهد أن من ساواك بشيئ من خلقك فقد عدل بك، والعادل بك كافر بما تنزلت به محكمات آياتك، ونطقت عنه شواهد حجج بيناتك**».

يبدو أنّ هناك فارقا بين شهادة الإمامعليه السلام هنا في انحراف المشركين، وتلك الشهادة السابقة. حيث وردت في طائفتين. فالشهادة السابقة إنّما وردت بشأن الوثنيين الذين شبهوا اللّٰه بالأوثان والأصنام واتخذوها أرباباً من دون اللّٰه. أي كانوا يسألونها حاجاتهم ومن هنا عبدوها واتخذوها آلهة. أمّا الشهادة التي وردت هنا فهى ناظرة لأُولئك الذين سووا به بعض خلقه في جميع الجهات، كالثنوية من الوثنيين الذين يعتقدون بوجود إلهين هما إله الخير وإله الشر، والنصارىٰ القائلين بالتثليث (الأب والابن والروح القدس). فقد اعتبر الإمامعليه السلام هؤلاء كافرين بمحكمات القرآن والحجج البينة: «**كافر بما تنزلت به محكمات آياتك، ونطقت عنه شواهد حجج بيناتك**» يمكن ان تكون العبارة «**محكمات الآيات**» و«**الحجج البينات**» كلاهما

إشارة إلىٰ آيات تنفي صراحة أي نظير وشبيه لله، من الآية الشريفة **﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْداداً﴾**[1] والآية: **﴿فَلا تَجْعَلُوا لِلّٰهِ أَنْداداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾**[2].

كما يحتمل ان يكون المراد بالآيات المحكمات آيات توحيد صريح القرآن الكريم والحجج البينات الأدلة العقلية التي تنفي عن الله سبحانه أي شبيه ونظير.

ويؤيد هذا الاحتمال العبارات اللاحقة: «**وأنك أنت الله الذي لم تتناه في العقول، فتكون في مهب**[3] **فكرها مكيفاً، ولا في رويات خواطرها فتكون محدوداً مصرفاً**».

فقد أشار الإمام عليه السلام في العبارة الاولىٰ إلىٰ عدم إدراك العقول لكنه ذاته وصفاته سبحانه التي أشير إليها في بداية الخطبة. كما أشار في العبارة الثانية إلىٰ عدم إحاطة الأفكار بهذه الذات المطهرة، وذلك لأنّ هذه الأفكار لو أحاطت به، لكان محدوداً بالضرورة، وما كان محدوداً طرأ عليه التغيير والزمان والمكان والجهات الأُخرىٰ.

۱. سورة فصلت /۹.

۲. سورة البقرة/۲۲.

۳. «مهب» اسم مكان من مادة «هبوب» بمعنى موضع هبوب الرياح، وقد شبهت العبارة المذكور الفكر بالنسيم الذي يهب من موضع؛ إلّا أنّ كنه ذات الله وصفاته سبحانه خارجة عن ذلك الموضع.

القسم السابع

ومنها: «قَدَّرَ ما خَلَقَ فَأَحْكَمَ تَقْدِيرَهُ وَدَبَّرَهُ فَأَلْطَفَ تَدْبِيرَهُ وَوَجَّهَهُ لِوِجْهَتِهِ فَلَمْ يَتَعَدَّ حُدُودَ مَنْزِلَتِهِ وَلَمْ يَقْصُرْ دُونَ الانْتِهاءِ إِلَى غايَتِهِ وَلَمْ يَسْتَصْعِبْ إِذْ أُمِرَ بِالْمُضِيِّ عَلَى إِرادَتِهِ فَكَيْفَ وَإِنَّما صَدَرَتِ الْأُمُورُ عَنْ مَشِيئَتِهِ».

الشرح والتفسير

كل شيء يستند إلى ارادة الله

ذكرَّ الإمامعليه السلام هنا مرّة أُخرى بعالم الخليقة والتدبير الإلهي في تنظيم شؤون الخلق وأنّ هذا التدبير والنظام إنّما يستند إلىٰ جلال الحق وجماله، الذي خلق كل شيءٍ بمقدار واخضعه لتدبيره وهداه إلىٰ سبيله: «**قدر ما خلق فأحكم تقديره، ودبره فألطف تدبيره، ووجه لوجهته**» وهكذا يكون الإمامعليه السلام قد بين المراحل الثلاث «**التقدير**» و«**التدبير**» و«**التوجيه**». فالتقدير خلق الكائنات بمقدار، والتدبير إدارة شؤونها وفق الخطة والمسيرة المرسومة لها، والتوحيد تمهيد السبيل وإعداد الظروف اللازمة لهذه الحركة من أجل بلوغ الهدف وتحقيق الغاية، حيث تسير كل هذه المراحل على ضوء برنامج معين منظم غايه في الدقة بالشكل الذي لم يدع مجالا لكائن من كان أن يسير بطريق عشوائي، لا في انبثاق خلقه ولا في ديمومته بحيث يشذ عن ذلك النظام والقانون. ومن هنا أشار الإمامعليه السلام إلىٰ هذا الأمر في أنّ أحداً من الموجودات لم يتجاوز حدوده، ولم يقصر في بلوغ الهدف، ولم ينطلق في حركته الاعلى أساس ارادة الله سبحانه وأنى له التمرد علىٰ هذه الإرادة التي تستند إليها جميع الإرادات: «**فلم يتعد حدود منزلته، ولم يقصر دون الانتهاء إلىٰ غايته، ولم يستعصب إذ أمر بالمضي على إرادته، فكيف وإنّما صدرت الأُمور عن مشيئته؟**». فالواقع هذه العبارات تحول دون التصور بأنّه حركات كافة

الكائنات الأرضية والسماوية بما فيها النباتات والحيوانات والناس والكواكب واجتيازها لمراحل النحو والتكامل يجرى بصورة عشوائية. فهي تسير بوحي من أمره وإرادته على ضوء الخطة المعدة لها سلفاً ولا يسعها تخطي تلك الخطة بأي حال من الاحوال. وعليه فعالم الوجود يدار بمنتهى النظام والدقة. و لعلنا نلمس الإشارة إلىٰ المراحل الثلاث المذكورة في الآيات القرآنية، ومن ذلك الآيات ٣٨ـ٤٠ من سورة يس: **﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَها ذٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ* وَالْقَمَرَ قَدَّرْناهُ مَنازِلَ حَتّىٰ عادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ * لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَها أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سابِقُ النَّهارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾**.

ناهيك عن سائر الآيات القرآنية التي أشارت إلىٰ هذه الحقيقة وهنا لابدّ من الالتفات إلىٰ أمرين: الأول هو أنّ ما ورد في العبارات المذكورة بشأن الأوامر و تبعية المخلوقات للمشيئة الإلهية إنما هو إشارة إلىٰ الاوامر التكوينية، أو بعبارة أُخرى: إشارة إلىٰ القوانين التي أجراها اللّٰه سبحانه في عالم الوجود وسيره على أساسها، بالشكل الذي يحول دون تجاوزها لهذه القوانين. والأمر الثاني أنّ هذا الكلام لا يعني إجبار الإنسان على أفعاله وذلك لأنّ اللّٰه سبحانه جعل صفة الاختيار وحرية الإرادة أحد تلك القوانين التي تسير عالم الوجود، وليس للإنسان قط أنّ يسلب نفسه هذه الصفة، وبعبارة أُخرىٰ فانّ حرية الإنسان أيضاً بأمره سبحانه وتعالىٰ.

القسم الثامن

«الْمُنْشِئُ أَصْنٰافَ الْأَشْيٰاءِ بِلاٰ رَوِيَّةِ فِكْرٍ آلَ إِلَيْهٰا، وَلاٰ قَرِيحَةِ غَرِيزَةٍ أَضْمَرَ عَلَيْهٰا، وَلاٰ تَجْرِبَةٍ أَفٰادَهٰا مِنْ حَوٰادِثِ الدُّهُورِ وَلاٰ شَرِيكٍ أَعٰانَهُ عَلَى ابْتِدٰاعِ عَجٰائِبِ الْأُمُورِ، فَتَمَّ خَلْقُهُ بِأَمْرِهِ، وَأَذْعَنَ لِطٰاعَتِهِ، وَأَجٰابَ إِلَى دَعْوَتِهِ، لَمْ يَعْتَرِضْ دُونَهُ رَيْثُ الْمُبْطِي، وَلاٰ أَنٰاةُ الْمُتَلَكِّي، فَأَقٰامَ مِنَ الْأَشْيٰاءِ أَوَدَهٰا، وَنَهَجَ حُدُودَهٰا، وَلاٰءَمَ بِقُدْرَتِهِ بَيْنَ مُتَضٰادِّهٰا، وَوَصَلَ أَسْبٰابَ قَرٰائِنِهٰا، وَفَرَّقَهٰا أَجْنٰاساً مُخْتَلِفٰاتٍ فِي الْحُدُودِ وَالْأَقْدٰارِ، وَالْغَرٰائِزِ وَالْهَيْئٰاتِ، بَدٰايٰا خَلاٰئِقَ أَحْكَمَ صُنْعَهٰا وَفَطَرَهٰا عَلَى مٰا أَرٰادَ وَابْتَدَعَهٰا!».

الشرح والتفسير

سر الخلق

خاض الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبة في كيفية خلق الموجودات على أنّ اللّه سبحانه وتعالىٰ خلقها من دون حاجة إلىٰ التفكير، أو غريزة مستترة في الباطن، إلىٰ جانب الغنى عن تجارب الماضي وسالف الدهور، وبالتالي دون الحاجة إلىٰ عضيد وشريك **«المنشئ أصناف الأشياء بلا روية فكر آل إليها، ولا قريحة[1] غريزة أضمر عليها، ولا تجربة أفادها من حوادث الدهور، ولا شريك أعانه على ابتداع عجائب الأمور»**.

فالواقع هو أنّ أُسس علمنا ومعرفتنا بالحقائق إنّما تستند إلىٰ أحد أربع: الفكر والتروي، أو الالهام الباطني الذي يصطلح عليه بالغريزة، أوالتجربة التي يحصل عليها الإنسان من

---

١. قريحة: كما أسلفنا سابقاً في الأصل، بمعنىٰ أول ماء يخرج من البئر عند ما يحفر، و كذلك يطلق علىٰ ما يتفتق من أعمال فكر و ذوق الانسان.
و يشمل ذلك الغريزة التي هى بمعنىٰ الطبيعة، و هو الشيء الذي يحصل عليه الانسان بمساعدة ذوقه و طبعه. و يصح هذا المعنىٰ أيضاً على غير الانسان، فمثلاً أكثر الطيور تقوم ببناء أعشاشها و تربية فراخها و الهجرة الطويلة و بشكل جماعي و أمثال ذلك، كل هذا يتم بواسطة القريحة و الغريزة.

خلال تكرار الحوادث، و أخيرا العون الذي يحصل عليه من الاستعانة الخـارجية لأصحاب الفكر الذين يعينونه في القيام ببعض الأعمال والابداعات. وبالطبع فانّ الحق سبحانه وتعالىٰ ليس بحاجة لأي من هذه الأُسس والمصادر فهو العالم بكل الأشياء، وهي حـاضرة عـنده، وليس هنالك من حقيقة خارجة عن دائرة علمه المطلق. فالفكر إنّما يستفيده مـن كـان له معلومات ومجهولات، يروم توظيف مـعلوماته لكشف أسرار هـذه المجـهولات. والالهـام الغريزي إنّما يعتمده من غابت عنه الحقائق ولاتتضح له إلّا من خـلال هـذا الالهـام. وأمّـا التجربة وتكرار العمل للوقوف على النتائج فانما ترتبط بمن يجهل نتائج الأُمور وأخيراً فـان الاستعانة بافكار الآخرين إنّما يختص بضعف الأفراد وعجزهم إلىٰ جانب قصور فكرهم؛ فما حاجة الذات المطلقة لمثل هذه الأُمور وهي بتلك الخصائص والصفات؟

وبغض النظر عما سبق فانّ العبارات بدورها ترشد الإنسان الجاهل إلىٰ الظـفر بمـصادر المعرفة، وأنّ هذه المصادر الأربعة تمكننا من حل المشاكل التي تواجهنا في حياتنا اليومية. ثم أشار الإمامعليه‌السلام إلىٰ نقطة أُخرىٰ بهذا الشأن وهي قطعية حاكمية قوانين الخـلق عـلى كـافة الكائنات: «**فتم خلقه بأمره وأذعن لطاعته، وأجاب إلىٰ دعوته، لم يعترض دونه ريث**[1] **المبطئ، ولا أناة**[2] **المتلكئ**»[3].

فهذا الموضوع إشارة أيضاً إلىٰ قدرة اللّه ونظامه الرصين في عالم الخلق، حيث تسير كافة هذه الموجودات علىٰ ضوء قوانين معينة وهي مؤتمرة بأمره، فهي لا تتخلف عن هذه القوانين ولا تتقدم عليها. فقد صرح القرآن الكريم بهذا الخصوص قائلاً: ﴿**ثُمَّ اسْتَوىٰ إِلىٰ السَّماءِ وَهِيَ دُخانٌ فَقالَ لَها وَلِلْأَرْضِ ائْتِيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قالَتا أَتَيْنا طائِعِينَ**﴾[4].

أضف إلىٰ ذلك فهي تشتمل علىٰ رسالة واضحة لكافة الناس في الانسجام وعالم الخـلق وتبعية هذه القوانين الإلهية، دون التقدم عليها أو التخلف عنها، بهدف بلوغ الغـاية والظـفر بالفلاح والسعادة.

ثم اختتمعليه‌السلام كلامه بالاشارة إلىٰ خمسة أُمور جديرة بالتأمل بشأن نظام الخلق وأسرار عالم

١. «الريث» التثاقل عن الامر والقيام بالعمل.
٢. «أناة» بمعنى الوقار المقرون بالفكر حين القيام بالعمل.
٣. «متلكئ» من مادة «لكأ» على وزن هدف الوقوف في مكان، ثم اطلقت على من يتوقف في مسألة ويفكر فيها.
٤. سورة فصلت/١١.

الخلقة، الأول: استواء هذه الموجودات دون أى اعوجاج او انحراف: «**فأقام من الأشياء أودها**»[١] الثاني: أنّه عين لها المسار الذي ينبغي لها أن تسلكه «**ونهج حدودها**». الثالث: تأليفه بين الأشياء المتضادة بقدرته «**ولاءم بقدرته بين متضادها**». الرابع: ربطها مع نظائرها«**ووصل أسباب قرائنها**». والخامس: تقسيمها إلىٰ أنواع مختلفة على أساس الحدود والأجناس والمقادير والغرائز والاشكال والهيئات «**وفرقها أجناسا مختلفات في الحدود والأقدار والغرائز والهيئات**» وهكذا تمّ نظام الخلق وتكامل من جميع الجهات ليقوم بوظائفه على اختلاف أنواعه وأجناسه كوحدة واحدة ضمن قانون واحد. وأبعد من ذلك تعاضدت وتعاونت حتى الأشياء المتضادة لتفرز نتائج باهرة، كما إتصلت الأشباه والنظائر، لتشكل بالتالى مجموعة بديعة عجيبة تشير إلىٰ مدىٰ قدرته المطلقة سبحانه وعلمه التام.

ذهب بعض شرّاح نهج البلاغة إلىٰ أنّ المراد بالقرائن في العبارة هى نفوس البشر التي أقرها اللّه في الأبدان، حيث يبدو في الظاهر أنّ هناك تضاد بين البدن الذي ينتمى إلىٰ عالم المادة والنفس التي تنتمي إلىٰ عالم المجردات.

طبعاً وان كان أحد معاني القرينه (وجمعها قرائن) في اللغة هو النفس الإنسانية إلّا أننا لا نمتلك الدليل الذي يجعلنا نصرف المعنى المذكور ليقتصر على هذه النفس: بل الهدف هو بيان جمع الأضداد ووصل القرائن والأشباه في جميع أنحاء عالم الوجود والذي يعد الوجود الإنساني أحد مصاديقه، وأنّ أصل إطلاق القرينة علىٰ نفس الإنسان إنّما يعزى لاقترانها ببدنه.

ثم إختتمﷺ كلامه بالقول على أساس الخلوص إلى نتيجة واضحة: «**بدايا خلائق أحكم صنعها، وفطرها على ما أراد وابتدعها**»[٢].

تأمّل

أوضح طريق إلى معرفة الله

يعتبر تأكيد الإمامﷺ على التفكير في عالم الخلق والتأمل في خلق المخلوقات دون

---

١. «أود» بمعنى الاعوجاج.

٢. الجملة من حيث النحو هي أنّ «بدايا» خبر لمبتدأ محذوف تقديره هذه، واضافة بدايا إلى الخلائق من قبيل اضافة الصفة إلىٰ الموصوف، التي تعني في الأصل خلائق بدايا، وبدايا جمع بديئه المصنوع البديع.

الاستغراق في ذات الله، من الأُصول الأساسية في الأبحاث ذات الصلة بمعرفة الله. وذلك لأنّ الأول يقود الإنسان إلىٰ الإيمان والتوحيد؛ التوحيد المفعم بالعشق والحب والاخلاص، بينما يسوقه الثاني إلىٰ الشرك والتشبيه. أمّا سائر الأدلة والبراهين في معرفة الله من قبيل برهان الوجوب والإمكان والغنى والفقر التي تدور حول محور الدور والتسلسل، فهي دلائل جافة توصل إلىٰ المعرفة إلّا أنّها لا تختزن أي حب أو عشق وإخلاص. والحال لم يقم نظام الخلق سوى على هذه المفردات. فقد جاء في الحديث القدسي: «**كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف، فخلقت الخلق لكي أعرف**». فاذا فكرنا بعظمة السموات والكواكب التي تربو على الملايين في مجرتنا فقط والحال يقول العلماء بوجود مليارات المجرات في هذا العالم. وإذا أمعنا النظر في العالم المذهل لخلايا جسم الإنسان والذي تمتاز كل خلية فيه بان بنيتها قد تنطوي عليه مدينة صناعية من الخفايا والأسرار. وعندما نتامل التنوع العجيب للنباتات والحيوانات، وأنّ هناك الملايين من أنواع النباتات والحيوانات التي تعيش في أعماق الغابات والبحار والتي لم يراها أو يتوصل اليها الإنسان لحد الآن، ونقر بأنّ هذه الموجودات العجيبة إنّما تستمد حياتها من موجودين بسيطين هما الماء والتراب. وأخيراً حين نتدبر روعة الورود والأزهار ولطافة الأوراق ودقة نظام الدورة الدموية. وعمل الاوردة والشرايين المخ والدماغ وايعازات الأعصاب، ثم نلتفت إلىٰ أنّ كل هذا ليس إلّا جانباً من عجائب عالم الخلقة، لانملك سوىٰ الالتحاق بقافلة هذا العالم ومشاركتها التسبيح والتقديس والحركة نحو الله. ونحن نردد ما يردده الملأ الأعلىٰ **﴿سُبْحانَكَ لا عِلْمَ لَنا إِلَّا ما عَلَّمْتَنا﴾**[1] و**﴿رَبَّنا ما خَلَقْتَ هذا باطِلاً﴾**[2] وقلوبنا مقعمة بحب الله والإيمان به والخشوع له والتواضع أمام عظمته وجبروته.

وعبارات الإمام عليه السلام المارة الذكر إشارة عميقة إلىٰ هذه الحقائق.

---

١. سورة البقرة/٣٢.

٢. سورة آل عمران/١٩١.

القسم التاسع

«وَنَظَمَ بِلا تَعْلِيقٍ رَهَواتِ فُرَجِها، وَلاحَمَ صُدُوعَ انْفِراجِها، وَوَشَّجَ بَيْنَها وَبَيْنَ أَزْواجِها، وَذَلَّلَ لِلْهابِطِينَ بِأَمْرِهِ، وَالصّاعِدِينَ بِأَعْمالِ خَلْقِهِ، حُزُونَةَ مِعْراجِها، وَناداها بَعْدَ إِذْ هِيَ دُخانٌ، فَالْتَحَمَتْ عُرَى أَشْراجِها وَفَتَقَ بَعْدَ الإرْتِتاقِ صَوامِتَ أَبْوابِها، وَأَقامَ رَصَداً مِنَ الشُّهُبِ الثَّواقِبِ عَلَى نِقابِها، وَأَمْسَكَها مِنْ أَنْ تُمُورَ، فِي خَرْقِ الْهَواءِ بِأَيْدِهِ وَأَمَرَها أَنْ تَقِفَ مُسْتَسْلِمَةً لِأَمْرِهِ».

الشرح والتفسير

خلق السموات

أشار الإمامعليه السلام في المقطع السابق من هذه الخطبة إلىٰ الكليات في تدبير عالم الخلق والقوانين التي تسوده، إلىٰ جانب تنوع الموجودات وكثرتها. ويخوضعليه السلام في هذا الجزء من الخطبة والجزء القادم في جزئيات ذلك. فيتعرض بصورة عميقة بعيدة المعنى لخلق السموات والملائكة والأرض والعالم السفلي وخلق آدم وما إلىٰ ذلك. فقد استهل كلامه بادئذي بدء بخلق السموات فقالعليه السلام: **«ونظم بلا تعليق رهوات[1] فرجها، ولاحم[2] صدوع[3] انفراجها»**

---

١. «رهوات» جمع «رهوة»، قال بعض أرباب اللغة (كتاب العين) تعنى المرتفع فوق الجبال، بينما فسرها أغلب أرباب اللغة على انها من مادة «رهو» علىٰ وزن سهو بمعنى المكان الخالي والمفتوح. والانسب أن يكون معناها في الخطبة النقاط المفتوحة. وأخير اعتبرها البعض من الأضداد؛ أي تعني المكان المرتفع والمنخفض أيضاً.

٢. «لاحم» من مادة «لحم» بمعنى ملأ فراغ الشيء، مايصطلح عليه باللحيم، ولعل أصلها اللحم الذي يملأ الفاصلة بين العظام.

٣. «صدوع» جمع «صدع» علىٰ وزن حرف بمعنى الشق.

فالواقع هو أنّ الإمام﴿ع﴾ قد أشار بالعبارة الاولىٰ إلىٰ ما ورد في القرآن الكريم: **﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾**[١] ويصرح علماء الفلك بان الكرات السماوية منفصلة عن بعضها وأنّ التوازن القائم بين القوة الجاذبة والطاردة هى التي تبق على كل واحدة في موضعها. بينما أشارت العبارة الثانية إلىٰ إرتباط أجزاء كل كرة وتماسكها مع بعضها. وعليه فليس هنالك من تضاد بين العبارتين «**ونظم بلا تعليق رهوات فرجها، ولاحم صدوع انفراجها**». فالاولىٰ ناظرة للكل والاخرىٰ للأجزاء (ووحدة الضمائر هنا لا تسبب أى اشكال، لأنهما تعودان إلىٰ السموات، أحدهما إلىٰ المجموع والآخر إلىٰ الجزاء) (لابدّ من الدقة والتمعن هنا).

ثم أشار في العبارة الثالثة إلىٰ الرابطة بين الكرات السماوية القرينة لبعضها، فقال﴿ع﴾: «**ووشج**[٢] **بينها وبين أزواجها**» يمكن أن تكون هذه العبارة إشارة إلىٰ منظومات العالم العلوى المتألف من كرات شبيهة لبعضها إلىٰ جانب النظام الذي كل كرة[٣] ثم أشار﴿ع﴾ في العبارة الرابعة إلىٰ طرق هبوط وصعود الملائكة إلىٰ السموات: «**وذلل للهابطين بأمره، والصاعدين بأعمال خلقه، حزونة معراجها**»[٤].

وهنا يتبادر هذا السؤال: هل الملائكة وجودات مادية ولها صعود وهبوط مادى من وإلى السموات، أم أنّ المراد بهذا الصعود والهبوط هو الصعود والهبوط المعنوي؟ هنالك عدّة أقوال لشرّاح نهج البلاغة بهذا الخصوص.

ظاهر هذه العبارات الواردة في الخطبة وأغلب الروايات والأخبار والآيات القرآنية، أنّ الملائكة وجودات نورية لها بعد جسمي رغم لطافتها التي تحول دون قدرتنا على مشاهدتها، وعلى هذا الأساس يجوز عليها الصعود والنزول والذهاب والاياب. وسنخوض أكثر في هذا الموضوع في المقطع القادم من الخطبة بأذن الله السؤال الآخر الذي يطرح نفسه هنا: هل هناك

---

١. سورة الرعد/٢.
٢. «وشج» من مادة «وشج» على وزن نسج أى شبك.
٣. فسّر البعض «الأزواج» هنا بمعنى الأرواح (النفوس الفلكية) وترمز إلىٰ عقيدة بعض الفلاسفة الذين يرون لكل فلك روحا مجردة، إلّا أنّ الانصاف هو عدم ثبوت هذه النظرية بدليل واضح، كما لا تدل العبارة المذكور علىٰ هذا الأمر.
٤. «حزونة» (ولها معنى المصدر واسم المصدر) بمعنى الصعوبة، وقدوردت في الخطبة بمعنى المشاكل والصعاب.

من مكان يضم الله في السموات لتهبط منه الملائكة فتوصل الرسالات والأوامر ثم تصعد إليه باعمال العباد؟ قطعاً لا يمكن تصور مثل هذا الأمر على الحق سبحانه الذي يفوق عالم المادة ولا يجري عليه زمان ولا يحويه مكان ولا يتركب من أجزاء. اذن فما معنى هذا الصعود والهبوط؟ يبدو أنّ الإجابة علىٰ هذا السؤال تتضح من خلال الالتفات إلىٰ هذه المسألة الدقيقة وهي: صحيح أنّ السموات والأرضين مخلوقات الله، إلّا أنّ هناك بعض المراكز في هذا العالم المادي التي تعد من مواضع إنعكاس الأنوار الإلهية. أو بعبارة أُخرىٰ هناك بعض المواضع التي لها قداسة خاصة. على غرار الأرض التي لا تتساوى جميع بقاعها. على سبيل المثال فقد اتجه موسى بن عمران عليه السلام إلىٰ الطور حين أراد أن يأخذ الألواح، كما كان نبي الإسلام صلى الله عليه وآله يتجه قبيل انبثاق الدعوة إلىٰ غار حراء؛ والحال هذان الموضعان ليسا باقرب من غيرهما إلىٰ الله. إلّا أنّ قديسة بعض المواضع تجعلها أعظم اشعاعاً للأنوار الإلهية كالطور وحراء والمسجد الحرام. وهكذا الأمر بالنسبة للملائكة، فهناك بعض المراكز القدسية في العالم العلوى تتسلم فيها الملائكة الأوامر الإلهية، وهي المراكز التي بلغها رسول الله صلى الله عليه وآله في معراجه، بل جاوزها لما هو أقرب ليفيض الله عليه من لطفه وعنايته، وهناك تستودع الأعمال الخيرة للعباد وتحفظ إلىٰ يوم القيامة.

ثم خاض الإمام عليه السلام في تفاصيل ما أورده سابقا على نحو الاجمال، حيث عرض بالشرح بخمس عبارات لمراحل خلق السموات. فأشار في العبارة الاولىٰ إلىٰ أمره (ويراد به الأمر التكويني لا جتياز مراحل الخلقة والتكامل) السماء حين كانت على هيئة دخان «**وناداها بعد إذ هي دخان**» فهذه العبارة في الحقيقة أشارت إلىٰ أولىٰ مراحل خلق العالم التي تعرضت لها الآية من سورة فصلت ﴿**ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ**﴾[1] وهو الأمر الذي يقره العلم المعاصر في أنّ العالم برمته كان في البداية كتلة عظيمة جداً من الغاز. وقال في العبارة الثانية (حيث وردت الخلقة مرحلة جديدة) «**فالتحمت عرى أشراجها**».

فبالنظر إلىٰ أنّ معنى الالتحام هو الوصل، والعرى جمع عروة بمعنى المقبض، والاشراج جمع

١. لابدّ من الالتفات هنا إلىٰ أنّ ثم الواردة في الآية تعني التأخير في البيان لا الزمان. وعليه فهي لا تدل على أنّ خلق السموات جاء بعد خلق الأرض (راجع التفسير الأمثل/١١ من سورة فصلت).

شرج بمعنى الشق. فانّ مفهوم الجملة المذكورة هو أنّ اللّه ضغط تلك الكتلة العظيمة للدخان. ثم أدال الشقوق وربط أطرافها مع بعضها، وكأنّ هذه الشقوق كالصناديق التي تغلق مقابضها وتوصل مع بعضها لحفظ ما فيها. والعبارة تتفق و ما توصل إليه العلم الحديث الذي صرح بضغط كتلة الغاز بفعل الجاذبية الداخلية. ثم واصل كلامه عليه السلام حول فصل السموات عن بعضها وفتح أبوابها المؤصدة (وقد جعل مسافة بينها) **«وفتق بعد الارتقاء صوامت أبوابها»**. ولعل هذه العبارة إشارة إلىٰ ما توصل إليه العلماء الذين يعتقدون أنّ تلك الكتلة الغازية الهائلة قد شهدت انفجارا داخليا عظيما لتتلاشى وتظهر منها الكواكب والمجرات. وعلىٰ ضوء الفرضية الاخرى فان بعض أجزائها أخذت بالانفصال عن البعض الآخر إثر حركتها الدورانية الشديدة والقوة الطاردة عن المركز، فابتعدت عن بعضها البعض في هذا الفضاء لتتشكل منها الأجرام السماوية. فقد قال القرآن الكريم بهذا شأن **﴿أَوَ لَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ ٱلسَّمٰوٰتِ وَالأَرْضَ كانَتا رَتْقاً فَفَتَقْناهُما﴾**[1].

ثم أشار في العبارة الرابعة إلىٰ خلق الشهب السماوية (التي تشاهد في السماء على هيئة خطوط من النور تتحرك بسرعة) ثم تنطفئ. فقال عليه السلام: **«وأقام رصدا من الشهب الثواقب على نقابها»**[2].

لابدّ من الالتفات هنا إلىٰ أنّ الرصد علىٰ وزن الصدف ذات معنى مصدرى في الأصل وتعنى الاستعداد والتأهب لمراقبة الشيء وحراسته. كما تطلق علىٰ الفاعل وتستخدم في المفرد والجمع. ونقاب جمع نقب بمعنى الطريق أو الفاصلة بين شيئين. وعليه فالعبارة تعنى أنّ اللّه زود طرق السموات بهذه الشهب لتحول دون نفوذ الشياطين إلىٰ السموات؛ الأمر الذي أشير إليه كرارا في عدة آيات من القرآن الكريم، ومن ذلك الآية الثامنة من سورة الصافات **«لايسمعون إلىٰ الملأ الأعلى ويقذفون من كل جانب دحوراً ولهم عذاب واصب إلّا من خطف الخطفة فاتبعه شهاب ثاقب»**. فالذي يستفاد إجمالاً من هذه الآيات وسائرها الواردة

---

١. سورة الأنبياء/٣٠.

٢. المراد بالرؤية هنا تلك التي تحصل عن طريق الفكر والتأمل، لا عن طريق المشاهدة الحسية؛ وذلك لأنه لم يكن الإنسان في ذلك الزمان كما احتمل في تفسير هذه الآية ان المراد من رتق السموات عدم وجود المطر ونمو النباتات، والمراد بفتقها هو نزول المطر ونمو النباتات.

بهذا الشأن أنّ هناك أحاديث تدور في العالم العلوى بين الملائكة المأمورة من قبل الله سبحانه في إدارة شؤون العالم بشأن بعض الأخبار المهمة لهذا العالم، وأنّ الشياطين تحاول أحياناً الاقتراب من السماوات لاستراق السمع، إلّا أنّ الشهب تدفعها عن السماوات.

طبعا صحيح أنّ الشهب علىٰ ضوء العلم الحديث، ليست إلّا صخوراً تائهة تشتعل حين تقترب من الكرة الأرضية وتصطدم بها، إلّا أنّ هذا لا يمنع أن تكون هذه الشهب مأمورة بحراسة فضاء السماء من الشياطين؛ وأنّ تعذرت علينا رؤية الشيطان، وخفيت علينا علىٰ وجه الدقة حركات الشهب (للوقوف بصورة أعمق علىٰ هذا الموضوع المهم، عليك بمراجعة الجلد ١٩ من التفسير الأمثل ذيل الآيات المذكورة) ثم أشار في العبارة الخامسة إلىٰ موضوع مهم آخر ذا صلة بنظام كواكب السماء في أن الله سبحانه أمسكها بيد القدرة من الحركات الطائشة في الفضاء، وأمرها بالتسليم لأمره: «**وامسكهامن أن تمور**[1] **في خرق الهواء بأيده**[2] **وأمرها أن تقف مستسلمة لأمره**».

فالعبارة تنجسم تماما والعلم الحديث الذي صرح بأنّ الكواكب والمنظومات والمجرات في حالة حركة حول مداراتها بفعل تاثرها بالقوة الجاذبية المتناسبة مع كتلتها والقوة الدافعية التي تظهر فيها من جراء الحركة وقوة الطرد المركزى، دون أن تستند إلىٰ شئ أو ادنى انحراف عن مداراتها. بعبارة أُخرى فان التوازن الدقيق للقوة الجاذبية و الطاردية لاتدعها تبتعد عن بعضها لتصبح كتلة واحدة. وقد يتضح هذا المطلب من خلال مفردة تمور (الحركة الطائشة) وخرق الهواء. إلّا أنّ بعض قدماء شرّاح نهج البلاغة الذين عاشوا أجواء نظرية الهيئة البطليموسية القائلة بالأفلاك التسع كقشور البصل، شهدوا بعض المشاكل في تفسير هذه العبارات. فاضطروا لحمل بعض الألفاظ المذكورة علىٰ معناها المجازى، والحال أنّ تفسيرها علىٰ ضوء الهيئة المعاصرة لم يعد خافياً علىٰ أحد.

والعبارة «**أمرها**» و«**لأمره**» أشارة إلىٰ معنيين؛ فالأمر في بداية العبارة الأخيرة يعنى الأمر

---

١. «تمور» من مادة «مور» على وزن قول بعدّة معاني في اللغة ومنها الحركة السريعة والغبار الذي تبعثره الرياح هنا وهناك، والذي يستفاد من تعبيرات أرباب اللغة أنها تعنى الاضطراب في الهواء.

٢. «أيد» على وزن صيد بمعنى القدرة والنعمة، وجاء في القرآن ذا الأيد بمعنى صاحب القوة وهذا هو المعنى المراد بها في الخطبة.

الإلهي التكويني، والأمر في آخر الجملة يعني قوانين الخلق. أي أنّ الله خلقها بهذا الشكل لتكون منقادة مستسلمة لهذه القوانين.

تأمّل

خصائص السماوات

لقد رسم الإمام عليه السلام بهذه العبارات صورة رائعة بليغة عن الخلقة العجيبة للسموات، فأشار أولاً: إلىٰ بداية خلقها على أنّها كانت في البداية بمثابة كتلة غازية عظيمة.

ثانياً: الانفجار الهائل الذي وقع في تلك الكتلة العظيمة، والانفصال الذي شهدته الكواكب والمجرات عن بعضها البعض.

ثالثاً: تعلق الكواكب في هذا الفضاء الواسع على أنه آية من آيات عظيمة وقدرته سبحانه تعالى.

رابعاً: الحركات المنظمة للكرات السماوية حول مداراتها والخالية من أية حركات عشوائية (بفعل توازن قوتى الجذب الطرد).

خامساً: حركة الملائكة وصعودها وهبوطها بين الأرض والسماء و المراكز المقدسة، حيث تهبط بالاوامر وتصعد بأعمال العباد.

سادساً: ارسال الشهب التي ترجم الشياطين حين تحاول الصعود إلىٰ السماء بغية استراق السمع، حيث بينها الإمام عليه السلام على سبيل الاختصار بعبارات قصيرة وبليغة حيث يتطلب كل منها بحثا مستقلاً.

ولاينبغي أن ننسى هنا أنّ كل ذلك قد حصل في زمان لم تكن تحكم العقول والأفكار فيه سوىٰ نظرية بطليموس في الأفلاك والسماوات. ولابدّ من الاذعان بأنّ بيان هذه الحقائق في ذلك الوقت قد يبلغ حدّ الاعجاز، ليدل دلالة واضحة علىٰ مدىٰ علم الإمام عليه السلام الذي استقاه من مصادر غير عادية متعارفة [1].

---

١. ورد شرح مفصل لهذا الموضوع في المجلد الأول من هذا الكتاب / ١٠٢ ـ ١٢٠.

القسم العاشر

«وَجَعَلَ شَمْسَهٰا آيَةً مُبْصِرَةً لِنَهٰارِهٰا، وَقَمَرَهٰا آيَـةً مَـمْحُوَّةً مِـنْ لَـيْلِهٰا، وَأَجْرٰاهُمٰا فِي مَنٰاقِلِ مَجْرٰاهُمٰا، وَقَدَّرَ سَيْرَهُمٰا فِي مَدٰارِجِ دَرَجِهِمٰا، لِيُمَيِّزَ بَيْنَ اللَّيْلِ وَالنَّهٰارِ بِهِمٰا، وَلِيُعْلَمَ عَدَدُ السِّنِينَ وَالْحِسٰابُ بِمَقٰادِيرِهِمٰا، ثُمَّ عَلَّقَ فِي جَوِّهٰا فَلَكَهٰا، وَنٰاطَ بِهٰا زِينَتَهٰا، مِنْ خَفِيّٰاتِ دَرٰارِيِّـهٰا وَمَـصٰابِيحِ كَـوٰاكِـبِهٰا، وَرَمَى مُسْتَرِقِي السَّمْعِ بِثَوٰاقِبِ شُهُبِهٰا، وَأَجْرٰاهٰا عَلَى أَذْلاٰلِ تَسْخِيرِهٰا مِـنْ ثَبٰاتِ ثٰابِتِهٰا، وَمَسِيرِ سٰائِرِهٰا، وَهُبُوطِهٰا وَصُعُودِهٰا، وَنُحُوسِهٰا وَسُعُودِهٰا».

الشرح والتفسير

خلق الشمس والقمر والشهب والكواكب

أشار الإمامعليه السلام في هذا المقطع من الخطبة إلىٰ خلق الشمس والقمر والكواكب وفلسفتها الوجودية، ثم شرح بعبارات بليغة الفوائد والبركات لهذه الكواكب، حيث أشار إلىٰ خلق الشمس وما يختزنه ضياؤها من بركات: «**وجعل شمسها آية مبصرة لنهارها**».

ثم أضافعليه السلام قائلاً: «**وقمرها آية ممحوة من ليلها**».

حيث إختلفت أقوال شرّاح نهج البلاغة في تفسير هذه العبارة فقال البعض المراد ممحوة بليالى المحاق الليالى الظلماء في آخر الشهر. وقال البعض الآخر القطع السوداء على سطح القمر. وقيل أيضاً المراد بهوت لون القمر تدريجياً بعد منتصف الليل. ولكن لا يبدو أي من هذه التفاسير تاماً. والمراد بقوله ممحوة هو قلّة ضياء القمر بالنسبة لضياء الشمس. على كل حال فانّ هذه العبارة تتفق تماماً والآيات القرآنية التي عدت الليل والنهار من آيات اللّه:

﴿وَمِنْ آياتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهارُ وَالشَّمْسُ وَالقَمَرُ﴾[١] ولاتخفي بركات ضياء النهار وأشعة الشمس على حياة البشرية التي يعزي إليها كافة الأنشطة والفعاليات والسعي والحركة من أجل العيش والحياة، كما أنّ الضياء المتواضع واللطيف للقمر في الليالى الظلماء والذي يقود إلىٰ حل أغلب مشاكل الحياة البشرية، كما كان يستعين الإنسان حين الضرورة في الطرق بضياء القمر ولاسيما في الصحراء. وفي ذات الوقت فانّه ليس علىٰ درجة من القوة بحيث يعيق حركته ونشاطه في النهار، وهذه نعمة أُخرى من نعمه سبحانه.

ثم تطرق الإمامعليه السلام إلىٰ حالات الشمس والقمر وفلسفتها الوجودية فقال: «**واجراهما في مناقل**[٢] **مجراهما، وقد سيرهما في مدارج درجهما، ليميز بين الليل والنهار بهما، وليعلم عدد السنين والحساب بمقاديرهما**»، وهو الأمر الذي أشار إليه القرآن الكريم بقوله: **﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِياءاً وَالقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالحِسابَ﴾**،[٣] فمعلوم إنفصال الليل عن النهار بواسطه الشمس. ثم تطرق الإمامعليه السلام إلىٰ الكواكب فقال: «**ثم علق في جوها فلكها، وناط**[٤] **بها زينتها، من خفيات دراريها**[٥]، **ومصابيح كواكبها**». فقد أشارعليه السلام إلىٰ نوعين من الكواكب السماوية: الأول الكواكب الصغيرة التي عبر عنها الإمامعليه السلام بقوله خفيات دراريها، والثاني الكواكب الكبيرة والتي عبر عنها بالقول مصابيح. ونعلم بالطبع أنّ هذا التقسيم للكواكب إلىٰ صغيرة وكبير إنّما يستند إلىٰ رؤيتنا، وإلّا فأنّ أغلب هذه الكوكب الصغيرة قد تكون عظيمة الكبر حتى أنّها لتكبر شمسنا التي تعتبر إحدىٰ الكواكب السماوية المتوسطة إلّا أنّها تبدو صغيرة بسبب بعدها عن أبصارنا، وعلى العكس من ذلك بالنسبة للكواكب التي تبدو لنا كبيرة (من قبيل كوكب الزهرة) والذي يعدّ جزءاً من سيارات المنظومة الشمسية، وبسبب قربه يبدو شديد الاشعاع، والحال ليست الزهرة إلّاكوكب صغير. على كل حال فانّ هذه الكواكب السماوية لتزين الليل بما يجعله يخطف

---

١. سورة فصلت/٣٧.
٢. «مناقل» جمع «منقل» من مادة «نقل» بمعنى الطريق.
٣. سورة يونس / ٥.
٤. «ناط» من مادة «نوط» على وزن موت توقف الشئ علىٰ آخر.
٥. «دراري» جمع «دري» من الدر الكواكب والقمار.

البصر، فضلاً عن دلالتها علىٰ عظمة الحق سبحانه وعدم تناهي قدرته وحكمته.

طبعا تشكل الكواكب بدورها عالما مستقلاً، ويرى أغلب العلماء أنّ معظمها قد يكون مأهولا بالسكان وتسودها الحياة؛ غير أنّه يتعذر علينا تصور كيفية الحياة عليها، على كل حال فانّ دور هذه الكواكب في حياتنا لا يقتصر على تزيين السماء ليلاً فحسب، بل يمكن الاهتداء بها في البحار والصحارى؛ الأمر الذي أشار إليه القرآن الكريم: **﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾**[1] و بغض النظر عن ذلك فلعل الجاذبية بين الكواكب و الأجرام السماوية هي التي ضمنت حفظ و بقاء الكرة الأرضية ثم أشار الإمامﷺ إلىٰ ظاهرة أُخرى من الظواهر السماوية العجيبة وهي الشهب **«ورمى مسترقى[2] السمع بثواقب شهبها»**.تحدثنا سابقاً بالقدر الكافي عن الشهب وارجعنا القارئ إلىٰ المصدر الذي اسهب في شرح هذا الموضوع، ولكن يبدو تكرارها في هذا الموضع من كلام الإمامﷺ هو أنّها قد تبدو للناظر في الأرض أحياناً ككوكب متحرك، ومن هنا أشار إليها الإمامﷺ إلىٰ جانب تقسيمه للكواكب. ثم تناول الإمامﷺ بعض خصائص هذه الكواكب فقال: **«وأجراها على أذلال[3]، تسخيرها من ثبات ثابتها، ومسير سائرها، وهبوطها وصعودها، ونحوسها وسعدها»** وسنخوض في المباحث القادمة في موضوع الكواكب الثابتة والسيارة والهبوط والصعود وكيفيه نحسها وسعدها.

تأمّلات

١ـ الكواكب الثابتة والسيارة

نعلم أنّ الكواكب التي نراها في السماء تقسم من جهة إلىٰ قسمين: ثابتة و سيارة وسيار. والكواكب الثابتة هي التي لا تغير أوضاعها في السماء؛ فهي تطلع من جانب وتغيب في آخر دون أن يرى تغيير في مسافتها (طبعا لها حركة، إلّا أنّ هذه الحركة لاتؤثر في المسافات بسبب

١. سورة الانعام/٩٧.
٢. «مسترقى» جمع «مسترق» بمعنى السارق ومنه استرق السمع، أي سماعة خفية.
٣. «أذلال» جمع «ذل» بكسر الذال المجرىٰ والمسير.

بعدها الشاسع عنا). أمّا الكواكب السيارة فهى عدة كواكب ضمن مجموعة المنظومة الشمسية التي تدور حول الشمس، ولما كانت مسافتها قليلة جداً عن الكرة الأرضية بالنسبة لسائر الأجرام السماوية، فانّ حركتها في السماء واضحة تماماً، وهى في تغيير مستمر لموضعها بالنسبة إلينا.

٢ـ خصائص الكواكب

هنالك مميزات أُخرى للكواكب والنجوم ومنها الهبوط والصعود. فهى تتجه في حركتها نحو الأعلىٰ صاعدة أحيانا وإلى الاسفل نازلة أحياناً أُخرىٰ. وأوضح نموذج علىٰ ذلك الشمس التي تبدأ اوائل الشتاء متألقة في مدارها لتشاهد كل يوم في موضع أعلى في السماء، حتى تكون أحيانا فوق الرأس بالضبط وذلك حتى أوائل فصل الصيف حتى تبلغ ذروتها. ثم تبدأ مسيرتها التنازلية منذ شروع الصيف لتصل في أول الشتاء إلىٰ أدنى نقطة في الأرض (طبعا هذه التغييرات ليست مرتبطة في الواقع بالشمس، بل ترتبط بتغيير وضع الأرض في حركتها المداريه حول الشمس وانحراف محور الأرض بالنسبة لسطح المدار بنسبة ٢٣ درجة). فهذه العبارات تدل علىٰ إحاطة الإمامعليه‌السلام بالمسائل الفلكية، حيث أشار إلىٰ هذه المسائل باروع بيان.

٣ـ سعد ونحس الكواكب

أمّا بشأن سعد هذه الكواكب ونحسها، فلو أردنا النظر إلىٰ بداية هذا الأمر فانّها تعود إلىٰ جمع من المنجمين القدماء. حيث كانوا يعتبرون بعضها نحساً، ويعتقدون بان طلوعها وتغيير أوضاعها يؤدي إلىٰ وقوع بعض الحوادث في الحياة الخاصة لبعض الأفراد (لأنهم يرون لكل فرد كوكباً)، وبالعكس فانّ ظهور أو تغيير أوضاع البعض الآخر من الكواكب علامة على السعادة والتوفيق التي تصيب المجتمع أو الفرد؛ والحال نعلم أنّ الإسلام لا يرىٰ من تأثير للكواكب علىٰ مصير الإنسان. ويعتبر ذلك نوعاً من الشرك. وقد مر علينا في الخطبة ٧٩ من المجلد الثالث ما قاله أميرالمؤمنين علىعليه‌السلام لذلك المنجم الذي قال له حين عزم على المسير

إلىٰ الخوارج: إن سرت يا أميرالمؤمنين في هذا الوقت خشيت ألا تظفر بمرادك من طريق علم النجوم. فغضبعليه السلام ورد كلامه وأنّ من صدقه فقد كذب القرآن الكريم واستغنى عن الاستعانة بالله في نيل المحبوب ودفع المكروه. ثم نهى الإمامعليه السلام الناس عن تعلم النجوم إلا ما يهتدى به في بر أو بحر. كما تظافرت الروايات والأخبار التي وردتنا عن أئمة العصمةعليهم السلام بذم ذلك العلم من النجوم، لتجعل المنجم في مصاف الكاهن والساحر الذي عد كافرا. ومن ذلك ماورد عن رسول اللهصلى الله عليه وآله أنّه قال: «**من صدق كاهنا أو منجما فهو كافر بما أنزل على محمد**»[1]، وعدة أحاديث بهذا الشأن. لاشك أنّ قدماء المنجمين كانوا على مذاهب بالنسبة لإرتباط الكواكب بمصير الإنسان والتي بينت بصورة تامة في شرح الخطبة ٧٩. ولعله يمكن القول أنّ هذه الروايات ناظرة إلىٰ الأفراد الذين يرون تدبير هذا العالم بيد هذه الكوكب وأنّ لها نوع من الأُلوهية. نعم ليس من الكفر أن يقال للكواكب دلالة فقط على وقوع مثل هذه الحوادث (بأمرالله)؛ ولكن ليس هناك من دليل لاثبات هذا الأمر. فلهذه الكواكب عوالمها، كما للكرة الأرضية وسكانها عالم. ولم يقم أي دليل علمي علىٰ الرابطة المذكورة، مثلاً طلوع الكوكب الفلاني وغروب الكوكب الفلاني أو إقتران هذا الكوكب مع ذاك مؤثر في نشوب الحرب أو السلم؛ كما لايمكن في نفس الوقت نفي هذا التأثير بصورة قاطعة وإن سمع ذلك من غير المعصوم. طبعاً لايسعنا التنكر لما ورد في بعض الروايات التي صرحت بكراهية الزواج والقمر في العقرب، إلّا أننا أشرنا في حينه إلىٰ عدم وجود أي تضارب بهذا الخصوص. ومن هنا فان السعد والنحس الذي ورد في الخطبة قد يكون إشارة إلىٰ هذه الأُمور. كما يحتمل أن تكون لاوضاع الكواكب ـ ولا سيما سيارات المنظومة الشمسية ـ في مداراتها مقارنة مع بعضها البعض الآخر بعض التأثيرات الطبيعية علىٰ الكرة الأرضية. فمثلاً نعلم أن ظاهرة المد والجزر التي تشهدها البحار إنّما تنشأ بفعل تأثير جاذبية القمر (إثر اقتراب الشمس من القمر أوائل الشهر وآخره) ولعل تأثيرها يتجاوز البحار لتوثر حتى على سطح الأرض ممّا يؤدي إلىٰ تشققها وحدوث بعض الزلازل. كما قد يسبب ذلك التأثير هطول بعض الأمطار الغزيرة على الأرض وعليه فقد يكون السعد والنحس للكواكب إشارة إلىٰ هذا التاثير الطبيعي الخاص.

---

١. وسائل الشيعة ١٠٤/١٢. للوقوف علىٰ سائر الأحاديث الواردة بهذا الشأن راجع الباب ٢٤ من أبواب ما يكتسب به.

القسم الحادي عشر

«ثُمَّ خَلَقَ سُبْحَانَهُ لِإِسْكَانِ سَمَاوَاتِهِ، وَعِمَارَةِ الصَّفِيحِ الْأَعْلَى مِنْ مَلَكُوتِهِ، خَلْقاً بَدِيعاً مِنْ مَلَائِكَتِهِ، وَمَلَأَ بِهِمْ فُرُوجَ فِجَاجِهَا، وَحَشَا بِهِمْ فُتُوقَ أَجْوَائِهَا، وَبَيْنَ فَجَوَاتِ تِلْكَ الْفُرُوجِ زَجَلُ الْمُسَبِّحِينَ مِنْهُمْ فِي حَظَائِرِ الْقُدُسِ، وَسُتُرَاتِ الْحُجُبِ، وَسُرَادِقَاتِ الْمَجْدِ، وَوَرَاءَ ذَلِكَ الرَّجِيجِ الَّذِي تَسْتَكُّ مِنْهُ الْأَسْمَاعُ سُبُحَاتُ نُورٍ تَرْدَعُ الْأَبْصَارَ عَنْ بُلُوغِهَا، فَتَقِفُ خَاسِئَةً عَلَى حُدُودِهَا».

الشرح والتفسير

خلق الملائكة

خاض الإمامعليه السلام في هذا القسم من الخطبة في خلق الملائكة ومختلف المسؤوليات والوظائف التي يقومون بها، بعبارات تبطل فصاحة العرب وتجعل نسبة التراب إلى النضار الخالص كما صرح بذلك ابن أبي الحديد. فقالعليه السلام: «**ثم خلق سبحانه السكان سمواته، وعمارة الصفيح[1] الاعلى من ملكوته، خلقا بديعا من ملائكة، وملأ بهم فروج فجاجها، وحشابهم فتوق[2] أجوائها[3]**». يمكن ان تكون (ثم) إشارة إلى خلق الملائكة بعد خلق الأرض وما عليها من كائنات، كما يمكن أن تكون وردت للتأخير في البيان لا الزمان. ويبدو الاحتمال

---

1. «صفيح» من مادة «صفح» تعني في الأصل الانبساط والسعة، وعليه فهي تأتي بمعنى السطح الواسع، وقد وردت هنا بمعنى السماء الواسعة.
2. «فتوق» جمع «فتق» بمعنى الشق في الشيء أو الفاصلة بين شيئين، والفارق بين «الفروج» جمع فرج بمعنى الشق هو سعة الفتق، كما قد يكون إشارة إلى الشق الذي يفصل بين الشيئين، بينما ليس للفرج مثل هذا الفصل، ولا يعني سوى الشق في الشيء.
3. «أجواء» جمع «جو» بمعنى الهواء أو الفاصلة بين السماء والأرض.

الأخير أنسب بالالتفات إلىٰ الروايات التي صرحت بخلق السموات قبل خلق الكائنات الأرضية إلىٰ جانب ما جاء في الخطبة الاولىٰ من نهج البلاغة التي مرّ شرحها. ثم صرح عليه السلام أنّ أصوت المسبحين قد ملأت أقطار السماء ودوت في حظائر القدس وسترات حجب العظمة: «**وبين فجوات**[١] **تلك الفروج زجل**[٢] **المسجين منهم في حظائر**[٣] **القدس، وسترات الحجب، وسرادقات**[٤] **المجد**». إلّا ان هذا لا يعنى ان الملائكة المقربين استطاعوا أن يبلغوا أوج معرفة سبحانه، ومن هنا أتبع الإمام عليه السلام ذلك بقوله أنّ وراء تلك الصيحات والتسبيحات، سبحات النور التي تردع الأبصار وتوقفها عند حدها «**ووراء ذلك الرجيج**[٥] **الذي تستك**[٦] **منه الأسماع سبحات**[٧] **نور تردع الأبصار عن بلوغها، فتقف خاسئة**[٨] **على حدودها**».

طبعا لا تعنى هذه العبارة أنّ لله سبحانه وتعالىٰ موضع في السموات وقد أحيط من كل جانب بطبقات من الأنوار الشديدة، بل المراد أنّ هناك مراكز مقدسة في عالم الوجود تعجز عن مشاهدتها حتى الملائكة. كما يمكن ان يكون المراد من هذه العبارة أنّ ملائكة ورغم قربها من الله وغرقها في العبادة والتسبيح، إلّا أنّها عاجزة عن إدراك كنه ذاته وصفاته سبحانه، وليس لها من نصيب سوىٰ على قدر إدراكها.

بعبارة أُخرىٰ لو حملنا هذه العبارات وفسرناها على أساس ظاهرها فانّها تفيد أنّ في السماء مواضع تتمتع بقدسية خاصة وهالة من النور (وهو المعنى الذي أشارت إليه بعض الروايات والأخبار)[٩].

---

١. «فجوات» جمع «فجوة» الموضع الواسع، كما تأتي بمعنى الفراغ بين الشيئين، وردت في قصة أصحاب الكهف في القرآن كاشارة لسعة غار أصحاب الكهف ﴿وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ﴾.

٢. «زجل» من مادة «زجل» على وزن حمل بمعنى قذف الشيء، وزجل على وزن عمل بمعنى الصوت المرتفع والمطرب، كما اطلقت على كل صوت مرتفع.

٣. «حظائر» جمع «حظيرة» المنطقة الممنوعة ومادتها «حظر» على وزن فرض بمعنى المنع.

٤. «سرادقات» جمع «سرادق» الحجاب والخيمة العظيمة.

٥. «رجيج» من مادة «رج» على وزن حج الزلزلة والاضطراب.

٦. «تستك» منه تصم منه الاذان لشدته.

٧. «سبحات» جمع «سبحة» بمعنى النور والعظمة، واضافتها إلىٰ النور في العبارة هي إضافية بيانية.

٨ «خاسئة» من مادة «خسأ» على وزن مدح الدفع والطرد مع التحقير.

٩. راجع بهذا الشأن بحارالأنوار، ج ٥٥ كتاب «السماء العالم» الباب ٥ (الحجب والاستار والسرادقات).

وعلى غرار ذلك فهناك على الأرض بعض المراكز التي تحظى بحرمة وقدسية تفوق غيرها كالكعبة وبيت المقدس، دون ان تكون موضعا لذاته المقدسة سبحانه. وان حملناها على المعنى الكنائي، فانّها ستكون دليلاً على أن للملائكة حداً لاتتجاوزه رغم قربها و عبادتها و عبادتهم.

ﮊﮋ

القسم الثاني عشر

«وَأَنْشَأَهُمْ عَلَى صُوَرٍ مُخْتَلِفَاتٍ، وَأَقْدارٍ مُتَفاوِتاتٍ «أُولِي أَجْنِحَةٍ» تُسَبِّحُ جَلالَ عِزَّتِهِ، لا يَنْتَحِلُونَ ما ظَهَرَ فِي الْخَلْقِ مِنْ صُنْعِهِ، وَلا يَدَّعُونَ أَنَّهُمْ يَخْلُقُونَ شَيْئاً مَعَهُ مِمّا انْفَرَدَ بِهِ «بَلْ عِبادٌ مُكْرَمُونَ * لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ» جَعَلَهُمُ اللّٰهُ فِيما هُنالِكَ أَهْلَ الأَمانَةِ عَلَى وَحْيِهِ، وَحَمَّلَهُمْ إِلَى الْمُرْسَلِينَ وَدائِعَ أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ، وَعَصَمَهُمْ مِنْ رَيْبِ الشُّبُهاتِ، فَما مِنْهُمْ زائِغٌ عَنْ سَبِيلِ مَرْضاتِهِ، وَأَمَدَّهُمْ بِفَوائِدِ الْمَعُونَةِ، وَأَشْعَرَ قُلُوبَهُمْ تَواضُعَ إِخْباتِ السَّكِينَةِ، وَفَتَحَ لَهُمْ أَبْواباً ذُلُلاً إِلَى تَماجِيدِهِ، وَنَصَبَ لَهُمْ مَناراً واضِحَةً عَلَى أَعْلامِ تَوْحِيدِهِ».

8003

الشرح والتفسير

وظائف الملائكة

خاض الإمامعليه السلام هنا في بيان مختلف صور الملائكة وتقاسمها المسؤوليات و جانبا من مميزاتها فقالعليه السلام: **«وأنشأهم على صور مختلفات، وأقدار متفاوتات «أولى أجنحة» تسبيح جلال عزته»**[1].

حمل بعض شرّاح نهج البلاغة هذه العبارات على ظاهرها وقالوا: الملائكة أشكال مختلفة واقدار متفاوتة ولها أجنحة وهى دائمة التسبيح للّٰه سبحانه. بينما ذهب البعض الآخر إلىٰ أنّ هذه العبارات كناية عن تفاوت مقامات الملائكة ودرجات قوتها و قدرتها. ولما كانت

---

١. يمكن أن تكون العبارة «تسبح جلال عزته» أشارة إلىٰ تسبيح الملائكة أمام جلال الحق وعزته، والصيغة المؤنثة بسبب مفهومها الجمعي.

الأجنحة وسيلة لدىٰ الطيور للتحليق في السماء وكيفية تفاوتها في التحليق تبعا لكيفية هذه الأجنحة، فانّ هذه العبارة بشأن الملائكة إشارة إلىٰ تفاوتهامن حيث القوه والقدرة على القيام بالوظائف والمسؤوليات. صحيح أننا مكلفون بحمل جميع الفاظ القرآن الكريم وكلمات الأئمة المعصومين عليهم السلام على معانيها الحقيقة، دون حملها على الكناية والمجاز ما لم تكن هناك قرينة واضحة في الكلام، ولكن بالنظر إلىٰ العبارات التي تواصل فيها كلام الخطبة بشأن أوصاف الملائكة، يبدو من المستبعد حمل هذه العبارات علىٰ معناها الظاهرى، ومن ذلك: «**ومنهم من قد خرقت أقدامهم تخوم الأرض السفلى...**»، وكذلك العبارات التي وردت سابقاً بشأن الملائكة، كالذي ورد فيها في الخطبة الاولىٰ بشأن الملائكة: «**ومنهم الثابتة في الارضين السفلى أقدامهم، والمارقة من السماء العليا أعناقهم...**»[1]، فهذه العبارات يمكن أن تكون قرينة واضحة على أنّ لمثل هذه الأوصاف بعدكنائي ومعنوي لا ظاهري ومادي. ثم أشار عليه السلام في مواصلة كلامه إلىٰ بعض خصائص الملائكة وقال: «**لا ينتحلون[2] ما ظهر في الخلق من صنعه، ولايدعون أنّهم يختلقون شيئاً معه ممّا انفرد به**»، ثم اردف عليه السلام كلامه مباشرة بما ورد في القرآن الكريم بشأن التسليم المطلق للملائكة أمام إرادة اللّٰه سبحانه وتعالىٰ فقال: ﴿**عِبادٌ مُكْرَمُونَ * لا يَسْبِقُونَهُ بِالقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ**﴾[3]، نعم فهم آذان صاغية لأوامره سبحانه وانقياد مطلق لإرادته، وهذه أولىٰ خصائص الملائكة التي أشارت اليها الخطبة، كما تشير ضمنياً إلىٰ عصمة الملائكة وبعدهاعن الذنب والمعصية والخطأ والزلل، فهى تبطل كافة مزاعم مشركي العرب وغيرهم ممن قال بربوبيتها واُلوهيتها، وتصفهم بأنّهم عباد مطيعون منقادون وليس لهم أن يكونوا شركاء اللّٰه في الخلق.

ثم أشار الإمام عليه السلام إلىٰ وظيفة اُخرى من وظائف الملائكة بصفتهم حملة الوحي فقال: «**جعلهم اللّٰه فيما هنالك أهل الامانة على وحيه، وحملهم إلىٰ المرسلين ودائع أمره ونهيه، وعصمهم من ريب الشبهات. فما منهم زائغ[4] عن سبيل مرضاته**» فالعبارة وإن

---

١. راجع المجلد الأول من هذا الشرح /١٥٩.
٢. «ينتحلون» من مادة «انتحال» بمعنى إدعاء الشخص شيئا لصالحه، وهو يتعلق بآخر.
٣. سورة الأنبياء/٢٦ـ٢٧.
٤. «زائغ» من مادة «زيغ» على وزن ميل بمعنى العدول عن الحق.

نسبت ابلاغ الوحي الإلهي إلىٰ جميع الملائكة، إلّا أنّ المفروغ منه هو أنّ المراد طائفة منهم؛ الأمر الذي صرح به القرآن الكريم بقوله: ﴿**ٱللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا**﴾.[1] كما صرح ﷺ في الخطبة الاولى من نهج البلاغة بهذا المعنى قائلاً: «**ومنهم أمنا على وحيه، وألسنة إلىٰ رسله**». و هذا تعبير متداول بشأن الأعمال المهمة التي تصدر من فئة معينة ضمن جماعة لتحسب على أساس تلك الجماعة.

على كل حال فانّ العبارة تشير إلىٰ مدىٰ أمانة الملائكة في ابلاغ الوحي وايصاله علىٰ نحو الدقة دون نقيصة أو زيادة والوقع هو أنّ الإمام ﷺ أشار بالعبارتين الأخيرتين إلىٰ عصمة الملائكة من الذنب والزلل، حيث أشارت العبارة الاولىٰ إلىٰ عصمتها عن الشبهة والشك والخطئ والثانية إلىٰ عصمتها عن الذنب والمعصية وعدم مخالفة الأوامر الإلهية. كما أشار ﷺ باربع عبارات إلىٰ عناية سبحانه بملائكة الوحي من أجل قيامها بهذه الوظيفة بصورة صحيحة. قال في العبارة الاولىٰ أنّه أمدهم سبحانه بلطفه وعنايته ليقوموا بهذه الوظيفة الخطيرة على أكمل وجه «**وأمدهم بفوائد المعونة**». ثم قال في العبارة الثانية «**وأشعر قلوبهم تواضع إخبات السكينة**»[2] كما فتح لهم باب مدحه وتمجيده وسهل لهم ذلك زيادة في عصمتهم وعلو مقامهم. وهذا ما أورده في العبارة الثالثة «**وفتح لهم أبواباً ذللاً[3] إلى تماجيده[4]**». ثم قال في العبارة الرابعة «و نصب لهم منارا واضحة على أعلام توحيده» فقد أوجز الإمام ﷺ بهذه العبارات أشكال الملائكة وصورها والفوارق بينها في القوة و القدرة، إلىٰ جانب بيان أحدى أهم وظائفها في ابلاغ الوحي و صفات هذه الطائفة المبلّغة للوحي.

تأمّل

لم الملائكة واسطة الوحي؟

نعلم أنّ الوحي يحصل بعدة صور: فقد يكون أحياناً بواسطة الملك الذي يحمل رسالة اللّه

---

١. سورة الحج/٧٥.
٢. «اخبات» الخضوع والخشوع والتواضع.
٣. «ذلل» جمع ذلول السهل.
٤. «تماجيد» جمع «تمجيد» بيان المجد والشرف والعظمة الشخصية.

من قبيل نزول الوحي علىٰ نبي الإسلام بواسطة جبرئيل‌عليه‌السلام. كما يكون أحياناً أُخرىٰ عن طريق سماع الأمواج الصوتية التي تحدثها القدرة الإلهية في الفضاء كنزول الوحي علىٰ نبي الله موسىٰ‌عليه‌السلام عن هذا الطريق. كما نزل علىٰ النبي‌صلى‌الله‌عليه‌وآله ـ طبق بعض الروايات ـ مثل هذا الوحي في المعراج. كما يحصل عن طريق الالهام و الإلقاء في الروع؛ الأمر الذي حصل للنبي‌صلى‌الله‌عليه‌وآله في بعض المواقع الضرورية. وهنا يبرز هذا السؤال: مادام هناك طريق للوحي من خلال ايجاد الصوت أو الالهام، فما الضرورة لأن تكون الملائكة واسطة للوحي؟

للإجابة علىٰ هذا السؤال المهم، يمكن القول أنّ لنزول الملائكة بعض المزايا منها:

١ـ لما كانت الملائكة موجودات مجردة، وللإنسان ـ كائنا من كان ـ بعد مادي وجسماني وروحاني فانّ تلقي الوحي عن طريق الملائكة أهون وأسهل علىٰ الأنبياء من تلقي الوحي بصورة مباشرة. بينما يكون أصعب و أثقل إن كان بصورة مباشرة.

٢ـ أنّ نزول الملك يفيد الاطمئنان أكثر إلىٰ الوحي، إلىٰ جانب الأهمية الفائقة لهذا لأمر، لأنّ الله أمر أعظم ملائكتة للقيام بوظيفة ابلاغ الوحي. والجدير بالذكر أنّ بعض الروايات والأخبار صرحت بتشييع فريق من الملائكة (يصل عددهم أحياناً إلىٰ سبعين ألف ملك) لبعض السور القرآنية حين نزول جبرئيل بها علىٰ النبي‌صلى‌الله‌عليه‌وآله لتتضح للجميع أهمية ذلك الموضوع، وبالطبع فانّ هذا الأمر لايتحقق في ظل الالهام أو سماع الصوت. وإن كانت لهذه الأخيرة خصائصها ومميزاتها.

القسم الثالث عشر

«لَمْ تُثْقِلْهُمْ مَوصِرَاتُ الآثَامِ، وَلَمْ تَرْتَحِلْهُمْ عُقَبُ اللَّيَالي وَالأَيَّام، وَلَمْ تَرْمِ الشُّكُوكُ بِنَوَازِعِهَا، عَزِيمَةَ إِيمَانِهِمْ، وَلَم تَعْتَرِكِ الظُّنُونُ عَلَىٰ مَعَاقِدِ يَقِينِهِمْ، وَلاَ قَدَحَتْ قَادِحَةُ الإِحَنِ فِيمَا بَيْنَهُمْ، وَلاَسَلَبَتْهُمُ الْحَيْرَةُ مَا لاَقَ مِنْ مَعْرِفَتِهِ بِضَمائِرِهِمْ، وَمَا سَكَنَ مِنْ عَظَمَتِهِ وَهَيْبَةِ جَلاَلَتِهِ فِي أَثْنَاءِ صُدُورِهِمْ، وَلَمْ تَطْمَعْ فِيهِمُ الْوَسَاوِسُ فَتَقْتَرِعَ بِرَيْنِهَا عَلَىٰ فِكْرِهِمْ».

الشرح والتفسير

الانقطاع إلى الله

ذكر الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبة ما يكمل كلامه في صفات الملائكة ـ ولا سيما صفة العصمة عن الذنب والمعصية ـ ليوضح ذلك بسبع عبارات قصيرة عظيمة المعنى، قال في الاولىٰ أن ثقل الذنوب لم يعجزهم ويقعدهم فهم لايقارفون الذنب أبداً: «**لم تثقلهم موصرات**[1] **الاثام**»، في إشارة إلى أنّ الذنب عادة ما يثقل كاهل الإنسان في مسيرة الطاعة، ولما كانت الملائكة لا ترتكب الذنب قط فهي خفيفة على الدوام ومتأهبة للطاعة، ولذلك لايبدو صحيحاً ما احتمله بعض شرّاح نهج البلاغة في تفسيرهم لهذه العبارة من أنّ الذنوب التي يرتكبها الناس لاتجعلهم متقاعسين في عملهم، وذلك لعدم انسجامه وسائر عبارات هذه الخطبة. ثم أشار عليه السلام في العبارة الثانية إلى أنّ الذهاب والاياب وتعاقب الليل والنهار لم يسق هذه الملائكة إلى الموت (ليستولى عليها الضعف، فهي متأهبة دائما للطاعة) «**ولم ترتحلهم عقب**[2] **الليالي والأيام**»، يحتمل أن يكون المراد عدم الانتقال من الحياة إلى الموت، بل الانتقال

---

١. «موصرات» من مادة «اصر» بمعنى الحفظ والسجن، ثم اطلق على كل فعل ثقيل يعيق الانسان عن العمل، ومؤصرات الأثام مثقلاتها.

٢. «عقب» جمع «عقبة» على وزن غرفة وجمعها غرف تعني النوبة. إشارة إلى تعاقب الليل والنهار حسب نوبتهما.

من الطاعة إلىٰ المعصية أي أنّ طول الزمان لم يرهقها قط ولم يبعدها عن طاعة الحق سبحانه وتعالىٰ ـ وقال ﷺ في العبارة الثالثة أن سهام الشك لم تستطع أن ترم عزم إيمانهم: «**ولم ترم الشكوك بنوازعها**[1] **عزيمة ايمانهم**» ثم قال ﷺ في العبارة الرابعة «**ولم تعترك**[2] **الظنون على معاقد يقينهم**» كما أشار ﷺ إلىٰ عدم وجود العوامل التي تدعوا إلىٰ إثارة نيران الحقد والعداء والضغينة لديهم (لكي يجد الضعف من سبيل إلىٰ وظائفهم ـ وعليه فالملائكة تعمل مع بعضها البعض الآخر بكل تنسيق وانسجام دون اختلاف في القيام بالوظائف الإلهية) «**ولا قدحت قادحة الإحن**[3] **فيما بينهم**»، ثم واصل الإمام ﷺ كلامه في أنّ الحيرة لم تسلبهم مالديهم من معرفة وانطوت عليه صدورهم من هيبة لله وعظمة: «**ولاسلبتهم الحيرة ما لاق من معرفته بضمائرهم، وما سكن عن عظمته وهيبة جلالته في أثناء صدورهم**» يمكن أن يكون المراد بالعبارة أن إيمان الملائكة ومعرفتها بالله وصفات جماله وجلاله على قدر من القوة بحيث لاتخترن أيه أوهام وحيرة يمكنها إختراق تلك المعرفة أو الحد منها؛والحال ليس الأمر كذلك لدىٰ الإنسان، فقد يصطدم بعض المؤمنين ببعض الاوضاع التي تؤدي إلىٰ ذهولهم وحيرتهم وزعزعة دعائم إيمانهم. كما يحتمل أن يكون المراد بالحيرة هو عدم بلوغ كنه ذاته وصفاته، إلّا أنّها لا تصدهم عن ذلك الإدراك الإجمالي للذات والصفات فيضطر وعلى غرار بعض الناس وبفعل عدم إدراك كنه الذات إلىٰ تعطيل صفاته. ثم قال في الصفة الأخيرة: «**ولم تطمع فيهم الوساوس فتقترع**[4] **برينها**[5] **على فكرهم**». فالذي يستفاد من مجموع هذه الصفات هو عدم تسلل أدنى خطا وشك وترديد وفتور وتقصير إلىٰ أعمال أمناء الوحي من الملائكة، وهم جاهدون في ابلاغها إلىٰ الأنبياء والرسل. وضمنا فانّ هذا الكلام الشريف رسالة إلىٰ جميع الأفراد ـ ولاسيما دعاة الإسلام والكتاب ـ إلى مراعاة الدقة والامانة والإيمان والتسامي والابتعاد عن كافة ألوان الوساوس وأمراض الحقد والبغضاء والعداء و الحسد والشك والترديد في ابلاغ دعوة الأنبياء ورسالتهم بالشكل الصحيح.

---

١. «نوازع» جمع «نازعة» من مادة «نزع» على وزن وضع بمعنىٰ سحبه أو رفعه من مكانه.
و في العبارة اعلاه، تطلق على السهم عند ما يراد اطلاقه من القوس في حالة سحب وتر الاطلاق إلى الخلف.

٢. «تعترك» من مادة «عرك» الازدحام.

٣. «إحن» جمع «إحنة» بمعنى الحسد والكره.

٤. «تقترع» من مادة «قرع» بمعنى الضرب.

٥. «الرين» بفتح الراء الدنس وما يطبع على القلب من حجب الجهالة.

القسم الرابع عشر

«وَمِنْهُمْ مَنْ هُوَ في خَلْقِ الْغَمَامِ الدُّلَّحِ، وَفي عِظَمِ الْجِبَالِ الشُّمَّخِ، وَفي قَتْرَةِ الظَّلَامِ الْأَيْهَمِ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَدْ خَرَقَتْ أَقْدَامُهُمْ تُخُومَ الْأَرْضِ السُّفْلَىٰ، فَهِيَ كَرَايَاتٍ بِيضٍ قَدْ نَفَذَتْ فِي مَخَارِقِ الْهَوَاءِ، وَتَحْتَهَا رِيحٌ هَفَّافَةٌ تَحْبِسُهَا عَلَىٰ حَيْثُ انْتَهَتْ مِنَ الْحُدُودِ الْمُتَنَاهِيَةِ، قَدِ اسْتَفْرَغَتْهُمْ أَشْغَالُ عِبَادَتِهِ، وَوَصَلَتْ حَقَائِقُ الْإِيمَانِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَعْرِفَتِهِ، وَقَطَعَهُمُ الْإِيقَانُ بِهِ إِلَىٰ الْوَلَهِ إِلَيْهِ، وَلَمْ تُجَاوِزْ رَغَبَاتُهُمْ مَا عِنْدَهُ إِلَىٰ مَا عِنْدَ غَيْرِهِ».

الشرح والتفسير

مدبرات الأمور

تطرق الإمامعليه السلام إلىٰ سائر أصناف الملائكة بعد أن فرغ من صفة ملائكة الوحي، فقالعليه السلام: **«ومنهم من هو في خلق الغمام الدلح[1] في عظم الجبال الشمخ[2]، وفي قترة[3] الظلام الأيهم[4]»**، الدلح جمع دالح تعني السحاب المثقل بالماء، وشمخ جمع شامخ بمعنى المرتفع، وقترة تعني هنا الخفاء والبطون، وأيهم بمعنى الليالي الدامسة التي لايهتدى فيها. فالذي يبدو أن مراد الإمامعليه السلام الملائكة الموكلة بالسحب الممطرة والجبال المرتفعة والظلمات، حيث لكل منها سهم

1. «الدلح» جمع «دالح» من مادة «دلوح» بمعنى السحب المليئة بالمطر، وكأنّها تتحرك ببطئ لثقلها (لأن أصلها الغوى يعنى بطئ الحركة).
2. «شمخ» جمع «شامخ» من مادة «شموخ» بمعنى العلو والرفعة ومن هنا يطلق الشامخ على الجبل المرتفع.
3. «قترة» بمعنى ضيق وانضمام شيء إلى آخر، ولما كانت شدة الظلمة كذلك وكان الظلمات قد انضم بعضها الىٰ بعض وتراكمت، اطلق عليها هذه المفردة.
4. «أيهم» تعني في الأصل المجنون وناقص العقل ويقال للصحراء القاحلة فلاة كما تطلق علىٰ الظلام فيقال «الظلام الأيهم» أي لا يرى فيه كوكباً.

في تدبير هذا العالم، وهو ما أشار إليه القرآن الكريم في الآية الخامسة من سورة النازعات، حيث عبر عن هذه الملائكة بالقول **﴿فَالْـمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾**، كما احتمل أن يكون لهذا الصنف من الملائكة دور في ايجاد تلك السحب والجبال والظلمات ـ على كل حال فانّ مأمورية هذا الصنف من الملائكة هي مأمورية تكوينية ـ على الخلاف من ملائكة الوحي حيث لهم مأمورية تشريعية. ثم تطرق عليه السلام إلىٰ صنف آخر من الملائكة فقال عليه السلام: «**ومنهم من قد خرقت أقدامهم تخوم**[1] **الأرض السفلى، فهى كرايات بيض قد نفذت في مخارق**[2] **الهواء، وتحتها ريح هفافة**[3]**، تحبسها على حيث من انتهت من الحدود المتناهية**» وتشبه هذه العبارة ما أورده الإمام عليه السلام في الخطبة الاولىٰ من نهج البلاغة التي قال فيها: «**ومنهم الثابتة في الأرضين السفلى أقدامهم، والمارقة من السماء العليا أعناقهم**». طبعاً هذه العبارات إنّما تشير علىٰ سبيل الكناية إلىٰ رفعة هذا الصنف من الملائكة وسمو مكانته، واننا لاندرك سوى شبح عنها، وذلك لأننا لانمتلك المعلومات الكافية عن خلقها. ولا يتسنى إدراك حقيقة هذه التعبيرات بصورة تامة سوى لعلي عليه السلام وسائر المعصومين عليهم السلام الذين رفعت عنهم الحجب، وما علينا إلّا القناعة والاكتفاء بهذا العلم الإجمالي. ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه في وصف هؤلاء الملائكة فقال عليه السلام: «**قد استفرغتهم أشغال عبادته، ووصلت حقائق الإيمان بينهم وبين معرفته، وقطعهم الايقان به إلى الوله**[4] **إليه، ولم تجاوز رغباتهم ما عنده إلى ما عند غيره**». فالعبارات الأربع مرتبطة مع بعضها البعض الآخر قطعا، فالاشتغال بالعبادة سبب لتقوية الإيمان ورسوخه، كما أنّ قوة الإيمان تنتهي إلى الحب والعشق، فاذا ملأحبّه كيان الإنسان أو الملك، لم يدعه يفكر في غيره ولايطمع إلىٰ ما عند سواه. فقد ورد في الخبر عن الإمام الصادق عليه السلام أنّ النبي الأكرم صلى الله عليه وآله قال: «**أفضل الناس من عشق العبادة فعانقها، وأحبّها**

---

١. «تخوم» جمع «تخم» تعني في الأصل الحد، وتخوم الأرض اعماقها.
٢. «مخارق» جمع «مخرق» من مادة «خرق» على وزن خلق. بمعنى موضع الخرق، ومخارق الهواء الشقوق بين طبقات الهواء.
٣. «هفافة»، الريح التي تتحرك بسرعة. وقيل هفافة بمعنى الطيبة الساكنة، إلّا أنّ هذا المعنى لايبدو مناسباً للعبارة المذكورة، ولايستبعد ادغام المعنيين في مفهوم واحد وهو الريح السريعة المنتظمة.
٤. «وله» تغني الحيرة من شدة الحزن حتى يفقد صاحبها عقله، ثم اطلق على العشق المفرط الذي يسلب الإنسان استقراره.

بقليه، وباشرها ؟، وتفرغ لها؛ فهو لايبالي على ما أصبح من الدنيا على عسر، أم على يسر»[١]، وواضح أن عبادة الملائكة لاتصدهم عن مأموريتهم في تدبير شؤون العالم ـ بأمر الله ـ ولاعبادة أولياء الله تصدهم عن تدبير دينهم و دنياهم و وظائفهم الفردية و الإجتماعية فكل أمورهم إنّما تنعبث من حبهم وعشقهم الحق سبحانه وتعالى و السير على طاعته.

٭٭٭

١. الكافي ٢/٨٣، ح ٣، باب العبادة.

القسم الخامس عشر

«قَدْ ذَاقُوا حَلاَوَةَ مَعْرِفَتِهِ، وَشَرِبُوا بِالْكَأْسِ الرَّوِيَّةِ مِنْ مَحَبَّتِهِ، وَتَمَكَّنَتْ مَنْ سُوَيْدَاءِ قُلُوبِهِمْ وَشِيجَةُ خِيفَتِهِ، فَحَنَوْا بِطُولِ الطَّاعَةِ اعْتِدَالَ ظُهُورِهِمْ، وَلَمْ يُنْفِدْ طُولُ الرَّغْبَةِ إِلَيْهِ مَادَّةَ تَضَرُّعِهِمْ، وَلاَأَطْلَقَ عَنْهُمْ عَظِيمُ الزُّلْفَةِ رِبَقَ خُشُوعِهِمْ، وَلَمْ يَتَوَلَّهُمُ الإِعْجَابُ فَيَسْتَكْثِرُوا مَا سَلَفَ مِنْهُمْ وَلاَ تَرَكَتْ لَهُمُ اسْتِكَانَةُ الإِجْلاَلِ نَصِيباً فِي تَعْظِيمِ حَسَنَاتِهِمْ، وَلَمْ تَجْرِ الْفَتَرَاتُ فِيهِمْ عَلَى طُولِ دُؤُبِهِمْ، وَلَمْ تَغِضْ رَغَبَاتُهُمْ فَيُخَالِفُوا عَنْ رَجَاءِ رَبِّهِمْ، وَلَمْ تَجِفَّ لِطُولِ الْمُنَاجَاةِ أَسَلاَتُ أَلْسِنَتِهِمْ، وَلاَ مَلَكَتْهُمُ الأَشْغَالُ فَتَنْقَطِعَ بِهَمْسِ الْجُؤَارِ إِلَيْهِ أَصْوَاتُهُمْ، وَلَمْ تَخْتَلِفْ فِي مَقَاوِمِ الطَّاعَةِ مَنَاكِبُهُمْ، وَلَمْ يَثْنُوا إِلَى رَاحَةِ التَّقْصِيرِ فِي أَمْرِهِ رِقَابَهُمْ، وَلاَتَعْدُو عَلَى عَزِيمَةِ جِدِّهِم بَلاَدَةُ الْغَفَلاَتِ، وَلاَ تَنْتَضِلُ فِي هِمَمِهِمْ خَدَائِعُ الشَّهَوَاتِ».

الشرح والتفسير

خصائص الملائكة

تحدث الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبة بصورة أعمق عن صفات الملائكة ومقام معرفتهم وعشقهم لله سبحانه و درجات عبادتهم وخضوعهم وخشوعهم. فقد أشار في الواقع إلى ثلاث من الصفات بعبارات رائعة مختلفة، تعرض في العبارة الاولى إلى مقام الملائكة الرفيع في المعرفة وكأنها أسكرت عقولهم وجوارحهم فملأتها حبا وعشقا لله. كما تعرض في العبارة الثانية إلى الطاعة المتواصلة بفضلها الوليدة الطبيعية لهذه المعرفة وأخيراً العبارة الثالثة التي تفيد خلو هذه الطاعة المستمرة من الكلل والملل والتعب والفتور والعجب. كأنّ الإمام عليه السلام دعا الناس للاقتداء بها واحتذاء طريقتها في المعرفة والعبودية والاخلاص. فقال عليه السلام: **«قد ذاقوا**

حلاوة معرفته، وشربوا بالكأس الروية[1] **من محبته، وتمكنت من سويداء**[2] **قلوبهم وشيجة**[3] **خيفته»** تفيد العبارة: «**قد ذاقوا حلاوة معرفته، وشربوا بالكأس الروية من محبته**» أنّ الملائكة قد إنفتحت على معرفة الله وحبّه بكل كيانها حتى نفذ إلىٰ سويداء قلوبها، كما تفيد مفردة تمكنت أنّ خوف الله قد تجذر في أعماق قلوبها بحيث وظّف هذا الخوف والرجاء كل قواها في سبيل طاعة الله؛ وذلك لأنّ الحب والأمل دون الخوف يسوق الإنسان إلىٰ الغفلة والغرور، كما أن الخوف دون الحب والأمل يقوده إلىٰ اليأس والقنوط. من هنا قال الإمام﴿ع﴾ عقب تلك الصفات: «**فحنوا**[4] **بطول الطاعة اعتدال ظهورهم**» فهم دائما على أتم الخضوع وكمال التسليم لله. مع ذلك فان رغبتهم المتفاقمة في عبادته وكثرتها لم تسلبهم حالة التضرع والخشوع (فلم يتطرق اليها التعب والارهاق) «**ولم ينفذ طول الرغبة إليه مادة تضرعهم**» لا كالأفراد من عديمي المعرفة الخالين من معاني الحب والعشق والخوف والرجاء الذين تتعبهم أدنى عبادة وتسلبهم الرغبة والاقبال عليها. ثم أشار﴿ع﴾ إلى نقطة مهمّة أُخرىٰ: «**ولا أطلق عنهم عظيم الزلفة**[5] **ربق**[6] **خشوعهم، ولم يتولهم الاعجاب فيستكثروا ما سلف منهم ولا تركت لهم استكانة**[7] **الاجلال نصيبا في تعظيم حسناتهم**»، فهناك نقطة لطيفة كامنة في هذه العبارة أشار إليها بعض شرّاح نهج البلاغة وهى أنّ من يقترب من الملوك والسلاطين والشخصيات التي تبدو رفيعة وعظيمة سرعان ما يكتشف أن قدرتهم و شوكتهم قاصرة زائلة مهما بدت كبيرة، وبامكان مقربيهم أن يبلغوا هذه القدرة يوماً ما، بل حتى أعظم منها. وهذا ما يؤدي بدوره إلىٰ الحد من تواضع الآخرين وخضوعهم وطاعتهم لهم، فانّ اضطروا إلىٰ تعظيمهم ظاهراً، لم يروا لهم مثل هذه العظمة باطناً. أمّا الملائكة فعلى العكس كلما اقتربت

---

١. «روية» من مادة «ري» علىٰ وزن طي التي تروى منه العطش، وكأس روية كناية عن الظرف المملوءة الذي يروي العطشان بصورة تامة.

٢. «سويداء» تصغير «سوداء» من السواد، و هى حبة صغيرة في القلب تشكل مركزه حب اعتقاد القدماء.

٣. «وشيجة» من مادة «وشج» أصلها عرق الشجرة وإراد بها هنا بواعث الخوف من الله.

٤. «حنو» من مادة «حنو» على وزن حذف بمعنى الالتواء والانحناء.

٥. «زلفة» من مادة «زلف» على وزن ضعف بمعنى القربى، و«زلفه» و«زلفى» بمعنى المقام والمنزلة والقرب.

٦. «ربق» جمع «ربقه» حبل فيه عدة عرى تربط فيه البهم، ثم اطلقت علىٰ الرابطة المحكمة بين شيء وأخر، وقد وردت هنا بهذا المعنى.

٧. «إستكانة» من مادة «سكون» تأتي بمعنى الخضوع والتواضع في هذه الموارد. قيل من باب إفتعال من مادة سكون، وقيل من باب استفعال من مادة كون وهى أيضاً بمعنى السكون في مكان مع الخضوع والخشوع.

في مسيرتها من الله تكشفت لها حقائق جديدة عن عظمته المطلقة، فيروا فيه ملامح جديدة من صفات الجمال والجلال. من هنا يزدادون له خضوعاً وخشوعاً وتواضعاً كل يوم، فلا يبقى أمامهم من مجال للاعجاب بالحسنات وإكبارها، بل يرون أنفسهم مقصرين على الداوم تجاهه. ثم واصل الإمامعليه السلام كلامه بإماطة اللثام عن هذه الحقيقة وهى عدم كلل الملائكة عن عبادته، وليس للفتور من سبيل إليها، كما ليس هناك ما يصدها عن مواصلة مسيرتها العبادية، بل هى دؤوبة على العبادة بدافع من عشقها وإرادتها وعزمها، على غرار الإنسان الذي لايكل عن استنشاق الهواء الطلق طيلة عمره وإن امتد لالاف السنين. ثم تناول الإمامعليه السلام هذه المسألة من مختلف الجوانب بثمان عبارات. فقال في العبارة الاولى: «**ولم تجر الفترات فيهم على طول دؤبهم**»[1] كما قال سبحانه وتعالى في محكم كتابه العزيز واصفاً الملائكة: ﴿**يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ لا يَفْتُرُونَ**﴾[2] ثم قال عليه السلام في العبارة الثانية: «**ولم تغض**[3] **رغباتهم فيخالفوا عن رجاء ربّهم**»، وذلك لأنّ عشقهم للكمال دائمي لايتوقف، وعلمهم متزايد بربهم ـ وبناءاً على هذا فليس هنالك ما يدعو إلى غفلتهم عن العبادة، أو يقلل من أملهم. وقال في العبارة الثالثة أن طول مناجاتهم لم تجف ألسنتهم وتعجزها عن العبادة: «**ولم تجف لطول المناجاة أسلات**[4] **ألسنتهم**»، طبعاً ليس هنالك لساناً وفما للملائكة كما لدينا، بحيث تقل رطوبته بفعل كثرة الذكر والمناجاة فيصيبه الجفاف واليبس، بل العبارة كناية لطيفة عن عدم ضعفهم وفتورهم في تسبيحهم وتضرعهم لله سبحانه وتعالى، ثم قالعليه السلام في العبارة الرابعة: «**ولاملكتهم الاشغال فتنقطع بهمس**[5] **الجؤار**[6]**، إليه أصواتهم**»، فالواقع ليس لهؤلاء من عمل سوى العبادة والطاعة والعبودية، وهذه الأمور جزء لايجتزأ من ذواتهم ووجودهم وإيمانهم. وليس لهذه الأُمور أن تخلق أي تعب أو ملل، كالقلب المعافى الذي لايشعر بالتعب ولو عمل لسنين، وقالعليه السلام في العبارة الخامسة: «**ولم تختلف في مقاوم**[7] **الطاعة**

---

١. «دؤوب» مصدر بمعنى الدوام والاستمرار والسعي والجهد إلى حد التعب والارهاق.

٢. سورة الأنبياء/٢٠.

٣. «تغض» من مادة «غيض» بمعنى تنقص و تقل. و أشارت في العبارة إلى عدم قلة رغبة الملائكة بطاعة الله و عبادته.

٤. «أسلات» جمع «أسله» بمعنى طرف اللسان، وتطلق على من لايكل عن الذكر ولايجف لسانه.

٥. «همس» على وزن لمس، الخفي من الصوت.

٦. «جؤار»، الصوت المرتفع، وقد ورد في العبارة بمعنى رفع صوت الملائكة بالتضرع وعدم الكف عن المناجاة.

٧. «مقاوم»، قال شرّاح نهج البلاغة مقاوم جمع مقام بمعنى الصفوف وإن لم تعثر على مثل هذا الجمع

مناكبهم»، ثم أردفهاﷺ بالقول بعدم خلودهم إلىٰ الراحة ليؤدي بهم ذلك إلىٰ التقصير في القيام بمهامهم: «**ولم يثنوا[1] إلىٰ راحة التقصير في أمره رقابهم**» فهم على أهبة الاستعداد للعبادة على الدوام. ثم اختتم ذلك بقولهﷺ: «**ولاتعدوا على عزيمة جدهم بلادة الغفلات، ولاتنتضل[2] في هممهم خدائع الشهوات**»، حقاً أنّ وجودهم خال من أية شهوة وغفلة، ولهم ايمان وحب لخالقهم على درجة من القوة والرسوخ بحيث لايتسلل إليهم التعب والملل أبداً في مسيرتهم العبادية وطاعتهم لربّهم.

تأمّل

الناس والملائكة

هدف الإمامﷺ باختصار بيان حال الملائكة في طاعتها وعبوديتها لله سبحانه بعبارات مفعمة بالكنايات والتشبيهات المقرونة بروعة الدقة، و الجمال ليكون ذلك في الواقع درساً لكافة الأفراد في أنّ الإنسان إذا شق طريقة إلىٰ الله وسار نحو مقام القرب الإلهي وذاق بروحه وأحاسيسه حلاوة معرفة الله وارتوىٰ من حبه وعشقه، إلّا يستشعر التعب والفتور أبداً في مسيرته العبودية وطاعته لربه، وعليه أن يكون أكثر جدية وعزماً كلما تقدم في هذه المسيرة.

فقد ورد في سيرة الائمة ورواد الطريق من العلماء الأعلام ما يشير إلىٰ أنّ الإنسان يمكنه أنّ يكون على غرار الملائكة في هذه الأُمور، بل له أن يسبقهم ويتفوق عليهم، وذلك لأنّ الملائكة مجردة من الأهواء والشهوات و الغفلة، فاذا نال الإنسان تلك الصفات، كان حقاً أفضل من الملائكة. جاء في الخبر أنّ الإمام زين العابدين علي بن الحسينﷺ لم ينقطع أربعين سنة عن صلاة الليل، حتى أنّه كان يصلي الصبح بوضوء المغرب: «**إنّه عليه السلام صلى أربعين سنة صلاة الصبح بوضوء المغرب**»[3]، وقال الإمام الباقرﷺ في وصفه لعبادة الإمام عليﷺ: «**ما أطاق أحد عمله وإن كان علي بن الحسين لينظر في كتاب من كتب علي فيضرب به الأرض ويقول من يطيق هذا**»[4].

☜ في المصادر اللغوية.

١. «يثنوا» من مادة «تثني» بمعني الطي وأن أطلقت على المدح فلأنها تعدد صفات الشخص البارزة الواحدة بعد الأخرى.

٢. «تنتضل» من مادة «نضال» ترمي السهام.

٣. روضة المتقين ٢٦٤/١٣.

٤. موسوعة الإمام علي بن أبي طالب ٢٠٢/٩؛ بحارالأنوار ٧٥/٤٦.

القسم السادس عشر

«قَدْ اتَّخَذُوا ذَا الْعَرْشِ ذَخِيرَةً لِيَوْمِ فَاقَتِهِمْ، وَيَمَّمُوهُ، عِنْدَ انْقِطَاعِ الْخَلْقِ إِلَىٰ الْمَخْلُوقِينَ بِرَغْبَتِهِمْ، لاَيَقْطَعُونَ أَمَدَ غَايَةِ عِبَادَتِهِ وَلاَيَرْجِعُ بِهِمِ الإِسْتِهْتَارُ بِلُزُومِ طَاعَتِهِ، إِلاَّ إِلَىٰ مَوَادَّ مِنْ قُلُوبِهِمْ غَيْرِ مُنْقَطِعَةٍ مِنْ رَجَائِهِ وَمَخَافَتِهِ، لَمْ تَنْقَطِعْ أَسْبَابُ الشَّفَقَةِ مِنْهُمْ، فَيَنُوا في جِدِّهِمْ، وَلَمْ تَأْسِرْهُمُ الْاطْمَاعُ فَيُؤْثِرُوا وَشِيكَ السَّعْيِ عَلَىٰ اجْتِهَادِهِمْ. لَمْ يَسْتَعْظِمُوا مَا مَضَىٰ مِنْ أَعْمَالِهِمْ، وَلَوِ اسْتَعْظَمُوا ذٰلِكَ لَنَسَخَ الرَّجَاءُ مِنْهُمْ شَفَقَاتِ وَجَلِهِمْ، وَلَمْ يَخْتَلِفُوا فِي رَبِّهِمْ بِاسْتِحْوَاذِ الشَّيْطَانِ عَلَيْهِمْ. وَلَمْ يُفَرِّقْهُمْ سُوءُ التَّقَاطُعِ، وَلاَ تَوَلاَّهُمْ غِلُّ التَّحَاسُدِ، وَلاَ تَشَعَّبَتْهُمْ مَصَارِفُ الرِّيَبِ، وَلاَ اقْتَسَمَتْهُمْ أَخْيَافُ الْهِمَمِ، فَهُمْ أُسَرَاءُ إِيمَانٍ لَمْ يَفُكَّهُمْ مِنْ رِبْقَتِهِ زَيْغٌ وَلاَ عُدُولٌ وَلاَوَنىً وَلاَ فُتُورٌ، وَلَيْسَ في أَطْبَاقِ السَّماءِ مَوْضِعُ إِهَابٍ إِلَّا وَعَلَيْهِ مَلَكٌ سَاجِدٌ، أَوْ سَاعٍ حَافِدٌ، يَزْدَادُونَ عَلَىٰ طُولِ الطَّاعَةِ بِرَبِّهِمْ عِلْماً، وَتَزْدَادُ عِزَّةُ رَبِّهِمْ فِي قُلُوبِهِمْ عِظَماً».

الشرح والتفسير

عودا على بدء في صفات الملائكة

تطرق الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبة إلىٰ صفات أُخرى للملائكة (وكأنّ الإمام عليه السلام يوصي الناس بأنكم إذا أردتم أن تصبحوا كالملائكة وتسلكوا سبيل القرب إلىٰ الله، عليكم أن تتحلوا بهذه الصفات) فاشار عليه السلام باديء ذي بدء إلىٰ مقامهم في توحيد الأفعال وتوجههم الخاص إلىٰ ربّهم وانصرافهم عمن سواه فقال عليه السلام: إنّهم جعلوا ذا العرش وحبّه وطاعته ذخيرة

ليوم الفاقة وقد خلوا بكل كيانهم للخالق حين كرّس الخلق أفكارهم في المخلوقات «**قد اتخذوا ذا العرش ذخيرة ليوم فاقتهم، ويمموه**[١] **عند انقطاع الخلق إلى المخلوقين برغبتهم**» «**ذا العرش**» إحدى صفات الله التي تدل علىٰ ذروة عظمة ذاته سبحانه، وذلك لأنّ العرش أسمى موجودات عالم الخلقة. وقد اقتبست هذه الصفة من الآية الشريفة: **﴿ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِي ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾**[٢]. نعم فلم يتعلق قلب هؤلاء سوى بالله ولايرون من مصدر غيره للخير والفضيلة والبركة والنجاة في هذا العالم، ولاينال المؤمن هدفه ما لم يسلك هذا السبيل لمعرفة الله. أمّا العبارة: «**ذخيرة ليوم فاقتهم**» فتفيد وقوف الملائكة يوم القيامة للحساب وانتظارهم للأجر والثواب. ثم قال عليه السلام: «**لايقطعون أمد غاية عبادته ولايرجع بهم الاستهتار**[٣] **بلزوم طاعته إلّا إلى مواد**[٤] **من قلوبهم غير منقطعة من رجائه ومخافته**»، نعم فدوافع هؤلاء في الطاعة والعبودية إنّما يستقونها من مصدر خوف الله ورجائه الذي يضاعف معرفتهم بالله وسلوك السبيل المؤدي إلىٰ قربه. ولذلك أكد الإمام عليه السلام في العبارة اللاحقة في أنّ أسباب خوف الله لم تنقطع عنهم ليهنوا في سعيهم وجدهم «**لم تنقطع أسباب الشفقة منهم، فينوا**[٥] **في جدهم**» ثم أردفها عليه السلام بالقول بأنّ الاطماع لم تأسرهم وتستحوذ عليهم ليقدموا سرعة سعيهم في أمور الدنيا علىٰ جدهم في أمور الآخرة: «**ولم تأسرهم الأطماع فيؤثروا وشيك**[٦] **السعي على اجتهادهم**» أجل فالذي يضعف الإنسان في طريق عبوديته الحق هو السقوط في مخالب الأهواء والأطماع التي تعطل قواه وتصده عن طاعة ربّه.

ثم قال عليه السلام: في صفة آخرىٰ من صفات الملائكة «**لم يستعظموا ما مضى من أعمالهم،**

---

١. «يمموا» من مادة «يم» قصدوه بالرغبة والرجاء عند ما انقطع الخلق سواهم إلىٰ المخلوقين، ومنه «التيمم» الذي يقصد فيه الإنسان ضرب يديه بالتراب ومسح ظاهرها وجبهته به.

٢. سورة غافر/١٥.

٣. «الاستهتار» مصدر بمعنى اللامبالاة والحرص على المخالفة، واصله «الهتر» على وزن الستر بمعنى الحماقة والجهل.

٤. «مواد» جمع «مادة» أصلها من «مد» البحر إذ زاد، فالمواد تعني الزيادة.

٥. «ينوا» من مادة «ونى» على وزن رمى بمعنى الضعف والفتور.

٦. «وشيك» من مادة «وشك» بمعنى السرعة.

ولو استعظموا ذلك لنسخ الرجاء منهم شفقات وجلهم» فالعبارة درس عظيم لكافة الأفراد في استصغار أعمالهم عند الله، وذلك أنّهم إذا أكبروا هذه الأعمال تعلقوا بها وازداد أملهم بها فيفتروا في سعيهم؛ الأمر الذي يسلبهم خوف الله الذي يعتبر من أحد العوامل المهمة للحركة نحو الكمال. وبغض النظر عما سبق فما عساناً أن نكون وما أعمالنا التي تليق بساحة الربوبية المطلقة. كان الحديث في بعض الصفات السابقة عن عدم اعجاب الملائكة بأعمالها ونفسها، وجرى الحديث هنا عن تأثير الاعجاب في تغلب الرجاء على الخوف؛الأمر الذي يصد أصحاب الحق عن مواصلة مسيرتهم و يمنعهم من التكامل، وذلك لأنّ الإنسان إذا شعر بكبر أعماله عند الله، راوده الشعور بانه دائن، ومن رأىٰ نفسه دائنا اكتفى بما أتى من أعمال وتخلف عن سلوك سبيل التكامل.

ثم واصل‌ﷺ كلامه بالحديث عن سائر خصائص الملائكة التي يحتاجها الإنسان بشدة، ومنها عدم اختلافهم في ربّهم، ثم يعزى الإمام‌ﷺ هذا الاختلاف إلىٰ الوساوس الشيطانية أحيانا، أو الرذائل الأخلاقية أحياناً أُخرىٰ. فقال‌ﷺ: «**لم يختلفوا في ربّهم باستحواذ الشيطان عليهم**» فالعبارة تحمل رسالة واضحة للجميع، وهى أنّ مصدر اختلاف المذاهب والأديان إنّما يعود بالدرجة الأساس إلىٰ الوساوس الشيطانية، وذلك لأنّ الاختلاف ـ لاسيما إن كان عقائدياً ـ إنّما يفضي لأنواع النزاعات والحروب والاضطرابات؛ الأمر الذي يهدد مصيرالإنسان ويقضي على سعادته. ثم أشار‌ﷺ بعد ذلك إلىٰ العوامل الداخلية والرذائل الأخلاقية التي تؤدي إلىٰ الاختلاف، وإن التعامل السيىء لم يفرق هذه الملائكة، ولم يبعدها الحسد عن بعضها، كما أن الشك والترديد لم يفرقها ويشتت أمرها: «**ولم يفرقهم سوء التقاطع، ولاتولاهم عن التحاسد، ولاتشعبتهم مصادر الريب، ولا اقسمتهم أخياف[1] الهمم**» فالواقع هو أنّ عمدة عوامل الاختلاف قد بينت في هذه العبارات القصيرة. فلو تعامل الأفراد مع بعضهم البعض الآخر بشكل صحيح وفق معايير الادب، لحيل دون أغلب

١. «أخياف» من مادة «خيف» على وزن هدف و هو في الأصل ما انحدر من سفح الجبل، و اريد به هنا سواقط الهمم. و تعني إختلاف العينين مثلاً واحدة زرقاء و أخرى سوداء، ثم أطلقت على كل إختلاف.

الخلافات التي يفرزها سوء التعامل. وذا لم يحسد بعضهما البعض الآخر لاجتث العامل المهم الآخر من عوامل الخلاف والشقاق. وإن طرحوا عنهم الشكوك في مختلف المسائل وتعاملوا مع ما يواجههم استناداً إلىٰ العلم والمعرفة لحد من نسبة الخلاف. وأخيراً لو أذعن الجميع لاختلاف الأفكار والتوجهات وتشعب الاذواق والآراء لقل حجم التقاطع والانفصال، فقد شاء الله أن يخلق الناس على أنواع واختلاف في الأفكار والتطلعات، ولو هم كل أحد بفرض آرائه علىٰ الآخرين، فمن اليقين لتعذر عيش شخصين إلىٰ جانب بعضهما دون بروز حالة من التوتر والاضطراب. صحيح أن ليس للملائكة من شهوات كما للإنسان، وأنّ أغلب دوافع الذنب والمعصية ليست متوفرة فيهم. إلّا أنّهم على كل حال قد زودوا بالعقل والشعور والاختيار وحب الذات والقدرة علىٰ المعصية والتمرد على الطاعة. إلّا أنّ عرفان الملائكة بالله حال دون ارتكابها للذنب؛ وذلك أنّ مقارفتها للذنب والمعصية كلما كانت متعذرة، كانت جديرة بكل هذا المدح والتمجيد وجعلها أسوة للاقتداء بها من قبل الناس. وبناء على هذا فانّ الإنسان إذا بلغ هذه الدرجة من الكمال والمعرفة كان له أن يصون نفسه من التلوث بالذنب. ثم قال عليه السلام: فى ختام الكلام علىٰ سبيل نتيجة قصيرة بليغة «**فهم اسراء ايمان لم يفكهم من ربقته زيغ**[1] **ولاعدول ولا ونى**[2] **ولافتور**». فالتعبير بالاسراء والربقة (الحبل ذو الحلقات المتعددة) يفيد مدىٰ التزام الملائكة بالإيمان، فقد سبحوا في بحار معرفة الله وسلموا لذاته المطلقة وكأنّهم لفوا أعناقهم بطوق محكم من الايمان، ولا يستطيع أي عامل أن يرفع هذا الطوق من أعناقهم، ولو عاش الناس مثل هذا التسليم للحق والالتزام بالإيمان، لما وسع دوافع الذنب والمعصية أن تتسلل إلىٰ وجودهم قط. ثم اختتم الإمام عليه السلام كلامه بهذا الشأن بالحديث عن مسألة اُخرىٰ وهى كثرة الملائكة وسعة معرفتها، حيث يختتم هنا شرحه لصفات الملائكة، بحيث لا يوجد، أدنى موضع في السماء إلّا وقد شغل بملك ساجد، وآخر ساع حافد منهمك في أداء مسؤوليته، ومن شأن هذه الطاعة أن تضاعف معرفتهم لربّهم، كما تزداد عزة ربّهم في قلوبهم عظمة:

١. «زيغ» من مادة «زيغ» على وزن فيض الاعوجاج.
٢. «ونى» من مادة «ونى» بمعنى الضعف كما مر علينا سابقاً.

«وليس في أطباق السماء موضع إهاب[1] إلّا وعليه ملك ساجد أو ساع حافد[2] يـزدادون على طول الطاعة بربّهم علماً، وتزداد عزة ربّهم في قلوبهم عظماً».

فالعبارات تفيد كثرة عدد الملائكة من جانب بحيث ملأت جميع أقطار السموات بما فيها مدبرات الأمر وامناء الوحي والمنهمكين بالطاعة والعبودية. من جانب آخر فإن كلا الطائفتين من الملائكة لكثرة طاعتها لربّها إنّما تزداد يوما بعد آخر علما ومعرفة فيصبحوا أكثر قربا لله ومعرفة به. وهذا درس آخر للناس ليعلموا أنّ الطاعة والتقوى سبب ازدياد العلم والمعرفة والتعرف على صفات الله الجمالية والجلالية. والواقع هو أنّ هنالك تأثير متبادل بين الطاعة والتقوى والمعرفة حيث تحكمها علاقة طردية، فالمعرفة تقود إلىٰ الطاعة، كما أنّ الطاعة تكون سببا للعلم والمعرفة الأعمق والأشمل. فقد ورد في الحديث أنّ رجلاً سأل الإمام الصادق عليه السلام: هل الملائكة أكثر أم الناس؟ فاجاب عليه السلام: **«والذي نفسي بيده لعدد ملائكة الله في السموات أكثر من عدد التراب في الأرض؛ وما في السماء من موضع قدم إلّا وفيها ملك يسبحه ويقدسه»**[3].

تأمّل

الناس والملائكة ثانية

بين الإمام عليه السلام في هذا الخطبة صفات الملائكة بصورة واسعة جداً، وبالطبع فانّ هنالك هدفا مهما كان ينشده الإمام عليه السلام من ذلك. ويبدو أنّ للإمام عليه السلام هدفان هما: ذلك المطلب الذي وردت من أجله الخطبة ويكمن في معرفة الصفات بعيدا عن الشرك سواء عن طريق التشبيه أو التعطيل.

والآخر هو سوق الإنسان نحو الملائكة والتحلي بصفاتها؛ ومنها أنّها كها بالعبادة والطاعة والتواضع والخضوع واتباع الأوامر؛ فلا يكلون ولايتعبون ولايفترون، وليس بينهم من

---

١. «أهاب» جلد الحيوان، أو الجلد المدبوغ.

٢. «حافد» من مادة «حفد» السرعة في العمل.

٣. تفسير القمي ٢/٢٥٥.

أحقاد وضغائن وحسد، كما ليس بينهم اختلاف وتفرق وتشتت، وأخيراً لايكبرون أعمالهم ولايتسلل إليهم اليأس والقنوط، ولايفكرون سوى في الله وطاعته. صحيح أن خلق الإنسان يختلف تماماً وخلق الملائكة، فالعقل هو الذي يحكم الملائكة، بينما ركبت إلى جانبه الشهوة في الإنسان. إلّا أنّ هذا الإنسان الخليط من الصفات الحيوانية والعقلائية قد ينحدر حتى يكون كالحيوان الوحشي الكاسر **﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾**، كما يمكنه أن يتسامى بفضل ما زود به من استعدادات ليفوق الملائكة فيبلغ مرتبة لاتتسنى لغيره **﴿فَكانَ قابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنى﴾**، ومن هنا يمكن للملائكة أن تكون قدوة للإنسان.

من جانب آخر فانّ العلم بحضور الملائكة في أرجاء العالم ـ بحيث ليس هنالك شبراً في هذا العالم المترامي الأطراف يخلو منها ـ دلالة مهمّة على فعالية التدبير الإلهي في هذا العالم؛ الأمر الذي لايخفى دوره في المسائل التربوية. وناهيك عما سبق فانّ هذه الصفات تحمل رسالة مهمّة للإنسان وهى عدم الاغترار بالأعمال واستكثارها إذا ما وقف بين يدي ربّه للصلاة أو ناجى ربّه وتضرع إليه، بل إن نهض في جوف الليل وصلى والناس نيام. فيطرد عن نفسه هذه الأفكار الشيطانية، فالذات الإلهية مطلقة غنية ليست بحاجة إلى العبادة، بغض النظر عن كثرة عدد الملائكة التي تتقلب في طاعة الله ساجدة وراكعة وقائمة. والحق أنّ قدراً من الدقة والتمعن في الصفات التي أوردها أميرالمؤمنين علي عليه السلام بشأن الملائكة لتأخذ بيد الإنسان إلى عالم النور والعرفان وتوقفه على صغر أعماله وطاعاته وتعرفه بسر القرب من الله والفوز برضوانه. وتكشف النقاب عن عدم عبثية شدة قرب الملائكة من الله، إلى جانب عدم بلوغ الإنسان أهدافه المعنوية الرفيعة المرسومة له دون السعي والجد والاجتهاد والطاعة.

فقد ورد في الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام حين سأله أحد أصحابه وهو عبدالله بن سنان: أيّهما أفضل الملائكة أم بني آدم؟ قال عليه السلام أميرالمؤمنين علي عليه السلام: «**إنّ الله ركب في الملائكة عقلاً بلا شهوة، وركب في البهائم شهوة بلا عقل، وركب في بني آدم كلتيهما، فمن غلب عقله شهوته فهو خير من الملائكة ومن غلب شهوته عقله فهو شر من البهائم**»[1].

---

١. وسائل الشيعة ١١/١٦٤ ح ٢.

طبعاً لا يعني هذا الحديث أنّ الملائكة لا تملك لنفسها اختياراً، أو أنّها تخلو من عوامل الذنب والمعصية، فعدم وجود الشهوة في الملائكة إنّما يحول دونها ودون بعض دوافع الذنوب لا جميعها.

ﮊﮋ

القسم السابع عشر

«كَبَسَ الأَرْضَ عَلى مَوْرِ أَمْوَاجٍ مُسْتَفْحِلَةٍ، وَلُجَجِ بِحَارٍ زَاخِرَةٍ، تَلْتَطِمُ أَوَاذِيُّ أَمْوَاجِهَا، وَتَصْطَفِقُ مُتَقَاذِفَاتُ أَثْبَاجِها، وَتَرْغُوا زَبَداً كَالْفُحُولِ عِنْدَ هِيَاجِهَا، فَخَضَعَ جِمَاحُ الْمَاءِ الْمُتَلاَطِمِ لِثِقَلِ حَمْلِهَا، وَسَكَنَ هَيْجُ ارْتِمَائِهِ إِذْ وَطِئَتْهُ بِكَلْكَلِهَا، وذَلَّ مُسْتَخْذِياً، إِذْ تَمَعَّكَتْ عَلَيْهِ بِكَوَاهِلِهَا، فَأَصْبَحَ بَعْدَ اصْطِخَابِ أَمْوَاجِهِ، سَاجِياً مَقْهُوراً، وَفِي حَكَمَةِ الذُّلِّ مُنْقَاداً أَسِيراً، وَسَكَنَتِ الأَرْضُ مَدْحُوَّةً فِي لُجَّةِ تَيَّارِهِ، وَرَدَّتْ مِنْ نَخْوَةِ بَأْوِهِ وَإِعْتِلاَئِهِ، وَشُمُوخِ أَنْفِهِ وَسُمُوِّ غُلَوَائِهِ، وَكَعَمَتْهُ عَلَىٰ كِظَّةِ جَرْيَتِهِ، فَهَمَدَ بَعْدَ نَزَقَاتِهِ، وَلَبَدَ بَعْدَ زَيَفَانِ وَثَبَاتِهِ».

الشرح والتفسير

ظهور اليابسة و استقرار البحار

مرّ علينا في الخطبة الاولىٰ من نهج البلاغة ما أورده الإمام﵇ بشأن خلق الأرض فقال: ثم أنشأ سبحانه فتق الأجواء، وشق الأرجاء، وسكائك الهواء، فأجرىٰ فيها ماء متلاطماً تياره، متراكماً زخاره، حمله على متن الريح العاصفة، والزعزع القاصفة، فأمرها برده، وسلطها على شده... فسوى منه سبع سموات.

وقد أشار الإمام﵇ هنا في هذا الموضع من الخطبة إلى ذلك الأمر الذي ذكره سابقاً في أطار عرضه لخلق الأرض بعبارات جديدة رائعة فقال﵇: «**كبس**[1] **الأرض على مور**[2] **أمواج**

1. «كبس» بالفتح من مادة «كبس» على وزن حبس بمعنى الأغلاق والضغط.
2. «مور» على وزن غور التحرك الشديد والهيجان والاضطراب.

مستقلحة[١]**، ولجج بحار زاخرة**[٢] **تلتطم أو اذي**[٣] **أمواجه، وتصطفق**[٤] **متقاذفات**[٥] **أثباجها**[٦] **وترغوا**[٧] **زبداً كالفحول عند هياجها»**، ولعل هذه العبارات من قبيل الأمواج والبحار وأمثال ذلك ممّا كان موجوداً قبل بداية الخلق، أي في ذلك الزمان الذي لم يكن فيه الماء، بل حتى الليل والنهار، إشارة إلى المواد المذابة التي كانت موجودة قبيل انبثاق الخليقة وقد تلاطمت وتلاشت إثر وقوع الانفجارات العظيمة، فظهرت الرغوات الواسعة على هذه المواد المذابة ثم قذفت في الفضاء لتكون الأرض والكواكب والسيارات، ثم أشار الإمام عليه السلام إلى مرحلة أُخرى من مراحل ظهور العالم فقال: «**فخضع جماح**[٨] **الماء المتلاطم لثقل حملها، وسكن هيج ارتمائه إذ وطئته بكلكلها**[٩]**، وذل مستخذيا إذ تمعكت**[١٠] **عليه بكواهلها**[١١]»، ثم أردف الإمام عليه السلام ذلك بقوله: «**فاصبح بعد اصطخاب**[١٢] **أمواجه، ساجيا**[١٣] **مقهوراً، وفي حكمة**[١٤] **الذل منقادا أسيراً**»، فالذي يستفاد من هذه العبارات أنّ ظهور الأرض (وسائر الكرات السماوية) على المادة المذابة الاولى كان سببا لاستقرارها بالتدريج وكبح جماحها

---

١. مستقلحة من مادة استفحال الهائجة التي يصعب التغلب عليها.

٢. «زاخرة» من مادة «زخر» على وزن فخر بمعنى المليىء.

٣. «أو اذي» جمع أذى على وزن قاضي الموج أو أعلاه.

٤. «تصطفق» من مادة «صفق» على وزن سقف بمعنى ضرب الشيء بآخر مصحوباً بالصوت، واصطفقت الأشجار اهتزت بالريح.

٥. «متقاذفات» من مادة «قذف» على وزن حذف النزاع وقذف شيء على آخر.

٦. «أثباج» جمع «ثبج» بالتحريك وهو في الأصل ما بين الكاهل والظهر، استعارة لأعلى الموج، التي يقذف بعضها بعضها.

٧. «ترغو» من مادة «رغو» على وزن نقد ومنه الرغوة ما يطفو على اللبن وأريد بها هنا العناصر المكونة للأرض والتي ظهرت عليها مادة مذابة في البداية.

٨ «جماح» طغيان الفرس ثم اطلق على كل شيء شبيه ذلك.

٩. «كلكل» يعنى الصدر.

١٠. «تمعكت» من مادة «معك»، تمعكت الدابة تمرغت في التراب.

١١. «كواهل» جمع «كاهل» أعلى الظهر وقرب العنق.

١٢. «اصطخاب» من مادة «صخب» على وزن وهب بمعني ارتفاع الصوت وتستعمل حين تختلط أصوات الطيور والضفادع مع بعضها، ووردت هنا بشأن اختلاط الأمواج مع بعضها.

١٣. «ساجي» بمعنى ساكن من مادة «سجو» على وزن هجو.

١٤. «حكمة» من مادة «حكم» على وزن حتم تعني في الأصل الاعادة والمنع وتطلق على ما أحاط بحنكي الفرس من لجامه. وتطلق الحكمة على العقل والعلم، لأنّها تمنع الإنسان من السيئات والانحرافات.

واضطرابها. كما يحتمل أن تكون هذه العبارات إشارة إلىٰ الأمطار والسيول في بداية ظهور الكرة الأرضية، بحيث شكلت محيطات متلاطمة، إلّا أنّ هذه الأمواج أخذت بالاستقرار نسبياً على سطح المحيطات بفعل الجاذبية الأرضية. حتى أخذت تظهر اليابسة، من هنا قال لاحقابان الأرض قرت وظهرت يبوستها شيئاً فشيئاً وحد من حركات الماء حتى سكن وقر في مكانه «**وسكنت الأرض مدحوة**[١] **في لجة تياره، وردت من نخوة بأوه**[٢] **واعتلائه، وشموخ**[٣] **أنفه، وسمو غلوائه**[٤] **وكعمته**[٥] **على كظة**[٦] **جريته**[٧] **فهمد**[٨] **بعد نزقاته**[٩]**، ولبد**[١٠] **بعد زيفان**[١١] **وثباته**[١٢]»، وهكذا خمدت العواصف الاولىٰ وقطعت الأمطار والسيول ثم هدأت تلك الامواج، فتأهبت الأرض لتقبل الحياة عليها، وهذا ما أشار إليه الإمام﵇ في المقطع القادم. وهنا لابدّ من القول بانّ بعض شرّاح نهج البلاغة ذهبوا إلىٰ أنّ الماء قد وجد قبل خلق الكرة الأرضية، إلّا أنّه كما أشير سابقاً أنّ التعبير بالماء يمكن أن يكون إشارة إلى المواد المذابة السيالة التي وجدت قبل ظهور السماء والأرض.

---

١. «مدحوة» من مادة «دحو» بمعنى مبسوطة.
٢. «بأو» على وزن نحو الكبر والزهو والفخر.
٣. «شموخ» بمعنى الكبر والغرور.
٤. «غلواء» من مادة غلو النشاط و الطموح و تجاوز الحد.
٥. «كعم» من مادة «كعم» على وزن طعم، كعم البعير شد فاه لئلا يعض أو يأكل، وما يشد به كعام.
٦. «كظة» بالكسر ما يعرض من امتلاء البطن بالطعام، ويراد بها هنا ما يشاهد في جري الماء من ثقل الاندفاع.
٧. «جرية» بمعنى الجريان.
٨. «همد» من مادة «همود» بمعنى اخماد حرارة النار.
٩. «نَزَقات» من مادة «نزق» الخفة والطيش.
١٠. «لبد» من مادة «لبود» الوقوف في مكان.
١١. «زيفان» التبختر في المشية.
١٢. «وثبات» جمع «وثبة» القفز وقد وردت في العبارة بمعنى حركة الأرض الشديدة في الأيام الاولىٰ.

القسم الثامن عشر

«فَلَمَّا سَكَنَ هَيْجُ الْمَاءِ مِنْ تَحْتِ أَكْنَافِهَا، وَحَمْلِ شَوَاهِقِ الْجِبَالِ الشُّمَّخِ الْبُذَّخِ عَلَىٰ أَكْتَافِهَا، فَجَّرَ يَنَابِيعَ الْعُيُونِ مِنْ عَرَانِينِ أنوفها، وَفَرَّقَهَا فِي سُهُوبِ بِيَدِهَا وَأَخَادِيدِهَا، وَعَدَّلَ حَرَكَاتِهَا بِالرَّاسِيَاتِ مِنْ جَلَامِيدِهَا، وَذَوَاتِ الشَّنَاخِيبِ الشُّمِّ مِنْ صَيَاخِيدِهَا، فَسَكَنَتْ مِنَ الْمَيَدَانِ لِرُسُوبِ الْجِبَالِ فِي قِطَعِ أَدِيمِهَا، وَتَغَلْغُلِهَا مُتَسَرِّبَةً فِي جَوْبَاتِ خَيَاشِيمِهَا، وَرُكُوبِهَا أَعْنَاقَ سُهُولِ الأَرَضِينَ وَجَرَاثِيمِهَا، وَفَسَحَ بَيْنَ الْجَوِّ وَبَيْنَهَا، وَأَعَدَّ الْهَوَاءَ مُتَنَسَّماً لِسَاكِنِهَا، وَأَخْرَجَ إِلَيْهَا أَهْلَهَا عَلَىٰ تَمَامِ مَرَافِقِهَا».

ꕤ

الشرح والتفسير

ظهور الجبال والعيون

أشار الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبة ـ بعد أن شرح كيفية ظهور الأرض ـ إلى مسألة ظهور العيون والآثار المهمة للجبال في استقرار الأرض ومن عليها، فتطرق إلى أهم أسباب الحياة على الأرض وفي مقدمتها الماء والسكون والاستقرار فقال عليه السلام: «**فلما سكن هيج الماء من تحت أكنافها، وحمل شواهق[1] الجبال الشمخ[2] البذخ[3] على أكتافها، فجر ينابيع العيون من عرانين[4] أنوفها وفرقها في سهوب[5] بيدها[6] و أخاديدها[7]**» فالعبارة تفيد أن اول

---

١. «شواهق» جمع «شاهق» العالي والمرتفع.
٢. «شمخ» جمع «شامخ» و«بذخ» جمع «باذخ» العال والرفيع.
٣. شمخ جمع شامخ وبذخ جمع باذخ العال والرفيع.
٤. «عرانين» جمع «عرنين» على وزن عشرين وهو ما صلب من عظم الأنف.
٥. «سهوب» جمع «سهب» على وزن فهم الفلاة.
٦. «بيد» جمع «بيداء» بمعنى الأرض الفلاة.
٧. «أخاديد» جمع «اخدود» الحفرة الكبيرة.

ما ظهر على الأرض الجبال ثم تبعتها العيون؛الأمر الذي أيدته أبحاث علم طبقات الأرض حيث تشققت القشرة الأرضية في البداية إثر البرودة، فكان في تلك الشقوق حفر عظيمة استوعبت الماء النازل من السماء ثم جرى بشكل عيون و ينابيع. والعبارة «**عرانين أنوفها**» التي تعني ما صلب من عظم الانف، هي كناية رائعة عن قمم الجبال، بل أن تشبيه نتوءات الجبال بالانف تشبيه رائع يدل على أنّ جوف الجبل ليس مملوءاً، بل فيها المزيد من الأجزاء الخالية بحيث تبدوا أحياناً للعيان على هيئة غيران وكهوف ومصادر لادخار المياه.

ثم اشارﷺ إلى سكون الأرض والسيطرة على حركتها بالجبال، فقال: «**وعدل حركاتها بالراسيات[1] من جلاميدها[2] وذوات الشناخيب[3] الشمّ[4] من صياخيدها[5]**».

وهكذا سكنت حركات الأرض بفعل نفوذ الجبال في سطحها ورسوخها في الأعماق واستقرارها على الفلاة فحالت دون اضطرابها: «**فسكنت من الميدان[6] لرسوب الجبال في قطع أديمها[7] وتغلغها[8] متسربة[9] في جوبات[10] خياشيمها[11]، وركوبها أعناق سهول الأرضين وجراثيمها[12]**».

والحق أنّ ما أورده الإمامﷺ في هذا المقطع من الخطبة هو ذات ما أثبته العلم الطبيعي؛ الأمر الّذى أشار إليه القرآن الكريم في أنّ الجبال بمثابة مسامير الأرض: ﴿**وَالجِبالَ أَوْتاداً**﴾[13]، كما صرح القرآن قائلاً: ﴿**وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ**﴾[14]. طبعا هناك عدة فوائد

١. «الراسيات» جمع «راسية» بمعنى الثقيل والمحكم.
٢. «جلاميد» جمع «جلمود» الحجر الصلد.
٣. «شناخيب» جمع «شنخوب» رأس الجبل.
٤. «الشم» جمع «أشم» بمعنى العالي والمرتفع.
٥. «صياخيد» جمع «صيخود» على وزن محمود الصخرة الشديدة.
٦. «ميدان» بالتحريك الاضطراب.
٧. «أديم» يعنى في الأصل الجلد المدبوغ ثم اطلق على سطح الأرض.
٨. «تغلغل» المبالغة في الدخول.
٩. «متسربة» من مادة «تسرب» الدخول خفية.
١٠. «جوبات» «جوبة» على وزن توبة الحفرة.
١١. «خياشيم» جمع «خيشوم» على وزن زيتون وهو منفذ الأنف إلى الرأس.
١٢. «جراثيم» جمع «جرثومة» المراد هنا ما سفل عن السطوح من الطبقات الترابية.
١٣. سورة النباء/٧.
١٤. سورة النحل/١٥.

أُخرى للجبال؛ ومنها خزن المياه التي تخرج منها أحياناً كعيون، وأحياناً أُخرى علىٰ هيئة صقيع كثير ذاب ماءاً فشكل الأنهار، ناهيك عن سائر فوائد التي ذكرناها في شرح الخطبة الاولىٰ في المجلد الأول من هذا الكتاب. ثم أشار ﷺ إلى أمور مهمّة أُخرىٰ لاعداد الأرض بغية عيش الإنسان وممارسة حياته عليها، في أنّ الله جعل فاصلة بين الأرض والجو، وأعد الهواء والنسيم إلىٰ جانب توفير كافة ما يحتاج إليه سكنة الأرض: «**وفسح بين الجو وبينهما، وأعد الهواء متنسما**[1] **لساكنها، وأخرج إليها أهلها على تمام مرافقها**[2]»، فقد ضمنت هذه العبارة أشاره إلى الأركان الأصلية للحياة ومعيشة الإنسان والحيوان، وفي مقدمتها الهواء، أو بعبارة أُخرىٰ الاوكسجين الذي لايستغني عنه الإنسان لبضع (دقائق حيث يموت إذا قطع عنه. إلّا أنّ الحق سبحانه وتعالىٰ خلقه بكمية كافية وفي جميع الاماكن بحيث يحصل عليه الإنسان دون أدنى جهد أو تعب. كما يحصل عليه الجميع على السواسية غنيهم وفقيرهم وكبيرهم وصغيرهم وعجوزهم وفتاهم وعاجزهم وناشطهم. ثم أشار على نحو الاجمال إلىٰ كل ما يلزم الإنسان والحيوان للمعيشه علىٰ الأرض بعبارة قصيرة أوجزها في المفردة «المرافق». أمّا ما المراد بالجو في العبارة الذي فصله الله عن الأرض، فقد قال البعض المراد به الفضاء، ولمالم يكن الفضاء جسما أو مادة فلا يبدو التعبير با يجاد الفاصلة بينه وبين الأرض مناسبا. و يمكن أن يكون المراد بالجو الطبقات التي وراء الهواء، كطبقة الأوزون التي لايمكنها تلبية الحاجة التنفسية للإنسان لو كانت فاصلتها مع الأرض قليلة، وكانت الطبقة الجوية رقيقة. أضف إلىٰ ذلك فانها تدعو إلى اضطراب سائر شرائط حياة الإنسان وكافة الأحياء على الأرض.

تأمّل

أسرار خلق الجبال

لقد أعد الحكيم سبحانه بمقتضى قدرته وعلمه كافة أسباب الحياة ومتطلبات العيش

---

١. «متنسم» من مادة «نسيم» هبوب الرياح المعتدلة. وعليه متنسم (بصيغة اسم مفعول) بمعنى الهواء الصالح للتنفس.

٢. «مرافق» جمع «مرفق» على وزن مكتب كل ما يحتاج الإنسان ويستفيد منه، وهذا هو المعنى المراد في الخطبة. كما ورد بمعنى مرفق اليد.

والوسائل التي يحتاجها الإنسان قبل خلقه؛ الأمر الذي أشارت الخطبة إلىٰ جانب منه، ومن ذلك استقرار الأرض، فلو كانت القشرة الأرضية في حالة حركة لتعذرت الحياة عليها، و الآخر توفير الهواء بهذه الصورة الواسعة حيث يعتبر مادة الحياة في السفر والحضر وفي البيت وخارجه وفي اليقظة والمنام وهو معه أينما كان، وتوفير المياه والعيون وجعلها تحت تصرف الإنسان، إلى جانب نزول الأمطار التي تروي كافة المواضع المرتفعة والعالية وترويها بالمياه، وهذا ما سيأتي ذكره في الأقسام القادمة من الخطبة.

وظهور الجبال التي تلعب دوراً مهما في حياة الإنسان، بل يمكن القول أنّ الحياة البشرية مهددة بالاخطار لولا هذه الجبال للأسباب التالية.

أولاً: دورها في الحيلولة دون اضطراب الأرض بفعل الضغط الداخلي.

ثانياً: الحيولة دون عدم استقرار الأرض إثر الضغط الخارجي الناجم عن جاذبية الشمس والقمر وظاهرة المد والجزر الناشئة عنها.

ثالثاً: كونها الملجأ الأمن ازاء العواصف التي تهدد كل مقومات وعناصر حياة الإنسان.

رابعاً: وسيلة لايقاف السحب ونزول الأمطار.

خامساً: عامل مهم لادخار المياه بصورة صقيع متراكم في سطحها الخارجي بحيث تتحول بالتدريج إلى ماء طيلة السنة.

سادساً: موضع للآبار الجوفية التي تختزن في حفر عظيمة داخلها وتجري كعيون.

سابعاً: تمنع الاصطدام الشديد للهواء بطبقة الأرض.

ثامناً: تجعل الأرض قابلة للاستفادة العملية، وبالنظر لاختلاف درجات حرارة وسط الجبال ونقاطها العلوية والسفلية فانها توفر مناخاً مناسباً لنمو مختلف النباتات والمحاصيل.

تاسعاً: انها مراكز للمعادن العظيمة التي تلعب دوراً مهما في حياة الإنسان.

عاشرا: يستخرج منها بعض المواد المهمّة في البناء ولاسيا الحجر.

ومن هنا عدها القرآن الكريم من النعم العظيمة ذات الفوائد الكثيرة، فقال ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَاراً وَمِنْ كُلِّ ٱلثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾[1].

---

١. سورة الرعد/٣.

القسم التاسع عشر

«ثُمَّ لَمْ يَدَعْ جُرُزَ الأَرْضِ الَّتِي تَقْصُرُ مِيَاهُ الْعُيُونِ عَنْ رَوَابِيهَا، وَلاَ تَجِدُ جَدَاوِلُ الأَنْهَارِ ذَرِيعَةً إِلَى بُلُوغِهَا، حَتَّى أَنْشَأَ لَهَا نَاشِئَةَ سَحَابٍ تُحْيِي مَوَاتَهَا، وَتَسْتَخْرِجُ نَبَاتَهَا أَلَّفَ غَمَامَهَا بَعْدَ افْتِرَاقِ لُمَعِهِ، وَتَبَايُنِ قَزَعِهِ، حَتَّى إِذَا تمخضت لُجَّةُ الْمُزْنِ فِيهِ، وَالْتَمَعَ بَرْقُهُ فِي كُفَفِهِ، وَلَمْ يَنَمْ وَمِيضُهُ فِي كَنَهْوَرِ رَبَابِهِ، وَمُتَرَاكِمِ سَحَابِهِ، أَرْسَلَهُ سَحّاً مُتَدَارِكاً، قَدْ أَسَفَّ هَيْدَبُهُ، تَمْرِيهِ الْجَنُوبُ دِرَرَ أَهَاضِيبِهِ، وَدُفَعَ شَآبِيبِهِ. فَلَمَّا أَلْقَتِ السَّحَابُ بَرْكَ بِوَانَيْهَا، وَبَعَاعَ مَا اسْتَقَلَّتْ بِهِ مِنَ الْعِبْءِ المَحْمُولِ عَلَيْهَا، أَخْرَجَ بِهِ مِنْ هَوَامِدِ الأَرْضِ النَّبَاتَ، وَمِنْ زُعْرِ الْجِبَالِ الأَعْشَابَ، فَهِيَ تَبْهَجُ بِزِينَةِ رِيَاضِهَا وَتَزْدَهِي بِمَا أُلْبِسَتْهُ مِنْ رَيْطِ، أَزَاهِيرِهَا، وَحِلْيَةِ مَا سُمِطَتْ بِهِ مِنْ نَاضِرِ أَنْوَارِهَا، وَجَعَلَ ذٰلِكَ بَلاَغاً لِلأَنَامِ، وَرِزْقاً لِلأَنْعَامِ، وَخَرَقَ الْفِجَاجَ فِي آفَاقِهَا، وَأَقَامَ المَنَارَ لِلسَّالِكِينَ عَلَىٰ جَوَادِّ طُرُقِهَا».

الشرح والتفسير

إحياء الأرض الميتة بالسحب الممطرة

أشار الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبة إلى نعمة مهمّة أُخرى لا تتمّ الحياة بدونها علىٰ سطح الأرض، حيث شرحها بعبارات لطيفة رائعة، فقال عليه السلام: **«ثم لم يدع جرز[1] الأرض التي تقصر مياه العيون عن روابيها[2]، ولاتجد جداول الأنهار ذريعة إلى بلوغها، حتى أنشأ لها**

---

1. «جرز»: تطلق على الأرض التي تمر عليها مياه العيون فتنبت.
2. «روابي» جمع «رابية» من مادة «ربو» على وزن غلو مرتفعات الأرض.

ناشئة السحاب تحيي، مواتها وتستخرج نباتها».

الجدير بالذكر أنّ الإمامعليه السلام أشار بصورة عابرة إلى الاقسام الثلاثة للري والسقي: السقي الطبيعي بواسطة العيون المليئة بالمياه، والسقي عن طريق الجدوال والآبار وتوجيه مياه الأنهار الطبيعية، والسقي عن طريق الأمطار الأهم من كل ذلك، وذلك لوجود بعض المناطق في الأرض التي يتعذر سقيها بغير الأمطار، وهي المناطق الكثيرة، فلولا مياه الأمطار لماتت أجزاء واسعة من الأرض. اضف إلى ذلك فما لاشك فيه أنّ الأنهار والعيون إنّما تكتسب مياهها من الأمطار. على كل حال فانّ السحب وبالتالي الأمطار تقوم بهذه المهمة في السقي و التي كلفها بها الله فقالعليه السلام: «**الف غمامها بعد افتراق لمعه[1]، وتباين قزعه[2]، حتى إذا تمخضت[3] لجة المزن[4] فيه والتمع برقه في كففه[5]، ولم ينم وميضه[6] في كنهور[7] ربابه[8]، متراكم سحابه،أرسلهسحا[9]متاركاًقدأسف[10]هيدبه[11]تمريه[12]الجنوبدرر[13]أهاضيبه[14]ودفع شابيبه[15]**». فقد استبطنت هذه العبارات عدّة مواضيع علمية مهمة: ومنها الإشارة إلى مهمّة الريح التي تؤلف بين السحب المتفرقة المنبعثة من البحار لتتكون منها الأمطار الغزيرة. ثم

---

١. «لمع» جمع «لمعة» على وزن لقمة بمعنى قطعة من السحاب أو شيء آخر.

٢. «قزع» جمع «قزعة» على وزن ثمرة القطعة من الغيم.

٣. «تمخضت» من مادة «مخض» على وزن فرض، بمعنى الحركة الشديدة، مثل حركة الشُكبة – و هو الوسيلة التي يخض فيها اللبن لفصل الزبد عنه – عند ما نريد فصل الزبد عن اللبن.

و المخاض: يطلق على حركة الطفل الشديدة في بطن أمه في حالة الطلق و الوضع.

٤. «مزن» السحب الماطرة.

٥. «كفف» جمع «كفه» على وزن قبة حاشية شيء واطرافه.

٦. و«ميض» من مادة ومض على وزن رمز التشعشع.

٧. «كنهور» القطع العظيمة من السحاب.

٨ «رباب» جمع «ربابة» السحاب الابيض.

٩. «سح» متلاحق متواصل.

١٠. «أسف» من مادة إسفاف الدنو من الأرض.

١١. «هيدب» السحاب المتدلي الذي يقترب من الأرض.

١٢. «تمرى» من مادة «مرى» من مرى الناقة مسح على ضرعها ليحلب لبنها.

١٣. «درر» جمع «درة» اللبن.

١٤. «أهاضيب» جمع «أهضوبة» الحلب المتواصل.

١٥. «شابيب» جمع «شؤبوب» ما ينزل من المطر بشدة.

تطرقﷺ إلى تجمع السحب والغيوم والضغط الذي تسلطه كل واحدة على الأرض تأهباً لهطول الأمطار إلى جانب دور البرق في ذلك الهطول. لاننا نعلم أنّ البرق إنّما يحصل من خلال الكهربائية الموجبة والسالبة، فيجذب إليه مقداراً كبيراً من الهواء ويقلل من ضغطه فاذا قلّ ضغط الهواء تمهدت الظروف لسقوط الأمطار. ثم واصل الإمامﷺ الكلام في دور الرياح وأنّها بمثابة الأصابع التي تستخرج الحليب من ضرع الثدي، فتفصل السحب والغيوم عن الهواء وتبعث بمياه الأمطار هنا وهناك. فكل هذه الأُمور تشير إلى أن الخالق الحكيم قد أعدّ جميع المقدمات ودبر كافة الاسباب من أجل ري الاراضي المرتفعة والجافة. ثم أشار الإمامﷺ إلى آثار المطر على الأرض وما ينطوي عليه من بركات وفوائد فقال: «**فلما ألقت السحاب برك[١] بوانيها[٢] وبعاع[٣] ما أستقلت[٤] به من العبث[٥] المحمول عليه، أخرج به من هوامد[٦] الأرض النبات، ومن زعر[٧] الجبال الأعشاب**»، فقد أشارت هذه العبارات الرائعة إلى مسألة وهى أنّ السحب كأنّها حبلى فاذا هطلت الأمطار الثقلية وضعت حملها؛ الحمل الذي يفيض الحياة والبركة والجمال لكي تشمل الصحاري الجرداء أطراف قمم و سفوح الجبال ـ التي يصعب على الإنسان سقيها ـ فتخرج منها النباتات التي تعود بالفائدة على الناس. ثم واصلﷺ حديثه برسم صورة رائعة عن الطبيعة التي تتمخض عن ذلك المطر، فقال «**فهى تبهج[٨] بزينة رياضها، وتزدهى[٩] بما البسته من ريط[١٠] أزاهيرها[١١] وحيلة ما سمطت[١٢] به من ناضر[١٣] أنوارها[١٤]**».

---

١. «برك» بالفتح مايلي الأرض من جلد صدر العبير.
٢. «بواني» مثنى «بوان» على وزن لسان عمود الخيمة.
٣. «بعاع» بالفتح ثقل السحاب من الماء.
٤. «استقل» من مادة «استقلال» الحمل.
٥. «عِبء» الحمل.
٦. «هوامد» جمع «هامدة» من مادة «همود» انطفاء النار والهوامد من الأرض ما لم يكن بها نبات.
٧. «زعر» جمع «أزعر» الموضع القليل النبات.
٨. «تبهج» من مادة «بهجت» سر وفرح.
٩. «تزدهي» من الأزدهاء العجب.
١٠. «ريط» جمع «ريطة» الثوب الرقيق.
١١. «أزاهير» جمع «زهرة» النبات.
١٢. «سمطت» من مادة «سمط» التعليق.
١٣. «ناضر» من مادة «نضارة» النشاط، ولا سيما الحاصل من وفور النعمة.
١٤. «أنوار» جمع «نور» البرعم والزهر.

ومن الواضع جداً دور الطبيعية وجمالها في صفاء روح الإنسان وإزالته لتعبه وارهاقه إلى جانب تفعيل قوته وطاقته؛ وعليه فالحديث لايقتصر على مسألة الجمال، وإن كان هذا الجمال يمثل جانباً من جمال الحق سبحانه وجلاله؛ بل إنّ هذا الجمال يعد أحد عوامل بقاء الحياة وديمومتها، بل ذهب بعض العلماء إلى أهمية دروه حتى في نشاط الحيوانات. ثم قال‌ﷺ بأنّ كل ذلك زاد ومتاع للإنسان ورزق للانعام: «**وجعل ذلك بلاغاً**[١] **للأنام، ورزقاً للأنعام**»، فالإنسان لا يستفيد من نعم الطبيعية على مستوى الغذاء فحسب، بل يؤمن عن طريقها لباسه ومسكنه ومركبه، وبصورة عامة كافة حاجاته ومتطلباته. قال القرآن الكريم بهذا الشأن: ﴿**أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْماءَ صَبّاً * ثُمَّ شَقَقْنا ٱلْأَرْضَ شَقّاً * فَأَنْبَتْنا فِيها حَبّاً * وَعِنَباً وَقَضْباً * وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً * وَحَدائِقَ غُلْباً * وَفاكِهَةً وَأَبّاً * مَتاعاً لَكُمْ وَلِأَنْعامِكُمْ**﴾[٢].

نعم فالإنسان لايتغذى على النباتات وثمارها، وينسبح مفروشاته من مختلف أليافها فحسب، بل يبني بيوته من خشبها وينصب الخيام من أليافها، كما يغطي أغلب حاجاته ومتطلباته عن طريق منتجات الحيوانات التي تتغذى على النباتات. ثم اختتم خطبته‌ﷺ بالاشارة إلى مسألة مهمّة أُخرى خلقها الله في الأرض من أجل الإنسان: «**وخرق الفجاج**[٣] **في آفاقها وأقام المنار للسالكين على جواد**[٤] **طرقها**». فادنى نظرة إلى الأرض وكل بقعة من هذه الكرة الأرضية يتضح من خلالها بأنّ الجبال لم تحول دون الحركة على الأرض أو بفصل بعض بقاعها عن البعض الآخر فحسب، بل جعل في كافة مواضعها الاودية والشقوق لا يصالها مع بعضها عن طريق السبل والجادات وما إلى ذلك: و قلما يلتفت الإنسان أنه لولا وجود هذه الجادات و الجبال العملاقة المتصلة مع بعضها و التي تشكل جدارا لمنع عبور الناس و الحيوانات و تقسم الأرض إلى إقسام متناثرة لتعرض لعظيم البلاء و عاش أشد الفاقة ﴿**وَجَعَلْنا فِي ٱلْأَرْضِ رَواسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنا فِيها فِجاجاً سُبُلاً لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ**﴾[٥]، وقال: ﴿**وَمِنَ الْجِبالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوانُها وَغَرابِيبُ سُودٌ**﴾[٦].

---

١. «بلاغ» من مادة «بلوغ» الوصول إلى الشيء وهو هنا ما يتبلغ به من قوت.
٢. سورة عبس/٢٥ ـ ٣٢.
٣. «فجاج» جمع «فج» بمعنى الوادي بين الجبلين.
٤. «جواد» جمع «جادة» الطريق الواسع الواضح.
٥. سورة الأنبياء/٣١.
٦. سورة فاطر/٢٧.

تأمّل

سعة قاعدة اللطف في التكوين والتشريع

جرت عادة أهل التدبير والحكمة على توفير كافة المقدمات والأسباب التي توصل إلى الهدف، ويتجلى هذا الأمر بأعظم أبعاده في الخالق الحكيم سواء في عالم التشريع والتكليف، أم في عالم العينيات والواقعيات، فقد أعد كافة الشرائط ومهد جميع السبل في عالم التكليف من أجل الطاعة، حيث زود الإنسان بالعقل والذكاء والفطرة السليمة وانزل الكتب السماوية وبعث الرسل والأنبياء ليتسنى للعباد اتخاذ سبيل الطاعة؛ الأمر الذي اصطلح عليه باللطف في علم الكلام. وفي عالم الخلق فانّ الله سبحانه أعد كافة وسائل الحياة قبل أن يضع الإنسان قدمه على هذا العالم، فقد أقر سطح الأرض وحال دون حركاتها الطائشة بواسطة الجبال، وشق فيها الآبار والأنهار التي تعتبر مادة الحياة، وسخر السحب لري المرتفعات، كما خلق مختلف النباتات التي يتغذى عليها الناس والحيوانات كما أوجد الجواد وسط الجبال لعبور الناس ومشيهم، وسهل للناس روابطهم الاجتماعية، بل منح أرواحهم السكينة والهدوء بما زين به الطبيعة من ورود وأزهار. نعم هذا هو معنى الحكمة والتدبير والربوبية الذي أشار إليه أمير المؤمنين علي عليه السلام في هذا الموضع من الخطبة، والذي يعرف الإنسان بعلم الله وقدرته وحكمته من جانب، كما تثير لديه حس الشكر ـ مادة الطاعة والعبودية ـ وهو الأمر الذي ورد كراراً في القرآن ومن ذلك في سورة النحل بعد ذكره لخلق السموات والأرض والانعام ونزول الأمطار من السماء و خروج الاشجار و نمو الزرع و أنواع الثمار و الفاكهة و حركة الشمس و القمر و خلق البحار على أنها من نعمه التي لاتعد و لا تحصى. حيث قال: **﴿وَأَلْقىٰ فِي الْأَرْضِ رَواسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَ أَنْهاراً وَسُبُلاً لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَعَلاماتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾**[1].

---

١. سورة النحل/١٦ ـ ١٥.

القسم العشرون

«فَلَمَّا مَهَدَ أَرْضَهُ، وَأَنْفَذَ أَمْرَهُ، اخْتَارَ آدَمَ، عَلَيْهِ السَّلامُ، خِيرَةً مِنْ خَلْقِهِ وَجَعَلَهُ أَوَّلَ جِبِلَّتِهِ وَأَسْكَنَهُ جَنَّتَهُ، وَأَرْغَدَ فِيهَا أُكُلَهُ، وَأَوْعَزَ إِلَيْهِ فِيمَا نَهَاهُ عَنْهُ، وَأَعْلَمَهُ أَنَّ فِي الإِقْدَامِ عَلَيْهِ التَّعَرُّضَ لِمَعْصِيَتِهِ، وَالْمُخَاطَرَةَ بِمَنْزِلَتِهِ؛ فَأَقْدَمَ عَلَىٰ مَا نَهَاهُ عَنْهُ ـ مُوَافَاةً لِسَابِقِ عِلْمِهِ ـ فَأَهْبَطَهُ بَعْدَ التَّوْبَةِ لِيَعْمُرَ أَرْضَهُ بِنَسْلِهِ، وَلِيُقِيمَ الْحُجَّةَ رُبُوبِيَّتِهِ، وَيَصِلُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَعْرِفَتِهِ، بَلْ تَعَاهَدَهُمْ بِالْحُجَجِ عَلَىٰ أَلْسُنِ الْخِيَرَةِ مِنْ أَنْبِيَائِهِ، وَمُتَحَمِّلِي وَدَائِعِ رِسَالاَتِهِ، قَرْناً فَقَرْناً؛ حَتَّىٰ تَمَّتْ بِنَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ حُجَّتُهُ، وَبَلَغَ الْمَقْطَعَ عُذْرُهُ وَنُذُرُهُ».

الشرح والتفسير

خلق آدم وبعثة الأنبياء

خاض الإمام﵇ في هذا المقطع من الخطبة في قضية خلق آدم بعد خلق الأرض و إعدادها من جميع النواحي، وأنّ الله سبحانه قد أعد الأرض وانفذ فيها أمره ثم اصطفى آدم﵇ من بين جميع خلقه: «**فلما مهد أرضه، وأنفذ أمره، اختار آدم عليه السلام، خيرة من خلقه، وجعله أول جبلته**»[1]، والعبارة «**أول جبلته**» (أول مخلوقاته) يمكن أن يكون المراد بها الإنسان الأول من حيث الترتيب الزماني، أو أول مخلوق من حيث الموقع.

والمقام، أو كلاهما.

---

١. «جبلة» بمعنى الطبيعة و الفطرة الإنسانية (وقد اشتقت هذه الكلمة من مادة «جبل» حيث تابى هذه الفطرة التغيير).

ثم قال ﷺ بأنّ الله سبحانه أسكن آدم جنته وزوده بمختلف الأطعمة والأشربة، ثم حذره ما حظر عليه والعاقبة الخطيرة لتجاوز أمره ونهيه على مقامه وكرامته: «**وأسكنه جنته، وأرغد فيها أكله، وأوعز[١] إليه فيما نهاه عنه، وأعلمه أن في الأقدام عليه التعرض لمعصيته، والمخاطرة بمنزلته**».

نعم فقد أسكن الله آدم ﷺ في جنّة أرضية (جنّة غناء بالفاكهة من جنان الأرض، والشاهد على ذلك قوله: «**فلما مهد أرضه**»، ثم بين لآدم ﷺ تكليفه وأصدر له وأوامره ونواهيه وحذره من معصيته وعدم طاعة أوامره، والعبارات وان لم تصرح بالشجرة المنهية، غير أنّها بينت بصورة عامة؛ الأمر الذي ورد كراراً في عدّه آيات قرآنية ومنها الآية: **﴿وَلَقَدْ عَهِدْنا إِلىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾**[٢] والآية **﴿وَقُلْنا يا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْها رَغَداً حَيْثُ شِئْتُما وَلا تَقْرَبا هٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونا مِنَ الظّالِمِينَ﴾**[٣].

ثم واصل الإمام ﷺ كلامه بأنّ آدم وقع في ما حذر منه: «**فأقدم على ما نهاه عنه، موافاة لسابق علمه**».

قد يبدو في البداية أنّ العبارة: «**موافاة لسابق علمه**»، أنّ آدم ﷺ ـ قد أجبر على المعصية وذلك لأنّ علم الله سبق في هذا الأمر (وهذه هي الشبهة المعروفة لدى المجبرة في مسألة العلم الأزلي لله سبحانه)، ولكن كما ذكرنا ذلك سابقاً في بحث الجبر والتفويض، أنّ العلم الازلي ليس سبباً الاجبار على فعل قط! لأنّ الله كان يعلم أنّ آدم ﷺ سيقارف هذا العمل باختياره، بالضبط كالاستاذ الذي يعرف تلميذه سيسقط في الامتحان النهائي بسبب إهماله وكسله في الدروس. فمثل هذا العلم من قبل الاستاذ ليس له أية صلة برسوب ذلك التلميذ أو اجباره عليه. فهو يعلم أنّ تلميذه اختار طريقاً خاطئاً بمحض إرادته، وقد اعتاد الكسل والتقاعس دون الجد والمطالعة والمثابرة[٤] ومن هنا آخذه الله وخاطبه: **﴿أَلَمْ أَنْهَكُما عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُما إِنَّ الشَّيْطانَ لَكُما عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾**[٥].

---

١. «أوعز» من مادة «وعز» على وزن وعظ اقتراح عمل على آخر.
٢. سورة طه/١١٥.
٣. سورة البقرة/٣٥.
٤. للوقوف على تفاصيل هذا الموضوع راجع كتاب «معرفة الله».
٥. سورة الاعراف/٢٢.

فلو كان آدمعليه السلام مجبوراً كيف يؤاخذه الحكيم سبحانه على فعل لم يكن مختاراً في ارتكابه، كذلك لماذا يندم آدمعليه السلام على ذلك الفعل ويتوب منه، أم كيف يخرج الله سبحانه من الجنّة بذلك الفعل؟ كل هذه الأمور تدل على عدم وجود أي تضارب بين العلم الأزلي لله سبحانه مع اختيار آدم وسائر أفراد البشر. ثم قالعليه السلام: «**فاهبطه**[1] **بعد التوبة ليعمر الأرض بنسله، وليقيم الحجة به على عباده**».

فبالنظر للعبارة السابقة «**أسكنه جنّته**» يفهم أنّ هبوط آدم ونزوله لم يكن هبوطاً مكانياً، بل مقامياً، أي أنّ الله أهبط آدم من ذلك المقام الرفيع الذي كان عليه لتركه ذلك الاولى.

والعبارة: «**ليعمر أرضه بنسله**» تفيد أنّ هدف كافة الأفراد لابدّ أن يكون إعمار الأرض لا اخرابها با الحروب والقتال والنزاعات والخلافات أو الخمول والكسل والتقاعس عن العمل أو حتى تلويث البيئة السالمة! والطريف أنّ هذا الاعمار جاء بعد التوبة، فما لم يتب الإنسان من أخطائه وزلله لا يوفق لهذا البناء والاعمار. فقد جاء في القرآن الكريم **﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيها فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾**[2].

كما يستفاد من العبارة: «**فأهبطه بعد التوبة**» بأنّ ذلك الهبوط قد حصل بعد التوبة.

النقطة المهمة الأُخرىٰ في العبارة والتي أشير إليها مراراً في القرآن مسألة اتمام الحجة على العباد. فالله سبحانه وإن زود الإنسان بالعقل، إلّا أنّه لم يكتف بذلك فواتر إليه كتبه ورسله وأنبيائه والدعاة إلى طاعته ـ في كل عصر ومصر ـ ليتم الحجة على العباد، وهذا ما أورده الإمامعليه السلام في حديثه بين بني آدم وواتر إليهم الأنبياء ليؤدوا رسالات ربّهم ويقيموا عليهم الحجج: «**ولم يخلهم بعد أن قبضه، ممّا يؤكد عليهم حجة ربوبيته، ويصل بينهم وبين معرفته، بل تعاهدهم بالحجج على ألسن الخيرة من أنبيائه، ومحتملي ودائع رسالاته، قرناً**[3] **فقرناً؛ حتى تمت بنبينا محمد**صلى الله عليه وآله **حجته، وبلغ المقطع**[4] **عذره ونذره**[5]»، تفيد بعض

---

١. «أهبط» من مادة «هبوط» النزول.

٢. سورة هود/٦١.

٣. «قرن» الزمان الطويل الذي قد يمتد إلى مئة عام، كما يطلق على الجماعة التي تعيش مع بعضها في عصر.

٤. «مقطع» النهاية.

٥. «عذره» و«نذره»، «العذر» هنا اتمام الحجة على العباد بحيث لايبقى لهم عذرا للمخالفة، و«النذر» جمع النذير بمعنى الانذار، ذكر العواقب السيئة للشئ.

الآيات القرآنية وجود التوبة سابقاً، كما تفيد آيات أُخرىٰ وجودها لا حقاً، ويمكن الجمع بينهما، في أنّ آدمعليه السلام تاب مرات من خطيئته من قبل الهبوط وبعده، وما أكثر ما يخطئ الإنسان ويكثر من الاستغفار كلما عرض له ذلك الخطاء. العبارة «**لم يخلهم بعد أن قبضه**»[1]، تفيد أنّ آدمعليه السلام هو أحد أنبياء الله وحججه، وأنّ الله واتر أنبيائه بعد آدمعليه السلام حتى ختمهم بالنبي الأكرمصلى الله عليه وآله، وهنا يبرز هذا السؤال: إذا كان اتمام الحجة ضرورة في كل زمان ومكان / لم ختمت النبوة بالرسول الأكرمصلى الله عليه وآله فكانصلى الله عليه وآله خاتم الأنبياء؟ وتتضح الاجابة على هذا السؤال من خلال التفات إلى هذه النقطة وهي أنّ الله أنزل آخر أوامره وأحكامه وأكمل قوانينه وتعاليمه علىٰ نبي الإسلام، فكانت شريعته أكمل الشرائع وأشملها، بحيث يمكن للبشرية برمتها أن تحتذيها في مسيرتها إلىٰ السعادة والفلاح، ولا سيما أنّ نسل الأوصياءعليهم السلام الامتداد الحقيقي للنبيصلى الله عليه وآله ماثل إلىٰ يوم القيامة، ومن أراد المزيد فليراجع المجلد الثامن من كتاب نفحات القرآن بحث الخاتمية.

---

١. جملة «ليقيم الحجة به على عباده» «في حالة عود الضمير «به» على آدمعليه السلام أيضاً يمثل دليلاً آخراً على نبوة آدمعليه السلام.

و تعبير «عباده» يشير إلى حواء و أولاد آدم، بالاضافة إلى مصير آدم و زوجته بعد الخروج من الجنة بعد ارتكاب الخطأ، و هي حجة على بني آدم كافة إلى يوم القيامة.

القسم الحادي والعشرون

«وَقَدَّرَ الأَرْزَاقَ فَكَثَّرَهَا وَقَلَّلَها، وَقَسَّمَهَا عَلَى الضِّيقِ والسَّعَةِ فَعَدَلَ فِيهَا لِيَبْتَلِيَ مَنْ أَرَادَ بِمَيْسُورِهَا وَمَعْسُورِهَا، وَلِيَخْتَبِرَ بِذٰلِك الشُّكْرَ وَالصَّبْرَ مِنْ غَنِيِّهَا و فَقِيرِهَا. ثُمَّ قَرَنَ بِسَعَتِهَا عَقَابِيلَ فَاقَتِهَا، وَبِسَلاَمَتِهَا طَوَارِقَ آفَاتِهَا، وَبِفَرَجِ أَفْرَاحِهَا غُصَصَ أتراحها، وَخَلَقَ الآجَالَ فَأَطَالَهَا وَقَصَّرَهَا، وَقَدَّمَهَا وَأَخَّرَهَا، وَوَصَلَ بِالْمَوْتِ أَسْبَابَهَا، وَجَعَلَهُ خَالِجاً لأَشْطَانِهَا، وَقَاطِعاً لَمَرَائِرِ أَقْرَانِهَا».

الشرح والتفسير

الرزق وسيلة الامتحان

واصل الإمامﷺ كلامه بالأدلة الدامغة و الواضحة بشأن اتمام الله سبحانه للحجة على العباد من خلال إنزال الكتب السماوية وبعث الأنبياء والرسل بالحديث هنا عن وسيلتين للامتحان الإلهي للعباد في مختلف مراحل تكليفهم، فأشار في الاولى إلىٰ مسألة الرزق التي قدرها وتعرضها للزيادة والنقيصة: «**وقدر الارزاق فكثرها وقللها، وقسمها على الضيق والسعة**» وبغية الحيولة دون التصور بأنّ هذا التفاوت في الرزق بين العباد يتناقض والعدالة، بادر الإمامﷺ إلى القول بتقسيمها على ضوء العدل «**فعدل فيها**» في إشارة إلى أنّ العدالة لاتعني المساواة والتكافى، بل العدالة تعني الايصال على ضوء مصلحة الشخص، فقد ورد في الحديث عن النبي الأكرمﷺ أنّ الله سبحانه وتعالى قال: «**إنّ من عبادي من لا يصلحه إلّا الفاقة ولو أغنيته لأفسده ذلك، وإنّ من عبادي من لايصلحه إلّا الصحة ولو أمرضته**

لأفسده ذلك»[١]. ثم تعرض عليه السلام بصورة أعمق لهذا الأمر قائلاً: «**ليبتلي من أراد بميسورها ومعسورها، وليختبر بذلك الشكر والصبر من غنيها وفقيرها**»، يمكن أن يكون هذا التفاوت في الأشخاص مختلفاً؛ فتتمتع فئة بنعمة جمة لترىٰ في ميدان الاختبار هل أدت شكر هذه النعمة وأفاضت بعضها علىٰ المحرومين، ووضعت الأموال مواضعها الصحيحة، أم بالعكس فانّ زيادة الثروة أبعدها تماماً عن الخالق والمخلوق وجعلها تسبح في بحر من الغرور والغفلة. أم أن ضيق الرزق حطم صبر هذه الجماعة وقضى علىٰ استقامتها واضطراها إلىٰ مقارفة الحرام وجحود النعمة والأعراض عن الله سبحانه وتعالىٰ.

بل إنّ هاتين الحالتين قد تتحققان في نفس الشخص، فقد يكون غنياً أحياناً، كما قد يكون فقيراً أحياناً أُخرى، وهو ممتحن في الحالتين في شكره وصبره وجحوده وجزعه ثم يواصل الإمام عليه السلام كلامه بالإشارة إلى هذه النقطة في أنّ الغنى والفقر والصحة والمرض ليست من الأُمور المنفصلة عن بعضها ليستند الإنسان علىٰ واحدة منها، بل هي قريبة متداخلة مع بعضها، في أنّ الباريء سبحانه خلط سعة الرزق بما يتبق من الفقر والفاقة، والصحة والعافية والسلامة بالحوادث الإلهيّة، والسرور والافراح بالأحزان والاتراح: «**ثم قرن بسعتها عقابيل فاقتها، وبسلامتها طوارق آفاتها، وبفرج أفراحها غصص أتراحها**[٢]»، حتى لا يغتر أحد بغناه وعافيته وفرحه وسروره، ويعلم الجميع بان هذه الأُمور معرضة للزوال والتبدل والعدم علىٰ الدوام وفي كل مكان ولدى كائن من كان و أنها تنقلب يوماً إلىٰ ما يضادها.

وسالمتك الليالي فاغتررت بها — وعند صفو الليل يحدث الكدر

و بالنظر إلىٰ أنّ «**عقابيل**» جمع عقبولة على وزن جرثومة تعني الشدائد وبقايا الأمراض والمشاكل التي تتمثل بقروح صغيرة تخرج يالشفة: فانّ العبارة المذكورة تفيد أنّ المشاكل والمصائب وآثارها وبقاياها تلازم دائمًا الراحة والهدوء ولا تفارقها أبداً. والعبارة: «**يفرج أفراحها غصص أتراحها**» تأكيد آخر لهذا المعنى؛ لأنّ أتراح جمع ترح على وزن فرح بمعنى

---

١. بحارالأنوار ١٤٠/٦٨، وقد ورد شبه هذا المعنى في الغنى والفقر والصحة والمرض والتوفيق للعبادة من عدمه في بحارالانوار ٢٨٤/٥ عن النبي صلى الله عليه وآله عن الله سبحانه.

٢. «أتراح» جمع «ترح» على وزن فرح بمعنى الغم والهم، وفسر ضد الفرح كما فسر أيضاً بالهلاك وقطع الخير والاحسان.

الحزن والغم والهم. فبالنتيجة ذكر الإمامﷺ أنّ هذه الافراح والسرور مقرونة با لهم والحزن، النقطة الآخرى التي أشار إليها الإمامﷺ هى الوقت المحدد. للحياة، فلها نهاية حتمية عاجلا أم آجلاً، والشيء الذي ليس للإنسان منه وسيلة للهرب هو الموت: «**وخلق الاجال فأطالها وقصرها، وقدمها وأخرها**». فالموت موصول بالحياة (وجعل الأمراض وسيلة لانهاء الحياة) من شأنه القضاء عليها «**و وصل بالموت أسبابها، وجعله خالجا**[١] **لأشطانها**[٢]**، وقاطعا لمرائر**[٣] **أقرانها**»، فقد أشار الإمامﷺ في هذه العبارة القصيرة إلى عدّة نقاط، منها أنّ البعض يعمر كثيراً بصورة طبيعية، والبعض الآخر يعمر قليلاً، كما قد يقصر ذلك العمر الطويل بفعل بعض الأعمال الشائنة أو الذنوب والمعاصى، بينما قد يطال في ذلك العمر القصير إثر رعاية القضايا المرتبطة بالصحة والسلامة، أو بفعل الأعمال الطيبة والخير والاحسان. كما أشارﷺ إلى أنّ للموت عدّة أسباب، إذا هرب الإنسان من بعضها وقع في مخالب الاخر، بل لاينجو من الموت أقوى الأقوياء. وعليه لاينبغي لأحد أن يغتر بصحته وسلامته وشبابه وقوته، ولابدّ لكل أحد أن يتأهب للموت ويعد له الزاد المطلوب متوقعاً الموت في أي وقت.[٤] كما احتمل بعض شرّاح نهج البلاغة أنّ المراد بالتقديم والتأخير، هو أنّ الله سبحانه وتعالى خلق البعض في الأزمنة الماضية والبعض الآخر في الأزمنة اللاحقة على ضوء المصالح، إلّا أنّ المعنى الأول أنسب.

تأمّل

هل رزق كل إنسان مقدر؟

لا يستفاد من عبارات هذه الخطبة تقدير رزق الإنسان فحسب، بل يستفاد ذلك من

---

١. «خالج» من مادة «خلج» بمعني الجذب، والخلجان شيء في ذهن الإنسان يعنى انجذابه أمام الشيء، ومن هنا اطلق الخليج لجذبه ماءأكثيراً من البحر.

٢. «أشطان» جمع «شطن» على وزن وطن وهو الحبل الطويل، كما وردت هذه المفردة بمعنى العبد، ومنه «الشيطان» لبعده عن الهداية والرحمة.

٣. «مرائر» جمع «مرير» الحبل المحكم.

٤. اوردنا بحثاً مفصلاً في الخطبة ٦٢ من المجلد الثالث بشأن الأجل ونهاية عمر الإنسان.

أغلب الآيات القرآنية الواردة بهذا الشأن، فقد طالعتنا مختلف المصادر الإسلامية بأنّ سعة الرزق أوضيقه إنّما هى خاضعة لإرادة الله ومشيته بغية اختبار العباد وتمحيصهم. بعبارة أُخرىٰ: لقد منح الإنسان ما يوافق مصلحته. وهذا الأمر يثير عدّة أسئلة منها: أولاً: إذا كان الأمر كذلك، فما معنى السعي والجهد من أجل الرزق.

ثانياً: إنّ مثل هذا الاستنتاج يؤدي إلى سكون الأنشطة الاجتماعية وتخلف المجتمعات البشرية؛ المجتمعات التي ينبغي أن تعيش حالة النشاط والمثابرة بغية عدم تخلفها عن سائر المجتمعات ولاسيما غير الإسلامية، فقد صرح القرآن الكريم بهذا الشأن قائلاً: **﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾**[1]، إلّا أنّ الإجابة على السؤال المذكور وردت في الروايات الإسلامية، بحيث لايبقى من مجال للغموض إذا تأملناها بأجمعها، فقد جاء في كلمات أميرالمؤمنين علي عليه السلام في نهج البلاغة: «**إنّ الرزق رزقان؛ رزق تطلبه، ورزق يطلبك، فان أنت لم تاته أتاك**»[2].

والواقع كذلك فالقسم الأعظم من الرزق يتطلب سعي الإنسان وجهده وتوظيفه لكافة إمكاناته واستعداداته وطاقاته وليس له الظفر به دون ذلك، إلّا أنّ القسم الآخر من الرزق يأتي إلى الإنسان دون السعي إليه، ليدل الإنسان على أن السعي والجهد و إن كان أصلاً مسلما إلّا أنّ رازقية الله لا تقتصر على ذلك، فلابد من التوجه إلىٰ الله وطلب الرزق منه.

من جانب آخر جاء في الخبر أن من بين الأدعية التي لاتستجاب دعاء الإنسان الصحيح الذي لزم بيته و قعد عن السعي و هو يدعو الله: اللهم إرزقني فتناديه الملائكة بان دعائك ليس بمستجاب، قم و إعمل. فقد ورد في الرواية أن الإمام الصادق عليه السلام قال: «**أربع لايستجاب لهم دعاء: الرجل جالس في بيته، يقول: يارب ارزقني! فيقول له: ألم آمرك بالطلب**»[3].

أضف إلىٰ ذلك فانّ التقديرات الإلهية في أغلب الموارد إنّما تنسجم وتدبيرنا وتخطيطنا، أي أنّ الله قدر سهما وخيرا لمن سعى وبذل جهده، بينما قدر أقل من ذلك لمن تقاعس وكسل. فهذا

---

١. سورة الزخرف/٣٢.
٢. نهج البلاغة، الرسالة ٣١.
٣. ميزان الحكمة ٢ / ح ٥٧٠١.

الانسجام بين التقدير والتدبير يعد اجابة واضحة لاولئك الذين يستسلمون للكسل والخنوع والخمول، ويفرون من الواقع تحت ذريعة التقدير.

وناهيك عما تقدم فمما لا شك فيه أن الناس ليست سواسية في الاستعداد البدني والفكري والإدارة الاقتصادية والقدرة على العمل وتوظيف الإمكانات المتاحة؛ وهذا بدوره ما أدى إلى تفاوت الأرزاق. وعليه فليس من الصواب بعد كل هذا التصور أن يتساوي الرزق على كافة الأفراد بغض النظر عما سبق، فهذا من قبيل توقع تساوي جميع أعضاء البدن و العظام و العضلات، في حين لكل عضو وظيفته في هذا البدن و قدرته بقدر نشاطه، فعالم البشرية كالبدن يختلف في رزقه على أساس إختلافه في سعيه و جهده. والنتيجة التي نخلص إليها: هو أن تقدير الرزق الذي ورد في هذا الخطبة، إنّما هو إشارة لما استعرضناه آنفا؛ الأمر الذي لايتنافى قط ومفهوم العدالة، بل هو عين العدالة والحكمة.

࿇

القسم الثاني والعشرون

«عَالِمَ السِّرِّ مِنْ ضَمَائِرِ الْمُضْمِرِينَ، وَنَجْوَى الْمُتَخَافِتِينَ، وَخَواطِرِ رَجْمِ الظُّنُونِ، وَعُقَدَ عَزِيمَاتِ الْيَقِينِ، وَمَسَارِقِ إِيمَاضِ الْجُفُونِ، وَمَا ضَمِنَتْهُ أَكْنَانُ الْقُلُوبِ، وَغَيَابَاتُ الْغُيُوبِ، وَمَاأَصْغَتْ لِاسْتِرَاقِهِ مَصَائِخُ الأَسْمَاعِ، وَمَصَائِفُ الذَّرِّ، وَمَشَاتِي الْهَوامِّ، وَرَجْعِ الْحَنِينِ مِنَ الْمُولَهَاتِ، وَهَمْسِ الأَقْدَامِ، وَمُنْفَسَحِ الثَّمَرَةِ مِنْ وَلاَئِجِ غُلُفِ الأَكْمَامِ، وَمُنْقَمَعِ الوحوش مِنْ غِيرَانِ الْجِبَالِ وَأَوْدِيَتِهَا وَمُخْتَبَاءِ الْبَعُوضِ بَيْنَ سُوقِ الأَشْجَارِ وَأَلْحِيَتِهَا، و مغرز الأَوْرَاقِ مِنَ الأَفْنَانِ، وَمَحَطِّ الأَمْشَاجِ مِنْ مَسَارِبِ الأَصْلاَبِ، وَنَاشِئَةِ الْغُيُومِ وَمُتَلاَحِمِهَا، وَدُرُورِ قَطْرِ السَّحَابِ فِي مُتَرَاكِمِهَا، وَمَا تَسْفِي، الأَعَاصِيرُ بِذُيُولِهَا، وَتَعْفُو الأَمْطَارُ بِسُيُولِهَا، وَعَوْمِ بَنَاتِ الأَرْضِ فِي كُثْبَانِ الأَعَاصِيرُ بِذُيُولِهَا، وَتَعْفُوا الأَمْطَارُ بِسُيُولِهَا، وَعَوْمِ بَنَاتِ الأَرْضِ فِي كُثْبَانِ الرِّمَالِ».

الشرح والتفسير

العالم بكل شيء

يتضح من خلال تأمل الأقسام المختلفة لهذه الخطبة العجيبة أنّ الإمامعليه السلام قد اختط مساراً دقيقاً في معرفة الله، ومن ثم التعرف على هذا العالم مرورا بمعرفة الإنسان وتربيته، بعبارات رائعة تأخذ بيد الإنسان نحو هذاالمسار الطويل و تقوده نحو الهدف، يعني يسلك به سبيل السمو والتكامل.

فقد تحدث الإمامعليه السلام في السابق عن خلق الأرض ومصادر الحياة ومن ثم خلق آدم

وقصته مع الجنّة و ما تضمنته من عبر ومن ثم هبوطه إلى الأرض، وتقسيم الأرزاق وتعيين الاجال. ولما فرغ من ذلك واصل حديثه في هذا المقطع من الخطبة عن علم الله سبحانه بكل شيء وكل شخص وفي كل زمان ومكان، والعالم بكافة الخفايا والاسرار. فقد أورد الإمام عليه السلام ذلك بعبارات دقيقة رائعة، مؤكداً على تفاصيل هذه الأمور، بحيث يشعر الإنسان بكل كيانه أنّ العالم برمته حاضر لدى الله بكل حركاته وسكناته؛ و هو الشعور الذي يلعب دورا، حيوياً في تربية الإنسان وسوقه نحو الخير والاحسان.

فقال عليه السلام: «**عالم السر من ضمائر المضمرين، ونجوى المتخافتين وخواطر رجم الظنون، وعقد عزيمات اليقين**».

فالعبارة تفيد علمه سبحانه بكل شيء: ما يقتدح في الأذهان، وما يمثل في الواقع، وما يجري في الأوهام والظنون، والشك والترديد، وما يجول في باطنه ونجواه وهمسه مع الاخرين، ثم قال عليه السلام: «**ومسارق[1] إيماض[2] الجفون،[3] وما ضمنته أكنان القلوب، وغيابات الغيوب، وما أصغت لاستراقه مصائخ[4] الأسماع**»، ولماكانت أهم مصادر علم الإنسان تكمن في قلبه (عقله) وعينه واذنه، كما صرح بذلك القرآن الكريم: ﴿**وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**﴾[5] والله محيط بجميع هذه المصادر؛ فهو عليم بكافة خفايا الإنسان وأسراره. ثم تجاوز عليه السلام خفايا الإنسان وما تنطوي عليه جوانحه ليتجه صوب أصغر الكائنات، ليكشف عن علمه سبحانه وتعالى بخفايا وأوكار الهوام والحشرات وآهات الالم واصوات الحزن ووقع الاقدام: «**ومصائف[6] الذر،**

---

١. «مسارق» جمع «مسرق» من مادة «سرقة» النظر خلسة.
٢. «ايماض» من مادة «ومض» على وزن رمز اللمعان القصير والمخفي.
٣. «جفون» جمع «جفن» على وزن جفت، بمعنىٰ جفن العين.
٤. «مصائخ» جمع «مصيخة» من مادة «صوخ» على وزن صوت الشق، والمراد هنا شق الاذان الذي يسمع به الإنسان الأصوات.
٥. سورة النحل/٧٨.
٦. «مصائف» جمع «مصيف» موضع اقامتها في الصيف.

ومشاتي[١] الهوام[٢] ورجع الحنين[٣] من المولهات[٤] وهَمْسِ[٥] الاقدام».

ثم واصلﷺ كلامه بالاشارة إلى أمور أخرى لطيفة وظريفة وخفية ومكتومة، ليكشف النقاب عن إحاطة العلم الإلهي المطلق بها من خلال عبارات غاية في الروعة والدقة فقالﷺ: «**ومنفسح[٦] الثمرة من ولائج[٧] غلف[٨] الاكمام[٩]، ومنقمع[١٠] الوحوش من غيران[١١] الجبال وأوديتها، مختباء البعوض بين سوق[١٢] الاشجار والحيتها[١٣]، ومغرز[١٤] الاوراق من الافنان[١٥]، ومحط الامشاج[١٦] من مسارب[١٧] الأصلاب**»، العبارة «**لامنفسح**» بمعنى المكان الفسيح الواسع إشارة إلى أنّ الله سبحانه خلق مكاناً واسعاً في جوف البراعم لنمو الثمار. والعبارة: «**منقمع الوحوش**» تفيد لجوء الحيوانات الصحراوية إلى الغيران والكهوف بغية حفظ أنفسها من سائر الحيوانات الوحشية المفترسة و تخرج حين الحاجة أو صيد سائر الحيوانات. و التعبير «مغرز الأوراق...» لا إشارة إلى الأوراق و لا الأغصان، بل إشارة إلى موضع خاص تلتصق فيه الورقة بالغصن و تنطلق جذورها في أعماقه فتحفظه من الريح و العواصف.

---

١. «مشاتي» جمع «مشتى» موضع اقامتها في الشتاء.
٢. «هوام» جمع «هامة» الحشرات (الخطيرة،كما تطلق على مطلق الحشرات.)
٣. «حنين» الألم من مادة «حنان» ورجع الحنين ترديده.
٤. «مولهات» الحزينات من مادة «وله» على وزن فرح.
٥. «همس» على وزن لمس، بمعنى الصوت الهادىء الخفي، يطلق أحيانا على صوت الاقدام الحافية.
٦. «منفسح» المكان الواسع من مادة «فسح» على وزن مسح.
٧. «ولائج» جمع «وليجة» البطانة الداخلية.
٨. غلف جمع غلاف معروف المعنى.
٩. «الأكمام»، جمع «كم» غطاء النوار ولايبعد اضافة الغلف إليها أنها إضافة بيانية.
١٠. «منقمع» موضع الاختفاء من مادة «الانقماع» بمعنى الاختفاء.
١١. «غيران» جمع «غار»، والواسع منها يطلق عليه الكهف.
١٢. «سوق» جمع «ساقه» أسفل الشجرة.
١٣. «ألحية» جمع «لحاء» قشر الشجرة.
١٤. «مغرز» موضع جذور الشيء.
١٥. «أفنان» جمع «فنن» على وزن قلم بمعنى الغصون.
١٦. «أمشاج» جمع «مشج» على وزن سبب الشيء المخلوط.
١٧. «مسارب» جمع «مسرب» على وزن مركب وهي ما يتسرب المعني فيها عند نزوله أو عند تكونه.

و التعبير «محط الأمشاج...» إشارة إلىٰ حركة نطفة الرجل من غدده الداخلية و تختلط مع نطفة المرأة حين نزولها في الرحم حتى تنمو و تتحول إلى إنسان كامل. فالله سبحانه يعلم بهذا المسار و كيفية التركب و موضع النزول، و يمكن أن تكون «أمشاج» إشارة إلى تركيب نطفة الرجل من مياه مختلفة و الذي أثبته العلم الحديث، حيث لكل منها هدف معين عند إختلاطه مع الآخر و التي تشكل نطفة الرجل، ثم تتحرك نحو الرحم. ثم تطرق الإمام عليه السلام إلىٰ تفاصيل دقيقة لعالم الخلقة والحوادث المبرمجة. ليكشف عن علمه سبحانه برقيق السحب التي تظهر في السماء وتتصل مع بعضها البعض الآخر، إلى جانب هطول قطرات المطر من تلك السحب والرياح التي تحيط بها وتبعث بها هنا وهناك: «**وناشئة الغيوم ومتلاحمها، ودرور قطر السحاب في متراكمها، وما تسفي[1] الاعاصير[2] بذيولها، وتعفو[3] الأمطار بسيولها، وعوم[4] بنات الأرض في كثبان[5] الرمال**».

نعم فهو عالم بتمام دقائق عالم الوجود وجزئيات الكائنات الحية والجمادات في السموات والأرض؛ وهو محيط بظهورها وحركاتها وسكناتها. فكيف بنا وهو الخبير بما في أعماقنا ويجول في أذهاننا وخواطرنا.

تأمّل

تنوع الكائنات

رغم تركز الكلام في هذا المقطع من الخطبة على علم الله الواسع بكافة الأشياء وجميع الكائنات، إلّا أنّ هناك إشارة ضمنية لنقطة مهمّة اُخرىٰ، إلّا وهي التنوع العجيب للكائنات، من المسائل الفكرية والذهنية للإنسان إلى الاجزاء المختلفة للعين والاذن، والكائنات الصغيرة

١. «تسفي» من مادة «سفي» على وزن نفي الرياح التي تثير الغبار والتراب.
٢. «أعاصير» جمع «إعصار» على وزن إجبار الريح التي تثير السحاب.
٣. «تعفو» من مادة «عفو» بمعنى المحو وتستعمل هذه المفردة في الذنوب بمعنى محوها، ومن هنا يقال العافية بمعنى محو المرض.
٤. «عوم» على وزن قوم السباحة والطوفان.
٥. «كثبان» جمع «كثيب» التل والمرتفع.

والكبيرة للعالم من قبيل الهوام ومصائفها والحشرات ومشاتيها، مروراً بتشكيل نطفة الإنسان المركبة من ماء الرجل والمرأة، وظهور السحب والغيوم وتراكمها وسقوط حبات المطر وهبوب الرياح والأعاصير وجريان السيول واختفاء الحشرات في المرتفعات والتلال وما إلىٰ ذلك من الأُمور التي سنتطرق إليها في البحث القادم. والخلاصة فانّ كل أمر دلالة على علمه سبحانه وقدرته وابداعه، وكلما تعمق الإنسان في تأمل هذه الأمور تعرف أكثر علىٰ عظمة الحق سبحانه وعلمه، ويسمع باذن البصيرة تسبيح هذه الكائنات وحمدها، ويشعر بتوحيدها وتوجهها لخالقها. الأشياء التي لايدركها سوىٰ من تحسسها و إنطلق منها لما وراءها.

ﮔﮕ

القسم الثالث والعشرون

«وَمُسْتَقَرِّ ذَوَاتِ الأَجْنِحةِ بِذُرَاً شَنَاخِيبِ الْجِبَالِ، وَتغريد ذَوَاتِ الْمَنْطِقِ فِي دَيَاجِيرِ الأَوْكَارِ، وَمَا أَوْعَبَتْهُ الأَصْدَافُ، وحَضَنَتْ عَلَيْهِ أَمْوَاجُ الْبِحَارِ، وَمَا غَشِيَتْهُ سُدْفَةُ لَيْلٍ، أَوْ ذَرَّ عَلَيْهِ شَارِقُ نَهَارٍ، وَمَا اعْتَقَبَتْ عَلَيْهِ أَطْبَاقُ الدَّيَاجِيرِ، وَسُبُحَاتُ النُّورِ؛ وَأَثَرِ كُلِّ خَطْوَةٍ، وَحِسِّ كُلِّ حَرَكَةٍ، وَرَجْعِ كُلِّ كَلِمَةٍ، وَتَحْرِيكِ كُلِّ شَفَةٍ، وَمُسْتَقَرِّ كُلِّ نَسَمَةٍ، وَمِثْقَالِ كُلِّ ذَرَّةٍ، وَهَمَاهِمِ كُلِّ نَفْسٍ هَامَّةٍ، ومَا عَلَيْهَا مِنْ ثَمَرِ شَجَرَةٍ، أَوْ ساقِطِ وَرَقَةٍ؛ أَوْ قَرَارَةِ نُطْفَةٍ، أَوْ نُقَاعَةِ دَمٍ وَمُضْغَةٍ، أَوْ نَاشِئَةِ خَلْقٍ وَسُلاَلَةٍ؛ لَمْ يَلْحَقْهُ فِي ذٰلِكَ كُلْفَةٌ، وَلاَ اعْتَرَضَتْهُ فِي حِفْظِ مَا ابْتَدَعَ مِنْ خَلْقِهِ عَارِضَةٌ، وَلاَ اعْتَوَرَتْهُ فِي تَنْفِيذِ الأُمُورِ وَتَدَابِيرِ الْمَخْلُوقِينَ مَلاَلَةٌ وَلاَ فَتْرَةٌ، بَلْ نَفَذَهُمْ عِلْمُهُ، وَأَحْصَاهُمْ عَدَدُهُ، و وسعهم عَدْلُهُ، وَغَمَرَهُمْ فَضْلُهُ، مَعَ تَقْصِيرِهِمْ عَنْ كُنْهِ مَا هُوَ أَهْلُهُ».

الشرح والتفسير

شمولية العلم الإلهي

واصل الإمام عليه السلام كلامه السابق بالحديث عن علم الله سبحانه وتعالىٰ بكافة جزئيات عالم الوجود، حيث يتعرض إلىٰ ذلك بعبارات رائعة غاية في الدقة والجمال، والحق أنّ كلام الإمام عليه السلام يفيد بما لايقبل الشك أنّه يستند إلىٰ ارتباطه بما وراء هذه الطبيعية بحيث لايضاهيه كلام، وان علمه عليه السلام إنّما يتصل بمصادر العلم الإلهي فقد تطرق باديء بدء إلىٰ الطيور العائشة في

السماء: «**ومستقر ذوات الأجنحة بذرا[١] شناخيب[٢] الجبال، وتغريد[٣] ذوات المنطق في دياجير[٤] الأوكار[٥]**».

فنحن نعلم أنّ كل طائر يصنع لنفسه ما يناسبه من عش، بحيث تتنوع حسب أصناف الطيور، كما نعلم أنّ أنغام الطيور على أقسام، كل واحد منها يبيّن موضوعاً، الأهم من كل ذلك هو علم الله بتمام جزئياتها.

ثم يغوص الإمام عليه السلام في أعماق البحار ليتحدث عن الاصداف واللؤلؤ والأمواج: «**وما أوعبته[٦] الاصداف، وحضنت عليه أمواج البحار**»، ثم خاض عليه السلام في نظام النور والظلمة في عالم الخلق وحياة الإنسان فقال: «**وما غشيته سدفه[٧] ليل أو ذر[٨] عليه شارق نهار، وما اعتقبت عليه أطباق الدياجير، سبحات[٩] النور**» ثم إتجه صوب مختلف حركات الإنسان قال عليه السلام: «**وأثر كل خطوة، وحس كل حركة، ورجع كل كلمة، وتحريك كل شفة، ومستقر كل نسمة**».

ثم تناول عليه السلام أصغر الذرات وأخفى الأصوات في أنّ الله عالم بها: «**ومثقال كل ذرة، وهماهم[١٠] كل نفس هامة[١١]**» **ثم ينتقل إلى الأشجار و الثمار و الناس و النطف التي تشبه إلى حد كبير بعضها البعض فقال** «**وما عليها من ثمر شجرة، أو ساقط ورقة، أو قرارة نطفة، أو نقاعة[١٢] دم ومضغة، أو ناشئة خلق وسلالة**».

---

١. «ذرا» جمع «ذروة» المكان المرتفع وأعلى الشيء.
٢. «شناخيب» جمع «شنخوب» على وزن بهلول رؤوس الجبال.
٣. «تغريد» أصوات الطيور.
٤. «دياجير» جمع «ديجور» الظلمة.
٥. «أوكار» جمع «وكر» على وزن مكر العش.
٦. «أوعبت» من مادة «وعب» على وزن صعب جمعت.
٧. «سدفة» ظلمة.
٨ «ذرّ» بمعنى نَثَرَ و تأتي ايضاً بمعنى انتشار ضوء الشمس.
٩. «سبحات» جمع «سبحة» على وزن لقمة بمعنى شعاع النور، و «سبحات النور» في الجملة أعلاه جاءت بمعنى أشعة النور.
١٠. «هماهم» جمع «هممهة» مجاز من المهمة تريد الصوت في الصدر من الهم.
١١. «هامة» قال بعض شرّاح نهج البلاغة من له همة عالية، كما يراد بها الهموم من الهم والغم وهذا ما أريد بها في العبارة.
١٢. «نقاعة» من مادة «نقع» على وزن نفع جمع الماء و«نقاعة دم» الحفرة التي يجمع فيها الدم، وهي هنا

ويشير الإمام﵇ في آخر الخطبة إلى نقطة مهمّة أُخرى وهى أنّ تلك الأُمور بتلك السعة والشمولية التي أشار اليها الإمام﵇ ما يجعل التبادر إلىٰ الذهن صعوبة حسابها والاحاطة بها، بعبارة أُخرى قد يقتدح في الأذهان هذا السؤال: هل علم الله سبحانه تعالى بهذه الأمور لا يوجد من مشكلة لذاته المطهرة؟ فالإنسان يصاب بالتعب والأعياء من جراء احاطته بقسم غاية في الصغر بالنسبة لحوادث هذا العالم وأسراره إلّا أنّ الإمام﵇ يعلن بكل صراحة أن ليس هناك أدنى مشقة على الله بهذا الشأن (ليس فقط من ناحية العلم والاحاطة بها بل) في حفظ ما أبدع من مخلوقات، كما ليس هنالك من ملل أو فتور عرض له سبحانه في انفاذ أمره وتدبير شؤون خلقه: «**لم يلحقه في ذلك كلفة، ولا اعترضته في حفظ ما ابتدع من خلقه عارضة، ولا اعتورته**[١] **في تنفيذ الأمور وتدابير المخلوقين ملالة ولافترة**»، بل نفذ فيها علمه واحصاها عددا بقدرته وضمها جميعا تحت لواء عدالته، كما عم المقصرين منهم بفضله وعفوه ولطفه: «**بل نفذهم علمه، وأحصاهم عدده، ووسعهم عدله، وغمرهم فضله، مع تقصيرهم عن كنه ما هو أهله**»، فقد أكد الإمام﵇ بهذه العبارات على عدّة أُمور:

الأول: أنّ احاطة لله سبحانه العلمية بجزئيات جميع عالم الوجود لاتنطوي على أية مشكلة بالنسبة له (وذلك لأنّ علم الله علم حضوري وليس علم حصولي، كما سيأتي شرح ذلك في البحث القادم).

الثاني: اضافة إلى الاحاطة العلمية فهو حافظها جميعاً؛ الأمر الارفع من العلم؛ وهذا أيضاً لايسبب أية مشكلة لذاته المطلقة سبحانه (لأنّ الكل متوقف على وجوده سبحانه).

الثالث: اضافة إلى العلم والحفظ فهو مدبرها وهاديها إلى السمو و الكمال؛ الأمر الذي لاينطوي على أي ملل أو فتور لذاته المطلقة، وبعيداً عن معرفة الخلائق وأدائها للشكر، فانّ فضله ولطفه شامل للجميع عدله فيهم نافذ شامل، نعم فعلمه ليس بمحدود وقدرته مطلقة لامتناهية وفضله مطلق شامل، ولا يرتجى منه سوىٰ ذلك.

☜ إشارة إلى رحم (الام) وقال البعض أُريد بها هنا العلقة.

١. اعتورت من مادة اعتوار تداولته وتناولته.

تأمّلات

١ ـ العلم الكامل

كلماتهﷺ في هذا المقطع من الخطبة بشأن سعة علمه سبحانه واحاطته الشاملة بكافة دقائق الأمور، لتذكر الإنسان بالآية الشريفة التي وردت في سورة لقمان: **﴿وَلَوْ أَنَّ ما فِي الأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ ما نَفِدَتْ كَلِماتُ اللّهِ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾**[1].

وهنا لابدّ أن نلتفت إلى نقطة مهمّة وهي أنّ ما أورده أميرالمؤمنين عليﷺ إنّما يرتبط بالكرة الأرضية ومخلوقاتها، والحال يغص هذا الفضاء العظيم بملايين، بل ملياردات الكرات السماوية العجيبة والتي تخضع برمتها لعلم الله واحاطته. كما لابدّ من الالتفات إلى أن هذا العالم قد وجد قبل ملايين السنوات قبل خلقنا، ولا يعلم إلى متى سيستمر، فاحصاء الحوادث التي تقع طيلة هذا الزمان انّما تتعذر على كائن من كان سوى الحق سبحانه مع ذلك لاينبغي أن ننسى بأنّ هدف الإمامﷺ من بيان هذه الحقائق مضاعفة معرفة الله من جانب، ومن جانب آخر تهذيب النفوس البشرية وأنّها حاضرة عند الله وأنّه محيط بنياتها وكوامنها. وشاهد ذلك ما قاله الإمامﷺ في الخطبة ١٩٨ من نهج البلاغة: «**يعلم عجيج الوحوش في الفلوات، ومعاصي العباد في الخلوات، واختلاف النيان في البحار الغامرات، وتلاطم الماء بالرياح العاصفات**».

٢ ـ علم الله بكافة الخفايا

يرى جمع من قدماء الفلاسفة أنّ الله لايسعه أن يكون عالماً فهم يعتقدون أنّ الجزئيات متعددة ومتكثرة وليس للمتعدد من سبيل إلى ذاته الواحدة من جميع الجهات. فهذا الكلام واضح البطلان وأساسه أنّهم يرون أن علمه سبحانه وتعالى حصولياً، ويعتقدون بأنّ الصور الخارجية تنتقل إلى ذاته المقدسة، والحال كلنا نعلم أنّ علمه سبحانه بالموجودات ليس عن

---

١. سورة لقمان/٢٧.

طريق انتقال صورتها الذهنية لديه، كما هو الحال عند الإنسان، بل علمه علم حضوري، أي أنّه حاضر في كل مكان، والموجودات برمتها حاضرة عنده، وهو محيط بها جميعاً، دون الحاجة لصورها؛ بالضبط كحضور الصور الذهنية للإنسان أمام روحه، لأنّ الصور الذهنية حاضرة بذاتها في روح الإنسان لاصورتها، واحاطة الإنسان بها نوع من الاحاطة الحضورية. فتأكيد الإمام عليه السلام في هذه الخطبة على علم الله سبحانه بجميع جزئيات الوجود إنّما يبطل هذا الاعتقاد الفاسد لبعض الفلاسفة بشأن نفي علم الله بالجزئيات.

٣ ـ ابن أبي الحديد في شرح هذه الخطبة.

حين بلغ هذا العالم المشهور ـ شارح نهج البلاغة ـ هذا الموضوع من الخطبة بشأن علم الله قال: لوسمع النضر بن كنانة هذا الكلام لقال لقائله ما قاله علي بن العباس بن جريج لاسماعيل بن بلبل:

قالوا أبو الصقر من شيبان قلت لهم ... جريج لاسماعيل بن بلبل
وكم أب قد علا يابن ذرا شرف ... كما علا برسول الله عدنان

إذ كان يفخر به على عدنان وقحطان، بل كان يقر به عين أبيه إبراهيم خليل الرحمن، ويقول له: أنّه لم يعف ما شيدت من معالم التوحيد، بل أخرج الله تعالى لك من ظهري ولدا ابتدع من علوم التوحيد في جاهلية العرب مالم تبتدعه أنت في جاهلية النبط. بل لو سمع هذا الكلام أرسطو طاليس، القائل بانه تعالى لايعلم الجزئيات، لخشع قلبه و وقف شعره، واضطرب فكره، ألاترى ما عليه من الرواء والمهابة، والعظمة والفخامة، والمتانة والجزالة! مع ما قد أشرب من الحلاوة والطلاوة واللطف والسلاسة، لا أرى كلاماً يشبه هذا إلّا أن يكون كلام الخالق سبحانه، فانّ هذا الكلام نبعه من تلك الشجرة، وجدول من ذلك البحر، وجذوة من تلك النار؛ وشرح لآيات الخالق سبحانه[1].

---

١. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٢٣/٧ بتصرف طفيف.

القسم الرابع والعشرون

«اللَّهُمَّ أَنْتَ أَهْلُ الْوَصْفِ الْجَمِيلِ، والتَّعْدَادِ الْكَثِيرِ، إنْ تُؤَمَّلْ فَخَيْرُ مَأْمُولٍ، وَإِنْ تُرْجَ فَخَيْرُ مَرْجُوٍّ. اللَّهُمَّ وَقَدْ بَسَطْتَ لي فِيمَا لاَأَمْدَحُ بِهِ غَيْرَكَ، وَلاأُثْنِي بِهِ عَلَىٰ أَحَدٍ سِوَاكَ، وَلاَ أُوَجِّهُهُ إِلَىٰ مَعَادِنِ الْخَيْبَةِ وَمَوَاضِعِ الرِّيبَةِ، وَعَدَلْتَ بِلِسَاني عَنْ مَدَائِحِ الآدمِيِّينَ؛ وَالثَّنَاءِ عَلَىٰ الْمَرْبُوبِينَ الْـمَخْلُوقِينَ. اللَّهُمَّ وَلِكُلِّ مُثْنٍ عَلَىٰ مَنْ أَثْنَىٰ عَلَيْهِ مَثُوبَةٌ مِنْ جَزَاءٍ أَوْ عَارِفَةٌ مِنْ عَطَاءٍ، وَقَدْ رَجَوْتُكَ دَلِيلاً عَلَىٰ ذَخَائِرِ الرَّحْمَةِ وَكُنُوزِ الْمَغْفِرَةِ. اللَّهُمَّ وَهٰذَا مَقَامُ مَنْ أَفْرَدَكَ بِالتَّوْحِيدِ الَّذِي هُوَ لَكَ، وَلَمْ يَرَ مُستَحِقّاً لِهٰذِهِ المَحَامِدِ وَالْمَمادِحِ غَيْرَكَ ؛ وَبِي فَاقَةٌ إِلَيكَ لاَيَجْبُرُ مَسْكَنَتَهَا إِلّا فَضْلُكَ، وَلاَ يَنْعَشُ مِنْ خَلَّتِهَا إِلاَّ مَنُّك وَجُودُك، فَهَبْ لَنَا فِي الْمَقَامِ رِضَاك، وَأَغْنِنَا عَنْ مَدِّ الأَيْدِي إِلَىٰ سِوَاكَ؛ «إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ!»».

الشرح والتفسير

إليك الملاذ و أنت الرجاء

لاننسى أنّ الإمامعليه السلام أورد هذه الخطبة الجامعة والمفصلة رداً على من سأله الحديث عن صفات الله. فخاض الإمامعليه السلام في البداية بأدق العبارات وأظرفها في بحث صفات الله الجمالية والكمالية، ثم تطرق إلى فعله من قبيل خلق الملائكة والسماء والأرض، ثم خلق الإنسان وما أفاض عليه من النعم، وأخيراً علمه سبحانه وتعالى بجمع جزئيات عالم الوجود وكلياته.

ثم يختتم الخطبة بهذا القسم الذي يطرق فيه باب الله متضرعاً إليه بالدعاء، فيصف الله سبحانه بأفضل صفاته التي لاتجوز على أحد سواه، كما تدل على التوحيد في مقام الدعاء

«اللّهم أنت أهل الوصف الجميل، والتعداد[1] الكثير»، نعم فقد جمعت كافة الصفات العظيمة في ذاته القدسية، فهو الكريم والرحيم وأهل الفضل والثناء، ومن هنا فانّ أمله الإنسان فهو خير مأمول، وان رجاه فهو خير مرجو لايقطع رجاء من رجاه: **«إن تؤمل فخير مأمول، وإن ترج فخير مرجو»**، ثم قال عليه السلام: **«اللّهم وقد بسطت لي فيما لا أمدح به غيرك، و أثني به على أحد سواك ولا أوجهه إلى معادن الخيبة ومواضع الريبة، وعدلت بلساني عن مدائح الادميين؛ والثناء على المربوبين المخلوقين»**.

الجدير بالذكر أنّ الإمام مزج مدح الله وثنائه بالشكر، وقد أعرب عليه السلام عن سروره أن وفقه الله سبحانه ففتح لسانه بمدحه سبحانه، وهل يليق هذا المدح والثناء بأحد سواه، و أي عمل أفضل من أن يغض الإنسان طرفه عن عالم الأسباب و لا يتطلع سوى إلى «مسبب الأسباب» فيمطره بحمده و ثناءه. ثم أردف ذلك بقوله: **«اللّهم ولكل مثن على من أثنى عليه مثوبة من جزاء أو عارفة من عطاء؛ وقد رجوتك دليلاً على ذخائر الرحمة وكنوز المغفرة»**، يمكن أن تكون العبارة بمعنى طلب المزيد من رحمته سبحانه ومغفرته، أو بمعنى طلب التوفيق والاستعداد لكسب هذه الرحمة. والفرق بين «**جزاء**» و«**عارفة**» قد يكون في أنّ الجزاء هو ثواب العمل، والعارفة بمعنى الفضل والرحمة إلى جانب الثواب. و لما كان الله معروفا بالفضل و العطاء فقد عبر بعارفة (فالعارفة في الواقع وردت هنا بمعنى المعروف).

ثم إختتم هذه الخطبة الفريدة و العظيمة بدعائين جامعين عميق المعنى قال عليه السلام: **«اللّهم وهذا مقام من أفردك بالتوحيد الذي هو لك، ولم ير مستحقاً لهذه المحامد والممادح غيرك؛ وبى فاقة إليك لا يجبر مسكنتها إلّا فضلك، ولاينعش[2] من خلتها[3] إلّا منك وجودك»**، فالواقع هو أنّ الإمام عليه السلام أراد أن يطرح هذه الحقيقة وهى أني لاأثني الاعليك ولاأومل سواك، وليس هناك قادر على طلبتي غيرك، وهذه هى حقيقة توحيد الصفات وتوحيد الأفعال، ثم

---

١. «تعداد» بفتح التاء له كما صرح بذلك أرباب اللغة، ويعنى عد الشيء (واعتبره البعض مصدر ثلاثي مجرد، وقيل من باب تفعيل، كان تعديد ثم بدلت ياء، بالف وتلفظ تعداد بكسر التاء قليل جداً).

٢. «ينعش» من مادة «نعش» وهى في الاصل بمعنى رفعه و أقامه، ويقال لجسد الانسان اذا خرجت منه الروح نعشاً، وكذلك للآلة التي يرفع فيها الميت بالنعش، و الذي يرفع لينقل إلى مكان مناسب.

٣. «خلة» الحاجة والفقر، كما وردت بمعنى الضعف.

يختتم الخطبة: «**فهب لنا في هذا المقام رضاك، وأغننا عن مد الايدي إلى سواك، إنك على كل شيء قدير**»، ما أروع هذا الرجل العظيم الذي فاض كل هذه الفصاحة والبلاغة والعلم والمعرفة، ثم يختتم عباراته بهذا الدعاء العظيم الذي يكشف عن مدى تواضعه وتذلله لله فيسأله رضاه ولايلتفت إلى أحد سواه.

تأمّل

في اعجاز البيان.

كما أنّ القرآن الكريم من المعاجز الخالدة لنبي الإسلامﷺ فانّ بعض خطب نهج البلاغة حقاً لفي حد الاعجاز! أي لايمكن أن تصدر سوى عن المعصوم، وليس ذلك لاحد سواه. ومن ذلك هذه الخطبة المسماة بالاشباح. التي نعرض لشرحها.

فقد انطوت هذه الخطبة على عبارات غاية في الفصاحة والبلاغة، إلى جانب رقتها وحلاوتها وعذوبة الفاظها بحيث تتسلل إلى أعماق روح الإنسان فتملأها معنوية ونوراً وانفتاحاً على الله سبحانه، أمّا المفردات التي استعملها الإمامؑ فهى غاية في العمق والرصانة بحيث لايمكن (الوقوف عليها دون الرجوع إلى مصادر العربية وآدابها. أمّا مضمونها فهو الآخر (رصين) عميق لايمكن تصور مثيله بشأن صفات الله وعلمه واحاطته بكل شيء؛ الأمر الذي يكشف عن حقيقة ما أورده الإمام ؑ في الخطبة الثالثة المعروفة بالشقشقية: «**ينحدر عني السيل ولايرقى الاالطير**».

وأمّا من ناحية الآثار التربوية، فقد تطرقؑ إلى نعم الله سبحانه بأدق تفاصيلها بما يثير حس الشكر لأي إنسان يتأملها ويرى نفسه مقصرا أمام كل هذه النعم التي أفاضها عليه سبحانه، وإذا تأمل سعة علمه سبحانه وحضوره يدرك بكل كيانه معنى هذه العبارة «**أنّ العالم حاضر عند الله، وعليه فلاينبغي معصيته والتمرد عليه**» أمّا الأدعية العرفانية آخر الخطبة والتواضع التام للإمامؑ بعد كل هذا البيان فهو الآخر درس لكافة الأفراد في عدم الغفلة والغرور والتوجه إلى الله وطلب الحاجات منه، كيف لا وهو الكريم، الرحيم، المنعم والغفور الودود.

الخطبة[1] ٩٢

ومن كلام له ﷺ

لما أراده الناس على البيعة بعد قتل عثمان

نظرة إلى الخطبة

قال المرحوم العلّامة الخوئي ـ أحد شرّاح نهج البلاغة ـ اعلم أنّ المستفاد من الروايات الآتية وغيرها في سبب هذا الكلام هو أنّ خلفاء الجور بعد ما غيروا سنة رسول الله ﷺ وسيرته التي كان يسيرها من العدل بالقسمة والمساواة بين الرعية، ففضلوا العرب على العجم، والموالي على العبيد، والرؤساء على السفلة. وآثر عثمان أقاربه من بني امية على سائر الناس وجرى على ذلك ديدنهم سنين عديدة، واعتاد الناس ذلك أزمنة متطاولة حتى نسوا سيرة الرسول ﷺ وكان غرض الطالبين لبيعته ﷺ أن يسير فيهم مثل سيرة من سبق عليه من المتخلفين من تفضيل الشريف على الوضيع، وكان ﷺ تفرس ذلك منهم وعرفه من وجنّات حالهم فخاطبهم بهذا الكلام اتماماً للحجة واعلاماً لهم بأنّه ﷺ ان قام فيهم بالأمر لا يجيبهم إلى

---

١. سند الخطبة: قال صاحب مصادر نهج البلاغة في ذيل هذه الخطبة. رواه الطبري وابن الأثير في حوادث ٣٥ هـ بتفاوت يسير جدا وكلام هذا نسجه لا سبيل إلى انكاره، ولذاترى الناس اختلفوا في توجيهه بعد أن لم يسعهم رده. ويستفاد من المصدرين المذكورين أنّ الإمام ﷺ لم يرد هذه العبارات لخطبة واحدة، بل حدث كلام بينه ﷺ وبين الناس في الخلافة، فحذف السيد الرضي كلام الناس وذكر الإمام ﷺ. فالمعروف ان مصدرين من مصادر العامة ذكرت هذه الخطبة قبل السيد الرضي (تاريخ طبرى ٤٥٦/٣، تاريخ الكامل لابن أثير ١٩٠/٣) والشيخ المفيد في الجمل ٤٨/ وابن الجوزي في تذكره الخواص ٥٧/.

ما طمعوا فيه من الترجيح والتفضيل فقالﷺ: «**دعوني والتمسوا غيري**» للبيعة، «**فانا مستقبلون أمرأله وجوه وألوان**» وهو إنذار لهم بالحرب وإخبار عن ظهور الفتن واختلاف الكلمات وتشتت الاراء وتفرق الأهواء[1]، كما أشار ضمنيا إلى زهده ﷺ بالخلافة والمقامات الظاهرية. وقد رفض بيعة القوم، حتى لايتصور أحد أنّ قبول الإمامﷺ بيعة الناس كانت لرغبته بالخلافة.

٨٠٠٣

١. منهاج البراعة ٦٢/٧.

«دَعُوني وَالْتَمِسُوا غَيْري؛ فَإِنَّا مُسْتَقْبِلُونَ أَمْراً لَهُ وُجُوهٌ وأَلْوَانٌ؛ لاَ تَقُومُ لَهُ الْقُلُوبُ، وَلاَ تَثْبُتُ عَلَيْهِ الْعُقُولُ. وَإِنَّ الآفَاقَ قَدْ أَغَامَتْ، وَالْمَحَجَّةَ قَدْ تَنَكَّرَتْ. وَاعْلَمُوا أَنِّي إِنْ أَجَبْتُكُمْ رَكِبْتُ بِكُمْ مَا أَعْلَمُ، وَلَمْ أُصْغِ إِلَى قَوْلِ الْقَائِلِ وَعَتْبِ الْعَاتِبِ، وَإِنْ تَرَكْتُمُونِي فَأَنَا كَأَحَدِكُمْ؛ وَلَعَلِّي أَسْمَعُكُمْ وَأَطْوَعُكُمْ لِمَنْ وَلَّيْتُمُوهُ أَمْرَكُمْ، وَأَنَا لَكُمْ وَزِيراً، خَيْرٌ لَكُمْ مِنِّي أَمِيراً!».

الشرح والتفسير

دعوني والتمسوا غيري

أورد شرّاح نهج البلاغة أبحاثاً مسهبة بشأن هذه الخطبة، وقد خاضوا بصورة مفصلة في الإشكالات ذات الصلة بمسألة الإمامة. غير أنّ البعض منهم لم يتعرض لشرح هذه الخطبة واتجه مباشرة للردّ على الإشكالات. ونرى من الضروري أن نخوض في البداية في شرح الخطبة، ثم نسلط الضوء على بعض الاسئلة والاستفسارات في آخر البحث.

فقد ردّ الإمام عليه السلام على أُولئك الذين بسطوا إليه يدهم بالبيعة وانهالوا عليه من كل جانب، ظانين أنّ الإمام عليه السلام سيواصل سياسة التمييز في العطاء من بيت مال المسلمين، إلى جانب إغداق المناصب والمقامات بالقول: «**دعوني والتمسوا غيري**»، ثم أشار عليه السلام إلى الدليل على ذلك بقوله: «**فانا مستقبلون أمراله وجوه وألوان؛ لاتقوم له القلوب، ولا تثبت عليه العقول**»، فقد فقدت الأُمّة وحدتها إثر الأفعال الباهتة التي مارسها الخلفاء ولا سيما عثمان، فكان لكل رأيه، فأصبح الأعم الأغلب منهم كالصياد الذي يبحث عن صيده، ليجدوا في البحث عن الأموال والمناصب الدنيوية، وعليه فانّ القضاء على هذه الفرقة والتشتت وإعادة الأُمّة إلى سابق عزّها ووحدتها على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله كان يبدوا أمراً في غاية الصعوبة والتعقيد

ولايمكن توقعه فضلاً عن تحققه على الواقع العملي.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه بالحديث عن الآفاق المظلمة التي تلوح في الآفاق وعدم التعرف على الحق وصراطه المستقيم في ظل هذه الأوضاع المضطربة: «**وإن الافاق قد أغامت**[١]، **والمحجة**[٢] **قد تنكرت**»، وذلك لأنّ الأهواء الشيطانية والاطماع الدنيوية قد قلبت الموازين الفكرية للمجتمع بحيث يصعب عليه تمييز الصحيح من السقيم، وكيف يتخلص من المطبات التي تواجهه في حياته.

ثم أكد الإمام عليه السلام هذا الموضوع بأنّي إذا تقلدت هذه المسؤولية فسوف لن أنتهج السياسة الخاطئة التي كانت سائدة سابقاً، بل سأقتدي بهدي رسول الله صلى الله عليه وآله في بسط الحق والعدل: «**اعلموا أني إن أجبتكم ركبت بكم ما أعلم، ولم أصغ إلى قول القائل وعتب**[٣] **العاتب**» - حيث لم يكن الطمع الذي عاشه الناس على عهد عثمان يدعهم يتساوون مع الآخرين فكانوا يهربون من عدالة علي عليه السلام و يثيرون الفتن - فلم يكن أمام الإمام عليه السلام من سبيل سوى مخالفة الشرع و مواصلة الظلم أو السير فيهم بالعدل الذي نشده من قام ضد عثمان، فلما سار بهم بعدله حدثت تلك الفتن التي توقعها الإمام عليه السلام.[٤]

في إشارة إلى أنّ الإمام عليه السلام كان يعلم بأنّ طلاب الدنيا من أهل المطامع والمصالح سيقفون حجرة عثرة في طريقه من أجل اشاعة الحق وإجراء العدل وبسط القسط، وسيؤلبون الآخرين عليه ويهبوا لمعارضته والوقوف بوجهه، وكأنّ المبادي السياسة لتلك المرحلة كانت تتطلب مواصلة الفوضى التي كانت سائدة والتطاول على بيت المال واغداق المناصب والمهام على أصحاب النفوذ والسطوة دون أي إستحقاق، وإن إنعكس ذلك سلباً على الأُمّة وهضمها حقوقها؛ الأمر الذي كان في مقدمة أهداف الأنبياء والرسل القضاء عليه: ﴿**لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا**

---

١. «أغامت» من مادة «غيم» غطيت بالغيم، كناية عن اضطراب الأوضاع السياسية والاجتماعية للمسلمين في ذلك الزمان.

٢. «محجة» الطريق المستقيمة والواضحة سواء الظاهرية أم المعنوية، وقد اقتبست في الأصل من مادة «حج» بمعنى القصد، لأنّ الإنسان يقصد دائما المشي على الطريق المستقيم ليصل إلى الهدف.

٣. «عتب» مصدر بمعنى اللوم و التأنيب و التوبيخ.

٤. شرح نهج البلاغة للشيخ محمد عبده، ذيل الخطبة ٢٣٣/٩٢.

بِالبَيِّناتِ وَأَنْزَلْنا مَعَهُمُ الكِتابَ وَالمِيزانَ لِيَقُومَ النّاسُ بِالقِسْطِ»[١].

ثم ناشدهم عليه السلام اتماماً لحجة وإثبات مدى زهده بمقامات الدنيا ومظاهرها، تركه ليكون كاحدهم في الأُمّة: «**وإن تركتموني فانا كأحدكم؛ ولعلي أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه أمركم**».

فالعبارة تشير إلى أنّ الإمام عليه السلام كان يعيش عالما أخر غير ذلك الذي تكالب عليه أهل المصالح من الذين ركنوا إلى الدنيا، هو لم يفكر لحظة قط في أن تكون الخلافة لقمة سائغة، بقدر ما كان يراها مسؤولية ثقلية تهدف أول ما تهدف إليه إحياء القيم والمفاهيم الإسلامية. وإلّا فهي لاتعدل عنده أكثر من عفطة عنز. ثم عاد القول عليه السلام على أولئك الجماعة المتكالبة على الدنيا والتي تطمع إلى المزيد «**وأنا لكم وزيراً، خير لكم مني أميراً**».

وذلك إنّي ان كنت أميراً لحيل بينكم وبين العلو والاستبداد والتطاول على حقوق المحرومين، أمّا أن أكون وزيراً فلكم أن تشيروا عليَّ وتنتفعون بما أريكم من الحق، دون أن أتحمل مسؤولية أعمالكم. والحق أثبت التاريخ كل ما تكهن به الإمام عليه السلام في هذه الكلمات الشريفة، وخلافاً لما يزعمه البعض من أصحاب النظرة الضيقة فانّ الإمام عليه السلام كان عالماً بكافة الظروف والملابسات التي أحاطت بخلافته، كما كان على علم تام بردود الفعل التي سيمارسها الخصوم ضده، وعليه فلم يقع ما لم يكن يتحسبه الإمام عليه السلام، إلّا أنّ الإمام عليه السلام كان ينتمي إلى مدرسة تملي عليه القيام بالمسؤولية وإحياء الدين ومفاهيمه السامية وتعاليمه الحقة وإن كلفه ذلك حياته، على العكس من المدارس المادية التي ترى في الحكومة هدفاً وكل ما سواها وسيلة يمكن التضحية بها وقد مارس الإمام عليه السلام ما كان يقوله عملياً، كيف لا وهو الذي اشتاط غضباً حين سأله عقيل ما لايستحقه من بيت المال فعامله بتلك الشدة والصرامة، ليثبت أنّه يسير في الناس بما يعلم ولايأبه بعتب العاتب كائناً من كان. لم يكن أُسلوبه أُسلوب من سبقه من الخلفاء قط، وهو الذي لم يجمع لنفسه شيئاً من حطام الدنيا، حتى خاطب الأُمّة قائلاً: «**دخلت بلادكم با شمالي هذه ورحلتي، وراحلتي،ها هى فان أنا خرجت من بلادكم بغير ما دخلت فإنني من الخائنين**»،[٢] والعجيب أنّ الإمام عليه السلام قد سلك سبيلاً يتناقض تماماً وما

---

١. سورة الحديد/٢٥.
٢. بحارالانوار ٣٢٥/٤٠.

ينتهجه اليوم الحكام والرؤوساء حين شروع الحملات الانتخابية، حيث يبذلون قصارى جهدهم لتقديم الوعود المعسولة للأُمّة والشعارات المزيفة الفارغة، بل لايتورعون عن ارتكاب أي خلاف من أجل كسب ود الناس والحصول على آرائهم. فالإمامعليه السلام يعلن بكل وضوح أهدافه، وان تعارضت هذه الأهداف مع الكثير منهم ولم تنسجم مع طموحاتهم ورغباتهم. وبغية التنبيه إلىٰ عدم الغفلة والخداع، فانّه يكشف النقاب عن جسامة الأوضاع في المستقبل؛ الأمر الذي لايرىٰ له مثيلاً على مدىٰ التأريخ بالنسبة للخلفاء والحكام.

تأمّلات

١ـ لم قال دعوني؟

استغرق شرّاح نهج البلاغة وسائر علماء الإسلام كثيراً في كلام أميرالمؤمنين عليعليه السلام: دعوني والتمسوا غيري. فذهب البعض إلىٰ أنّه قال ذلك لعدم وجود النص علىٰ الإمامة والولاية، فهبت طائفة من مثقفي العصر لترىٰ في ذلك الكلام انه يشكل الدليل على إصالة رأي الامة في الحكومة واختيار القائد، ونرىٰ من الضرورة بمكان أن نسلط الضوء علىٰ الشرائط الزمانية والمكانية التي كانت سائدة آنذاك والتي دفعت بالإمامعليه السلام إلى هذا الكلام قبل أن نعلن عن رأينا بهذا الشأن بغية تفادي الزلل والانحراف عن حقيقة الأمر:

١ـ إنّما صدر هذا الكلام من الإمامعليه السلام إثر مقتل عثمان بفعل ذلك البذخ والتطاول على بيت المال المسلمين وتسليط بني أمية على رقاب المسلمين، وظهور حالة الاستياء العامة في أغلب مناطق البلاد الإسلامية آنذاك، ممّا دفع بالأُمّة إلىٰ الهجوم علىٰ الإمامعليه السلام وبسط يدها إليه بالبيعة. فقد اعتاد كبار الأُمّة سياسة عثمان ليتوقعوا من الإمام تحقيق رغباتهم وتقسيم بيت المال بينهم حسبما يحلو لهم، إلىٰ جانب أولئك الذين كانوا يحلمون بأن يمنحهم الإمامعليه السلام مقابل بيعتهم بعض المناصب الحساسة في البلاد ليكونوا عماله وولاته على بعض الأمصار فيحكموا سيطرتهم على البلاد.

أضف إلىٰ ذلك فانّ الأُمّة قد ابتعدت عن قيمها الإسلامية، وقد دفعتها الفتوحات وما جرتها عليها من غنائم وثروات إلى الاقبال على الدنيا وزخارفها وتفشي الأفكار الجاهلية

ونسيان حياتها التي شهدتها على عهد النبي ﷺ بفعل عدم التفات الخلفاء لهذا الأمر. ومن هنا رأى الإمام عليه السلام نفسه أمام مفترق طرق؛ إمّا الاستسلام للبيعة في تلك الظروف العصيبة والتأهب لتلك الحوادث والأزمات، وأمّا رفض البيعة وترك الأُمّة وشأنها.

٢ ـ لم يكن الإمام عليه السلام كساسة الدنيا ليخفي أهدافه الحقيقية التي سيسعى إلى تطبيقها فيما لو تولى الخلافة والحكومة الإسلامية، فيجر الأُمّة بوعوده المعسولة إلى البيعة، ثم يكشف عن برامجه وخططه بعد أن يتربع على عرش السلطة وتستتب له الأُمور ويحكم قبضته على الناس! نعم هيهات أن يفكر الإمام عليه السلام بمثل هذه المراوغات والأساليب المظللة. ومن هنا حذر الأُمّة من عظم المسؤولية التي ينبغي أن تنهض بها فيما لو لبى بيعتها وتولى زعامتها. فمن الطبيعي الا يكون هناك من مبرر لخداع الأُمّة بغية حصول الأهداف الإسلامية واشاعة المفاهيم السماوية.

٣ ـ لاشك أنّ الإمام عليه السلام أجدر أفراد الأُمّة على الخلافة ليس في ذلك الزمان فحسب، بل في الزمان الذي سبقه حيث ولايقتصر الإعتراف بذلك على الإمام صرح قائلاً: «**إنّه ليعلم أن محلي منها محك القطب من الرحا**»[1]، وحين جعله عمر أحد أعضاء الشورى فقال: «**متى إعترض الريب في مع الأول منهم حتى صرت أقرن إلى هذه النظائر**»[2]، ولما أرادت الأُمّة أن تبايعه بعد عثمان إذ قال: «**ولقد علمتم أني أحق الناس بها من غيري**»[3]، بل كان يراه كذلك حتى خصومه (وإن لم تشهد السياسة مثل هذا الأمر) ومن ذلك ما قاله عمر حين انتخاب الشورى: «**أمّا والله لئن وليتهم لتحملنهم على الحق الواضح والمحجة البيضاء**»[4]، كما ذكر الطبري أنّ أبابكر حين ولي الخلافة، تطرق لعدم أحقيته فيها طبق أغلب الروايات فقال: «**أيهاالناس! فانّي وليت عليكم ولست بخيركم**»[5].

١. نهج البلاغة، الخطبة ٣.
٢. نهج البلاغة، الخطبة ٣.
٣. نهج البلاغة، الخطبة ٧٤.
٤. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٨٦/١؛ وقد نقل هذا المضمون الطبري في ٢٩٤/٣ حوادث عام ٢٣ هـ باختلاف طفيف.
٥. تاريخ الطبري ٤٠٥/٢.

بل ورد في بعض الروايات أنّ أبابكر قال: «**أقيلوني! فلست بخيركم وعلي فيكم**»[١]، فبالنظر إلى ما أوردنا من محكمات التأريخ والأخبار، يمكن القول بأنّ الإمام عليه السلام أراد أن ينفي عن نفسه في هذه الخطبة رغبته بمسألة الخلافة، ويكشف عن ذروة تواضعه في هذا الأمر، كما أراد أن يفهم الأمّة التي أصرت على البيعة انه ان ولي أمرها فسوف لن يسير بتلك الأساليب الخاطئة، وليس أمامه سوى سلوك سبيل الحق واحياء عصر النبي صلى الله عليه وآله، وأنّ أثار ذلك حفيظة البعض وأدى إلى إنزعاجه، ليؤدّي به ذلك إلى رفع راية المعارضة والوقوف بوجه الإمام عليه السلام. وعلى هذا الضوء لانرى هناك من حاجة لأن نبحث في هذه المسألة، هل الخطبة دليل على عدم النص على الإمامة، أو القول بأنّ معيار الإمامة والخلافة إنّما يكمن في آراء الأمّة لاغير. وذلك لأنّ هذا القول إنّما يصدر ممن اكتفى بالنظر إلى ظاهر الخطبة، واغمض عينيه عن جميع القرائن التأريخية وسائر كلمات الإمام عليه السلام في نهج البلاغة.

٢ ـ لم لا يتحملوا عدالة علي عليه السلام؟

لاشك أن بيعة علي عليه السلام ـ وطبق أقوال جميع المؤرخين ـ كانت الأعظم والأكمل بيعة، ولاسيما مقارنة ببيعة السقيفة التي لم تتجاوز بضعة أشخاص، وقد استندت بيعة عمر إلى وصية الخليفة الأول، كما تمت البيعة لعثمان بثلاثة آراء من تلك الشورى المؤلفة من ستة أعضاء، أمّا البيعة لعلي عليه السلام فقد تمت من قبل جميع أبناء الأمّة، مع ذلك كان الإمام عليه السلام مكرها على قبولها بسبب تلك الظروف الصعبة والملابسات التي عاشها المجتمع الإسلامي من جراء سياسة الخلفاء. فقد أورد المؤرخ المعروف ابن أثير في الكامل بهذا الشأن قائلاً: أتى المصريون علياً عليه السلام بعد مقتل عثمان وقال بعضهم لبعض لئن رجع الناس إلى أمصارهم بغير إمام لم نأمن الاختلاف وفساد الأمّة. فغشى الناس علياً عليه السلام بعد أن باعدهم وقالوا له: نبايعك فقد ترى ما نزل بالإسلام وما ابتلينا به من بين القرى. فقال علي عليه السلام: «**دعوني والتمسوا غيري فانا مستقبلون أمرا له وجوه وله ألوان لاتقوم به القلوب ولاتثبت عليه العقول**». فقالوا:

---

١. احقاق الحق ٨/ ٢٤٠.

ننشدك الله! ألا ترىٰ ما نحن فيه؟ ألا ترىٰ الإسلام؟ ألاترى الفتنة؟ ألا تخاف الله؟ فقال: «**قد أجبتكم، واعلموا أني إن اجبتكم ركبت بكم ما أعلم، وان تركتموني فانما أنا كاحدكم، الا أني أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه**»، ثم افترقوا على ذلك واتعدوا الغد. وتشاور الناس فيما بينهم وقالوا: إن دخل طلحة والزبير فقد استقامت، فبعث البصريون إلىٰ الزبير حكيم بن جبلة وقالوا: احذر تحابه ومعه نفر، فجاؤوا به يحدونه بالسيف، فبايع، وبعثوا إلى طلحة الأشتر ومعه نفر، فاتى طلحة، فقال: دعوني أنظر ما يصنع الناس، فلم يدعه، فجاء به يتله تلاً عنيفاً، وصعد المنبر فبايع ـ ثم خاض ابن أثير في تفاصيل بيعة عامة الأمّة.[1]

فالحق أنّ علياً عليه السلام كان يعلم مدىٰ صعوبة السير علىٰ الحق وبسط العدل في ربوع هذه الجماعة التي تربت علىٰ مفردات الظلم والجور، مع ذلك لم يكن يتوانى عليه السلام من التضحية حتى بنفسه من أجل حفظ المبادىء الإسلامية فلم يكن هدف الإمام عليه السلام الاستيلاء على الخلافة مهما كان الثمن، بل كان يرىٰ الحكومة وسلية لحفظ القيم الإسلامية؛ الأمر الذي يصعب إدراكه على من ليس له علم بفحوى رسالة الأنبياء والاولياء، فقد نقل ابن أبي الحديد عبارة رائعة عن بعض العلماء بهذا الشأن إذ قال: وبهذا ونحوه استدل أصحابنا المتكلمون على حسن سياسته وصحة تدبيره، لأنّ من مني بهذه الرعية المختلفة الأهواء، وهذا الجيش العاصي له، المتمرد عليه، ثم كسر بهم الأعداء، فليس يبلغ أحد في حسن السياسة وصحة التدبير مبلغه. إنّ سياسته عليه السلام إذا تاملها المنصف متدبراً لها بالاضافة إلىٰ احواله التي دفع اليها مع أصحابه، جرت مجرىٰ المعجزات لصعوبة الأمر وتعذره.[2]

٣ ـ لم وزارته عليه السلام خير من إمارته؟

إضافة إلىٰ إمكانية حمل عبارة الإمام عليه السلام «**أنا لكم وزيراً، خير لكم مني أميراً**»، على نوع من التواضع واتمام الحجة، فانه يمكن توجيهها بشكل آخر، وهو أنّ علياً عليه السلام لو أصبح أميراً لكانت معارضته والوقوف بوجهه مدعاة إلى الكفر، وذلك لأنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال له كما روي

---

١. الكامل لابن أثير ١٩٣/٣.
٢. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٧٣/٧.

في الخبر المعروف «**حربك حربي**»[١]، ولما كانت حرب رسول الله ﷺ كفراً، فان حرب علي عليه السلام كفراً. أمّا لو كان عليه السلام وزيراً فانّ الخروج على تلك الحكومة لايؤدى إلى الكفر.

ꕥ

وزبدة الكلام فان بعض المغرضين حاول استغلال هذه الخطبة وتفسيرها خلافاً لأُصول وعقائد التشيع، والحال ليس فيها ما يدعوا إلىٰ هذا الأمر، لأنّ الامام عليه السلام أراد أن يبين زهده بهذا المقام الظاهري من جانب وأنّ الآخرين يفقدون صوابهم لأدنى من هذا الأمر. ومن جانب آخر فقد كشف الإمام عليه السلام قمة تواضعه بهذه العبارات للمؤمنين من أبناء الأُمّة. كما حذر فيها واتم الحجة بانّي إذا نهضت بالأمر فلن أعمل سوى بالكتاب والسنة والحق والعدل ورضى الله، ولا تتوقعوا أن أواصل ما شهدتم من سياسة، وترسيخ دعائم الحكم علىٰ الظلم والجور.

وأخيراً لا تعتقدوا بأنّي غافل عن عواصف المستقبل وأنّي متطلع إلى الخلافة لأراها سهلة ذلول، فأنّي لعلى يقين من أنّ الخلافة في هذه الظروف خطيرة كركوب الدابة الجموح كالمركب الجموح ولا اقبلها إلّا بفضلها وظيفة وتكليف إلهي، وبخلافه فلا قيمة لها عندي.

ꕥ

---

١. روى ابن المغازلي أحد علماء العامة في مناقبه عن ابن عباس أنّ النبي ﷺ قال لعلي عليه السلام: «سلمك سلمي وحربك حربي» (مناقب ابن المغازلي/٥٠).

الخطبة[١] ٩٣

ومن خطبة له ﷺ

وفيها ينبّه أمير المؤمنين ﷺ على فضله وعلمه ويبيّن فتنة بني أمية

أشار ﷺ نظرة إلى الخطبة في هذا الخطبة إلىٰ فتنة بني أمية وقدنبّه إلىٰ عظم خطورتها، لأنّ الناس كلهم كانوا يهابون قتال أهل القبلة، ولا يعلمون كيف يقاتلونهم، هل يتبعون موليهم أم لا؟ وهل يجهزون على جريحهم أم لا؟ واستعظموا أيضاً حرب عائشة وحرب طلحة والزبير، لمكانهم في الإسلام، فلولا أنّ الإمام ﷺ اجترأ على سل سيفه فيها. ما أقدم أحد عليها حتى الحسن ﷺ. ثم قال ﷺ سلوني قبل أن تفقدوني. فقد روى صاحب كتاب الاستيعاب بن عبد البر عن جماعة من الرواة والمحدثين، قالوا لم يقل أحد من الصحابه «**سلوني**» إلّا علي بن أبي طالب.[٢]

٨٠٠٣

١. سند الخطبة: قال ابن أبي الحديد هذه الخطبة ذكرها جماعة من أصحاب السيرة، وهي متداولة منقولة مستفيضة، خطب بها علي ﷺ بعد انقضاء أمر النهروان، وفيها ألفاظ لم يروها الرضي (ره) (شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٥٧/٧) كما ورد في مصادر نهج البلاغة أنّ من رواها ابن واضع في تاريخه (تاريخ اليعقوبي ١٩٣/٢) وأبو نعيم في حلية الأولياء وابن أثير في النهاية. كما رواها العلامة المجلسي عن كتاب الغارات الثقفي (مصادر نهج البلاغة ١٧٨/٢) فالذي يستفاد من هذه النقول أنّ هذه الخطبة من الخطب المعروفة التي ذكرت في عدة مصادر.

٢. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٤٦/٧ و ١٠٦/١٣.

القسم الاوّل

«أَمَّا بَعْدَ حَمْدِ اللهِ وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ، أَيُّهَا النَّاسُ فَإِنِّي فَقَأْتُ عَيْنَ الْفِتْنَةِ، وَلَمْ يَكُنْ لِيَجْتَرِىءَ عَلَيْهَا أَحَدٌ غَيْرِي بَعْدَ أَنْ مَاجَ غَيْهَبُهَا وَاشْتَدَّ كَلَبُهَا. فَأَسْأَلُونِي قَبْلَ أَنْ تَفْقِدُونِي، فَوَ الَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لاَتَسْأَلُونِي عَنْ شَيْءٍ فِيمَا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ السَّاعَةِ، ولاَ عَنْ فِئَةٍ تَهْدِي مِئَةً وَتُضِلُّ مِئَةً إلاَّ أَنْبَأْتُكُمْ بِنَاعِقِهَا وَقَائِدِهَا وَسَائِقِهَا، وَمُنَاخِ رِكَابِهَا، وَمَحَطِّ رِحَالِهَا، وَمَنْ يُقْتَلُ مِنْ أَهْلِهَا قَتْلاً، وَمَنْ يَمُوتُ مِنْهُمْ مَوْتاً. وَلَوْ قَدْ فَقَدْتُمُونِي وَنَزَلَتْ بِكُمْ كَرَائِهُ الأُمُورِ، وَحَوَازِبُ الْخُطُوبِ، ولأَطْرَقَ كَثيرٌ مِنَ السَّائِلِينَ، وَفَشِلَ كَثيرٌ مِنَ المَسْؤُولِينَ، وَذلِك إِذَا قَلَّصَتْ حَرْبُكُمْ، وَشَمَّرَتْ عَنْ سَاقٍ، وَضَاقَتِ الدُّنْيَا عَلَيْكُمْ ضِيقاً، تَسْتَطِيلُونَ مَعَهُ أَيَّامَ الْبَلاءِ عَلَيْكُمْ، حَتَّى يَفْتَحَ اللهُ لِبَقِيَّةِ الأَبْرَارِ مِنْكُمْ».

الشرح والتفسير

أنا فقأت عين الفتنة

بعد أن حمد الإمام عليه السلام الله وأثنى عليه خاطب الناس قائلاً: « **أمّا بعد حمدالله، والثناء عليه، أيها الناس! فاني فقأت[1] عين الفتنة، ولم يكن ليجترىء عليها أحد غيري بعد أن ماج غيهبها[2] واشتد كلبها[3]**».

---

١. «فقأت» من مادة «فقأ» على وزن فقر القلع بمعنى تغلبه عليها.

٢. «غيهب» من مادة «غهب» على وزن وهب الظلمة وشدة السواد، وتستعمل في الليالي الدامسة الظلام، كما تعني في الأصل الغفلة والنسيان المناسب للظلمة.

٣. «كلب» على وزن طلب من مادة «كلب» على وزن قلب داء معروف يصيب الكلاب، فكل من عضته ☜

وقد اختلفت أقوال الشرّاح في المراد بهذه الفتنة، فقد ذهب البعض إلى أنّ المراد بها وقعة الجمل، حيث أصابت فيه الحيرة السذج من الأفراد وحتى من لم يكن يمتلك الإيمان والعلم العادي، في أنّه هل يجوز قتال فئة تنتحل الإسلام ظاهرا و هى من أهل القبلة؟ كيف وفيها بعض كبار الصحابة كطلحة والزبير، وكذلك زوج رسول الله ﷺ عائشة، وناهيك عما سبق فاذا تمت الحجة ونشبت الحرب، فهل يمكن السيطرة على أموالهم كغنائم؟ وكيف سيعامل أسراهم؟ إلّا أنّ الإمام؊ كان يعلم بأنّ هذا النقض للعهود والمواثيق، وشق عصا الأُمّة وتمزيق وحدتها، إذا استمر فانّ الفتنة ستعم كافة البلاد الإسلامية حتى لا يبق من الإسلام إلّا اسمه، ومن القرآن إلّا رسمه وستطمس معالم الدين. فبذل الإمام؊ بادىء الأمر قصارى جهده من أجل اتمام الحجة محذرا الطرف المقابل من العواقب الوخيمة وذلك من خلال الكتب والرسل التي كان يبعث بها إليهم، فلما لم يستجيبوا، لم يكن أمام الإمام؊ من سبيل إلا القتال، ومن هنا واجههم الإمام؊ بتلك الشدة والصرامة حتى أخمد فتنة الجمل، بينما ذهب البعض الآخر إلى أنّ المراد بها فتنة الخوارج من النهروان لأن ظاهر الخوارج كان يتصف بنوع من الصلاح والقدسية، رغم انحرافهم الباطني وحماقتهم وجهلهم بالتعاليم الإسلامية. بينما كانوا يولون عناية فائقة لأدنى المستحبات والمندوبات، ولذلك تردد الكثير من السذج في قتالهم، بينما نهض الإمام؊ بالأمر ليواجه هذه الفتنة ويفقأ عينها، كما ذهب بعض الشرّاح إلى أنّ المراد بها الفتنة بمفهومها العام، حيث يعتقدون أنّ هذه الفتن قد بدأت على عهد رسول الله ﷺ في موقعة بدر واستمرت في سائر الغزوات، ثم استفحلت وتفاقم خطرها بعد رسول الله ﷺ، ثم امتدت لتشتد في زمان عثمان، فلما قتل وبايع الناس الإمام؊ تجذرت هذه الفتنة لتتخذ أشكالاً أُخرىٰ، ليواجهها الإمام؊ بالسيف أحياناً، وبالصبر والتحمل والتحذير والنذير أحياناً أُخرىٰ ولكن يبدو تفسيرها بالجمل أنسب من غيره أمّا التعبير: «**عين الفتنة**» فيفيد أنّ الإمام؊ قد شبه الفتنة بشبح وحشي كاسر، وإذا فقأت عينه سلبت قدرته وحيويته، كما تشير إلى أنّ الإمام؊ كان يتجه في مجابهته للفتنة إلى مراكزها الأصلية ورموزها الأساس،

☜ أصيب به فجن ومات إن لم يبادر بالدواء. ومن هنا يستعمل في الحوادث الأليمة والحروب الطاحنة وهجوم الحيوانات الوحشية المفترسة.

ولايقصد العناصر الثانوية هناوهناك. فالفتنة تزول إذا مازال مركزها؛ وهذا هو الطريق الافضل الذي ينبغي اتخاذه في مواجهة الفتن والدسائس. ثم تطرق الإمام ﷺ إلى مسألة ذات أهمية بالغة جدا فقال ﷺ: «**فاسألوني قبل أن تفقدوني**». كما ذكر سابقا فقد قال المحققون لم يكن ليقول هذا الكلام غير علي بن أبي طالب، و ذلك لأنه كان واسع العلم بأحداث الماضي و الحاضر و المستقبل بحيث يجيب يرد على كل سؤال بشأن المعارف و الأحكام، و هو العلم الذي تعلمه من رسول الله ﷺ الذي أخذه عن الوحي.

قال الشارح المعتزلي روى صاحب كتاب الاستيعاب عن جماعة من الرواة والمحدثين قالوا لم يقل أحد من الصحابة عنهم سلوني إلاّ علي بن أبي طالب. وقال أبو جعفر الاسكافي في كتاب نقض العثمانية: ليس لأحد من الناس أن يقول على المنبر سلوني إلاّ علي بن أبي طالب ﷺ.

وقيل إنّ ابن الجوزي قال يوماً على منبره: سلوني قبل أن تفقدوني، فسألته أمرأة عما روى أنّ علياً سارفي ليلة إلى سلمان فجهزه ورجع، فقال: روى ذلك، قالت: فعثمان ثم ثلاثة أيام منبوذاً في المزابل وعلي ﷺ حاضر، قال: نعم، فقالت: قد لزم الخطاء لأحدهما، فقال: ان كنت خرجت من بيتك بغير اذن زوجك فعليك لعنة الله وإلاّ فعليه، فقالت: خرجت عائشة لحرب علي باذن النبي ﷺ أم لا؟ فانقطع ولم يحر جواباً[1] ثم قال ﷺ: «**فو الذي نفسي بيده! لاتسألوني عن شيء فيما بينكم وبين الساعة، ولاعن فئة تهدي مئة وتضل مئة إلاّ أنبأتكم بناعقها[2] وقائدها وسائقها، ومناخ[3] ركابها، ومحط رحالها، ومن يقتل من أهلها قتلاً، ومن يموت منهم موتاً**» ربّما يتكهن الكثير من الناس بصورة كلية ومبهمة عن بعض حوادث المستقبل، وهذا ما نلمسه بوضوح لدى الساسة الذين يتكهنون ببعض الأُمور التي قد تصيب وقد تخطىء. إلّا أنّ أحداً لم يتمكن بالتكهن بدقائق الأُمور وأدنى التفصيلات وبالنسبة

---

١. منهاج البراعة ٧٤/٧.
٢. «ناعق» من مادة «نعق» على وزن ضرب من نعق بغنمه صاح بها لتجتمع وتستعمل في الافراد السذج الذين يتحركون براعز من المفسدين.
٣. «مناخ» من مادة «نوخ» بمعنى أقام، و «مناخ» يطلق على المكان الذي يبرك فيه البعير، وتستعمل بشكل واسع ككناية عن محل الإقامة.

لتلك الأزمان البعيدة، إلّا لمن ارتبط بمصادر الوحي واستند إلى المدد الإلهي والعلم المطلق.

والعجيب في الأمر أنّ الإمامعليه السلام أكد في هذه العبارة أني أستطيع أن أخبركم بكافة الحوادث القادمة إلى يوم القيامة من جانب، ومن جانب آخر أشار إلى جزئيات هذه الحوادث وتفاصيلها. الأمر الذي لا يتيسر إلّا للنبي ومن يستقي علومه ومعارفه منه، وهنا يبرز هذا السؤال: هل للنبي أو الإمام العلم بالغيب، وبهذه السعة والشمولية، والحال هذا القرآن يصرح: ﴿قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمٰواتِ وَالأَرْضِ الغَيْبَ إلّا اللّٰهُ﴾[1]، وتبدو الاجابة واضحة ومعروفة على هذا السؤال، على ضوء ما ورد في الآيات القرآنية، وكلمات الائمةعليهم السلام ولاسيما الإمامعليه السلام في أن علم الغيب بالذات مختص بالله سبحانه، والله سبحانه يطلع من يشاء من أوليائه على ذلك العلم، كما ورد ذلك في الآية ٢٦ ـ ٢٧ من سورة الجن: ﴿عالِمُ الغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلىٰ غَيْبِهِ أَحَداً * إلّا مَنِ ارْتَضىٰ مِنْ رَسُولٍ﴾، وسيأتي عما قريب أنّ الإمامعليه السلام حين أخبرعن بعض الحوادث، فتبادر هذا السؤال إلى ذهن أحد الأفراد بشأن علم الإمامعليه السلام للغيب، ردّ عليهعليه السلام بالقول: «**ليس هو بعلم غيب، وإنّما هو تعلم من ذي علم**»، في إشارة واضحة إلى أنّ الغيب الذاتي لله، وعلم الإمامعليه السلام إكتسابي، فقد تعلم جميع هذه الأمور من رسول اللهصلى الله عليه وآله الذي تعلمها من الله سبحانه وتعالى (وسيمر علينا في البحث القادم شرح هذا الكلام). على كل حال، لم يقل مثل هذا الكلام بعد رسول الله أحد سوى أميرالمؤمنين، إلّا أنّ الإمام أورد ذلك كراراً ومراراً ليقع عين ما كان يخبر بهعليه السلام .وقد أفرد ابن أبي الحديد في شرحه لنهج البلاغة فصلاً أسماه الأمور الغيبة التي أخبر عنها الإمامعليه السلام أورده في ذيل هذه الخطبة، وسنشير إليه في البحث القادم.

والعبارة: «**ولاعن فئة تهدى مئة...**» إشارة إلى أنّ الإمامعليه السلام لايخبر عن الجماعات الكثيرة والوقائع الخطيرة فحسب، بل يستطيع الأخبار عن صغائر الحوادث ببركة ذلك التعليم الإلهي. ثم أشارعليه السلام إلى نقطتين بهذا الشأن:

الاولى: لتشجيع أولئك على السؤال عن المسائل المصيرية، حذراً من ندمهم يوماً حين

---

١. سورة النمل/٦٥ (كما ورد شبيه هذا المضمون في آيات متعددة أُخرى).

تضطرب عليهم الأُمور فيحل مشاكلهم: «**ولو فقدتموني ونزلت بكم كرائه[1] الأُمور، وحوازب[2] الخطوب، لأطرق كثير من السائلين، وفشل كثير من المسؤولين**» أي أسألوني مادمت بينكم، فليس لأحد بعدي أن يرد على ما يدور في أذهانكم، آنذاك ليس لكم سوىٰ الندم.

الثانية: إشارة إلى الأزمات والخطوب المرتقبة، ليستعدوا لها، كما تبشر من جانب آخر الأخيار والصالحين بالفتح «**وذلك إذا قلصت[3] حربكم، وشمرت[4] عن ساق، وضاقت الدنيا عليكم ضيقاً، تستطيلون معه أيام البلاء عليكم، حتى يفتح الله لبقية الأبرار منكم**»، فالإمامعليه السلام أشار ـ إلى سيطرة الجناة من حكام بني أمية وسيطرتهم على مقدرات الأُمّة الإسلامية وغصب أموالها، وليس لمن يقف بوجههم سوىٰ الضربات الماحقة الشديدة، والحق أنّ جرائمهم وجناياتهم لتفوق الخيال والتصور، وما أروع عبارة الإمامعليه السلام بهذا الشأن حين قال: «**ضاقت الدنيا عليكم ضيقاً**» لتصور بعض الفضائع التي ارتكبها بني أمية بحق الناس.

أمّا قولهعليه السلام: «**حتى يفتح الله لبقية الابرار منكم**»، فيمكن أن يكون إشارة إلى زوال حكومة بني أمية، ليتنفس المسلمون بعدها الصعداء، حيث سيتربص بهم العباسيون الذين لم تشتد قوتهم آنذاك. كما يمكن أن تكون إشارة إلى الحكومة العالمية للإمام المهديعليه السلام التي تقتلع جذور الظلم والجور وتنهي كافة أشكال التسلط والهيمنة وترسي قواعد العدل والقسط، وإليك طائفة من الأُمور الغيبية التي أخبر عنها الإمامعليه السلام ثم تحققت، تأمل نبوءات الإمامعليه السلام أفرد ابن أبي الحديد فصلاً بهذا الشأن فقال: واعلم أنّه عليه‌السّلام قد أقسم في هذا الفصل بالله الذي نفسه بيده أنّهم لايسألونه عن أمر يحدث بينهم وبين القيامة إلّا أخبرهم به، وأنّه ما صحّ من طائفة من الناس يهتدى بها مائة وتضلّ بها مائة، إلّا وهو مخبرٌ لهم ـ إن سألوه ـ برعاتها وقائدها وسائقها ومواضع نزول ركابها وخيولها؛ ومَنْ يقتل منها قتلاً، ومَنْ يموت منها

---

١. كرائه جمع كريهة.
٢. حوازب جمع حازب من مادة حزب على وزن جذب الأمر الشديد.
٣. «قلص» من مادة «قلوص» بتشديد اللام تمارت واستمرت.
٤. «شمر» من مادة «تشمير» ويطلق على عملية رفع الثوب عن الساقين و التهيؤ والاستعداد للقيام بعمل ما. و «شِمر» تطلق على الاشخاص ذوي الجد و التجربة، وكذلك تطلق على الاشرار.

موتاً؛ وهذه الدعوى ليست منه عليه السلام ادّعا الرّبوبية، ولا إدّعاء النبوة؛ ولكنه كان يقول: إنّ رسول صلى الله عليه وآله أخبرَه بذلك؛ ولقد امتحنّا إخباره فوجدناه موافقاً. فاستدللنا بذلك على صدق الدعوى المذكورة، كإخباره عن الضربة التي يضرب بها في رأسه فتخضب لحيته، وإخباره عن قتل الحسين ابنه عليهما السلام؛ وما قاله في كربلاءِ حيث مرّبها، وإخباره بملك معاوية الأمر من بعده، وإخباره عن الحجاج؛ وعن يوسف بن عمر؛ وما أخبر به من أمر الخوارج بالنهروان، وما قدمه إلى صحابه من إخباره بقتل من يقتل منهم وصلب من يصلب وإخباره بقتال الناكثين والقاسطين والمارقين، وإخباره بعدّة الجيش الوارد إليه من الكوفة لما شخص عليه السلام إلى البصرة لحرب أهلها. هذه شهادة ضد من لا يعتقد بإمامته عليه السلام على أنه الإمام المعصوم؛ بينما المسألة واضحة لنا تماما. فالائمة ورثة علوم النبي صلى الله عليه وآله إلى جانب إدراكهم للحقائق القرآنية التي يعجز عن دركها الاخرون، مع مالهم من إلهامات غيبية و سنبحث في حينه في ذيل بعض الخطب بشأن سعة علم الإمام.

⁂

القسم الثاني

«إِنَّ الْفِتَنَ إِذَا أَقْبَلَتْ شَبَّهَتْ، وَإِذَا أَدْبَرَتْ نَبَّهَتْ؛ يُنْكَرْنَ مُقْبِلاتٍ، وَيُعْرَفْنَ مُدْبِرَاتٍ، يَحُمْنَ حَوْمَ الرِّيَاحِ، يُصِبْنَ بَلَداً وَيُخْطِئْنَ بَلَداً. أَلاَ وإِنَّ أَخْوَفَ الْفِتَنِ عِنْدِي عَلَيْكُمْ فِتْنَةُ بَنِي أُمَيَّةَ، فَإِنَّهَا فِتْنَةٌ عَمْيَاءُ مُظْلِمَةٌ: عَمَّتْ خُطَّتُهَا، وَخَصَّتْ بَلِيَّتُهَا، وَأَصَابَ الْبَلاَءُ مَنْ أَبْصَرَ فِيهَا، وَأَخْطَأَ الْبَلاءُ مَنْ عَمِيَ عَنْهَا، وَايْمُ اللهِ لَتَجِدُنَّ بَنِي أُمَيَّةَ لَكُمْ أَرْبَابَ سُوْءٍ بَعْدِي، كَالنَّابِ الضَّرُوسِ، تَعْذِمُ بِفِيهَا، وَتَخْبِطُ بِيَدِهَا، وَتَزْبِنُ بِرِجْلِهَا، وَتمنَعُ دَرَّهَا، لاَيَزَالُون بَلاؤُهُمْ عَنْكُمْ حتَّى لايَكُون انْتِصَارُ أَحَدِكُمْ مِنْهُمْ إلاّ كَانْتِصَارِ الْعَبْدِ مِنْ رَبِّهِ، وَالصَّاحِبِ مِنْ مُستَصْحِبِهِ، تَرِدُ عَلَيْكُمْ فِتْنَتُهُمْ شَوْهَاءَ مَخْشِيَّةً، وَقِطَعاً جَاهِلِيَّةً، لَيْسَ فِيهَا مَنَارُ هُدىً، وَلاَ عَلَمٌ يُرَىٰ».

الشرح والتفسير

فتنة بني أمية

أخبرالإمام عليه السلام في القسم الأول من هذه الخطبة عن جانب من الحوادث المستقبلية والفتن التي ستصيب المسلمين، ثم واصل هنا الكلام عن أولاً: الإشارة إلى القانون العام ذات الصلة بالفتن؛ القانون الذي يؤدي العلم به إلى الحد من خطر هذه الفتن، ثانياً: الحديث عن فتنة خاصة ـ وهى في الواقع من أهم الفتن ـ وتحذير الناس منها، وهى فتنة بني أمية التي تطرق الإمام عليه السلام إلى أغلب مميزاتها. فقد قال عليه السلام باديء ذي بدء، أنّ الفتن عادة ما تتلبس بلباس الحق إذا أقبلت، فاذا أدبرت نبهت الناس إلى ما هيتها **«إن الفتن إذا أقبلت شبهت، وإذا أدبرت نبهت»**.

ثم أشارﷺ إلىٰ نقطة في الحقيقة هى علة هذا الأمر، وهى أنّ هذه الفتن مجهولة عند الاقبال، معروفة عند الإدبار «**ينكرن مقبلات ويعرفن مدبرات**»، فهذه نقطة اجتماعية سياسية غاية في الأهمية، وهى أنّ أصحاب الفتنة والانحراف إنّما يحاولون تنميق ظاهرهم ليخفون صورتهم الكريهة في إطار الحق ليستقطبوا الناس إليهم، فاذا استتب لهم الأمر كشفوا عن أنيابهم الكريهة حتى يطاح بهم.

ومن هنا فانّ دعاة الحق مطالبون على الدوام بالنظر بمنتهى الحيطة والحذر إلى الأحداث والوقائع خشية الانخداع والاغترار، فحسن الظن والنظرة السطحية في مثل هذه الأُمور لن تؤدي سوىٰ إلىٰ الضرر والخسران.

ثم أشارﷺ إلىٰ نقطة مهمّة وهى أنّ الفتن ليست شاملة، بل هى كالرياح التي تصيب موضعا وتترك آخر: «**يحمن**[1] **حوم الرياح، يصبن بلداً ويخطئن بلدا**».

لأنّ أرضية كافة المدن والامصار ليست واحدة لتحتضن الفتن، بل هناك عدة عوامل متوفرة هنا وليست متوفرة هناك، وبناء على هذا فلا ينبغي الاغترار إذا لم تشاهد بعض آثار الفتن في موضع دون آخر.

ثم يتطرقﷺ إلى فتنة بني أمية ليحذر من خطورتها فيقول: «**ألا وإنّ أخوف الفتن عندي عليكم فتنة بني أمية، فانّها فتنة عمياء مظلمة**».

فتنة عمياء مظلمة لاتبق أمامها من قيم ومفاهيم ومثل، وتتجاوز كافة الأشخاص دون الالتفات إلى سوابقهم ومواقفهم، والحق أنّ فتنة بني أمية كانت كذلك! فقد استعادت أعراف الجاهلية حياتها على عهدهم وفي ظل حكومتهم، حيث تمكنت حثالات رجالهم من التسلط على رقاب المسلين وإشغال المواقع الحساسة في الحكومة، فتنحت تلك الشخصيات الصالحة وأقصيت عن الميدان، بينما مورست أبشع أنواع البطش والتعذيب بحق أولئك الذين رفعوا أصواتهم بوجه هذه الحكومة. ثم أشارﷺ إلى بعض خصائص هذه الفتنة في أنّ حكومتها عامة شاملة بحيث يخضع الجميع لهذه السلطة الغاشمة، غير أنّ بلائها يختص بطائفة وجماعة؛

---

١. «يُحمن» من مادة «حوْم» على وزن قوْم بمعنىٰ الدوران.

فمن كان بصيراً في تلك الفتنة (ووقف بوجهها) شمله ذلك البلاء، بينما يسلم منها من كان أعمى «**عمت خطتها،**[١] **وخست بليتها، وأصاب البلاء من أبصر فيها، وأخطأ البلاء من عمي عنها**».

طبعاً أنّ آثار الفتنة ستعم بالتالي كافة القوم، ولعل هذا هو المعنى الذي أشارت إليه العبارة «**عمت خطتها**»؛ إلّا أنّ شدتها وحدتها إنّما تطيل المجاهدين الاشداء، بينما يكون الجهال من عديمي الشعور بالمسؤولية في أمان من ذلك البلاء ثم تطرقﷺ إلى خاصية أُخرى من خصائص حكومة بني أمية، ليقسم قائلاً: «**وآيم الله**[٢] **لتجدن بني أمية لكم أرباب سوء بعدي كالناب**[٣] **الضروس**[٤] **تعذم**[٥] **بفيها، وتخبط**[٦] **بيدها وتزبن**[٧] **برجلها، وتمنع درها**[٨]».

ياله من تشبيه رائع في الإنسان يتوقع أن يستفيد من لبن ناقته ويركبها ليصل إلى المكان الذي يريد، كما أنّ الإنسان ينتظر من الحكومة أن تساعده وتحل مشاكله وأن تكون سنده في مسيرة الرقي والتقدم الفردي والاجتماعي. أمّا الحكام الظلمة الذين يفتقرون إلى المنطق والرحمة ـ والذين لايفكرون إلّا في تحقيق منافعهم ـ ليس فقط لايحلون مشاكل المجتمع فحسب، بل يجعلونه يعيش في خضم هالة من المصاعب والمشاكل ويوجهون له الضربات الماحقة الموجعة وهذه المعاملة الجافة العنيفة، و يالها من نبوءة صحيحة حيث كانﷺ يرى ببصيرته كل تلك الأحداث و عظم البلاء الذي صبته هذه الفئة القاسية على المسلمين. حتى لايبقى منكم إلّا من ينفعهم أو لايضرهم: «**لايزالون بكم حتى لايتركوا منكم إلّا نافعالهم، أو غير ضائر بهم**».

١. «خطة» من مادة «خط» به معنىٰ وضع العلامة، ولفظ «خطة» يأتي أحياناً بمعنىٰ حالة أو موضوع.
٢. «أيم» يرىٰ بعض الأُدباء أن أصلها (أيمن) أسقطت نونها، فان قيل وأيم الله تفيد القسم (ومن أراد المزيد فليراجع شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٥٤/٧).
٣. «الناب» الناقة المسنة.
٤. «ضروس» الحيوان السيئ الخلق يعفى حباله.
٥. «تعذم» من مادة «عذم» من عذم الفرس إذا أكل بجفاء أو عض.
٦. «تخبط» من مادة «خبط» الضرب باليد.
٧. «تزبن» من مادة «زبن» على وزن دفن تضرب.
٨. «درّ» جريان اللبن توفير، كما يطلق على كل خير وبركة.

فهم يخنقون أصوات دعاة الحق في حناجرهم ويلتقطون من يعارضهم أينما كان ولا يرون لأي أحد من حق في الحياة سوىٰ من يقوم على خدمتهم، أو لا يشكل أي خطر على مصالحهم، ولا يفرق لديهم أن يكون داع الحق هذا وطالب العدل ابن رسول اللهﷺ أو من صحابته أم كان من كبار علماء الأمّة وأعلامها وهكذا تتضح عمومية الفتنة وشموليتها التي أشار إليها الإمامعليه السلام. كما أشار في الخاصية الرابعة إلى نقطة وهى أنّ المشكلة العظيمة في هذه الحكومة تكمن في عدم وجود أي ملاذ من شأنه توفير الأمن للآخرين والنجاة من ظلم هؤلاء الظلمة، وليس هنالك من يسمع شكواهم، الأمر الذي يضطرهم إلى شكوى ظلم الظلمة إلى أنفسهم ومعلوم بالطبع نتيجة مثل هذه الشكوى: «**ولايزال بلاؤهم عنكم حتى لايكون انتصار أحدكم منهم إلا كانتصار العبد من ربّه، والصاحب من مستصحبه**».

والحق هذا هو مصير الأُمّة التي تقوم حكومتها الجائرة والظالمة بقطع ألسن كافة دعاة الحق وتحاصر العلماء وتفرض عليهم الاقامة في بيوتهم، وتعز الذليل وتذل العزيز وتحطم عناصر القوة في الأمّة وتسخرها من أجل منافعها. ثم أشار في الخاصية الخامسة والأخيرة ـ والتي تؤكد في الواقع الخصائص السابقة ـ إلى تتابع هذه الفتن وهى عماء وصماء خالية من الأدلة وسبل النجاة: «**ترد عليكم فتنتهم شوهاء[1] مخشية[2] وقطعاً جاهلية، ليس فيها منار هدىٰ، ولاعلم يرى**»، وهكذا يكون الإمامعليه السلام قد رسم بهذه الخصائص الصورة القاتمة لظروف وأوضاع حكومة بني أمية، كما أشار إلى نهايتها؛ وكأنّه كان قد عاش تلك الفترة المظلمة التي دامت ثمانين سنة، وكان يرى تفاصيلها رأى العين. فقد كانت حكومة لاتقيم وزناً للقيم والمثل الإسلامية ولاتعترف بالقوانين الإسلامية، بل هى حكومة مستبدة طاغية تفتقر إلى المنطق والموازين مليئة بالفتن الحاكية عن عصر الجاهلية، الحكومة التي قد لاتفكر حتى في مصالحها، لتمارس أقصى درجات الظلم والجور فترتكب ما قل نظيره في التأريخ البشري. والعبارة: «**أرباب سوء بعدي**»، إشارة لطيفة إلى هذه الحقيقة وهى أنكم لم تستجيبوا لحكومتي الإسلامية والإنسانية العادلة، فليس أمامكم سوى الحكام الظلمة وأرباب السوء. وقد أورد

---

١. «شوهاء» من مادة «شوه» على وزن قوم قبيحة المنظر.
٢. «مخشية» من الخشية مخوفة مرعبة.

بعض شرّاح نهج البلاغة أنّ بني أمية كانت تعامل طائفة من الناس كعبيد. حتى جاء في شرح نهج البلاغة للعلّامة التستري أنّهم كانوا يأخذون الجزية ممن أسلم من أهل الذمة ويقولون فروا من الجزية، ويأخذون الصدقة من الخيل، وكانوا يختمون في أعناق المسلمين كما توسم الخيل، وينقشون في أكفهم علامة لاسترقاقهم كما يصنع بالعلوج من الروم والحبشة.[١]

تأمّلات

١ـ مميزات الفتنة

الفتنة مفردة يخشاها الجميع، ويرون نتيجتها هي الشؤم والألم، ولكن هنا يطرح هذا السؤال: ما هي الفتنة؟ وما هي علامتها وملامحها؟ فالإمام عليه السلام بين في هذه الخطبة علامات الفتنة، كما عرفها على أساس هذه العلامات والملامح. فالفتنة إنّما تطلق على الحوادث المعقدة التي لاتتضح ماهيتها؛ لها ظاهر براق وباطن مملوء بالفساد؛ تؤدي بالمجتمعات البشرية إلى الفوضى والعداوة والتناحر والاقتتال وسفك الدماء ونهب الأموال وهتك الاعراض ـ والأنكى من كل ذلك تعذر السيطرة عليها.

غالباً ما تتلبس بلباس الحق لتجذب اليها السذج من الناس ولايلتفتون إليها، إلّا بعد أن تسدد إليهم سهام حقدها. والفتن لاتعرف القانون، فقدتأتي على منطقة لتحرقها عن بكرة أبيها، بينما لاتشهد منطقة أُخرى أثراً لهذه الفتنة وهي تعيش في أمن وأمان منها، وقد شبهها الإمام عليه السلام في الخطبة بالريح التي تصيب منطقة وتخطيء منطقة أُخرى، وقد تلف هذه الريح كل شيء معها من قبيل الناس والسيارات لتقذف بهم هنا وهناك حسب سرعتها وشدتها! وهذا ما تفعله الفتن بكبار الشخصيات الدينية والاجتماعية السياسية، إلى جانب فعلها بأموال الأُمّة وثروات المجتمع والحرب التي وقعت على عهد أميرالمؤمنين علي عليه السلام تعد كل واحدة منها نموذجاً بارزاً للفتنة؛ فقد شهدت واقعة الجمل حضور زوج النبي صلى الله عليه وآله عائشة التي ركبت الجمل، وإلى جانبها طلحة والزبير وهما من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله ـ ومن أهل السابقة

---

١. شرح نهج البلاغة للتستري ٦/١٠٦.

الحسنة في الإسلام، بحسب الظاهر ـ حتى بثوا أولى بذور النفاق والفرقة والشقاق في صفوف الأُمّة الإسلامية، ولم تضع الحرب أوزارها إلّا بعد مقتل أكثر من عشرين ألف من المسلمين، حتى تم الأمر لعليﷺ فأخمد نيران تلك الفتنة.

قضية أهل الشام وموقعة صفين والمطالبة بدم عثمان ورفع المصاحف على أسنة الرماح نموذج بارز آخر لهذه الفتنة، ولم تنطفِ نيرانها طائفة من الجهال المتنسكين وهم يرفعون شعار «**لاحكم إلّا الله**» ليشعلو فتيل موقعة النهروان فالواقع أنّ تأمل هذه النماذج العينية يمكنه أن يعلم الإنسان بصورة علمية كافة مميزات الفتنة ومداخلاتها كما بينها الإمامﷺ في هذه الخطبة.

٢ ـ حكومة بني أمية

بناءاً على ما أورده الإمامﷺ في هذه الخطبة فانّ حكومة بني اميّة كانت من أعظم وأعقد الفتن التي عصفت بالمسلمين منذ انبثاق الدعوة الإسلامية حيث قلبت الحضارة الإسلامية رأساً على عقب وصبغت الحكومة الإسلامية بصبغة الاستبداد والتسلط والغطرسة، تنتمي طائفة بني أمية إلى أمية بن عبد شمس بن عبد مناف. ومنها أبو سفيان أعدى أعداء الإسلام الذي أثار أغلب الحروب ضد رسول اللهﷺ وقد بذل قصارى جهده من أجل القضاء على الإسلام، إلّا أنّ إرادة الله وقدرته حالت دون ذلك، حتى استسلم أخيراً بجحافل الإسلام بينهما أسر الكفر وظل يخطط من أجل كسر شوكة الدين، بينما صفح النبيﷺ عن جرائمه. روى ابن أبي الحديد عن الشعبي أنّ عثمان لما ولي الخلافة، اجتمع بنو أمية في داره فاغلقوا الباب، وكان حينها أبوسفيان قد كف بصره فالتفت إليهم وسألهم: هل فيكم غيركم؟ قالو:لا، فقال عبارته المشهورة: «**يا بني أمية تلقفوها تلقف الكرة! فو الذي يحلف به أبو سفيان! ما من عذاب ولاحساب ولاجنّة ولانار ولابعث ولاقيامة**»[١].

وهي ذات العبارة التي أطلقها معاوية بعد ان سمع مقالة المغيرة،كما وردت مثلها في الأشعار المعروفة ليزيد حين جاءوا إليه برأس الإمام الحسينﷺ. هذا وقد ألف علماء الفريقين عدة

---

١. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٥٣/٩.

كتب ومقالات بشأن الجنايات والجرائم التي ارتكبتها حكومة بني أمية، والتي تدل على عمق الحقيقة التي صرحت بها الروايات الإسلامية قبل استيلاء بني أمية على دفة الحكم، وأنّهم آفة هذه الأمّة.

ﮘﮗ

القسم الثالث

«نَحْنُ أَهْلَ الْبَيْتِ مِنْهَا بِمَنْجَاةٍ، وَلَسْنَا فِيهَا بِدُعَاةٍ، ثُمَّ يُفَرِّجُهَا اللّهُ عَنْكُمْ كَتَفْرِيجِ الْأَدِيمِ: بِمَنْ يَسُومُهُمْ خَسْفاً، وَيَسُوقُهُمْ عُنْفاً، وَيَسْقِيهِمْ بِكَأْسٍ مُصَبَّرَةٍ لَا يُعْطِيهِمْ إِلَّا السَّيْفَ، وَلَا يُحْلِسُهُمْ إِلَّا الْخَوْفَ، فَعِنْدَ ذٰلِكَ تَوَدُّ قُرَيْشٌ -بِالدُّنْيَا وَمَا فِيهَا- لَوْ يَرَوْنَنِي مَقَاماً وَاحِداً، وَلَوْ قَدْرَ جَزْرِ جَزُورٍ، لِأَقْبَلَ مِنْهُمْ مَا أَطْلُبُ الْيَوْمَ بَعْضَهُ فَلَا يُعْطُونِيهِ!».

الشرح والتفسير

انتقام الله من بني أمية

إختتم الإمام عليه السلام الخطبة بالأخبار عن بعض الحوادث المستقبلية الحلوة والمريرة، حيث يلفت النظر إلىٰ أنّ أهل البيت عليهم السلام بمنجاة من هذه الفتنة وأنّهم ليسوا دعاة حكومة آنذاك: **«نحن أهل البيت منها بمنجاة [1]، ولسنا فيها بدعاة»**.

يبدو أنّ هناك إختلاف بين شرّاح نهج البلاغة في تفسير هذه العبارة، لأن الفتنة من حيث العينية الخارجية قد شملت أهل البيت، ونموذج ذلك شهادة الإمام الحسين عليه السلام وصحبه الكرام. وعليه فنجاة أهل البيت من تلك الفتنة بمعنى عدم مسؤوليتهم في هذه الفتنة، وتقع مسؤوليتها على الأُمّة التي ولت ظهورها عن أهل البيت والتحقت بسليلي الكفر والشرك والجاهلية. والعبارة **«ولسنا فيها بدعاة»** قرينة علىٰ هذا المعنى، لأنّ أهل البيت حين اجبروا على

1. «منجاة» من مادة «نجاة» الأرض المرتفعة التي لا يصلها السيل، ثم اطلقت على كل موضع يكون سبباً للنجاة، إلّا أنّها وردت أيضاً بمعنى الاقصاء عن التدخل في أمر، وقد جاءت بهذا المعنى في العبارة؛ أي ليس هنالك أي دور لأهل البيت في حكومة بني أمية، وعلى بني أمية وزرها خاصة.

السكوت ولم تندفع الأُمّة خلفهم، بات من الطبيعي عدم تحملهم لأية مسؤولية. ثم بشرهم الإمامعليه السلام بعدم استمرار هذه الفتنة وأنّ الله سيكشفها عن الأُمّة كما يكشف الجلد عن اللحم: «**ثم يفرجها**[١] **الله عنكم كتفريج الأديم**.»[٢] فهذا التشبيه يشير إلىٰ اخماد فتنة أمية بصورة تامة في ذلك الزمان، لأن الجلد حين يفصل عن اللحم لا تبقى ذرة منه على اللحم بحيث يتغير شكل الحيوان المذبوح تماماً.

والسؤال المطروح من الذي ينهي هذه الفتنة ويقضي على حكومة بني أمية وكيف؟

قالعليه السلام: في مواصلة كلامه بشكل عام «**بمن يسومهم خسفاً**[٣]**، ويسوقهم عنفاً، ويسقيهم بكأس مصبرة لايعطيهم إلّا السيف، ولايحلسم**[٤] **إلا الخوف**».

العبارة «**مصبرة**» من مادة صبر على وزن خشن نبات شديد المرارة، إشارة إلىٰ مرارة الحياة التي سيعيشها بني أمية في ظل حكومة بني العباس، والعبارة «**لايعطيهم...**» تأكيد لهذا المعنى في ابتلاء بني أمية ببني العباس، الذين يضعون السيف في أعناقهم، ومن حالفه الحظ في الهرب فليس له إلّا الخوف والرعب.

ثم قالعليه السلام آنذاك تود قريش (إشارة إلىٰ طائفة من بني أمية) أن تعطي الدنيا وما فيها، لتراني مرة أُخرى (وتذعن لامرتي) ولو لمدة وجيزة بقدر ذبح الناقة، لأقبل منها ما تمنعني اليوم بعضه: «**فعند ذلك تود قريش بالدنيا وما فيها، لو يرونني مقاماً واحداً، ولو قدر جزر جزوّر**[٥]**، لا قبل منهم ما أطلب اليوم بعضه فلايعطونيه**» فالعبارات وان أشارت إلىٰ تكهن الإمامعليه السلام بشأن زوال سلطة بنى أمية على يد بني العباس، إلّا أنّ بعض شرّاح نهج البلاغة احتملوا أنّ هذه العبارات وردت بخصوص حكومة الإمام المهدىعليه السلام حيث سيؤدي.

إلىٰ إجتثاث جذور الظلم والطغيان، إلّا أنّ هذا الاحتمال يبدو بعيداً، وذلك لأنّه أولاً: سوف

١. «يفرج» من مادة «فرج» بمعنى السلخ ورد هنا، كما يعني حل المشاكل.
٢. «أديم» بمعنى الجلد.
٣. «خسف» بمعنى الاخفاء، وورد في الخطبة بمعنى الذل.
٤. «يحلس» من مادة «حلس» علىٰ وزن فلس بمعنى الكساء الذي يوضع على ظهر البعير.
٥. «جزور» من مادة «جزر» على وزن جذب الناقة المجزورة، كما وردت هذه المفردة بمعنى انخاض ماء البحر وما شاكل ذلك.

لن يكون بني أمية آنذالك طائفة خاصة. ثانياً: ليس هنالك من مجال لأن يتمنوا حكومة الإمام علي‌ﷺ حين ظهور الإمام المهدي‌ﷺ وتطبيق كافة تعاليم السماء.

وبعبارة أُخرى: فانّ هذه الأُمنية ستكون من قبيل تحصيل الحاصل. وهذا الكلام إخبار عن ظهور المسودة، وانقراض ملك بني أمية، ووقع الأمر بموجب إخباره‌ﷺ؛ حتى لقد صدق قوله: «**لقد تود قريش...**»، فانّ أرباب السير كلهم نقلوا أنّ مروان بن محمد قال يوم الزاب لما شاهد عبدالله ابن علي بن عبدالله بن العباس بازائه في صف خراسان: لوددت أنّ علي بن أبي طالب تحت هذه الراية بدلاً من هذا الفتى؛ والقصة طويلة وهي مشهورة.[1]

والأعجب من ذلك حين ولى أبو العباس السفاح الخلافة ـ وهو أول خليفة عباسي ـ أمر بقتل كافة بني أمية، كما أمر بنبش قبورهم وأخراج الأموات منها واحراقها، ولم ينج منهم إلّا من هرب إلىٰ الأندلس ـ وقيل أنّ السفاح أمر بطرح موتى بني أمية أمام الكلاب لتنهش لحومهم.[2]

بل لقب أبوالعباس بالسفاح لكثرة قتله من بني أمية.[3]

ويتضح ممّا مر معنا أنّ الفرج الذي بشر به الإمام‌ﷺ إنّما يقتصر على الفترة الممتدة بين حكومة بني أمية وبني العباس، أو بعبارة أُخرى يرتبط بالمدة التي لم تقو فيها قدرة بني العباس إلىٰ الحد المطلوب، وذلك لأنهم حين توطدت دعائم حكومتهم وقويت شوكتهم، غاصوا في هالة من الظلم والاضطهاد ليجعلوا المسلمين يعيشون فترة مظلمة أُخرىٰ.

تأمّلان

١ـ ضريبة الفرار من الحق

شحن التأريخ بهذه التجربة في أنّ من يهرب من الحق والعزة والكرامة، إنّما يعيش حياته في ظل الذل والباطل. وأفضل نموذج على ذلك أهل العراق على عهد علي‌ﷺ الذين لم يستجيبوا

---

١. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٥٧/٧.
٢. تتمة المنتهى /١٥٦.
٣. دائرة المعارف الاعلمي ٤٠٥/١٠.

لعليﷺ المعروف بعدالته ورحمته حتى في ساحات الوغى ومع الخصوم والاعداء، فكانوا يختلقون مختلف الذرائع ليتمردوا عليه، فملأوا قلبه دما وشحنوا صدره غيضاً وجرعوه الهم والغمّ. إلّا أنّه لم تمض عليهم مدة حتى دفعوا ثمن ذلك باهضاً ليذوقوا ألوان الذلة والهوان. فقد سلط عليهم زمرة من الجفاة الطغاة القساة الذين لم يرعوا إلّا ولاذمة في كبير أو صغير. وقد نهبوا أموالهم وانتهكوا حرماتهم وجرعوهم الموت غصة غصة، وأحالوا حياتهم ظلاماً دامساً، حتى تمنوا الحظة من لحظات حكومة عليﷺ ولكن هيهات.

نعم هذا ما صرح به الإمامﷺ في الخطبة ٢٨: «**ألا وإنّه من لاينفعه الحق يضره الباطل، ومن لايستقيم به الهدىٰ، يجربه الضلال إلى الردىٰ**».

حقاً أن هذا الفصل من تأريخ الإسلام مليء بالدروس والعبر، فمصير اُولئك الذين غدروا بأمير المؤمنين عليﷺ ينطوي على الدروس والعبر من جانب، ومن جانب آخر فانّ قصة بني أمية بعد عليﷺ هى الاُخرىٰ عبرة لمن اعتبر.

روى المؤرخ المشهور المسعودي أنّ الحجاج حكم الكوفة والبصرة على عهد عبد الملكبن مروان عشرين سنة، واحصي من قتله صبراً سوى من قتل في عساكره وحروبه فوجد مائة وعشرين ألفا، ومات في حبسه خمسون ألف رجل، وثلاثون ألف أمرأة، منهن ستة عشر ألفا مجردة، وكان يحبس النساء والرجال في موضع واحد، ولم يكن للحبس ستر يستر الناس من الشمس في الصيف ولا من البرد والمطر في الشتاء، وكان له غير ذلك من العذاب.[١]

وذكر إبن قتيبة في الامامة والسياسة أن الحجاج دخل مسجد البصرة مع مئتي نفر يحملون سيوفهم ثم أمرهم بالهجوم على الناس إن خلع عمامته إذا رموه، فجعلون يضربون أعناق من في المسجد حتى إمتلأ بدمائهم. و لم يكن ذلك سوى جانبا من مصير من تمرد على الإمامﷺ.

٢ـ عاقبة بني أمية

عاقبة بني أمية كانت هى الأخرى أسوأ من عاقبة أهل العراق في حكومة بني العباس

١. مروج الذهب ١٦٦/٣.

حتى قيل أنّ أحد خلفاء بني العباس أحضر في مجلسه تسعين من زعماء بني أمية فأمر بضرب رؤوسهم بأعمدة الحديد والقوا وسط المجلس، ثم وضعت مائدة الطعام عليهم فجعل يتناول مع صحبه الطعام.[1]

بل لم يرحموا حتى صغار بني أمية فضلاً عن موتاهم. فقد عمد عبدالله بن علي أيام أول خليفة عباسي السفاح إلىٰ نبش قبورهم، فاخرج جسد هشام بن عبدالملك وأضرم فيه النار، كما أخرج جسد الوليد بن عبدالملك ويزيد بن معاوية ـ ولم يبق منهما إلّا العظام ـ وسائر أجساد بني أمية وأمر باحراقها.[2]

ثم اتجه صوب قبر معاوية، فلم يكن فيه سوىٰ حفنة من التراب.[3]

٨٠٠٣

١. الكامل لابن أثير ٥/٤٣٠.
٢. مروج الذهب ٣/٢٠٧.
٣. الكامل لابن أثير ٥/٤٣٠.

الخطبة ٩٤ [١]

ومن خطبة له عليه السلام

وفيها يصف الله تعالى ثم يبين فضل الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام ثم يعظ الناس

نظرة إلى الخطبة

تشتمل الخطبة على أربعة محاور: الأول: بيان بعض صفات الله سبحانه. الثاني: خلق الأنبياء من صلب آدم عليه السلام.

الثالث: خلق النبي الأكرم صلى الله عليه وآله من النسل الطاهر، وشرح بعض فضائله ومناقبه ومدح عترته عليهم السلام.

الرابع: النصح والوعظ بعبارات قصيرة عظيمة التأثير.

١. سند الخطبة: قال صاحب مصادر نهج البلاغة مانقله الرضي (ره) في هذا الموضع مأخوذ من خطبة له عليه السلام مشهورة أولها: الحمدلله الواحد الأحد الصمد، المتفرد... وقال الكليني في الكافي عن هذه الخطبة بعد أن أخذ غرضه، منها في الكتاب التوحيد: وهذه الخطبة من مشهورات خطبة عليه السلام حتى لقد ابتذلتها العامة (الكافي ١٣٤/١) وقال المرحوم الصدوق، قال الإمام الصادق عليه السلام أنّ أمير المؤمنين عليه السلام خطب بهذه الخطبة لما استنهض الناس لحرب معاوية في المرة الثانية. (توحيد الصدوق، ٤١/١، باب التوحيد ونفي التشبيه، الحديث ٣). رواها ابن عبد ربه المالكي في العقد الفريد ٧٤/٤ بتفاوت مع رواية الرضي تحت عنوان خطبته الفراء. وقال صاحب المصادر: ويلاحظ أنّ رواية العقد خلت من ذكر أهل البيت في الخطبة فلعل يداً أمينة! حذفت ذلك، كما حذفت الخطبة الشقشقية من العقد (مصادر نهج البلاغة ١٨٥/٢).

الخطبة[1] ٩٤

ومن خطبة له ﷺ

وفيها يصف الله تعالى ثم يبين فضل الرسول الكريم ﷺ وأهل بيته ﷺ ثم يعظ الناس

نظرة إلى الخطبة

تشتمل الخطبة على أربعة محاور: الأول: بيان بعض صفات الله سبحانه، الثاني: خلق الأنبياء من صلب آدم ﷺ.

الثالث: خلق النبي الأكرم ﷺ من النسل الطاهر، وشرح بعض فضائله ومناقبه ومدح عترته ﷺ.

الرابع: النصح والوعظ بعبارات قصيرة عظيمة التأثير.

١. سند الخطبة: قال صاحب مصادر نهج البلاغة مانقله الرضي (ره) في هذا الموضع مأخوذ من خطبة له ﷺ مشهورة أولها: الحمدلله الواحد الأحد الصمد، المتفرد... وقال الكليني في الكافي عن هذه الخطبة بعد أن أخذ غرضه، منها في الكتاب التوحيد: وهذه الخطبة من مشهورات خطبة ﷺ حتى لقد ابتذلتها العامة (الكافي ١٣٤/١) وقال المرحوم الصدوق، قال الإمام الصادق ﷺ أنّ أمير المؤمنين ﷺ خطب بهذه الخطبة لما استنهض الناس لحرب معاوية في المرة الثانية. (توحيد الصدوق، ٤١/، باب التوحيد ونفي التشبيه، الحديث ٣). رواها ابن عبد ربه المالكي في العقد الفريد ٧٤/٤ بتفاوت مع رواية الرضي تحت عنوان خطبته الغراء. وقال صاحب المصادر: ويلاحظ أنّ رواية العقد خلت من ذكر أهل البيت في الخطبة فلعل يداً أمينة! حذفت ذلك، كما حذفت الخطبة الشقشقية من العقد (مصادر نهج البلاغة ١٨٥/٢).

القسم الأول

«فَتَبَارَكَ اللّهُ الّذِي لَا يَبْلُغُهُ بُعْدُ الْهِمَمِ، وَلَا يَنَالُهُ حِدْسُ الْفِطَنِ، الأَوَّلُ الَّذِي لَا غَايَةَ لِهُ فَيَنْتَهِيَ، وَلا آخِرَ لَهُ فَيَنْقَضِيَ».

الشرح والتفسير

عجز الفكر عن معرفته

استهل الإمامعليه السلام خطبته ـ كسائر خطبه ـ بحمد الله والثناء عليه، أفضل انطلاقة في الحديث واعداد القلوب لسماع الوعظ. فقد بيّنعليه السلام بهذه العبارات أربع صفات من صفات الله التي تعود في الحقيقة إلىٰ صفة واحدة (وقد ورد شبيه ذلك في الخطبة الاولىٰ من نهج البلاغة في المجلد الأول من هذا الكتاب). فقالعليه السلام: «**فتبارك الله الذي لايبلغه بعد الهمم، ولاينا له حدس الفطن**».

فهو سبحانه الأول الذي لانهاية له ليمكن الوصول إليه، ولا آخر له لتكون له نهاية «**الأول الذي لاغاية له فينتهي، ولا آخر له فينقضي**» فجميع هذه الصفات إنّما تشير إلىٰ عدم تناهي ذاته في كل جهة. الذات التي لا تعرف الحدود من حيث العظمة والعلم والقدرة والاولية والآخرية. فهو ليس محدود في الفكر الإنساني، ولا يدرك بالظنون، ليس له أول، كما ليس له آخر، ليس هنالك من هدف لذاته ولا غاية، وذلك لأنّه كمال مطلق ووجود لا حدود له ولانهاية.

وفي ذات الوقت فانّ هذه الصفات الأربع تعالج هذه الحقيقة من جوانب مختلفة:

في العبارة الاولىٰ: أنّ الأفكار البشرية والإرادات القوية ومهما بلغت جهودها ومساعيها لايسعها أن تبلغ معرفة كنهه سبحانه.

والعبارة الثانية: إشارةٌ إلىٰ الحدس والظن والانتقالات الدفعية والسريعة الفكرية التي يمكنها أن تذلل أغلب قضايا الحياة، حيث يقول الإمام عليه السلام ليست لها من فاعلية هنا.

العبارة الثالثة: تشير إلىٰ أنّ الله سبحانه، على خلاف الموجودات الإمكانية التي لها هدف ومقصد لهذا الوجود، فهي تنتهي حين تبلغ هدفها وتقوم برسالتها؛ فليس هناك وجود ليبلغه.

العبارة الأخيرة: تشير إلىٰ أنّه آخر لانهاية له ـ بعبارة أُخرى: هو أول الوجود وآخره، ولكن ليس بمعنى الأول الذي ينتهي ولا الآخر الذين ينقضي؛ فهذه الصفات تعني أزليته وابديته ومطلقيته.

قد لا يكون المعنى الأخير كذلك للوهلة الاولىٰ، ولكن يبدو ذلك صحيحاً من خلال الالتفات إلىٰ العبارة السابقة، ونظيراتها في نهج البلاغة، كما ورد في الخطبة ٨٥.

على كل حال فانّ الأفكار البشرية المحدودة لاتصل أبداً إلىٰ كنه ذلك الكمال المطلق، وليس لنا سوىٰ معرفة إجمالية، يمكنها أن تتكامل كلما طهرت روح الإنسان أكثر وأصبح فكره أقوى وأكمل، وأن تعذر بلوغ المعرفة التفصيلية البتة.

❊❊❊

القسم الثاني (ومنهافي وصف الأنبياء)

«فَاسْتَوْدَعَهُمْ في أَفْضَلِ مُسْتَوْدَعٍ، وَأَقَرَّهُمْ فِي خَيْرِ مُسْتَقَرٍّ، تَنَاسَخَتْهُمْ كَرَائِمُ الأَصْلاٰبِ إِلَىٰ مُطَهَّرَاتِ الأَرْحَامِ؛ كُلَّمَا مَضَىٰ مِنْهُمْ سَلَفٌ، قَامَ مِنْهُمْ بِدِينِ اللّهِ خَلَفٌ».

الشرح والتفسير

المكانة الرفيعة للأنبياء

أشار الإمامعليه السلام في هذه الخطبة إلىٰ الأنبياء الذين بعثهم الله طيلة تاريخ البشرية، ليكمل بحث التوحيد ببحث النبوة. وتفيد القرائن أن هناك مقاطع محذوفة بين هذا القسم وذلك الذي سبقه، فالأقسام مقتطفات من خطبة طويلة للإمامعليه السلام.

على كل حال فان الخطبة أشارت في الواقع إلىٰ الأُمور المهمة التالية.

الأول: أنّ الأنبياء قد غطوا جميع التاريخ البشري وقد نهضوا الواحد تلوا الآخر بمهمتهم في الوعظ والإرشاد.

الثاني: أنّهم ينشدون جميعاً هدفاً واحداً.

الثالث: أنّهم تربوا في أصلاب شامخة وأرحام مطهرة.

فقالعليه السلام: **«فاستودعهم في أفضل مستودع، وأقرهم في خير مستقر»**، ثم خاضعليه السلام في شرح هذا المجمل بأنّ الله قد قلبهم في الأصلاب الكريمة والأرحام المطهرة. فقالعليه السلام بهذا الشأن: **«تناسختهم**[1] **كرائم الأصلاب إلىٰ مطهرات الأرحام»**.

---

١. «تناسخ» من مادة «نسخ» بمعنى الازالة وانتقال الشيء، وتعني هنا انتقال نطفة الآباء إلى أرحام الأمهات.

فالواقع هو أنّ «**أفضل مستودع**» يراد به أصلاب كرام الآباء من أهل الفضل و«**خير مستقر**» يراد به الأرحام الطاهرة للأمهات.

ثم أشار ﷺ إلى استمرار رسالة الأنبياء وامتدادها، وكلما رحل منهم أحد، خلفه آخر ليواصل سبيله: «**كلما مضى منهم سلف، قام منهم بدين الله خلف**».

فالواقع هو أنّ حديقة الحياة الإنسانية لم تخل قط من شجرة الأنبياء الطيبة، لتتغذىٰ البشرية على الدوام علىٰ ثمارها المعطاء: ﴿**تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا**﴾[1] فترتوي من فيضها وتزدان قوة في روحها وبدنها.

أمّا قضية طهارة أصلاب الأنبياء وأرحامها فمن الأمور المهمة التي أسهبت في ذكرها الروايات الإسلامية والزيارات، وذلك لاهميتها من جانبين: الأول من ناحية قانون الوراثة الذي ينطوي على آثار عميقة والثاني: من الناحية الاجتماعية وثقة الأمّة بالأنبياء، إلى جانب الرابطة بين الأُمم والأنبياء بما لا يمكن انكار دوره.

ومن هنا صرحت الروايات التي وردت بشأن انتخاب الزوجة بأن تكون من أُسرة دينية مشهورة بعفتها وطهارتها وورعها وتقواها، والعكس صحيح في اجتناب الأُسرة الوضيعة وان كانت هناك بعض الصفات في المرأة. فقد جاء في الحديث عن النبي الأكرم ﷺ أنّه قال: «**أيها الناس إياكم وخضراء الدمن! قيل: يا رسول الله وماخضراء الدمن؟ قال: المرأة الحسناء في منبت السوء**».[2]

والنقطة الجديرة بالذكر أنّ العبارة: «**كلما مضى منهم سلف، قام منهم بدين الله خلف**»، إشارة إلىٰ هذه الحقيقة هى أنّ الأنبياء وبمصداق ﴿**لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ**﴾[3]، لهم برامج واحدة، وأصول مشتركة، وإن كان هناك بعض الاختلاف في الفروع بسبب تفاوت الزمان والمكان؛ فكانوا يدعون جميعاً إلىٰ التوحيد والعدل والمعاد، حتى أنّهم كانوا سواسية في اصول المسائل الفرعية؛ فهم يدعون إلىٰ التضرع والعبودية ويحثون علىٰ الفضائل ومكارم الأخلاق ويحذرون من الصفات الرذيلة، وبالتالي احترام القانون ورعاية النظام.

---

١. سورة ابراهيم/٢٥.
٢. وسائل الشيعه ٢٩/١٤ ح ٤.
٣. سورة البقرة/٢٨٥.

القسم الثالث

«حَتَّىٰ أَفْضَتْ كَرَامَةُ اللّٰهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ إِلَىٰ مُحَمَّدٍﷺ فَأَخْرَجَهُ مِنْ أَفْضَلِ الْمَعَادِنِ مَنْبِتاً، وَأَعَزِّ الأَرُومَاتِ مَغْرِساً؛ مِنَ الشَّجَرَةِ الَّتِي صَدَعَ مِنْهَا أَنْبِيَاءَهُ، وَانْتَجَبَ مِنْهَا أُمَنَاءَهُ. عِتْرَتُهُ خَيْرُ الْعِتَرِ، وَأُسْرَتُهُ خَيْرُ الأُسَرِ، وَشَجَرَتُهُ خَيْرُ الشَّجَرِ؛ نَبَتَتْ فِي حَرَمٍ، وَبَسَقَتْ فِي كَرَمٍ؛ لَهَا فُرُوعٌ طِوَالٌ؛ وَثَمَرٌ لَايُنَالُ؛ فَهُوَ إِمَامُ مَنِ اتَّقَىٰ، وَبَصِيرَةُ مَنِ اهْتَدَىٰ، سِرَاجٌ لَمَعَ ضَوْؤُهُ، وَشِهَابٌ سَطَعَ نُورُهُ، وَزَنْدٌ بَرَقَ لَمْعُهُ، سِيرَتُهُ الْقَصْدُ، وَسُنَّتُهُ الرُّشْدُ، وَكَلَامُهُ الْفَصْلُ، وَحُكْمُهُ الْعَدْلُ؛ أَرْسَلَهُ عَلَىٰ حِينِ فَتْرَةٍمِنَ الرُّ سُلِ، وَهَفْوَةٍ عَنِ الْعَمَلِ، وَغَبَاوَةٍ مِنَ الأُمَمِ».

الشرح والتفسير

فضائل النبيﷺ

ركز الإمامﷺ في إطار حديثه عن أنبياء الله ورسله على خاتم الأنبياء والمرسلين محمدﷺ وفضائله وكمالاته وأعظم صفاته من جميع الجهات. فقد تطرق في بادىء الأمر إلىٰ أجداده الطاهرين وعظم فضيلة ونسبهﷺ ثم خاض في فروع هذه الشجرة المباركة من عترته وأهل بيته. ثم تناول في المرحلة الأُخرىٰ صلاحيته في زعامة الأُمّة، كما تحدث عن انبثاق دعوته وقيامه بالامر، ومن شأن كل بعد من هذه الابعاد أن يكشف عن عظمتهﷺ. فقد قالﷺ بأنّ الله وأصل عنايته ولطفه ببعث الأنبياء إلىٰ أن ختمهم بالنبي الأكرمﷺ: «**حتى أفضت كرامة الله سبحانه وتعالىٰ إلىٰ محمدﷺ**».

حيث استخرجه من أطيب المعادن وأفضلها ومن أطيب الترب وأعزها، وجعل فرع

وجوده من شجرة الأنبياء، تلك الشجرة الطيبة التي اصطفى منها أمناء رسالاته: «**فأخرجه من أفضل المعادن منبتاً، وأعز الاورومات**[١] **مغرساً: من الشجرة التي صدع منها أنبياءه، وانتجب منها أمناءه**».

قطعاً أنّ أحد الابعاد المهمة في شخصية الإنسان انما يبلوره البعد الوراثي، حيث يكتسب الأبناء القدسية من جراء الآباء من أهل الورع والتقوى والصلاح، والأُمهات من ذوي الطهر والنجابة والعفاف. وبالطبع كل ذلك دون حصول الاجبار. والنبيﷺ كان نموذجاً بارزاً في هذا الأمر؛ فهو ينتهي لآل ابراهيمعليه السلام والأنبياء الذين إنحدروا من نسله، من صلب بني هاشم المعروفون بالشجاعة والكرم والاثرة، من ولد عبدالمطلب المشهور بإيمانه وعدله وشجاعته. فقد انفردﷺ بكل هذه الصفات.

الحقيقة الأُخرى التي لاغبار عليها هي أنّ الأبناء من ذوي الشخصيات والأحفاد من أهل الفضائل دليل آخر علىٰ شخصية كل إنسان وقد بما قيل (الظرف ينضح بما فيه).

ومن هنا ذكر الإمامعليه السلام بأنّ عترته من أهل بيته من أفضل العتر وأطيبها، واسرتهﷺ من خير الاسر، وشجرته المباركة من أحسن الشجر: «**عترته**[٢] **خير العتر، وأسرته خير الأُسر، وشجرته خير الشجر**» الشجرة التي نبتت في حرم الله الأمن، وبسقت في سماء الكرامة والفضيلة: «**نبتت في حرم، وبسقت في كرم**».

وتمتاز هذه الشجرة بفروعها الطويلة وثمارها الطيبة القيمة التي لاتبلغها أيادي السفلة: «**لها فروع طوال، وثمر لاينال**».

فالحق أنّ الإمامعليه السلام أدى حق الكلام بهذه العبارات اللطيفة الرائعة بشأن النبي الأكرمﷺ وعترته الطاهرةعليهم السلام، واماط اللثام عن عظمة وبركة هذه الشجرة الطيبة، ليبيّن بتشبيهات وعبارات جميلة فضائله ومناقبهﷺ وأهل بيته.

وقد ذهب بعض شرّاح نهج البلاغة إلىٰ أنّ المراد بالحرم في قوله: «**نبتت في حرم**» الحرم

---

١. «أرومات» جمع «ارومة» بمعنى أصل الشيء وأساسه، كما تطلق على جذر الشجرة.
٢. «عترة» من مادة «عتر» على وزن سطر آل بيت الرجل ونسله ورهطه الأقربون، والعشيرة. ومعناها الأصلي هو الأصل.

المكي، الذي نمت فيه شجرة النبي ﷺ، وترعرعت ونمت في ظله، بينما ذهب البعض الآخر إلىٰ أنّ المراد بالحرم هنا العترة والحرمة؛ أي أن شجرته ﷺ نبتت في غاية الحرمة والعزة، ولكن يبدو المعنى الأول أنسب.

والعبارة «**بسقت في كرم**» إشارة إلىٰ أنّ النبي ﷺ لم يلد في أرض وأسرة عزيزة كريمة فحسب، بل ترعرع وتربى في بيئة مفعمة بالكرامة والشموخ (لأن البسوق في الأصل تعني ارتفاع وطول فروع وأغصان النخل).

والعبارة «**ثمر لاينال**» لا تعني أن يد أحد لاتصل إلىٰ ثمار هذه الشجرة المباركة؛ لأن هذه ليست فضيلة، بل كما ذكرنا سابقاً إمّا ان يكون المراد أنّه لاتبلغ يد الطالحين ثمار هذه الشجرة الفاضلة، وإمّا أن يكون المراد أنّ ثمار هذه الشجرة المباركة إلى درجة من الفضل والكرامة بحيث لايمكن أن يصافها أحد.

ويتبين ممّا ذكرنا آنفاً أنّ الشجرة في العبارة الاولىٰ إشارة إلىٰ إبراهيم ﷺ والأنبياء السابقين، وفي العبارة الأُخرى إشارة إلىٰ شجرة وجود النبي ﷺ وعترته فروعها.

ثم أشار بعد ذلك بتسع عبارات فصار إلىٰ سائر الخصال المهمة الحميدة للنبي الأكرم ﷺ، فقال ﷺ: «**فهو إمام من اتقى وبصيرة من اهتدىٰ، سراج لمع ضوؤه، وشهاب سطع نوره، وزند[1] برق لمعه، سيرته القصد، وسنته الرشد، وكلامه الفصل، وحكمه العدل**» فالعبارة: «**إمام من اتقى...**» شبيهة «**هدى للمتقين**» بشأن القرآن التي وردت في الآية الثانية من سورة البقرة. والمراد إنّما يستضيئ بنور هذا السراج الهادي والزعيم الاوحد من كانت له عين باصرة وقلب واع ينشد الحقيقة والفضيلة، بعبارة أُخرى يتحلون بالتقوى التي تجعلهم مستعدين لقبول الحق؛ ولذلك فليس من العجيب ألايهتدي بهديه أهل التعصب والعناد والأحقاد والضغان من عمي البصائر، على غرار مكفو في البصر الذين لايرون الشمس في رابعة النهار فلا يستفيدون من ضيائها، والعبارة: «**سيرته القصد**» شبيهة ما ورد في القرآن الكريم: ﴿**وَكَذٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً**﴾[2]، فهي إشارة إلىٰ اعتدال سيرة النبي ﷺ وابتعاده عن كل

---

١. «زند» ما تشعل به النار مثل الكبريت، أو الوسائل القديمة التي كانت توقد منها النار.

٢. سورة البقرة/١٤٢.

افراط وتفريط في كافة الشؤون العبادية والاخلاقية والسياسية والاقتصادية.

ولعل هناك من يتصور أن هناك تضاد بين العبارة «**وحكمه العدل**» وما ورد في الحديث الشريف عن النبي ﷺ أنّه قال: «**إنّما أقضي بينكم بالبينات والإيمان، وبعضكم ألحن بحجته من بعض؛ فأيما رجل قطعته من مال أخيه شيئا، فانما قطعت له به قطعة من النار**».[1]

وذلك لأنّ النبي ﷺ قد يحكم بخلاف الواقع علىٰ ضوء مفهوم هذا الحديث. إلّا أنّ الجواب علىٰ هذا الإشكال يبدو واضحاً، وهو أنّ النبي ﷺ لم يستعن في إصداره للأحكام علىٰ الوحي والغيب، وإنّما يصدر أحكامه دائماً علىٰ ضوء الأدلة والمدارك المتعارفة الموجودة، وهذا بحد ذاته عين العدالة، في أن يستند القاضي إلىٰ المدارك الموجودة في إصداره للأحكام والقضاء، فاذاكان هناك من يضعف عن بيان الحق، أو لا يستطيع أن يقدم المدارك المطلوبة فيتعرض إلىٰ نوع من الاجحاف فانّ ذلك لا يخدش البتة في عدالة القاضي، ولو كان غير ذلك لما أمكن تسميته عادلاً.

ثم اختتم الإمام عليه السلام كلامه بالاشارة إلىٰ الظروف الصعبة والملابسات التي رافقت ظهور النبي ﷺ ليكشف النقاب عن عظمة دعوة النبي ﷺ والجهود الجبارة التي بذلها في هذا الشأن، فقد بعثه الله بعد مدة طويلة من الرسل (ومن هنا) ابتعد الناس عن العمل الصالح وعاشوا الانحراف، وساروا نحو الجهل والظلام: «**أرسله على حين فترة من الرسل، وهفوة[2] عن العمل، وغباوة[3] من الأمم**» وتتضح حقيقة هذه العبارات من خلال التأريخ البشري إبان ظهور الدعوةالإسلامية، ولاسيا أوضاع عرب الجاهلية.[4]

ومن الطبيعي أن تكون وظيفة أولياء الله والمصلحين الربانيين ودعاة العدل والحق والاخلاق والفضيلة أصعب وأعقد كلما كانت الظروف السائدة قاسية تدعو إلىٰ الجهل والبلادة والفساد والانحراف، ومن هنا نكتشف عظمة النبي ﷺ وعظم جهوده في تغيير ذلك المجتمع.

---

١. وسائل الشيعة ١٦٩/١٨ ح ١.
٢. «هفوة» من مادة «هفو» الزلل.
٣. «غباوة» من الغباء وعدم الفهم.
٤. راجع شرح الخطبة الاولىٰ ٢٢٨/١.

تأمّلان

١ ـ منزلة النبيﷺ لدىٰ الآخرين

لايقتصر ماورد في هذه الخطبة من صفات عاليات وكرامات شامخات للنبيﷺ علىٰ عليعليه السلام واتباعه، بل اننا لنرىٰ حتى كبار الشخصيات الغربية من غير المسلمين ليقفون وقفة إجلال وإكبار لنبي الإسلامﷺ.

فهذا الفيلسوف والكاتب الانجليزي برناردشو يقول: إنّ دين محمد هو الدين الوحيد الذي يلوح لي أنّه حائز علىٰ أهلية الهضم لأطوار الحياة المختلفة بحيث يستطيع أن يكون جاذباً لكل جيل.... أنّ محمداً يجب أن يدعى منقذ الإنسانية، وأعتقد أنّه لو تولى رجل مثله زعامة العالم الحديث لنجح في حل مشاكله بطريقة تجلب إلىٰ العالم السعادة والسلام، أنّ محمداً أكمل البشر من السابقين والحاضرين، ولا يتصور وجود مثله في الآتين.[١]

٢ ـ أسرة النبيﷺ

لم يقتصر الحديث عن شرف نسب النبيﷺ وعظمة طائفته وأُسرته على ماورد في كلام أميرالمومنين عليعليه السلام في هذه الخطبة، بل تظافرت أحاديث النبيﷺ في مصادر الفريقين بهذا الشأن. ومن ذلك أنّهﷺ قال: «**إن جبرائيلعليه السلام قال لي: يا محمد! قد طفت الأرض شرقاً وغرباً، فلم أجد فيها أكرم منك، ولا بيتاً أكرم من بني هاشم**»[٢]. وجاء في حديث آخر: «**سادة أهل المحشر سادة أهل الدنيا: أنا وعلي وحسن وحسين وحمزة وجعفر**»[٣]. وورد في الحديث أيضاً: «**أنّه لايبغض أحد أهلي إلّا حرمه الله الجنّة**»[٤]. وروي عن عائشة أنّ رسول اللهﷺ قال: «**قال لي جبرائيل: يا محمد! طفت شرق الأرض وغربها فلم أر أكرم من بني هاشم**»[٥]، وجاء في صحيح مسلم ـ وهو من المصادر المشهورة لدىٰ العامة ـ في بحث

١. محمد جواد مغنية، في ظلال نهج البلاغة ٦٣/١.
٢. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٦٣/٧.
٣. شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد ٦٣/٧.
٤. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٦٤/٧.
٥. ورد الحديث في عمدة ابن بطريق /٢٧٣؛ فضائل الصحابة لأحمد بن حنبل ٦٢٨/٢.

فضائل الصحابة في قضية الغدير أن النبيﷺ قال في خطبته ثلاثا: «**اذكركم الله في أهل بيتي**»[١].

والطريف في الأمر أنّ الإمام الحافظ أبوالعباس أحمد بن عمر بن ابراهيم القرطبي ـ من مشاهير علماء العامة ـ صرح في كتابه المفهم الذي شرح فيه صحيح مسلم حين بلغ هذا الحديث قائلاً: من العجب أن يخالف بني أمية أهل بيت النبيﷺ ويضيعوا حقهم رغم وصايا النبيﷺ بهم، حتى أراقوا دمائهم وسبوا نسائهم واخربوا بيوتهم وسنوا لعنهم. فويل لهم يوم القيامة.[٢]

والأعجب من ذلك دفاع البعض عن معاوية رغم فضائح بني أمية ومدىٰ سعة ظلمهم وجورهم.

على كل حال فانّ شجرة النبيﷺ وفروعها المباركة مصداق واضح للآية ٢٤ و٢٥ من سورة ابراهيم: ﴿**كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ* تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا**﴾.

ونختتم حديثنا هذا بهذه الأبيات الرائعة[٣]:

يا حبذا دوحة في الخلد نابتة ... ما مثلها نبتت في الخلد من شجر
المصطفى أصلها والفرع فاطمة ... ثم اللقاح علي سيد البشر
والهاشميان سبطاه لها ثمر ... والشيعة الورق الملتف بالثمر
هذا مقال رسول الله جاء به ... أهل الرواية في العالي من الخبر

١. صحيح مسلم ١٨٧٣/٤ (كتاب فضائل الصحابة، ح ٣٦).
٢. المفهم ٣٠٤/٦.
٣. منهاج البراعة ١١٠/٧.

القسم الرابع

«اعْمَلُوا رَحِمَكُمُ اللّهُ، عَلَىٰ أَعْلاَمٍ بَيِّنَةٍ، فَالطَّرِيقُ نَهْجٌ يَدْعُو إِلىٰ دَارِ السَّلَامِ، وَأَنْتُمْ فِي دَارِ مُسْتَعْتَبٍ عَلىٰ مَهَلٍ وَفَرَاغٍ، وَالصُّحُفُ مَنْشُورَةٌ، وَالأَقْلاَمُ جَارِيَةٌ، وَالأَبْدَانُ صَحِيحَةٌ، وَالأَلْسُنُ مُطْلَقَةٌ، وَالتَّوْبَةُ مَسْمُوعَةٌ، وَالأَعْمَالُ مَقْبُولَةٌ».

الشرح والتفسير

اعملوا ما استطعتم

خاض الإمام عليه السلام في المقطع الأخير من الخطبة بالنتيجة الأخلاقية والعملية، ليبيّن بعض الأُمور المفيدة والمهمة بعبارات قصيرة، عظيمة المعنى. فقال عليه السلام: «**اعملوا رحمكم الله**»، ثم أشار عليه السلام إلىٰ المسير الذي ينبغي سلوكه في العمل وهو الاستناد إلىٰ الكتاب والسنة «**على أعلام بينة**».

ثم أشار عليه السلام إلىٰ أنّ تشخيص هذا المسير ليس بالشيء الصعب فالسبيل واضح يدعو إلىٰ الأمن والأمان والسعادة الخالدة في الجنّة: «**فالطريق نهج يدعو إلىٰ دار السلام**».

ثم تطرق عليه السلام إلىٰ الفرص الثمينة التي زود بها الإنسان، وغالباً ما يهملها، ليوضحها عليه السلام بثمان عبارات ويكشف جميع جوانبها، أشار في العبارة الاولىٰ إلىٰ أنّكم في دار يمكنكم فيها تلافي ما يفرط منكم: «**وأنتم في دار مستعتب**».[1]

ولديكم الفرصة الكافية والمهلة الوافية للقيام بالصالحات من الأعمال: «**على مهل وفراغ**».

---

١. مستعتب من مادة عتب علىٰ وزن حتم طلب العتبى، أي طلب الرضى من الله بالأعمال النافعة.

وصحيفة الأعمال مفتوحة والقلم مشرع للكتابة: «**والصحف منشورة والاقلام جارية**».

وأنتم في صحة وعافية والسن حاكية: «**والأبدان صحيحة والألسن مطلقة**». ومن ثم: «**والتوبة مسموعة، والأعمال مقبولة**».

فوسائل السعادة وأسبابها متوفرة من جانب، وموانع الطريق يمكن ازالتها من جانب آخر؛ فاذا لم تستثمر هذه الفرص. فانّ الأمر يدعو للآسى والأسف حقاً. ولاسيما ليس هنالك من ضمانة باستمرار هذه الفرض. فلعل جميعها تنتهي بلحظة، فتغلق أبواب التوبة وتختم صحيفة الأعمال، وتتوقف الأقلام عن الكتابة، ويعتل البدن، ويعقد اللسان دون أن يكون هناك أي سبيل إلىٰ الرجعة؛ الأمر الذي حذر منه القرآن أن ليس للندم من جدوى بعد الموت ولا سبيل لسؤال الرجعة: **﴿وَأَنْفِقُوا مِمّا رَزَقْناكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلا أَخَّرْتَنِي إِلىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصّالِحِينَ﴾** فيأتي الجواب: **﴿وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللّهُ نَفْساً إِذا جاءَ أَجَلُها وَاللّهُ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ﴾**.[1]

---

١. سورة المنافقون/١٠ ـ ١١.

الخطبة[1] ٩٥

ومن خطبة له عليه السلام

يقرر فضيلة الرسول الكريم صلى الله عليه وآله

نظرة إلى الخطبة

الهدف من هذه الخطبة ذكر عظمة الإسلام من جانب، وعظمة من حمل رسالته من جانب آخر. وذلك لأن الخطبة اشتملت على مقارنة لاوضاع الناس قبل الإسلام وبعده؛ ويفهم من هذه المقارنة عظمة جهود النبي صلى الله عليه وآله التي استطاعت أن تنهض بذلك المجتمع الجاهلي المنحط وتجعله مجتمعاً راقياً متطوراً.

٭٭٭

١. سند الخطبة: لم يذكر صاحب مصادر نهج البلاغة مصدرا آخر نقل هذه الخطبة، وقال في نقل ابن أبي الحديد اختلاف وهذا دليل على أنّه قرأها في غير نهج البلاغة، لأن الرضي (ره) لم يشر إلى ذلك (مصادر نهج البلاغة ١٨٦/٢).

«بَعَثَهُ وَالنَّاسُ ضُلَّالٌ فِي حَيْرَةٍ، وَحَاطِبُونَ فِي فِتْنَةٍ، قَدِ اسْتَهْوَتْهُمُ الأَهْوَاءُ، وَاسْتَزَلَّتْهُمُ الْكِبْرِيَاءُ، وَاسْتَخَفَّتْهُمُ الْجَاهِلِيَّةُ الْجَهْلَاءُ؛ حَيَارَىٰ فِي زَلْزَالٍ مِنَ الأَمْرِ، وَبَلَاءٍ مِنَ الْجَهْلِ، فَبَالَغَ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيهِ وآلِهِ فِي النَّصِيحَةِ، وَمَضَىٰ عَلَىٰ الطَّرِيقَةِ، وَدَعَا إِلَىٰ الْحِكْمَةِ، وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ».

الشرح والتفسير

النور الذي كشف الظلمة

خاض الإمامعليه السلام كراراً في خطبه في نهج البلاغة بشأن أوضاع الجاهلية التي كانت عليها العرب، حيث رسم صورة واضحة عن دقائق تلك الفترة، ليلتفت الناس في عصر الإمامعليه السلام ممن لم يدرك ذلك العهد إلىٰ عظمة الدعوة الإسلامية، وليعلموا حجم التغيير الذي حدث في المجتمع، فيتعرفوا أكثر علىٰ منزلة النبيصلى الله عليه وآله وعظم قدره؛ وذلك لأن مثل هذا العمل الجبار إنّما يتطلب إرادة حديدية وعزماً راسخاً وتدبيراً عالياً وبرامج وخطط واضحة، جمعت كلها في شخص النبيصلى الله عليه وآله. فقد بين الإمامعليه السلام وضع العصر الجاهلي بسبع عبارات، أشار في العبارة الاولىٰ والثانية إلىٰ أنّ الله بعث النبيصلى الله عليه وآله حين كان الناس يعيشون الحيرة والضلال ويسبحون في بحر من الفتن: **«بعثه والناس ضلال في حيرة، وحاطبون في فتنة»**.

لا شك أن الإنسان يمكنه أن ينقذ نفسه من الضلالة ما لم تكن مقرونة بالحيرة والتخبط كالذي ضل الطريق ثم اكتشفه من خلال بعض القرائن والعلامات؛ إلّا أنّ المشكلة تبدو معقدة إذا اقترنت الضلالة بالحيرة، وهذا هو الوضع الذي كان عليه الناس في الجاهلية. والحاطب تطلق علىٰ من يجمع الحطب. فالناس في عصر الجاهلية وفي ذات الوقت الذي يعيشون فيه الفتن، كان يزيدون من حطب نيران هذه الفتن.

ثم قالعليه السلام في العبارة الثالثة والرابعة: **«قد استهوتهم الأهواء، واستتنزلتهم الكبرياء»**.

فمن البديهي أن تقود الأهواء المجتمع إلىٰ مستنقع الضلالة، فاذا رافقها العجب والخيلاء لسقط في ذلك المستنقع.

ثم قال عليه السلام: «**واستخفتهم الجاهلية الجهلاء، حيارى في زلزال من الأمر، وبلاء من الجهل**».

وهكذا يتجسم بؤس هؤلاء القوم وشقائهم في الجهل والضلال والأهواء والافتتان والتكبر؛ الرذائل التي تكفي كل واحدة منها في سقوط المجتمع، فضلاعن جمعها مع بعضها فيه. ومن هنا يتبيّن مدى حجم مشاكل عصر الجاهلية وتعقيدها وتهديدها للمجتمع، كما يتضح علىٰ سبيل اليقين أنّ من يتغلب عليها، إنّما استند إلىٰ التأييد الإلهي والغيب والامداد.

ثم أشار عليه السلام في آخر الخطبة إلىٰ جهود النبي صلى الله عليه وآله ومدى نصحه للقوم بذلك الأُسلوب الروحي الذي يستند إلىٰ الوحي السماوي حتى نفذ إلىٰ القلوب: «**فبالغ في النصيحة، ومضى على الطريقة، ودعا إلىٰ الحكمة والموعظة الحسنة**».

فالواقع أن عناصر تقدم البعثة النبوية والتطور الذي أحرزه النبي صلى الله عليه وآله على صعيد الرسالة إنّما يكمن في أربع: الأول: النصح وإرادة الخير، بحيث أيقن الناس أنّه يسعى جاهداً من أجل نجاتهم. الثاني: كان ممن قرن القول بالعمل، فيأتمر بما يأمر وينتهي عما ينهى.

الثالث: قد دعا اولئك الناس الذين أصيبوا بالجهل والخرافة والحيرة والضلال إلىٰ العلم والمعرفة. وأخيراً كان يدعوا إلىٰ ربّه بالحكمة والموعظة الحسنة والكلمات الرقيقة التي تخترق القلوب.

وقد ذكر البعض من شرّاح نهج البلاغة تفسيراً آخر للعبارتين الآخيرتين، وهو أنّ النبي صلى الله عليه وآله كان يدعو الناس إلىٰ الله بالحكمة والموعظة الحسنة، كما ورد ذلك في الآية الشريفة: ﴿**أُدْعُ إِلىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالحِكْمَةِ وَالمَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ**﴾[1][2].

إلّا أنّ التفسير الأول يبدو أنسب من خلال الالتفات إلىٰ العبارات السابقة التي اعتبر

---

١. سورة النحل/١٢٥.

٢. بحسب هذا التفسير فان «إلى» جاءت بمعنىٰ «به»، أو أن الذي يأتي بعد «إلى» يجب ان يكون مقدراً، «إلى ربه بالحكمة».

الإمام عليه السلام عامل بؤسهم يكمن في: «**الجاهلية الجهلاء**» و«**بلاء من الجهل**».

على كل حال فانّ ماورد في هذه الخطبة بشأن الأوضاع المأساوية والظروف الشائكة والفضائع التي سادت العصر الجاهلي، تدعو الإنسان إلىٰ التفكير والتأمل، حيث يمكنه الوقوف علىٰ عمق هذه المسألة من خلال الرجوع إلىٰ التواريخ والروايات والأخبار التي تناولت تلك الفترة، فهناك المصادر الكافية التي أشارت إلىٰ هذا الأمر. ولما كانت مقارنة تلك الاوضاع والظروف بما حدث بعد انبثاق الدعوة الإسلامية ونهوض رسول الله صلى الله عليه وآله بالأمر والتي تعدّ من معاجز التأريخ الإسلامي، يبدو من الضروري تسليط الضوء أكثر على هذا الموضوع ودراسته من قبل الجميع، ولا سيما من قبل شريحة الشباب.

هذا وقد قدمنا شرحاً مفصلاً بهذا الشأن في الخطبة الاولىٰ من المجلد الأول، والخطبة ٣٦ و٣٣ من المجلد الثاني، ولا نرىٰ هنا من ضوررة للتكرار، إلّا أنا نوصي القراء الأعزاء بالرجوع مرة أُخرى إلىٰ هذه الخطب.

الخطبة[1] ٩٦

ومن خطبة له ﷺ

في الله وفي الرسول الأكرم ﷺ

نظرة إلىٰ الخطبة

بحث الإمام ﷺ بصورة رئيسية في هذه الخطبة أمرين:

الأول: إشارة إلىٰ بعض أسماء الله الحسنى والثناء عليه بها.

الثاني: بيان بعض مناقب النبي الأكرم ﷺ وفضائله، إلىٰ جانب الحديث عن نسبه الشريف ومن ثم نهضته الباسلة التي قبرت الفتنة وأطفأت نيران الأحقاد وحصدت الضغائن من القلوب.

---

١. سند الخطبة: لم نعثر علىٰ سند لهذه الخطبة سوى أنّها وردت في نهج البلاغة.

القسم الأول

«الْحَمْدُاللّهِ الأَوَّلِ فَلَاشَيْءَ قَبْلَهُ، وَالآخِرِ فَلَاشَيْءَ بَعْدَهُ، وَالظَّاهِرِ فَلَاشَيْءَ فَوْقَهُ، وَالْبَاطِنِ فَلَاشَيْءَ دُونَهُ».

الشرح والتفسير

الأول والآخر

كما ذكر سابقاً فانّ الإمام عليه السلام أشار في هذا المقطع من الخطبة إلىٰ بعض صفات الله وأسمائه الحسنىٰ، وقدركز علىٰ كونه أول وآخر وظاهر وباطن، فحمد الله وأثنى عليه في أنّه أول الوجود الذي لم يسبقه شيء، والآخر الذين لاشيء بعده: **«الحمد الله الأول فلاشيء قبله، والآخر فلا شيء بعده»**.

وهو الظاهر الذي لايوجد أظهر منه، والباطن الذي لايوجد أخفى منه: **«والظاهر فلاشيء فوقه، والباطن فلا شيء دونه»**.

فأولية وآخرية الحق سبحانه وتعالى تعني أزلية الذات المطهرة و أبديتها؛ لأن أوليته لا تعني الابتداء الزماني، حيث لو كان الأمر كذلك لحصر في دائرة الزمان، كما ليس كذلك من حيث المكان، لأنّه لو كان كذلك لحد بدائرة المكان، بل أوليته تعني أن ذاته الأزلية القدسية مصدر جميع الوجودات، وقد نشأت منها كافة الموجودات. وهكذا تكون آخريته منزهة عن الأُخروية الزمانية والمكانية، والمراد منها أنّ ذاته سبحانه أبدية، وبقاء الموجودات متوقف علىٰ بقائه، ومن ثم بقائه حين فناء كل شيء: **﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْها فانٍ * وَيَبْقىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الجَلالِ وَالإِكْرامِ﴾**[1].

---

١. سورة الرحمن/٢٦ ـ ٢٧.

وزبدة الكلام فهو أول عالم الوجود وهو الباقي بعد فناء العالم.

أمّا وصفه بالظاهر والباطن فهو تعبير عن إحاطته المطلقة بجميع الأشياء، فهو أظهر من كل شيء، لأنّ آثاره ملأت أركان كل شيء وغص بها العالم، وهو أخفى من كل شيء، لأنّ كنه ذاته ليس بمعروف!

وقد أورد بعض الشرّاح تفاسير أُخرى للظاهر والباطن، منها أنّ المراد بالظاهر الغالب علىٰ كل شيء ولايغلبه شيء، كما قيل المراد بالظاهر أفضليته علىٰ جميع الأشياء؛ لكن علىٰ ضوء هذين التفسيرين لايبدو تفسير مفهوم الباطن بقرينة المقابلة واضحاً مستقيماً، ومن هنا فانّ التفسير الأول أنسب. في أنّه ظاهر جلي من حيث آثاره الوجودية بحيث لايضاهيه شيء؛ فقد ملأت بآثاره الأرض والسماء والنبات والحيوانات والناس والبحار والقفار، مع ذلك فان كنه ذاته علىٰ درجة من الخفاء بحيث لايبلغ أحداً معرفة تلك الذات، فالإنسان متناه وذاته سبحانه ليست متناهية، فانّى للمتناهي أن يحيط باللامتناهي.

فقد ورد في الدعا المعروف للإمام الحسين عليه السلام المعروف بدعاء عرفة: «**متى غبت حتى تحتاج إلىٰ دليل يدل عليك ومتى بعدت حتى تكون الآثار هى التي توصل إليك، عميت عين لاتراك عليها رقيباً**».

القسم الثاني

ومنها: في ذكر الرسول ﷺ

«مُسْتَقَرُّهُ خَيْرُ مُسْتَقَرٍّ، وَمَنْبِتُهُ أَشْرَفُ مَنْبِتٍ، فِي مَعَادِنِ الْكَرَامَةِ، وَمَمَاهِدِ السَّلاَمَةِ؛ قَدْ صُرِفَتْ نَحْوَهُ أَفْئِدَةُ الأَبْرَارِ، وَثُنِيَتْ إِلَيْهِ أَزِمَّةُ الأَبْصَارِ، دَفَنَ اللّهُ بِهِ الضَّغَائِنَ، وَأَطْفَأَ بِهِ الثَّوَائِرَ، أَلَّفَ بِهِ إِخْوَاناً، وَفَرَّقَ بِهِ أَقْرَاناً، أَعَزَّ بِهِ الذِّلَّةَ، وَأَذَلَّ بِهِ الْعِزَّةَ، كَلاَمُهُ بَيَانٌ، وَصَمْتُهُ لِسَانٌ».

الشرح والتفسير

كلامه بيان وصمته لسان

بين الإمام ﷺ في هذا الكلام بعض صفات رسول الله ﷺ كل واحدة منها أعمق من سابقتها. وقد انطلق في البداية من جذوره العريقة وموقع ولادته، ليصف مستقره بأنّه خير مستقر ومكان ترعرعه أفضل مكان: **«مستقره خير مستقر، ومنبته أشرف منبت، في معادن الكرامة، ومماهد[1] السلامة»**.

والمراد بالمستقر والمنبت الأرحام المطهرة للامهات والاصلاب الموحدة والمؤمنة للآباء؛ الأمر الذي ورد في زيارة المعصومين ﷺ، ومنها زيارة الإمام الحسين ﷺ المعروفة بزيارة وارث: **«أشهد أنك كنت نورا في الاصلاب الشامخة، والأرحام المطهرة»**.

وقد ورد مثل هذا المعنى في رسول الله ﷺ عنه، حيث روى الفخر الرازي في تفسير الآية

---

١. «مماهد» جمع «ممهد» على وزن مكتب اقتبست في الأصل من «مهد»، ثم اطلقت على كل مكان يستريح فيه الإنسان أو تسكن إليه روحه.

﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّاجِدِينَ﴾[١] أنّه ﷺ قال: «**لم أزل أنقل من أصلاب الطاهرين إلىٰ أرحام الطاهرات**»[٢].

و«**معادن الكرامة**» و«**مماهد السلامة**» تأكيد لهذا المعنى، أو إشارة إلىٰ أنّ آباء النبي ﷺ وأمهاته إضافة إلىٰ الطهر والإيمان، يتحلون بالفضائل الإنسانية والنزاهة من المعايب الأخلاقية.

كما قيل المراد بالمستقر المدينة موضع إقامة النبي ﷺ والمنبت مكة مكان ولادته.

إلّا أنّ التفسير الأول أنسب، ولا سيما بالالتفات إلىٰ العبارة: «**فى معادن الكرامة، ومماهد السلامة**».

ثم خاض ﷺ في خلقه الجذاب ﷺ الذي استقطب القلوب وخطف الأبصار وشدها إليه: «**قد صرفت نحوه أفئدة الأبرار، وثنيت**[٣] **إليه أزمة الأبصار**».

حقاً كان رسول الله ﷺ كذلك فقد استطاع بخلقه وتواضعه وشفقته وعفوه وصفحه المقرون بشجاعته وشهامته أن يستقطب إليه القلوب كما استطاع أن يشد إليه الأبصار بجهوده المضنية في سبيل هداية الأُمّة والأخذ بيدها إلىٰ السعادة والصلاح.

ثم أشار ﷺ في هذه المرحلة إلى بعض الأنشطة الاجتماعية للنبي الأكرم ﷺ ومنها ازالة الاضغان الاحقاد، وأطفا به نيران الفتن والعدوان: «**دفن الله به الضغائن**[٤]**، وأطفأ به الثوائر**[٥]».

أضف إلىٰ ذلك فقد ألف به القلوب وآخى به الناس، كما فرق البعض بسبب التعارض بين الإيمان والكفر: «**ألف به إخوانا، وفرق به أقرانا**»، كما صرح بذلك القرآن الكريم في الآية ٦٢ و٦٣ من سورة الانفال: **﴿هُوَ ٱلَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ * وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾**،

---

١. سورة الشعراء/٢١٩.
٢. تفسير الفخر الرازي ١٧٤/٢٤، كما نقل المرحوم العلّامة الأميني عدة روايات بهذا الشأن في بحارالانوار ٣/١٥.
٣. «ثنيت» من مادة «ثني» بمعنى الاعادة ووردت هنا بمعنى الانتباه.
٤. «ضغائن» جمع «ضغينة» البغض والعداء.
٥. «ثوائر» جمع «ثائرة» الفتنة والعداء.

وقال في الآية ١٠٣ من سورة آل عمران **﴿وَٱعْتَصِمُوا بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا وَٱذكُرُوا نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذ كُنْتُمْ أَعْداءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْواناً﴾**.

ثم أشارعليه السلام إلىٰ لطف آخرمن الألطاف الإلهية ببركة وجود النبيﷺ: «**أعز به الذلة، وأذل به العزة**».

فقد أعز الله ببركة نبيهﷺ تلك الثلة المؤمنة التي وقعت في مخالب الكفر، وفوض اليهم إرادة شؤون المجتمع الإسلامي، وأقصى تلك العناصر الفاسدة عن الساحة، ثم اختتم كلامهعليه السلام بالاشارة إلىٰ أبرز صفاتهﷺ: «**كلامه بيان، وصمته لسان**».

فاذا نطقﷺ تفتق لسانه باسرار الحكمة وبيان حقائق الوحي، وكشف النقاب عن سبيل النجاة، ومهوى الردىٰ ومستنقع السقوط، وأن سكت وصمت، فكان سكوته يختزن المعنى والمفهوم ولم يكن صمتاً طبيعياً.

نعم كان سكوته أحياناً تعبيراً عن انزعاجه وقلقه وعدم رضاه ببعض الأفعال، كما كان يرد بهذا السكوت علىٰ بعض الأسئلة غير الموجهة والخاطئة. وأخيراً كان يستعين بهذا الصمت تجاه سوء ألسنة الجهال. كما لاننسى أن سكوته أحياناً (ومن خلال بعض القرائن الحالية) كان يعني تقرير بعض الأعمال والموافقة عليها).

٭٭٭

الخطبة [1] ٩٧

ومن خطبة له عليه السلام

في اصحابه، واصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله

نظرة إلىٰ الخطبة

قيل في الخطبة أنّها وردت ـ كما ذكر شرّاح نهج البلاغة ـ حين تمرد جيش الكوفة على أوامر الإمام عليه السلام بمجابهة أهل الشام بعد واقعة النهروان، فقد عرض عليه السلام في القسم الأول من هذه الخطبة بالذم لأهل الكوفة وعنّفهم أشد التعنيف أملا في إثارة حميتهم وغيرتهم ليتأهبوا للقاء العدو، بعد إفاقتهم من نوم الغفلة والالتفات إلىٰ مقدراتهم خشية نهبها من قبل الظلمة.

ثم دعاهم في القسم الثاني من الخطبة إلىٰ إقتفاء آثار أهل البيت واتباعهم بفضلهم سبل النجاة، والواقع هو أنّه عليه السلام قد ذكرهم بمضمون ومحتوى حديث الثقلين.

ثم اختتم عليه السلام الخطبة بالمقارنة بين أهل الكوفة وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله، حيث وضح عليه السلام من خلال هذه المقارنة عمق الهوة بين هؤلاء وأصحاب النبي صلى الله عليه وآله من حيث الإيمان والورع والتقوىٰ والعبارة والجهاد والاستقامة والصمود والشجاعة، ومن الواضح أنّ الخطبة بجميع أقسامها إنّما تنشد هدفاً واحداً، وهو تعبئة جيش الكوفة لمواجهة العدو؛ العدو الذي لايأبه بالدين والدنيا ولايقيم وزناً لأي شيء.

---

١. سند الخطبة: ما أورده المرحوم السيد الرضي (ره) في هذه الخطبة جزءا من خطبة طويلة نقلت بصورة متفرقة في عدة مصادر، ومن ذلك في كتاب سليم بن قيس الهلالي والكافي للمرحوم الكليني والإرشاد للمفيد والتذكرة للسبط ابن الجوزي وتاريخ دمشق لابن عساكر والبيان والتبيين للجاحظ (مصادر نهج البلاغة ١٩٢/٢. ونهج البلاغة طبعة جماعة مدرسي الحوزة ذيل الخطبة).

القسم الأول

«وَلَئِنْ أَمْهَلَ الظَّالِمَ فَلَنْ يَفُوتَ أَخْذُهُ، وَهُوَ لَهُ بِالمِرْصَادِ عَلَىٰ مَجَازِ طَرِيقِهِ، وَبِمَوْضِعِ الشَّجَا مِنْ مَسَاغِ رِيقِهِ. أَمَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَيَظْهَرَنَّ هٰؤُلَاءِ الْقَوْمُ عَلَيْكُمْ، لَيْسَ لِأَنَّهُمْ أَوْلَىٰ بِالْحَقِّ مِنْكُمْ، وَلٰكِنْ لِإِسْرَاعِهِمْ إِلَىٰ بَاطِلِ صَاحِبِهِمْ، وَإِبْطَائِكُمْ عَنْ حَقِّي. وَلَقَدْ أَصْبَحَتِ الأُمَمُ تَخَافُ ظُلْمَ رُعَاتِهَا، وَأَصْبَحْتُ أَخَافُ ظُلْمَ رَعِيَّتِي. اسْتَنْفَرْتُكُمْ لِلْجِهَادِ فَلَمْ تَنْفِرُوا، وَأَسْمَعْتُكُمْ فَلَمْ تَسْمَعُوا، وَدَعَوْتُكُمْ سِرّاً وَجَهْراً فَلَمْ تَسْتَجِيبُوا، وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَلَمْ تَقْبَلُوا، أَشُهُودٌ كَغُيَّابٍ، وَعَبِيدٌ كَأَرْبَابٍ! أتلوا عَلَيْكُمُ الْحِكَمَ فَتَنْفِرُونَ مِنْهَا، وَأَعِظُكُمْ بِالْمَوْعِظَةِ الْبَالِغَةِ فَتَتَفَرَّقُونَ عَنْهَا، وَأَحُثُّكُمْ عَلَىٰ جِهَادِ أَهْلِ الْبَغْيِ فَمَا آتِي عَلَىٰ آخِرِ قَوْلِي حَتَّىٰ أَرَاكُمْ مُتَفَرِّقِينَ أَيَادِيَ سَبَا. تَرْجِعُونَ إِلَىٰ مَجَالِسِكُمْ، وَتَتَخَادَعُونَ عَنْ مَوَاعِظِكُمْ، أُقَوِّمُكُمْ غُدْوَةً، وَتَرْجِعُونَ إِلَيَّ عَشِيَّةً، كَظَهْرِ الْحَنِيَّةِ، عَجَزَ الْمُقَوِّمُ، وَأَعْضَلَ الْمُقَوَّمُ».

الشرح والتفسير

عبيد كأرباب

كما أشرنا في السابق ـ نظرة إلى الخطبة ـ إلىٰ أنّ الهدف من هذه الخطبة هو حث أهل العراق لمواجهة معاوية وأهل الشام. فقد استهل الإمام ﷺ خطبته بأنّ إمهال الظالم مدة من الزمان لايعني خلاصه من المؤاخذة والعقاب: **«ولئن أمهل الظالم فلن يفوت أخذه»**.

فقد كمن له سبحانه بالمرصاد، وإذا شاء منعه ابتلاع ريقه: **«وهو له بالمرصاد علىٰ مجاز**

طريقه، وبموضع الشجا[١] **من مساغ**[٢] **ريقه**[٣]» لعل هذه العبارات إشارة إلىٰ معاوية وأهل الشام، حذراً من تسرب الشك والريب إلىٰ قلوب أصحابه بسبب إمهال الله لهم، كما لايشكوا بأحقية الإمام عليه السلام وبطلان معاوية، فالواقع أنّ الإمام عليه السلام رام رافع معنويات جيشه بالفات نظره إلى هذه الحقائق. كما يحتمل أن يكون المراد بالظالم ذلك الجيش المتمرد، فالواقع عبارته تهديد لهم بأنّكم إن أمهلتم عدّة أيام فلايغرنكم ذلك أنّكم ستفلتون من العذاب والمؤاخذة بسبب هذا العصيان والتمرد، ويبدو التفسير الأول أنسب.

على كل حال، هذا هو الأمر الذي أشار إليه القرآن الكريم كراراً بقوله: **﴿وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّما نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّما نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدادُوا إِثْماً وَلَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ﴾**[٤]. وقال في موضع آخر **﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصادِ﴾**[٥].

ولا يصدق هذا الموضوع أو يقتصر علىٰ ظلمة الشام أو مردة العراق فحسب، بل هو درس وعبرة لنا جميعاً، بأنّ المهلة الإلهية لاينبغي أن تقود إلىٰ الغفلة والغرور.

ورد في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام قال: أنّ الله تبارك وتعالى أهبط ملكا إلى الأرض، فلبث فيها دهراً طويلاً، ثم عرج إلى السماء، فقيل له: مارأيت؟ قال: رأيت عجايب كثيرة، وأعجب مارأيت أني رأيت عبدا متقلباً في نعمتك، يأكل رزقك، ويدعي الربوبية، فعجبت من جرئته عليك ومن حلمك عنه. فقال الله جل جلاله: فمن حلمي عجبت؟ قال: نعم.

قال: قد أمهلته أربعمائة سنة لايضرب عليه عرق، ولايريد من الدنيا شيئاً إلّا ناله، ولايتغير عليه فيها مطعم ولا مشرب.[٦]

وبالطبع فانّ كل ذلك اختبار له وللعباد.

ثم تكهن الإمام عليه السلام بمستقبل هؤلاء القوم إزاء عدوهم الطامع قائلاً: «**أمّا والذي نفسي**

---

١. «الشجا» ما يعترض في الحلق من عظم وغيره.
٢. «مساغ» من مادة «سوغ» على وزن فوق العذب
٣. «ريق» ماء الفم.
٤. سورة آل عمران/١٧٨.
٥. سورة الفجر/١٤.
٦. بحار الانوار ٣٨١/٧٠.

بيده، ليظهرن هؤلاء القوم عليكم، ليس لأنهم أولى بالحق منكم، ولكن لاسراعهم إلىٰ باطل صاحبهم، وإبطائكم عن حقي».

فالواقع هو أنّ الإمامﷺ أشار إلىٰ نقطة مهمّة هنا وهى أنّ هؤلاء القوم سيتغلبون عليكم آخر الأمر، ولكن لاتظنوا أنّ هذه الغلبة نابعة من كونهم على الحق.فلا ينبغي أن يعتقد أحد بأنّهم على الحق فيؤدي به ذلك إلى الضلال. قطعاً أنّهم على باطل، إلّا أنّهم راسخون في هذا الباطل عاقدون العزم عليه وهم آذان صاغية لمعاوية؛ أمّا أنتم وإن كنتم على حق، إلّا أنّكم ضعفاء، ليس لكم من عزم أو ارادة، ولا تعيرون زعيمكم اذناً صاغية، فدرجتم على التمرد والعصيان، فاذا جمعت هذه الصفات في شخص أو أمة مهما كانت فسوف لن يكون مصيرها سوىٰ الهزيمة والفشل.

فقد روى أبو مخنف في قصة يوم الحرة: أنّ مسلم بن عقبة ركب فرساً فأخذ يسير في أهل الشام ويحرضهم ويقول: يا أهل الشام أنّكم لستم بأفضل العرب في أحسابها ولا أنسابها، ولا أكثرها عدداً ولا أوسعها بلداً، ولم يخصصكم الله بالذي خصكم به من النصر على أعدائكم، وحسن المنزلة عند أئمتكم إلّا بطاعتكم واستقامتكم.[1]

ثم أشارﷺ إلىٰ نقطة مهمّة بهذا الشأن: «**ولقد أصبحت الأمم تخاف ظلم رعاتها، وأصبحت أخاف ظلم رعيتي**».

فالأمم والشعوب طيلة التأريخ إنّما تشكو ظلم وجور حكوماتها المستبدة الطاغية، بحيث أصبح هذا أمرا طبيعياً، بينما انقلبت هذه المسألة بالنسبة للإمامﷺ فهى على العكس تماماً! لم يكن هناك من يخشى ظلمهﷺ، فلم يكن للظلم والجور من سبيل إلىٰ وجودهﷺ، في حين كان هوﷺ يعيش حالة القلق والاضطراب من غدر أصحابه ومكائدهم وما شاكل ذلك؛ والحق أنّ مثل هؤلاء الأفراد إنّما يبتلون عاقبة الأمر بالطغاة فيذيقوهم أنواع الظلم، وهذا ماحدث بالفعل، ثم تطرقﷺ إلىٰ نقاط ضعف أهل الكوفة والعراق آنذاك فقال: «**استنفرتكم للجهاد فلم تنفروا، واسمعتكم فلم تسمعوا، ودعوتكم سرا وجهرا فلم تستجيبوا، ونصحت لكم فلم تقبلوا**».

---

١. ابو مخنف، طبق نقل شرح نهج البلاغة للمرحوم التستري ١٠/٥٩٦.

والسؤال المطروح: هل كان جيش العراق يشعر بالخطر، إلّا أنّ الضعف والتقاعس يثبطه بعدم مواجهة العدو؟ أم أنّه لم يكن يشعر بخطر من معاوية وأهل الشام؟ الاحتمالان قائمان، إلى جانب الخوف والجبن والجهل والاختلافات القبلية.

انذاك خاطبهم عليه السلام بعبارات عنيفة ـ تثير غيرة من كان له أدنى غيرة ورجولة ـ بغية آثارتهم ودفعهم للنهوض والحركة، فقال عليه السلام: «**أشهود كغياب، وعبيد كأرباب، أتلو عليكم الحكم فتنفرون منها، وأعظكم بالموعظة البالغة فتتفرقون عنها، وأحثكم على جهاد أهل البغي فما آتي على آخر قولي حتى أراكم متفرقين أيادي سبا**».

«**أيادي سبا**» وبعبارة أُخرىٰ «**مثل أيادي سبا**» إشارة إلىٰ مثل معروف بين العرب يضرب للمتفرقين، وقيل أنّ سبأ هو أبو عرب اليمن كان له عشرة أولاد، جعل منهم ستة يميناً له، وأربعة شمالاً تشبيها لهم باليدين، ثم تفرق أُولئك الأولاد أشد التفرق.[1]

على كل حال فانّ عبارات الإمام عليه السلام تفيد أنّه عليه السلام نصحهم بأدنى الأمر بكلمات حكيمة ومواعظ حسنة، وقد بالغ في مداراتهم، وما ورد من كلمات عنيفة وحادة تضمنتها بعض عبارات الخطبة فإنّما كانت عقب تلك الكلمات التي تضمنت الوعظ والنصح، هذا في الوقت الذي كان الطرف الآخر يمتاز بالفضاضة واللجاجة بحيث لا تجعلهم يفيقون من غفلتهم إلّا كلمات الذم والتوبيخ والعتاب.

ثم قال عليه السلام: «**ترجعون إلىٰ مجالسكم، وتتخادعون عن مواعظكم، أقومكم غدوة، وترجعون إلىٰ عشية، كظهر الحنية[2]، عجز المقوم، وأعضل[3] المقوم**».

فالعبارة تنطوي علىٰ نقطة مهمّة وهي كثرة المنافقين آنذاك بين أهل العراق، وكانوا يسعون للالتفاف على كلام الإمام عليه السلام، فكانوا يتأثرون بأخلاق الإمام عليه السلام ومواعظه حين يأتوه، ويقتنعون بضرورة الاستعداد والتأهب لقتال العدو، فاذا رجعوا إلىٰ مجالسهم الخاصة والعامة نفثوا سمومهم الشيطانية وشوشوا الأفكار وسعوا لاضعاف الارادات وتصديع عرىٰ الاتحاد والاخوة وبث بذور الشقاق والفرقة.

---

١. «أيادي» جمع «أيدي» وهذه الاخيرة جمع يد، كما تستعمل الأيادي في معاني أُخرىٰ.

٢. «الحنية» بمعنىٰ القوس وذلك بسبب انحنائه.

٣. «أعضل» من مادة «الاعضال» بمعنىٰ الشدة والتعقيد.

قال نافع بن كليب: دخلت الكوفة للتسليم على علي‌ؑ فاني لجالس تحت منبره وعليه عمامة سوداء ـ إلى أن قال ـ ثم نزل تدمع عيناه فقال (إنالله وإنا إليه راجعون) أقومهم والله غدوة ويرجعون إلى عشية مثل ظهر الحنية، حتى متى وإلىٰ متى[1]؟

٭٭٭

١. العقد الفريد، ج ٤، ص ١٦٢ (مطابق نقل شرح نهج البلاغة للتستري).

القسم الثاني

«أَيُّهَا الْقَوْمُ الشَّاهِدَةُ أَبْدَانُهُمْ، الْغَائِبَةُ عَنْهُمْ عُقُولُهُمْ، الْمُخْتَلِفَةُ أَهْوَاؤُهُمْ، الْمُبْتَلَىٰ بِهِمْ أُمَرَاؤُهُمْ. صَاحِبُكُمْ يُطِيعُ اللّه وَأَنْتُمْ تَعْصُونَهُ، وَصَاحِبُ أَهْلِ الشَّامِ يَعْصِي اللّهَ وَهُمْ يُطِيعُونَهُ. لَوَدِدْتُ وَاللّهِ أَنَّ مُعَاوِيَةَ صَارَفَنِي بِكُمْ صَرْفَ الدِّينَارِ بِالدِّرْهَمِ، فَأَخَذَ مِنِّي عَشَرَةً مِنْكُمْ وَأَعْطَانِي رَجُلاً مِنْهُمْ!».

الشرح والتفسير

شهود الابدان وغياب العقول

شدد الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبة من تقريعه وصب جام غضبه على أولئك القوم، على أمل انبثاق حركة في خضم سكونهم المدهش وإرادتهم الخاوية، ليهبوا قبل بروز الخطر فقال عليه السلام: **«أيّها القوم الشاهدة أبدانهم، الغائبة عنهم عقولهم، المختلفة أهواؤهم، المبتلى بهم أمراؤهم»**.

فقد ركز الإمام عليه السلام في هذه العبارة علىٰ ثلاث نقاط ضعف: الاولى: غياب العقول، وكأنّ عقولهم فارقت أبدانهم فأصبح وجودهم كبلد ليس له من مدير ومدبر. الثانية: عدم وجود عرىٰ التواصل بينهم أبداً، حيث لكل منهم طلباته على ضوء اهوائهم وعقولهم القاصرة. وبالبداهة سوف لن تتمكن محل هذه الفئة من حل مشالكها، فضلاً عن مشاكل الآخرين.

الثالثة: نقطة ضعفهم تكمن في اضطرار زعمائهم للتاقلم معهم. وقد أدت بهم هذه الصفات إلىٰ الخنواء في ميدان قتال العدو، ثم قال عليه السلام: **«صاحبكم يطيع الله وأنتم تعصونه، وصاحب أهل الشام يعصي الله وهم يطيعونه»**.

ياللعجب! فمن أطاع الله أحق بان يطاع، ومن عصاه لابدّ من معصيته والوقوف بوجهه، بينما انعكست القضية هنا؛ فقد عومل مطيع الله بالجفاء، وعاصيه بالحب والاحترام!!

ثم تطالعنا عبارة لامثيل لها في نهج البلاغة، حيث قال‌عليه السلام: «**لوددت والله أن معاوية صارفني بكم صرف الدينار بالدرهم، فأخذ مني عشرة منكم، وأعطاني رجلاً منهم**»، فالتأكيدات المتعددة في هذه العبارة تفيد جدية الإمام‌عليه السلام دون أدنى مبالغة، وكأنّ أهل الشام بمنزلة سكة ذهبية وأهل العراق فضية. كما تفيد العبارة مدى انضباط أهل الشام آنذاك حيث وقفوا بكل صلابة خلف معاوية رغم خداعه لهم؛ بينما لم يكن هناك أدنى انضباط لأهل العراق فلم يكن قيمة عشرة منهم تعدل قيمة واحد من أهل الشام!

❀

القسم الثالث

«يَا أَهْلَ الْكُوفَةِ، مُنِيتُ مِنْكُمْ بِثَلَاثٍ وَاثْنَتَيْنِ: صُمٌّ ذَوُو أَسْمَاعٍ، وَبُكْمٌ ذَوُو كَلَامٍ، وَعُمْيٌ ذَوُو أَبْصَارٍ، لَا أَحْرَارُ صِدْقٍ عِنْدَ اللِّقَاءِ، وَلَا إِخْوَانُ ثِقَةٍ عِنْدَ الْبَلَاءِ! تَرِبَتْ أَيْدِيكُمْ! يَا أَشْبَاهَ الإِبِلِ غَابَ عَنْهَا رُعَاتُهَا! كُلَّمَا جُمِعَتْ مِنْ جَانِبٍ تَفَرَّقَتْ مِنْ آخَرَ، وَاللّهِ لَكَأَنِّي بِكُمْ فِيمَا إِخَالُكُمْ: أَنْ لَوْ حَمِسَ الْوَغَىٰ، وَحَمِيَ الضِّرَابُ، قَدِ انْفَرَجْتُمْ عَنِ ابْنِ أَبِي طَالِبٍ انفراج الْمَرْأَةِ عَنْ قُبُلِهَا. وَإِنِّي لَعَلَىٰ بَيِّنَة مِنْ رَبِّي، وَمِنْهَاجٍ مِنْ نَبِيِّي، وَإِنِّى لَعَلَىٰ الطَّرِيقِ الْوَاضِحِ أَلْقُطُهُ لَقْطاً».

ﮩ ﮪ

الشرح والتفسير

العمل بالتكليف

صعد الإمام عليه السلام هنا من حدة كلامه وامطار أرواح القوم بوابل تقريعه ولومه، مع بيان نقاط ضعفهم، علهم يفيقون من غفلتهم ويجدوا في اصلاح أنفسهم، فقال عليه السلام: «**يا أهل الكوفة منيت منكم بثلاث واثنتين صم ذوو أسماع، و بكم ذوو كلام، وعمي ذوو أبصار**».

فالإمام عليه السلام يشير إلىٰ عجزهم عن مشاهدة الأحداث والافتقار إلىٰ تحليلها الصحيح وعدم السعي للعثور على الحلول، فقد قبعوا في مخادعهم ينتظرون العدو الذي لا يأبه بشييء، دون أن تتحرك لهم قصبة، أو يسمعوا رعيده ووعيده فيستعدوا لمجابهته.

إلىٰ جانب ذلك فهناك خصلتان لم تكن فيهم «**لا أحرار صدق عند اللقاء، ولا إخوان ثقة عند البلاء**».

لا شك أنّ الحياة مليئة بالأحداث الساخنة والطبيعية: فأحياناً الحرب والقتال والأُخرى

الصلح والسلام، وتارة الراحة والأمان وأُخرى التعب والبلاء. والأصدقاء الأوفياء والاخوة الثقاة لايعرفون عند الراحة والاستقرار، وميدان معرفتهم إنّما يكمن في الصعوبات والمعضلات والنزاعات والبلايا والأحداث الأليمة، وممّا يؤسف له أهل الكوفة لم ينجحوا آنذاك في الامتحان، وقد كشفوا مراراً عن غدرهم وضعفهم وعدم صمودهم وثباتهم.

ومن هنا دعا عليهم الإمامعليه السلام في العبارات القادمة، ثم اختتم كلامه بتشبيهين رائعين لاوضاعهم النفسية فقال: «**تربت**[1] **أيديكم**»، ثم اتبعها بالقول: «**يا أشباه الابل غاب عنها رعاتها**».

فالتشبيه تعبير واضح عن جهل القوم وعدم انضباطهم. فقد شبههم في البداية بالحيوانات ومن ثم بعدم وجود الراعي النافذ الكلام.

ثم قالعليه السلام بعد أن أقسم أنّهم لو حمي الوطيس ونشبت الحرب لتركوا الإمامعليه السلام وحده في الساحة وانفرجوا عنه انفراج المرأة عن وليدها حين وضعها لحملها: «**والله لكأني بكم فيما إخالكم: أن لو حمس**[2] **الوغى**[3]**، وحمي**[4] **الضراب، قد انفرجتم عن ابن أبي طالب انفراج المرأة عن قبلها**».

هذا وقد ذكرت عدة تفاسير للعبارة «**انفرجتم...**» إلّا أن ما أوردناه سابقا هو الأنسب لمقام أميرالمؤمنين عليعليه السلام إلىٰ جانب رعاية الفصاحة والتناسب في مقام التشبيه. فالمرأة حين الوضع ترجو أن تضع حملها كل لحظة لما تعانيه من الأم وأوجاع، والإمامعليه السلام شبه أهل الكوفة بهذه المرأة التي تعد اللحظات أملا في وضع الحمل، فكانوا يعيشون حالة من الجزع في ميدان القتال بحيث ينتظرون بفارغ الصبر الفرصة المؤاتية للهروب من ساحة المعركة، وهو الهروب الذي لاعودة فيه، كالوليد الذي ينسلخ عن رحم أمه فلا يعود إليه. وللإمامعليه السلام تشبيه رائع

---

١. «تربت» من مادة «تراب»، تستعمل في الخسارة والفقر، وكأنّ الفقير قد صرع وخالط التراب يده.

٢. «حمس» بالفتح من مادة «حمس» علىٰ وزن قفص بمعنى الشدة و«الحماسة» و«التحمس» يعني التشديد ولا سيما في المعركة.

٣. «وغى» يعني في الأصل اصوات المقاتلين في المعركة، كما تطلق على نفس المعركة، وقد وردت عنا بهذا المعنى.

٤. «حمي» من مادة «حمى» على وزن سعي شدة الحرارة، و«الضراب» بمعنى الاشتباك والمناوشة والقتال.

بهذا الشأن ورد في الخطبة ٣٤ حيث قالﷺ: «**وأيم الله إنّي لأظن بكم أن لوحمس الوغى، واستحر الموت، قد انفرجتم عن إبن أبي طالب انفراج الرأس**».

وفي الختام يكشف عن موقفه في هذه الأحداث فقالﷺ: «**وإنّي لعلى بينة من ربّي، ومنهاج من نبيي، وإني لعلى الطريق الواضح ألقطه لقطا**[١]». فمن الطبيعي أن لايكون هناك من شعور بالفشل أو الهزيمة لمن انطلق في حركته علىٰ هدي من الله ونور من رسولهﷺ، ولايرىٰ في كل ما يحدث سوىٰ الغلبة والنصر وأداء التكليف والوظيفة. والعبارة «**ألقطه لقطا**» تعني جمع الأشياء من نقاط مختلفة، الأمر الذي يحتاج إلىٰ الدقة والفطنة، ومراد الإمامﷺ من هذه العبارة أنّي أجد في الاختيار من أجل التقدم في مسار الحق وانتخب أفضل السبل من أجل بلوغ الهدف.

تأمّل

مقارنة بين أهل العراق والشام

لقد أورد الإمامﷺ عبارة عجيبة في إطار مقارنته بين أهل العراق والشام لم يرمثيلها حيث قال: لوددت والله أنّ معاوية صرفني بكم صرف الدينار بالدرهم، فأخذ مني عشرة منكم وأعطاني رجلا منهم. والحال كان ينبغي أن تكون القضية معكوسة، فقد عقد القرآن الكريم مثل هذه المقارنة بين المؤمنين والكفار فقال: ﴿**إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ**﴾[٢]، ترى لم انقلب هذا المعيار القرآني بشأن أهل العراق والشام؟

يبدو أنّ التحليلات الدقيقة من شأنها ايقافنا علىٰ ماورد في كلام أميرالمؤمنينﷺ بهذا الشأن.

فالكوفة منطقة حربية حديثة، وأنّ أهلها الذين كانوا يمثلون القسم الأعظم من جيش الإمامﷺ قد قدموا هناك من عدّة مناطق وهم ينحدرون من مختلف القبائل بحيث لم يكن يسودهم الانسجام والانضباط المطلوب. فكان لكل واحد منهم أهدافه وطموحاته

١. «لقط» أخذ الشيء من الأرض، وتطلق «القطة» على الأشياء المفقودة، لأنّها عادة ماتلتقط من الأرض.
٢. سورة الانفال/٦٥.

وطروحاته الفكرية، بينما كانوا أهل الشام كتلة واحدة عاشت هناك ليتحلوا بكافة عناصر الوحدة والانسجام ووحدة الفكر والثقافة. هذا أولاً.

وثانياً: كان في جيش الإمام‌ﷺ من قدم بغية الحصول على الغنائم، فان كانت هناك غنيمة سارعوا لميادين القتال، بينما يقبعون في بيوتهم حيث التضحية والفداء والشهادة.

ثالثاً: كان أهل الشام ينظرون إلىٰ منطقتهم كوطن لابدّ من الدفاع عنه والذود عن حياضه، بينما كان لأغلب أهل الكوفة وطن آخر خارج الكوفة، وكلما ضاقت عليهم السبل في الكوفة عادوا إلىٰ أوطانهم.

أضف إلىٰ ذلك فانّ ضعف إرادتهم وسرعة خداعهم وانفعالهم بالأعيب العدو، ومن ذلك خديعتهم في صفين، وعدم معرفتهم بمقام الإمام‌ﷺ ومنزلته، والاغماض عن الحوادث المستقبلية، كل هذه الأُمور كانت تفعل فعلها فيهم في ميدان القتال.

ومن هنا كانوا يختلقون مختلف الذرائع للهروب من ساحة الحرب، ولايتوانون في اغتنام أية فرصة تسنح لهم من أجل الفرار، منهم يتذرعون تارة بحرارة الجو، وأُخرىٰ ببرودته والحال يصرخ فيهم الإمام‌ﷺ: «**فاذا كنتم من الحر والقر تفرون، فأنتم والله من السيف أفر**».[1]

وكأنّ القتال لابدّ أن ينشب في فصل الربيع؛ علىٰ ظلال الأشجار وسط الحقول الخضراء والمياه المتدفقة وتغريد العصافير والطيور.

العنصر الآخر الذي أدىٰ إلىٰ ضعف جيش الكوفة وعدم تحليه بالانضباط هو أنّ أشرافهم كانوا مرفهين على عهد عثمان، حيث كان يقسم أموال بيت المال دون حساب بين الناس، وكانت الحصة العظيمة تمنح للزعماء والاشراف والبطانة والأقرباء. فلما تسلم الإمام‌ﷺ زمام الأُمور تغيرت الأوضاع ليعيشوا مرارة العدالة بعد أن أنسوا بالظالم والجور، ومن هنا كانوا لا ينفكون عن الشكوى، هذا من جانب ومن جانب آخر فانّ معاوية كان يسعى جاهداً لتحقيق أهدافه دون الاكتراث لدين الله والقيم الإسلامية والموازين الشرعية،

١. نهج البلاغة، خطبة ٢٧.

فكان يبذل الآف الدنانير لشراء هذا الفرد أو ذاك من أجل ترسيخ دعائم حكومة، فان لم يسعفه ذلك عمد إلىٰ التهديد والارعاب والقتل.

ومن هنا نقف علىٰ عمق حكمة الإمامعليه السلام وبعد أفقه وتدبيره في كيفية تمكنه من زج هؤلاء القوم في الجمل وصفين والنهروان، وإن شهدت هذه الوقائع بعض الانكسارات بسبب تمرد البعض وعدم طاعتهم لأوامر الإمامعليه السلام.

وهنا نكتشف عمق ماقاله ابن أبي الحديد: إنّ سياسة عليعليه السلام إذا تأملها المنصف متدبراً لها بالاضافة إلىٰ أحواله التي دفع اليها مع أصحابه، جرت مجرىٰ المعجزات، لصعوبة الأمر وتعذره ثم كسر بهم الأعداء، وقتل بهم الرؤوساء، فليس يبلغ أحد في حسن السياسة وصحة التدبير مبلغه[1].

والحق إننا إذا أردنا أن نصدر حكمنا علىٰ سياسة أميرالمؤمنينعليه السلام ونعلن رأينا بهذا الشأن، كان علينا أن نأخذ هذه الأُمور بنظر الاعتبار. وناهيك عن كل ما سبق فانّ الإمامعليه السلام لم يكن ليعتمد أية وسيلة من أجل بلوغ الهدف، حيث يمنعه دينه وعدله وورعه وتقواه عن ذلك.

---

١. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٧/٧٣.

القسم الرابع

«انْظُرُوا أَهْلَ بَيْتِ نَبِيِّكُمْ فَالْزَمُوا سَمْتَهُمْ، وَاتَّبِعُوا أَثَرَهُمْ فَلَنْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ هُدىً، وَلَنْ يُعِيدُوكُمْ فِي رَدىً، فَإِنْ لَبَدُوا فَالْبُدُوا، وَإِنْ نَهَضُوا فَانْهَضُوا. وَلا تَسْبِقُوهُمْ فَتَضِلُّوا، وَلَا تَتَأَخَّرُوا عَنْهُمْ فَتَهْلِكُوا. لَقَدْ رَأَيْتُ أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللّهُ عَليهِ و آلِهِ، فَمَا أَرَىٰ أَحَداً يُشْبِهُهُمْ مِنْكُمْ! لَقَدْ كَانُوا يُصْبِحُونَ شُعثاً غُبْراً، وَقَدْ بَاتُوا سُجَّداً وَقِيَاماً، يُرَاوِحُونَ بَيْنَ أَعْيُنِهِمْ رُكَبَ الْمِعْزَىٰ مِنَ طُولِ سُجُودِهِمْ! إِذَا ذُكِرَ اللّهُ هَمَلَتْ أَعْيُنُهُمْ حَتَّىٰ تَبُلَّ جُيُوبَهُمْ، وَمَادُوا كَمَا يَمِيدُ الشَّجَرُ يَوْمَ الرِّيحِ الْعَاصِفِ، خَوْفاً مِنَ الْعِقَابِ، وَرَجَاءً لِلثَّوَابِ!».

الشرح والتفسير

صحب النبي ﷺ

أشار الإمام عليه السلام ـ في المقطع الأخير من هذه الخطبة ـ إلىٰ نقطتين مهمتين؛ الأولىٰ: تعريفه بالقادة الذين لايضلون أبداً، بهدف تمسك الأُمّة بهم وعدم الانفراج عنهم والتماس الهداية عن طريقهم بغية الفوز بالفلاح والسعادة ـ والثانية: يتحدث عن صفات أصحاب النبي ﷺ لتكون نموذجاً للاخرين، فيكونوا مصداقاً لمضمون الآية الشريفة: **﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ﴾**[1]، فيجدوا ويجتهدوا في هذا السبيل ويسعوا لأن يتحلوا بصفاتهم. فقال عليه السلام: «**انظروا أهل بيت نبيكم فالزموا سمتهم، واتبعوا أثرهم، فلن يخرجوكم من هدى، ولن يعيدوكم في ردى**».

فهذا الكلام في الواقع إشارة إلىٰ حديث الثقلين الذي يعتبر من الأحاديث المتواترة والذي

---

١. سورة التوبة/١٠٠.

أوصىٰ بالتمسك بالقرآن وأهل البيت اللذان لن يفترقا حتى يردا الحوض، ولن تضل الامة أبدا إن تمسكت بهما.

ومن الواضح طبعاً أنّ المراد بأهل البيت، هم أئمة العصمة عليهم السلام الذين قال فيهم الحق سبحانه وتعالىٰ: ﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً**﴾[1].

ثم أمرهم عليه السلام بالحركة خلفهم أن تحركوا ونهضوا، والقعود أن جلسوا وصمتوا: «**فان لبدوا فالبدوا**[2]، **وإن نهضوا فانهضوا**».

فالحق أن الشرائط والظروف الزمانية والمكانية في تغير مستمر؛ فان كانت الظروف تقتضي القيام والنهضة وخوض غمار الجهاد، فان السكوت يقود قطعاً إلى البؤس والشقاء، وان كانت الظروف لاتسمح بالقيام، فانّ النهضة لاتنطوي سوىٰ علىٰ الخيبة والخسران وهدر الطاقات. وأئمّة العصمة من أهل البيت عليهم السلام أعلم من غيرهم بهذه الظروف والشرائط وينطلقون في حركتهم وسكونهم من خلالها، وعليه فعدم الاقتداء بهذا الأُسلوب إنّما يؤدي إلىٰ الخسران.

ومن هنا قال عليه السلام: «**ولاتسبقوهم فتضلوا، ولاتتأخروا عنهم فتهلكوا**»، فالمجتمعات لاتخلو على الدوام من الأفراد الذين يعيشون حالة الافراط والتفريط. فالمفرطون يحكمون ببطيء حركة الزعماء الحق فيتقدموا عليهم، ليقودوا المجتمع إلىٰ الهاوية. والمفرطين على العكس يرون حركتهم مستعجلة فيتأخرون عنهم بذريعة الحزم والاحتياط وإجالة الفكر؛ الأمر الذي يؤدي إلىٰ هلاكهم واختلال حركة المجتمع.

والواقع هو أنّ عبارة الإمام عليه السلام تنسجم والحديث النبوي المشهور: «**مثل أهل بيتي فكيم، مثل سفينة نوح من ركبها نجى ومن تخلف عنها هلك**»، وقد ورد هذا الحديث بعبارات مختلفة في مصادر الفريقين، وهو يكشف عن علم أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله المستق من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، كونهم السفينة الوحيدة للنجاة في هذه البحار العاصفة؛ على غرار الطوفان الذي لم يكن فيه من وسلية للنجاة سوى سفينة نبي الله نوح عليه السلام[3].

---

١. سورة الاحزاب/٣٣.

٢. «لبدوا» من مادة «لبود» الإقامة في المكان.

٣. نقل هذا الحديث المرحوم السيد حامد حسين الهندي في كتاب عبقات الأنوار عن ٩٢ كتاب من ٩٢ عالم من علماء العامة.

والجدير ذكره ماورد شبيه هذه العبارة في الخطبة ٨٧ بشأن القرآن في وصفه خلص عباد الله الذين جعلوه محوراً في حياتهم «**فهو قائده وإمامه، يحل حيث حل ثقله، وينزل حيث كان منزله**».

وهذا تأكيد آخر لحديث الثقلين.

ثم تطرقعليه السلام إلىٰ خصائص طائفة معينة من صحب النبي الأكرمصلى الله عليه وآله ليقتدي بها صحبه، فقالعليه السلام: «**لقد رأيت أصحاب محمد صلى الله عليه وآله، فما أرى أحدا يشبههم منكم لقد كانوا يصبحون شعثا[1] غبراً**».[2]

ثم قال في صفتهم الثانية: «**وقد باتوا سجداً وقياماً، يراوحون[3] بين جباههم وخدودهم[4]**».

وقال أيضاً: «**ويقفون على مثل الجمر[5] من ذكر معادهم**».

نعم فقد شعروا بعظم العذاب الإلهي بكل كيانهم، فلم يهدأ بالهم ويسكن روعهم: «**كأنّ بين أعينهم ركب[6] المعزى[7] من طول سجودهم**»، فقد ذاقوا حلاوة العبودية، فتراهم يطيلون سجودهم، حتى بدت آثار السجود على جباههم.

«**إذا ذكر الله هملت[8] أعينهم حتى تبل جيوبهم**».

فقد تنهمر دموعهم حياً لله تارة، وخوفاً من العقاب وخشية الفراق تارة أُخرىٰ: «**ومادوا[9] كما يميد الشجر يوم الريح العاصف، خوفاً من العقاب، ورجاءا للثواب**».

والتشبيه بالشجر الذي يميد من جراء الريح العاصف، هو تشبيه رائع، وقد أشارعليه السلام إلىٰ

---

١. «الشعث» جمع «أشعث» وهو المغبر الرأس وهى كناية عن الفقر أو الزهد.
٢. غبر جمع أغبر بمعنى الغبار.
٣. «يراوحون» من مادة «تراوح» القيام بالأعمال الواحد بعد الاخر.
٤. «خدود» جمع «خد» طرفا الوجه.
٥. «جمر» جمع «جمرة» قطعة من النار، وتطلق الجمرة وجمعها جمرات.
٦. «ركب» جمع «ركبة» موصل الساق من الرجل بالفخذ.
٧. «معزىٰ» و«معز» معروف.
٨. «هملت» من مادة «همول» الجريان والنزول.
٩. مادوا من مادة ميدان الحركة و الاضطراب.

دليل ذلك والذي يكمن في خوف العقاب تارة ورجاء الثواب تارة أُخرىٰ.

فهم يبكون بعين شوقا إلىٰ لقاء ربّهم، بينما تهمل الأُخرىٰ خشية من عقاب ربّهم! وهذا هو ديدن الصالحين من عباد الله الذين يعيشون بين الخوف والرجاء.

تأمّلات

١ـ ولاية أهل البيت وعصمتهم

تتضح عصمة أهل البيت عليهم السلام بجلاء من خلال عبارات الإمام عليه السلام وذلك أنّه عليه السلام: «**انظروا أهل بيت نبيكم والزموا سمتهم، واتبعوا أثرهم، فلن يخرجوكم من هدىٰ، ولن يعيدوكم في ردىٰ، فان لبدوا فالبدوا، وإن نهضوا فانهضوا، ولاتسبقوهم فتضلوا، ولاتتأخروا عنهم فتهلكوا**».

فالعبارات من أوضح الادلة علىٰ مقام عصمتهم عليهم السلام؛ لأنّ مثل هذه الوصايا لاتصح في غير المعصومين من الذنب والخطأ.

كما تدل من جانب آخر علىٰ أنّ امامة المسلمين دائما في أهل البيت وذلك لأنّ الإمام عليه السلام لم يقيد وصاياه بزمان معين.

كما تدل من جهة أُخرى علىٰ أنّ مفهوم الولاية لاينسجم وانتقاء أوامر أهل البيت عليهم السلام، بل الولاية الحقيقية في امتثال أوامرهم في كل شيء وعلى أي حال. أمامن يتبع أهل البيت علىٰ مستوىٰ اللسان والقول أو بعض التصرفات الفردية والاجتماعية، فلايمكن اعتباره من الموالين الواقعيين، بل ذلك زعم وإدعاء فقط. ومن البديهي أنّ مراد الإمام عليه السلام لايقتصر علىٰ عصره أو زمانه؛ لأنّه يعرف بأهل البيت بصفتهم أئمة وولاة وليس فقط شخصه والشاهد الحي علىٰ هذا الكلام ما ورد في الحديث النبوي الشريف أنّ النبي صلى الله عليه وآله قال: «**اني وأهل بيتي مطهرون، فلا تسبقوهم فتضلوا، ولاتتخلفوا عنهم فتزلوا، ولا تخالفوهم فتجهلوا، ولا تعلموهم فانّهم أعلم منكم. هم أعلم الناس كباراً، وأحلم الناس صغاراً؛ فاتبعوا الحق وأهله حيث كان**»[1]

١. تفسير القمي نقلاً عن بحارالانوار ٢٣/١٣٠ ح ١٢.

٢ ـ مميزات أهل الكوفة والشام

هناك رابطة لطيفة بين القسم الأخير من هذه الخطبة، الذي يدعو الناس من جانب إلىٰ اتباع اهل البيت، ومن جانب آخر إلىٰ بيان خصائص أصحاب رسول اللهﷺ، والاقسام السابقة من الخطبة التي عرضت بالذم الشديد لأهل العراق والكوفة. وذلك لأنّها تفهمهم من جانب أن ليس لكم من عذر عند الله، لأنّ قادتكم أهل بيت رسول اللهﷺ، الذين ما انفك رسول اللهﷺ يوصي الأمّة بالتمسك بهم وعدم مفارقتهم، فهم عدل القرآن وسفن النجاة، والحال زعيم اهل الشام معروف بالظلم والانحراف والسلب والنهب، وعليه فقد تمت عليكم الحجة.

والآخر أنّ ضعفكم وهو أنّكم ليس لعدم قدرتكم البدنية، بل لضعف ارتباطكم بالله وخواؤكم الروحي وانعدام معنوياتكم، ومن هنا دعاهم لاقتفاء آثار تلك الثلة من صحب رسول اللهﷺ بصورة عملية حيث كانت لها أعظم رابطة بالله سبحانه وتعالىٰ.

ثم تطرقعليه السلام إلىٰ بيان صفاتهم التي تدعوا إلىٰ الغلبة والنصر فقال: لقد كانوا يصبحون شعثاً غبراً، وقد باتوا سجداً وقياماً، يراوحون بين جباههم وخدودهم، ويقفون على مثل الجمر من ذكر معادهم. إذا ذكر الله هملت أعينهم حتى تبل جيوبهم، ومادوا كما يميد الشجر يوم الريح العاصف، خوفاً من العقاب، ورجاء للثواب. و قد كان هذا التعبد و الإلتزام هو سر إنتصارهم على خصومهم.

٣ ـ حقيقة الصحابة

لعل هناك من يفهم من اطلاق كلام أميرالمؤمنين عليعليه السلام أنّ هذه الخصائص قد جمعت في كافة أصحاب رسول اللهﷺ، وعليه فهو دليل على ماذهبوا إليه من نظريتهم المعروفة في تنزيه الصحابة. والحال أنّ هذه الخصائص إنّما تتصف بها فئة خاصة من اصحاب رسول اللهﷺ كسلمان وأبي ذر وعمار والمقداد ومن كان على شاكلتهم، لا جميع الصحابة. وذلك لأنّه أولاً: أنّ هذا الموضوع يخالف السير والتواريخ، حيث لم تدون لهم كل هذه الصفات، ثانياً: تفيد أغلب آيات القرآن الكريم أنّ بينهم من عرف بالنفاق والذنوب والخطايا والمعاصي. ومن

ذلك أن بعضهم قد خان رسول اللهﷺ وجيش المسلمين، وقد تابوا بعد أن افتضح أمرهم؛ كحاطب بن أبي بلتعة وأبي لبابة، وقصتهم معروفة، وعمود التوبة في مسجد النبيﷺ شاهد حي علىٰ هذه الحقيقة.

وفيهم من اعترض على رسول اللهﷺ في حكم الزكوة، والمال و منهم من عاهد الله بالانفاق أن آتاهم من فضله ومنهم ثعلبة بن حاطب الانصاري الذي وردت قصته في الآيات ٧٥ ـ ٧٧ من سورة التوبة.

وفيهم من تخلف عن غزوة تبوك وتمرد على أوامر رسول اللهﷺ، وقد وردت قصتهم في ذيل الآية ١١٨ من سورة التوبة.

وفيهم الجواسيس الذين وصفتهم الآية ٤٧ من سورة التوبة: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾.

وفيهم من بنى مسجد ضرار بهدف ايجاد الفرقة والاختلاف بين صفوف المؤمنين، وقد وردت قصتهم في الآيات ١٠٧ ـ ١١٠ من سورة التوبة.

وفيهم من سار علىٰ الصراط على عهد رسول اللهﷺ ثم انقلبوا بعده فاثاروا الفتن واشعلوا نيران الحروب وسفكوا دماء المسلمين، كطلحة والزبير الذين أججا نار الجمل وخرجا على إمام المسلمين، ومعاوية الذي آثار الفتن ومنها فتنة صفين.

وعليه يبدو من السذاجة أن نتغاضى عن هذه الحقائق والوقائع التأريخية وصريح الآيات القرآنية، لنعتبر الصحابة منزهين جميعاً يتصفون بالطهر والعفاف والورع والتقوى.

وبناءاً على ما تقدم فان أميرالمؤمنين عليؑ إذا مدح الصحابة وأثنى عليهم ـ في هذه الخطبة أو سائر الخطب ـ فالمفروغ منه أن مراده خاصة صحب رسول اللهﷺ لاجميعهم.

وهم ثلة معدودة من صحابه كانت تقتفي آثار رسول اللهﷺ وتلتحق به في كافة المعارك والغزوات، حتى استشهد أغلبهم على عهدهﷺ.

على كل حال فانّ هذه الثلة من أصحاب رسول اللهﷺ التي انطوت علىٰ أعظم دروس العبودية والاستقامة والصمود والتضحية في سبيل الله والإسلام، وتعلمتها من معلم البشرية الرسول الأكرمﷺ لجديرة بان تكون قدوة للمسلمين في كل عصر وزمان.

وهم الذين قال فيهم المؤرخون أنّهم كانوا يتلون لبعضهم البعض الآخر سورة العصر حين

يفترقون، ليوصي كل منهم الاخربالايمان والعمل الصالح والتحلي بالحق والصبر.[١]

وصفهم القرآن بقوله: ﴿سِيماهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾.[٢]

وهم المعروفون بشدتهم وصلابتهم تجاه الاعداء، واللين والرحمة تجاه الأصدقاء: ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدّاءُ عَلَى الْكُفّارِ رُحَماءُ بَيْنَهُمْ﴾[٣].

---

١. اسد الغاية ١٤٤/٣.
٢. سورة الفتح/٢٩.
٣. سورة الفتح/٢٩.

الخطبة[1] ٩٨

ومن كلام له ﷺ

يشير فيه إلىٰ ظلم بني أمية

نظرة إلىٰ الخطبة

تحدث الإمام ﷺ في هذه الخطبة بعبارات قصار عن فجائع حكومة بني أمية وظلمهم وانحرافهم، بحيث صور جميع مظالمهم وفضائحهم في هذه الكلمات المختصرة، وهي تفيد وخامة العواقب التي تنتظر المجتمع الإسلامي إذا ضعفت إرادته في المجابهة والتصدي.

التأريخ من جانبه أشار إلىٰ تحقق كافة تكهنات الإمام ﷺ، وأنّ عدم الالتفات إلىٰ تحذيراته ﷺ فساد ذلك الظلم والجور الذي عم المسلمين بما لم يشهد له التأريخ مثيلاً.

والخطبة ضمنياً رد قاطع علىٰ أولئك الذين يترددون في قتال الإمام ﷺ لبني أمية، علىٰ أنّه قتال المسلمين للمسلمين.

ജ

١. سند الخطبة: قال صاحب مصادر نهج البلاغة، روى هذه الخطبة ابن قتيبة في كتاب الإمامة والسياسة، والذي يفهم من عباراته أنّ الإمام علي ﷺ خطبها بعد الخطبة ١٢٣ (مصادر نهج البلاغة ١٩٣/٢).

«وَاللّهِ لايَزَالُونَ حَتَّىٰ لايَدَعُوا لِلّهِ مُحَرَّماً إِلَّا اسْتَحَلُّوهُ، وَلَا عَقْداً إِلَّا حَلُّوهُ، وَحَتَّىٰ لاَ يَبْقىٰ بَيْتُ مَدَرٍ وَلَا وَبَرٍ إِلّا دَخَلَهُ ظُلْمُهُمْ وَنَبَا بِهِ سُوءُ رَعْيِهِمْ، وَحَتَّىٰ يَقُومَ الْبَاكِيَانِ يَبْكِيَانِ: بَاكٍ يَبْكِي لِدِينِهِ، وَبَاكٍ يَبْكِي لِدُنْيَاهُ، وَحَتَّىٰ تَكُونَ نُصْرَةُ أَحَدِكُمْ مِنْ أَحَدِهِمْ كَنُصْرَةِ الْعَبْدِ مُنْ سَيِّدِهِ، إذا شَهِدَ أَطَاعَهُ، وَإِذَا غَابَ اغْتَابَهُ، وَحَتَّىٰ يَكُونَ أَعْمَكُمْ فِيهَا عَنَاءً أَحْسَنُكُمْ بِاللّهِ ظَنّاً، فَإِنْ أَتَاكُمُ اللّهُ بِعَافِيَةٍ فَاقْبَلُوا، وَإِنِ ابْتُلِيتُمْ فَاصْبِرُوا، فَإِنَّ «الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ»».

الشرح والتفسير

مظالم بني أمية

أشار الإمام عليه السلام بهذه العبارات القصار إلىٰ مصير بني أمية، كما يشير إلىٰ الفجائع التي ارتكبتها هذه الطغمة الفاسدة. حيث أقسم علىٰ امتداد حكومتهم حتى تستحل كل حرام وتنتهك كافة المواثيق والعهود: «**والله لايزالون**[1] **حتى لا يدعوا لله محرماً إلّا استحلوه، ولا عقداً إلّا حلوه**».

وقد قام بعض الأعلام باحصاء بدع بني أمية والمحارم التي انتهكوها واستحلوها، والعهود التي نقضوها، سنستعرضها في الأبحاث القادمة. ويتضح من خلالها عمق الفجائع التي جروها على العالم الإسلامي.

ثم أشار عليه السلام إلىٰ الفضائع التي ارتكبوها بحق المسلمين وعموم ظلمهم وشموله بحيث لايفلت منه بيتاً من البيوت: «**وحتى لايبقى بيت مدر، ولا وبر إلّا دخله ظلمهم ونبا به سوء رعيهم**»، والمراد ببيوت المدر المبنية من الطوب والحجر ونحوهما وهي بيوت المدينة عادة. أمّا

---

١. قال بعض شرّاح نهج البلاغة ان العبارة «لايزالون» فيها محذوف تقديره «لايزالون ظالمين»، والظاهر الأنسب أن يكون تقديره لايزالون حاكمين، ولا سيما بالنظر إلىٰ العبارات اللاحقة.

الوبر فيرادبه صوف الناقة، فالمراد ببيت الوبر الخيام التي كانت تقام في القرى والبوادي، والحق أنّ هذا أروع تعبير لشمولية الظلم بحيث لايسع أحد النجاة من ذلك الظلم. وهو الظلم الذي قد يدفع بالبعض إلىٰ الفرار من بيوتهم.

ثم تطرق عليه السلام إلىٰ أنّ الناس آنذاك علىٰ طائفتين؛ طائفة تبكي دينها، وأُخرىٰ تبكى دنياها: في تصويره للفاجعة الثالثة «**وحتى يقوم الباكيان يبكيان: باك يبكى لدينه، وباك يبكي لدنياه**».

نعم فالمتدينون يبكون خشية على دينهم من الأخطار التي تهدده من هذه الطغمة سليلة الجاهلية، بينما يبكي أصحاب الدنيا على دنياهم، فالظلمة قد ساموا الناس الظلم في دينهم ودنياهم.

ثم قال عليه السلام: في بيانه للفاجعة الرابعة «**وحتى تكون نصرة أحدكم من أحدهم كنصرة العبد من سيده، إذا شهد أطاعه، وإذا غاب اغتابه**».

في أشارة إلىٰ أنّهم يستعبدون الناس، وليتها كانت من نوع العبودية التي تسودها علاقة الحب والرأفة بين العابد والمعبود، بل العبودية التي تختزن كل معاني الظلم والتحقير والاستخفاف؛ وكأنّهم قيدوا أعناق الناس وسحبوهم بالاتجاه الذي يريدون.

ذهب بعض شراح نهج البلاغة إلىٰ أنّ المراد بالعبارة طلب الناس العون من هؤلاء، لاعون الناس لهم بمعنى نصرتهم (فالاضافة إلىٰ المفعول لا إلى الفاعل): وعليه مفهوم العبارة أنّكم إذا طلبتم عونهم فانّ ذلك كطلب الغلام العون من سيده الظالم، لا طلب الرفيق من رفيقه. إلّا أنّ عبارتي: «**إذا شهد أطاعه، وإذا غاب اغتابه**» تؤيدان المعنى الأول.

ثم وصف فاجعتهم الأخيرة بأنّها أشد وأعظم على ذلك الأقرب لله والأكثر عبودية له: «**وحتى يكون أعظمكم فيها عناء أحسنكم بالله ظنا**».

وهل ينتظر غير هذا من حكومة ظالمة مستبدة مجرمة، لادين لها ولا أخلاق، قطعاً محنة العبد في ظل هذه الحكومة تكون أعقد وأصعب كلما كان لربه أطوع وأقرب.

ثم اختتم عليه السلام كلامه بتسلية أصحابه وأنصاره لما ينتظرهم من أحداث أليمة: «**فان أتاكم الله بعافية فاقبلوا، وإن ابتليتم فاصبروا فان العاقبة للمتقين**».

فالذي يفهم من هذه العبارة أنّ حكومة بني أمية وإن مارست ظلمها وضغوطها بحق الأمّة، فجرعتها أنواع العذاب، إلّا أنّ هناك البعض الذي نجى من هذه الحوادث الخطيرة والمؤطة، وقد أوصىٰ الإمام عليه السلام الطائفة الاولىٰ بالصبر والتحمل وانتظار الفرج، بينما أوصىٰ الثانية بالحمد والشكر.

تأمّل

بدع بني أمية

لقد حصلت كافة تكهنات الإمام عليه السلام التي أوردها في هذه الخطبة بشأن شمولية فجائع بني أمية، حيث لم تأل هذه الحكومة المستبدة جهدوا عن مقارفة أنواع الظلم والجور، كما سفكت بحاراً من الدماء من أجل ترسيخ دعائم سلطتها الغاشمة، إلىٰ جانب ملئ السجون بالأبرياء من المومنين وسومهم سوء العذاب، وممارسة أقصى درجات العنف والبطش، فعم الخوف والرعب كافة أبناء الأمّة، بما فيهم مقربي هذه الحكومة وبطانتها. وقد قام المرحوم العلّامة الأميني بجمع كافة الانتهاكات والبدع التي ارتكبها بني أمية، مع ذكر اسنادها في كتابه الغدير، نورد طائفة منها، ونترك للقارىء العزيز الوقوف على تفاصيلها في المجلد الحادي عشر من كتاب الغدير أنّ معاوية:

أوّل من أحدث الاذان في صلاة العيدين؟!

أوّل من رأى الجميع بين الأختين إحياء لما ذهب إليه عثمان؟!

أوّل من غيّر السنّة في الديات وأدخل فيها ما ليس منها؟!

أوّل من ترك التكبير في الصلوات عند كلّ هويّ وانتصاب وهى سنّة ثابتة؟!

اوّل من ترك التلبية وأمر به خلافاً لعليّ أمير المؤمنين عليه السلام العامل بسنّة اللّه ورسوله؟!

أوّل من قدم الخطبة على الصلاة في العيد لإسماع الناس سبّ عليّ عليه السلام؟! وقد صحّ عن نبيّ الإسلام: «من سبّ عليّاً فقد سبّه، ومن سبّه فقد سبّه اللّه».

أوّل من عصى ربّه بترك حدوده وإقامة سنّتة؟! ﴿وَمَنْ يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ ناراً خالِداً فِيها وَلَهُ عَذابٌ مُهِينٌ﴾.

أوّل من نقض حكم العاهر، وأحيى طقوس الجاهليّة، وخالف دين محمدﷺ: «الولد للفراش وللعاهر الحَجر»؟!

أوّل من تختّم بالسيار؟ فأخذ المروانية بذلك إلىٰ أن نقله السفّاح إلىٰ اليمين فبق إلىٰ أيّام الرشيد فنقله إلىٰ اليسار.

أوّل من سنّ سبّ عليّ وقنت به وجعله سنّة جارية في خلفه الذين أضاعوا الصلاة واتّبعوا الشهوات، وشوّة خطب المنابر بذلك الحادث النخري؟!

أوّل من بغى على إمام وقته وحاربه وقاتله وقتل أُمّة كبيرة من صلحاء الصحابة البدريّين وأهل بيعة الشجرة الذين رضي اللّٰه عنهم ورضوا عنه؟!

أوّل من أعطى المال لوضع الحديث وتحريف كتاب اللّٰه وكلمته الطيّبة عن مواضعها؟!

أوّل من اشتراط البراءة من عليّ‌ﷺ من بايعه في خلافته الغاشمة أو في ملكه العضوض؟!

أوّل من حُمل إليه رأس الصحابيّ العادل عمرو بن الحمق وأُدير به في البلاد؟!

أوّل من قتل عدول الصحابة الأوّلين والتابعين لهم بإحسان من عيون الأُمّة وعبّادها ونسّاكها لمحض ولائهم سيّد العترة، وقد جعله اللّٰه أجر رسالة نبيّه الخاتمﷺ؟!

أوّل من قتل نساء كلّ وإلى أهل بيت النبيّ وذبح صبيانهم ونهب أموالهم، ومثّل بقتلاهم وشتَّت شملهم، وفرّق جمعهم، واستأصل شأفتهم، ونفاهم عن عقر دورهم، وأبادهم تحت كلّ حجر ومدَر؟!

أوّل من عبثت به رعيّته، وسنَّ العمل بالشهادات المزوّرة، وسلّط ورجال الشرّ والغيّ والجور على صلحاء أُمة محمدﷺ.

أوّل من همَّ بنقل منبر رسول اللّٰهﷺ عن المدينة المشرّفة إلىٰ الشام؟! ولّما حرّك المنبر خسفت الشمس فترك.

أوّل من بدّل الخلافة الإسلاميّة إلىٰ شرّ ملك وسلطة سوء؟!

أوّل من ملك وتجبّر في الإسلام بلبس الحرير والديباج، وشرب في آنية الذهب والفضّة، وركب السروج المحلّاة بها؟!

أوّل من سمع الغناء وطرب عليه وأعطى ووصل إليه وهو يرى نفسه أميرالمؤمنين؟!

أوّل من هتك دين الله باستخلاف جروه الفاجر المستهتر التارك الصلاة؟!

أوّل من شنَّ الغارة على مدينة الرسول ﷺ حرم أمن الله، وأخاف أهليها، وما رعى حرمة ذلك الجوار المقدّس؟!

إلىٰ جرائم وبوائق تجر الرجل فيها هو السابق الأوّل إليها.

أصحيحٌ أنَّ مثل هذا الطاغية تصدر فيه كلمة إطراء من مصدر النبوّة؟ أو يأتي عن نبيِّ العدل والحقِّ والصدق ما يوهم الثناء عليه؟ لا، لا يمكن ذلك؛

٢ ـ غيض من فيض فضائع بني أمية

ذكر أبوالفرج الاصفهاني وهو من مشاهير علماء القرن الرابع الهجري في كتابه المعروف «الاغاني» بعض الأُمور العجيبة بشأن بني أمية، نورد طائفة منها:

١ـ خالد بن عبدالله القسري و الي هشام بن عبدالملك على الكوفة كان زنديقا و أمه نصرانيه و كان يوّلي النصارى و المجوس على المسلمين.[1]

٢ـ بني كنيسة لأمه خلف قبلة مسجد الكوفة فكان يضرب فيها الناقوس حين يرتفع صوت الأذان[2].

٣ـ كان يقول ـ و العياذ بالله ـ بأفضلية الخليفة هشام على رسول الله ﷺ و كان يقول بكل و قاحة: و الله لو أمرني الخليفة لهدمت الكعبة و نقلت حجرها إلى الشام.[3] و العجيب عزله هشام بعد مدة إثر تعرضه لبني أمية.[4]

روى ابن أبي الحديد المعتزلي[5] في شرح نهج‌البلاغة عن أبي عثمان الجاحظ أن بني هاشم كانوا يفخرون على بني أمية أنا لم نقم بهذه الأعمال:

أـ هدم الكعبة (إشارة لما فعله الحجاج على عهد عبد الملك)

ب ـ تغيير القبلة (إشارة لصلاة الوليد لغير القبلة ثملا و هو يقول أينما تولوا فثم وجه الله)

---

١. الأغاني ٢٣/٢٢.
٢. الأغاني ٢٢/٢٢.
٣. الأغاني ٢٥/٢٢.
٤. الأغاني ٣٣/٢٢.
٥. شرح نهج‌البلاغة ٢٤٠/١٥ـ٢٤٢.

ج ـ لم يجعلوا الخليفة أفضل شأنا من النبيﷺ (إشارة لما ورد في كتاب الأغاني)

ع ـ لم يختموا رقاب المسلمين (إشارة إلى ختم بني أمية لرقاب المسلمين كعبيد كما كانوا يختمون الخيل).

هـ ـ لم ينهبوا حرم النبيﷺ و ينتهكوا حرمة المسلمات (إشارة إلى قصة مسلم بن عقبة الذي إستباح المدينة بأمر يزيد فارتكب فيها من الجرائم ما يعجز القلم عن وصفها).

و قد وجّه معاوية قبل ذلك يسر بن أرطاة ليهجم على المدينة و يطوف في مسجد النبيﷺ دعيا الناس لبيعته و قتل من تخلف و هدم بيته و مصادرة أمواله.

و نختتم الكلام بما ذكره ابن عساكر ـ المؤرخ السني المعروف ـ في كتابه تأريخ دمشق أن عبدالله بن حنظلة ـ و أبوه غسيل الملائكة من كبار صحابة النبيﷺ ـ خاطب الناس حين أمر يزيد مسلم بن عقبة بالهجوم على المدينة فقال: يا قوم اتقوا الله وحده لاشريك له، فوالله ماخرجنا على يزيد حتى خفنا أن نرمى بالحجارة من السماء ـ إن رجلا ينكح الأمهات و البنات و الأخوات و يشرب الخمر و يدع الصلاة ـ و الله لو لم يكن معي أحد من الناس لأبليت لله فيه بلاء حسناً.[١]

و هنا نقف على عمق كلام أميرالمؤمنينعليه السلام «لكل أمة آفة، و آفة هذه الأمة بنو أمية»[٢] و ياالهم من جهال أولئك الذين يطرون معاوية و يتغنون بأمجاد بني أمية رغم هذه الفجائع.

---

١. تاريخ دمشق لابن عساكر ١٢/١٢٧.

٢. كنز العمال ١١/٣٦٤ح ٣١٧٥٥.

الخطبة [1] ٩٩

ومن خطبة له عليه السلام

في التزهيد من الدنيا

نظرة إلى الخطبة

تفيد بعض الروايات أنّ الإمام عليه السلام خطب بهذه الخطبة في صلاة الجمعة، فأوصى فيها الناس بالزهد في الدنيا، وقد صور غدرها وتقلب أحوالها بالشكل الذي جعل طلابها يمجونها ولايركنون اليها؛ ولا سيما أنّه تحدث عن أُولئك الذين يذرفون الدمع حزنا على فقد أعزتهم، وآخرين يعزونهم، وطائفة من الناس قد رقدت علىٰ فراش المرض تنتظر الموت، بهدف ايقاظهم من غفلتهم وسيطرة أهوائهم وهوسهم. فالخطبة موعظة لمرضى القلب من عبدة الدنيا.

---

١. سند الخطبة: رواها قبل السيد الرضي (ره) جامع نهج البلاغة زيد بن وهب (وهو من أصحاب أمير المؤمنين علي عليه السلام الذي نقل جانباً من خطبه عليه السلام في كتابه خطب أمير المؤمنين على المنابر في الجمع والأعياد وغيرهما، وهو أول كتاب صنفه بهذا الشأن) ونقلها عنه المرحوم المحدث النوري في مستدرك الوسائل باختلاف قليل، ورواها المرحوم الصدوق في كتابيه معاني الأخبار ومن لايحضره الفقيه. كما رواها عدد آخر ممن عاش بعد السيد الرضي (ره). (مصادر نهج البلاغة ١٩٦/٣).

القسم اول

«نَحْمَدُهُ عَلَىٰ مَا كَانَ، وَنَسْتَعِينُهُ مِنْ أَمْرِنا عَلَىٰ مَا يَكُونُ، وَنَسْأَلُهُ الْمُعَافَاةَ فِي الْأَدْيَانِ، كَمَا نَسْأَلُهُ الْمُعَافَاةَ فِي الْأَبْدَانِ».

الشرح والتفسير

السلامة في الدين والبدن

إستهل الإمام‌ﷺ خطبته بحمد الله والثناء عليه لتتهيئ القلوب لسماع الكلمات القادمة في الوعظ والنصح، فقال‌ﷺ: **«نحمده على ما كان»** فمفهوم هذه العبارة واسع شامل، حيث تشمل النعم التي يفيضها الله سبحانه وتعالى على العباد، كما تشمل الحوادث المريرة والأليمة. وذلك لأنّ خاصة عباد الله تعد كل ما صدر من الله نعمة ورحمة، فترى عليها شكره على كل حال.

ثم قال‌ﷺ: **«ونستعينه من أمرنا على ما يكون»**، فمن الطبيعي أن يكون الحمد والثناء على الماضي، والاستعانة على المستقبل، وهذا هو ديدن العباد المخلصين الذي يكمن في شكر الباريء على ماكان والاستعانة به على ما يكون.

ثم قال‌ﷺ: **«ونسأله المعافاة في الأديان، كما نسأله المعافاة في الأبدان»**، فالعبارة إشارة إلىٰ نقطة لطيفة وهى أنّ الناس لو أولوا سلامة دينهم ذات الأهمية التي يولونها لسلامة ابدانهم ودنياهم، لأخذوا العافية بطرفيها ونجوا. إلّا أنّ المؤسف له أنّ الإنسان قد يتعرض إلىٰ مرض بسيط فتراه يراجع عدداً من الأحياء، بينما لا يتجه إلىٰ طبيب واحد حتى لو أصابته عشرات الأمراض الروحية والأخلاقية الخطيرة.

هذا وقد أورد بعض شرّاح نهج البلاغة عن بعض المفكرين قوله لو سكبت عشر هذه الدموع التي تسكب على البطون الجائعة والأبدان العارية على الأرواح الجائعة للمعرفة

والعارية من الفضائل لزال كل هذا الجوع والعري البدني، كما زال كل هـذا الجـوع والعـري المعنوي.[١]

جدير بالذكر أن الأديان بصيغة الجمع إشارة إلى تدين أفراد البشر، لا مختلف الأديان، على غرار الأبدان جمع البدن.

---

١. شرح نهج البلاغة العلّامة الجعفري ٩/١٨.

القسم الثاني

«عِبَادَ اللّهِ، أوصِيكُمْ بِالرَّفْضِ لِهذِهِ الدُّنْيَا التَّارِكَةِ لَكُمْ وَإِنْ لَمْ تُحِبُّوا تَرْكَهَا، وَالْمُبْلِيَةِ لأَجْسَامِكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ تحبون تجديدها، فَإِنَّمَا مَثَلُكُمْ وَمَثَلُهَا كَسَفْرٍ، سَلَكُوا سَبِيلاً فَكَأَنَّهُمْ قَدْ قَطَعُوهُ، وَأَمُّوا عَلَماً فَكَأَنَّهُمْ قَدْ بَلَغُوهُ. وَكَمْ عَسَىٰ الْمُجْرِي إِلَى الْغَايَةِ أَنْ يَجْرِيَ إِلَيْهَا حَتَّىٰ يَبْلُغَهَا! وَمَا عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ بَقَاءُ مَنْ لَهُ يَوْمٌ لَا يَعْدُوهُ، وَطَالِبٌ حَثِيثٌ مِنَ الْمَوتِ يَحْدُوهُ وَمُزْعِجٌ فِي الدُّنْيَا حَتَّىٰ يُفَارِقَهَا رَغْماً! فَلَا تَنَافَسُوا فِي عِزِّ الدُّنْيَا وَفَخْرِهَا، وَلَا تَعْجَبُوا بِزِينَتِهَا وَنَعِيمِهَا، وَلَا تَجْزَعُوا مِنْ ضَرَّائِهَا وَبُؤْسِهَا، فَإِنَّ عِزَّهَا وَفَخْرَهَا إِلَىٰ انْقِطَاعٍ، وَإِنَّ زِينَتَهَا وَنَعِيمَهَا إِلَىٰ زَوَالٍ، وَضَرَّاءَهَا وَبُؤْسَهَا إِلَىٰ نَفَادٍ، وَكُلُّ مُدَّةٍ فِيهَا إِلَى انْتِهَاءٍ، وَكُلُّ حَيٍّ فِيهَا إِلَىٰ فَنَاءٍ».

الشرح والتفسير

سرعة زوال الدنيا

بعد أن حمد الإمامﷺ الله وأثنى عليه شرع في هذا المقطع من الخطبة حث الناس علىٰ الزهد في هذه الدنيا بعبارات نافذة مؤثرة، إلى جانب تصويره لتفاهة هذه الدنيا فقالﷺ:

«عباد الله أوصيكم بالرفض[1] لهذه الدنيا التاركه لكم وان لم تحبوا تركها».

وياها من فاجعة ان يسعى الإنسان بكل كيانه وذاته نحو معشوق يسعى بكل ما أوتي من قوة للهروب منه! فقد قالﷺ: إذا كانت الدنيا تاركة لكم فاتركوها، وان شق ذلك على

1. «رفض» تعني في الأصل ترك الشيء، ومن هنا سميت الشيعة بالرافضة لتركها الخلفاء الثلاثة، وقيل استعملت هذه المفردة لأول مرة على عهد زيد بن علي، حيث نهاهم زيد عن سب الشيخين، ولهذا تركوه.

أهوائكم ورغباتكم، وذلك امتثالاً لقوله سبحانه: **﴿وَعَسىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ﴾**[١]، فلعل هناك بعض الأُمور التي تبدو حسنة الظاهر يحبها الإنسان، بينما تستبطن السم الزعاف.

ثم قال ﷺ: «**والمبلية**[٢] **لأجسامكم وإن كنتم تحبون تجديدها**».

فكل فرد يلاحظ علىٰ نفسه آثار العجز والتعب بمرور الزمان من قبيل ذهاب النشاط والحيوية وذبول الجلد وضعف العظام وضعف البصر وثقل السمع وتمتمة اللسان وانحناء الظهر وضعف العضلات والاعصاب وما إلىٰ ذلك من الأُمور التي تؤرق الإنسان وتجعله يشعر بالاسى والحزن. ومن هنا يسعى احيانا وبشتى الوسائل لا ستعادة حيويته ولكن هل يصلح العطار ما أفسد الدهر، طبعاً قد يحقق بعض النجاحات الطفيفة في هذا المجال، إلّا أنّ هناك مسيرة لابدّ له من اجتيازها والوصول إلىٰ مصيره المحتوم، فهل من الصحيح أن يولي الإنسان ظهره لكل هذه الأُمور ويتعلق بالدنيا؟! الجدير بالذكر أن الدنيا لاتبلي الكائنات الحية ولاسيما بدن الإنسان فحسب، بل يشمل هذا القانون عالم المادة برمته من المجرات حتى الذرات. بل حتى هذه الشمس المشرقة التي تبعث بأشعتها إلىٰ كل مكان إنّما تبلى بالتدريج حتى تنتهي يوماً إلىٰ الزوال؛ الأمر الذي أشار إليه القرآن الكريم «تكوير الشمس» وأيده العلم الحديث.

ثم قال ﷺ: «**فانما مثلكم ومثلها كسفر**[٣] **سلكوا سبيلاً فكأنّهم قد قطعوه، وأموا**[٤] **علماً فكأنّهم قد بلغوه، وكم عسى المجري**[٥] **إلىٰ الغاية أن يجري إليها حتى يبلغها**».

ثم أكد ذلك ﷺ بقوله، كيف يمكن أن يؤمل البقاء من كان له يوم لابدّ من بلوغه ولايمكنه تجاوزه، والموت يجري خلفه ليسوقه إلى حتفه وان كان كارها: «**وما عسى أن يكون بقاء من له يوم لا يعدوه، وطالب حثيث**[٦] **من الموت يحدوه**[٧]، **ومزعج**[٨] **في الدنيا حتى يفارقها رغما**[٩]».

---

١. سورة البقرة/٢١٦.
٢. «مبلية» من مادة «بلاء» منهكة.
٣. «سفر» جمع «مسافر» بمعنى مسافر.
٤. «أموا» من مادة «أم» على وزن غم القصد.
٥. «مجرى» من مادة «اجراء» كناية عن المسافر، وقد وردت في تفسيره عدة أقوال، الأنسب ما أوردناه في المتن.
٦. «حثيث» من مادة «حث» بفتح الحاء السرعة في العمل.
٧. «يحدو» من مادة «حدى» يسوق.
٨. «مزعج» من مادة «ازعاج» السوق والاضطراب والاجتثاث.
٩. «رغم» بمعنى الاجبار، ومنه تمريغ الأنف بالتراب حين يضاف للأنف فيقال رغم أنفه.

فالعبارات بمجموعها تكشف النقاب عن ذات الحقيقة وهى تقلب الدنيا وانعدام قيمتها؛ الحقيقة التي يغفلها أغلب الناس، فتقودهم هذه الغفلة إلىٰ البؤس والشقاء والحرمان من السعادة.

ثم يخلص الإمامﷺ من هذا البحث بشأن تفاهة الدنيا إلى نتيجة ينبغي أن يبلغها الجميع، وهى مادامت الدنيا كذلك فلا ينبغي اضاعة الجهود من أجل الحصول علىٰ مفاخرها الزائفة وعزتها الموهومة، كما لاينبغي الانخداع بزينتها وزخارفها الزائلة، ولاينبغي الشعور بالامتعاض والغصة علىٰ آلامها وأحزانها: «**فلا تنافسوا**[1] **في عز الدنيا وفخرها، ولا تعجبوا بزينتها ونعيمها، ولاتجزعوا من ضرائها وبؤسها**».

وذلك لأنّ فخرها آيل إلى الزوال ونعمتها إلىٰ الفناء، وآلامها إلىٰ انقضاء «**فان عزها وفخرها إلىٰ انقطاع، وان زينتها ونعيمها إلىٰ زوال، وضراءها وبؤسها إلى نفاد**[2]، **كل مدة فيها إلىٰ انتهاء، وكل حي إلى فناء**».

فقد ركز الإمامﷺ في هذه العبارات الرائعة علىٰ عزة الدنيا وفخرها ونعمها وزينتها وآلامها ومصائبها، ليرىٰ فناء كل شيء فيها وزواله، ثم عرض لقانون كلي إلىٰ أنّ كل عز فيها إلى انقطاع وزينة ونعيم إلى زوال وضراء وبؤس إلىٰ نفاد وكل مدة فيها إلى انتهاء، وكل حي فيها إلى فناء؛ فاذا كان الأمر كذلك فما معنى كل هذا النزاع والتنافس والجزع؟! فقد صرح أحد شرّاح نهج البلاغة بأن الماضين قد ذهبوا وأصبحوا ترابا واننا لنطئ ترابهم ثم نكون مثلهم، ثم يعبر علينا الآخرون من بعدنا. ومع كل هذا لا نفيق من غفلتنا!! وما أروع حديث الإمام الباقرﷺ الذي شبه نعم الدنيا بالمال الذي يراه النائم فان نهض من نومه لم ير شيئاً: «**أو كمال وجدته في منامك، فاستيقظت وليس معك منه شيء**»[3].

أو كما صورها الشاعر:

ألا إنّما الدنيا كمنزل راكب ... أناخ عشياً وهو في الصبح راحل
وكل شباب، أو جديد إلىٰ البلاء ... وكل امرء يوماً إلى الله صائر

---

١. «تنافسوا» من مادة «تنافس» بمعنىٰ بذل الجهد والسعي، ومحاولة شخصين او مجموعتين للحصول على شيء نفيس.
٢. نفاد بمعنى الفناء والزوال.
٣. بحارالانوار ٣٦/٧٠.

القسم الثالث

«أَوَلَيْسَ لَكُمْ فِي آثارِ الأَوَّلينَ مُزْدَجِرٌ، وَفي آبـائِكُمُ الْـمَاضِينَ تَـبْصِرَةٌ وَمُعْتَبَرٌ، إنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُون! أَوَلَمْ تَرَوْا إلَى الْماضِينَ مِنْكُمْ لَا يَرْجِعُون، وَإلَىٰ الْخَلَفِ الْبَاقِينَ لَا يَبْقَوْنَ! أَوَلَسْتُمْ تَرَوْنَ أَهْلَ الدُّنْـيَا يُـصْبِحُونَ وَيُـمْسُونَ عَلَىٰ أَحْوالٍ شَتَّىٰ: فَمَيِّتٌ يُبْكَىٰ، وَآخَرُ يُعَزَّىٰ، وَصَرِيعٌ مُبْتَلَىً، وَعَائِدٌ يَعُودُ، وَآخَرُ بِنَفْسِهِ يَجُودُ، وَطَالِبٌ لِلدُّنْيَا وَالْمَوْتُ يَطْلُبُهُ، وَغَافِلٌ وَلَيْسَ بِمَغْفُولٍ عَنْهُ؛ وَعَلَىٰ أَثَرِ الْماضِي مَا يَمْضِي الْبَاقِي!».

الشرح والتفسير

دروس الدنيا وعبرها

واصل الإمام‍ هذا المعلم الرباني العظيم كلامه السابق من أجل نفخ اليقظة في هذه الأرواح التي تعيش السبات والغفلة من خلال للدنيا وتقلب أحوالها فقال‍: «**أو ليس لكم في آثار الأولين مزدجر**[1]**، وفي آبائكم الماضين تبصرة ومعتبر، ان كنتم تعقلون**».

ثم وضح‍ هذه العبارة بقوله: «**أولم تروا إلىٰ الماضين منكم لا يرجعون، وإلىٰ الخلف الباقين لا يبقون**».

إشارة إلىٰ قانون الموت والفناء؛ القانون العام الشامل الذي ليس فيه أي إستثناء، فمن ذهب لا يعود، ومن بقي فهو سائر اثر تلك القافلة إلىٰ الزوال وعدم العودة. مع هذا الفارق وهو أنّ البعض في الصفوف المقدمة والبعض الآخر في الصفوف المؤخرة؛ على غرار عباراته التي

---

١. مزدجر من مادة زجر المانع، مصدر ميمي بمعنى اسم الفاعل.

خاطب بها الأموات ممن دفنوا ظهر الكوفة: «**أنتم لنا فرط سابق، ونحن لكم تبع لاحق**»[١].

ثم خاض عليه السلام في بيان هذا الكلام بعبارات أدق وأوضح و تحليل دقيق و بليغ بعد أن قسم أحوال أهل الدنيا في مصابهم بالحوادث إلى سبعة أقسام ليقول: «**أولستم نزون أهل الدنيا يصبحون ويمسون على أحوال مشتى: فميت يبكي، وآخر يعزى، وصريح مبتلى، وعائد[٢] يعود، وآخر بنفسه يجود[٣]، وطالب للدنيا والموت يطلبه، وغافل وليس بمغفول عنه؛ وعلى أثر الماضي مايمضي الباقي**».

يا لها من عبارات رائعة وشاملة عظيمة التأثير إذا استطاع الإنسان أن يتمثل صورها للناس وهم يتحركون؛ فهذا يموت ويبكى عليه، وهنالك مجلس للعزاء تتوافد عليه الناس جماعات ليعزوا ذوي الفقيد. وهناك من رقد على فراش المرض وقد عاده جمع من الاخوة والأصدقاء. وهناك من يعالج سكرات الموت ويحتضر وليس لأحد أن يفعل له شيئاً. وهناك صورة أُخرىٰ يطالعك فيها الناس وهم يسارعون في الركض والحركة دون الالتفات إلىٰ الحلال والحرام والمشروع والممنوع بغية الحصول على شيء من حطام الدنيا؛ بينما كمن لهم الموت في الطريق؛ وإذا به يباغتهم ليقضي علىٰ جميع آمالهم وأحلامهم. وبالتالي هناك فئة غافلة مشغولة بالذائذ العيش وسكر النعم والفرح والسرور دون أن تلتفت إلىٰ الموت الذي ينتظرها؛ فاذا هجم الموت على أحدهم أحال فرحهم حزناً وغماً.

هذه هي صور الحياة السائدة طيلة تاريخ البشرية وستكون كذلك، ويا لها من صور تنطوي على الدروس والعبر، إلّا أنّ القلة القليلة من تعتبر.

---

١. نهج البلاغة، كلمات القصار ١٣٠.

٢. «عائد» من يذهب لعبادة أحد.

٣. «يجود» من مادة «جود» السخاء، وتستعمل في الاحتضار وكأنّ الإنسان يسخو بانفس ما لديه وهي روحه.

القسم الرابع

«أَلَا فَاذْكُرُوا هَادِمَ اللَّذَّاتِ، وَمُنَغِّصَ الشَّـهَوَاتِ، وَقَـاطِعَ الْأُمْـنِيَاتِ، عِـنْدَ الْمُسَاوَرَةِ لِلْأَعْمَالِ الْقَبِيحَةِ، وَاسْتَعِينُوا اللّـهَ عَـلَىٰ أَدَاءِ وَاجِبِ حَـقِّهِ، وَمَـا لَايُحْصَىٰ مِنْ أَعْدَادِ نِعَمِهِ وَإِحْسَانِهِ».

الشرح والتفسير

هادم اللذات

أشار الإمام عليه السلام في ختام هذه الخطبة الفصيحة والبليغة النافذة إلىٰ نقطتين تكملان البحث السابق:

الاولى: الإشارة إلىٰ الموت الذي يدعو ذكره إلىٰ يقظة الإنسان من سباته وغفلته: «**ألا فاذكروا هادم اللذات، ومنغص[1] الشهوات، وقاطع الامنيات، عند المساورة[2] للأعمال القبيحة**».

فقد وصف الإمام عليه السلام الموت هنا بثلاث: الأول: أنّه هادم اللذات؛ لأن أغلب الناس يفنون أعمارهم ليوفرا لأنفسهم العيش الهنيئ واللذيذ، بالضبط في الوقت الذي تهجم فيه الأمراض على الإنسان وترديه ميتاً. أضف إلىٰ ذلك كثيراً ما تشاهد مجالس السرور واللذة وقد تعكرت وتبدلت عزاءا إثر بعض الحوادث، والعجيب ليس هنالك من ضمانة لأحد بعدم وقوع هذه الحوادث.

---

١. «منغص» من مادة «نغص» على وزن نقص بمعنى ليس عذب، وبمعنى اعتراض الماء في الحلق، ثم اطلقت علىٰ الحياة الصعبة ونحو ذلك.

٢. «مساورة» من مادة «سور» علىٰ وزن غور المواثبة، كأنّه يرىٰ العمل القبيح لبعده عن ملاءمة الطبع الإنساني بالخطرة ينفر عن مقترفه كما ينفر الوحش، فلايصل إليه المغبون إلّا بالوثبة عليه.

الثاني: منغص الشهوات؛ لأن الموت ـ الذي ليس له من زمان معين ولا يمكن التكهن به قط ـ يهجم على الإنسان في تلك اللحظة التي ينعم فيها بالشهوات.

الثالث: قاطع الامنيات؛ فاماني الإنسان كثيرة طويلة لاتعرف الحدود ولا يقطعها ويعطلها سوىٰ الموت. فهذه العبارات على درجة من القوة. بحيث تؤثر على كل إنسان. و الرائع أنه قال «الا فاذكروا هادم اللذات... عند المساورة للأعمال القبيحة» إشارة إلى أن القبائح كثيرا ما تتزين بحيث يهجم عليها الإنسان كالوحش الذي ينقض على فريسته ـ في هذه اللحظة يمكن أن يصده عن ذلك ذكر الموت.

ثم أوصىعليه السلام بذكر نعم الله التي تحول دون ارتكاب الذنوب على أنها العامل الثاني الذي يصد عن المعاصي «**واستعينوا الله على أداء واجب حقه، وما لا يحصى من أعداد نعمه وإحسانه**».

فشكر المنعم لايؤدي إلىٰ معرفة الله فحسب، بل يلعب دوراً مباشراً في دفع الإنسان لاداء الواجبات وترك المحرمات.

تأمّلان

١ ـ خداع الدنيا محدود

يزعم أغلب الناس أن الدنيا خادعة بزينتها وزخرفها؛ وقد أُشير إلىٰ هذا المعنى في الآيات القرآنية والروايات الإسلامية. إلّا أننا إذا فكرنا بصورة سليمة لتوصلنا إلىٰ أنّ هذا الخداع إنّما يطيل السذج والحمق من الناس. وهذا ما أورده الإمامعليه السلام حيث صور الدنيا وقد ملئت بحوادث الغدر والخيانة والتنكر والتقلب. كما حفلت بالآف الصور التي تبعث على الاعتبار من قبيل المرض والموت والعزاء والحوادث الاليمة وماشاكل ذلك. فهل خادعة هى الدنيا وهى بهذه الصفات.

ومن هنا قالعليه السلام وقد سمع رجلاً يذم الدنيا، أيها الذام للدنيا، المغتر بغرورها، المخدوع بأباطيلها! أتغتر بالدنيا ثم تذمها؟ أنت المتجرم عليها، أم هى المتجرمة عليك؟ متى استهوتك، أم متى غرتك؟ أبمصارع آبائك من البلى أم بمضاجع أمهاتك تحت الثرىٰ؟ كم عللت بكفيك،

وكم مرضت بيديك! تبتغي لهم الشفاء، وتستوصف لهم الأطباء، غداة لا يغني عنهم دواؤك، ولايجدي عليهم بكاؤك.[١]

كما قالﷺ: مثل الدنيا كمثل الحية لين مسها، والسم الناقع في جوفها، يهوي اليها الغر الجاهل، ويحذرها ذواللب العاقل.[٢]

٢ ـ أكيس الناس

ورد في بعض الروايات سئل رسول اللهﷺ من أكيس المؤمنين؟

فقالﷺ: «**أكيس المؤمنين أكثرهم ذكرا للموت، وأشدهم له استعدادا**»[٣].

وفي حديث آخر عنهﷺ تحت عنوان: «**أكيس الناس وأحزمهم**» جاء في آخره: «**أولئك الأكياس ذهبوا بشرف الدنيا وكرامة الآخرة**»[٤].

والدليل على ذلك واضح لأن ذكر الموت وفناء الحياة عامل مهم في الصد عن الذنوب والمعاصي التي تنشأ عادة من حب الدنيا والتعلق بزخارفها والحرص والطمع الذي ينسى ذكر الموت والآخرة **﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾**[٥].

ومن الأُمور التي حث عليها الإسلام زيارة القبور التي تهدف إلى احترام أرواح الأموات من المؤمنين، إلى جانب كونها من العوامل المهمة في إيقاظ الإنسان، حيث لايملك الإنسان هناك سوى الأذعان لهذه الحقيقة.

كل فتى وان طالت سلامته ... لابدّ يوماً على آلة الحدباء محمول

٭٭٭

١. نهج البلاغة، كلمات القصار ١٣١.
٢. نهج البلاغة، كلمات القصار ١١٩.
٣. ميزان الحكمة ٣/ح ١٨٠١٣.
٤. ميزان الحكمة ٣/ح ١٨٠١٤.
٥. سورة العنكبوت/٦٥.

الخطبة[1] ١٠٠

ومن خطبة له ﷺ

في رسول الله وأهل بيته ﷺ

نظرة إلى الخطبة

كما أشرنا في سند الخطبة فانّ الإمام ﷺ خطبها أوائل خلافته. حيث استهلها بحمد الله والثناء عليه، ثم تطرق إلى رسالة النبي ﷺ وضرورة طاعته واتباعه. ثم أشار ﷺ إلى بعض الأخبار عنه وعن أهل العراق فقال: فاذا أنتم ألنتم له رقابكم، وأشرتم إليه باصابعكم، جاءه الموت فذهب به.

ثم يختتم الخطبة بالحديث عن عظمة آل محمد ﷺ وبركتهم واستمرار هدايتهم، وكلما ذهب منهم أحد خلّفه آخر.

---

١. سند الخطبة، لابن أبي الحديد كلام في هذه الخطبة يدل على أنّه نقلها من مصدر آخر غير نهج البلاغة فقد قال: واعلم أنّ هذه الخطبة خطب بها أمير المؤمنين علي ﷺ في الجمعة الثالثة من خلافته، وكنى فيها عن مال نفسه، وأعلمهم فيها أنّهم سيفارقونه ويفقدونه بعد اجتماعهم عليه وطاعتهم له؛ وهكذا وقع الأمر، فانّه نقل أن أهل العراق لم يكونوا أشد اجتماعاً عليه من الشهر الذي قتل فيه ﷺ. وجاء في الأخبار أنّه عقد للحسن ابنه ﷺ على عشرة آلاف، ولأبي أيوب الأنصاري على عشرة آلاف ولفلان وفلان، حتى اجتمع له مائة ألف سيف، وأخرج مقدمته، أمامه يريد الشام فضربه اللعين ابن ملجم، وكان من أمره ما كان، وانفضت تلك الجموع، وكانت كالغنم فقدت راعيها. (مصادر نهج البلاغة ١٩٨/٢).

القسم الأول

«الْحَمْدُ لِلّهِ النَّاشِرِ في الْخَلْقِ فَضْلَهُ، وَالْبَاسِطِ فِيهِمْ بِالْجُودِ يَدَهُ. نَحْمَدُهُ فِى جَمِيعِ أُمُورِهِ، وَنَسْتَعِينُهُ عَلَىٰ رِعَايَةِ حُقُوقِهِ، وَنَشْهَدُ أَنْ لَا إِلٰهَ غَيْرُهُ وَأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَرْسَلَهُ بَأَمْرِهِ صَادِعاً، وَبِذِكْرِهِ نَاطِقاً، فَأَدَّىٰ أَمِيناً، وَمَضَىٰ رَشِيداً؛ وَخَلَّفَ فِينَا رَايَةَ الْحَقِّ، مَنْ تَقَدَّمَهَا مَرَقَ، وَمَنْ تَخَلَّفَ عَنْهَا زَهَقَ، وَمَنْ لَزِمَهَا لَحِقَ، دَلِيلُهَا مَكِيثُ الْكَلامِ، بَطِيءُ الْقِيَامِ، سَرِيعٌ إِذَا قَامَ، فَإِذَا أَنْتُمْ أَلَنْتُمْ لَهُ رِقَابَكُمْ، وَأَشَرْتُمْ إِلَيْهِ بِأَصَابِعِكُمْ، جَاءَهُ الْمَوْتُ فَذَهَبَ بِهِ، فَلَبِثْتُمْ بَعْدَهُ مَا شَاءَ اللّهُ حَتَّىٰ يُطْلِعَ اللّهُ لَكُمْ مَنْ يَجْمَعُكُمْ وَيَضُمُّ نَشْرَكُمْ، فَلا تَطْمَعُوا فِي غَيْرِ مُقْبِلٍ، وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ مُدْبِرٍ، فَإِنَّ الْمُدْبِرَ عَسَىٰ أَنْ تَزِلَّ بِهِ إِحْدَىٰ قَائِمَتَيْهِ، وَتَثْبُتَ الْأُخْرَىٰ، فَتَرْجِعَا حَتَّى تَثْبُتَا جَمِيعاً».

الشرح والتفسير

راية الحق

لاشك أنّ الهدف الأصلي للخطبة بيان أوصاف رسول الله ﷺ ومقامات أهل بيته عليهم السلام، ولكن وعلىٰ ضوء الحديث المعروف: «**أن كل خطبة ليس فيها تشهد فهي كاليد الجذماء**»[1]، فانّ الإمام عليه السلام إستهل كلامه بحمد الله والثناء على والشهادة له بالوحدانية وللرسول الأكرم ﷺ بالنبوة، لتستنير القلوب بهاتين الشهادتين وتتأهب لسماع المطالب القادمة.

فقال عليه السلام: «**الحمد لله الناشر في الخلق فضله، والباسط فيهم بالجود يده**».

---

١. شرح نهج البلاغة للمرحوم العلامة الخوئي ١٥٧/٧.

فوصف بالله بهذه الصفات هو في الواقع دليل على تفرده سبحانه بكل حمد وثناء، نعم فهو الجدير بكل مدح وحمد وثناء، كيف لا وقد عم فضله وانتشر جوده وملأت أركان العالم نعمه وآلائه. و لا ينبغي ذلك لمن سواه، فهم عيال على نعمه.

ثم أشار إلى سعة حمده و الثناء عليه قال ﷺ: «**نحمده في جميع أموره، ونستعينه على رعاية حقوقه**».

فالعبارة «**جميع أموره**» تفيد أننا لانحمده عند النعم والرفاه والدعة والعافية فحسب، بل نحمده ونشكره في البلاء والشدة وحين الوقائع الخطيرة، وذلك لأنه أولاً: كل ما يفعله اللـه يتفق والحكمة والمصلحة، حتى المصائب التي تصب علينا إختباراً فهي كفارة لذنوبنا، أو أنّها سبب ليقظتنا من نوم الغفلة.

وثانياً: أنّ هذه الحوادث تجعلنا ننال أجر وثواب الصابرين وجزاء الشاكرين وهذه نعمة كبرىٰ.

والعبارة «**ونستعينه...**» أي إننا يجب أن نستمد العون منه لطاعته وإمتثال أوامره ورعاية حقوقه، حيث لايسعنا فعل شيء دون عونه، وهذا ما نردده ليل نهار في صلواتنا **﴿إِيَّاكَ نَعبُدُ وَإِيَّاكَ نَستَعِين﴾** ولما فرغ ﷺ من حمد الله والثناء عليه، شهد لله بالوحدانية وأن لا معبود سواه «**ونشهد أن لا إله غيره**».لأننا إذ سلمنا أنّ النعم منه، فانّ العبودية والطاعة لاتليق الا به سبحانه وبذاته المقدسة.

ثم اتبعها بالشهادة للنبي ﷺ بالنبوة والعبودية: «**وأن محمدا عبده ورسوله**» أمّا تقديم العبودية على الرسالة، فتفيد نفيها لكافة أنواع الشرك عن المؤمنين، إلىٰ جانب كون مقام العبودية أفضل وأسمى من مقام النبوة! لأنّ العبد الكامل المخلص لله يرىٰ تمام وجوده للـه، فلايفكر في سواه ولايرجو غيره، وهذا بحد ذاته أوج تكامل الإنسان الذي ليس بعده من مقام. ثم أشار ﷺ إلىٰ بعض صفات النبي الأكرم ﷺ في أنّه صدح بالحق، وأدىٰ رسالته بكل أمانة حتى مضى إلى ربّه بعد أن ثبت دعائم الحق: «**أرسله بأمره صادعاً**[1] **وبذكره ناطقاً**،

---

١. «صادع» من مادة «صدع» فالقا به،كما وردت هذه المفردة بمعنى الاظهار والاعلان، حيث يظهر باطن الشيء عند فلقه وهذا ما اريد بها في العبارة، وأمّا «الصداع» الذي يطلق علىٰ وجع الرأس فكأنه يريد أن يفلقه.

فأدى أمينا، ومضى رشيدا؛ وخلف فينا راية الحق».

فقد أشار الإمامعليه السلام بهذه العبارة إلىٰ الخدمات الجليلة التي أسداها النبي الأكرمصلى الله عليه وآله، إلىٰ جانب ابلاغه لأوامر الحق ونواهيه، كما شرح من جانب آخر كل مايلزم لمعرفة الله سبحانه، وأنّهصلى الله عليه وآله كان أميناً في قيامه بهذه المهمة في أداء الرسالة، كما عملصلى الله عليه وآله بما قال ليكون للأُخرى أسوة صالحة، كما كان حريصاً على الأجيال القادمة فنصب لهم راية الحق، حيث خلف في الأُمّة كتاب الله وسنته.

واختلف الشرّاح في تفسير المراد بقوله: «**راية الحق**» فذهب البعض الر أن المراد به القرآن الكريم، وقيل الكتاب والسنة، كما فسر بالكتاب والعترة اللذان وردا في حديث الثقلين.

إلّا أنّ تفسيرها بالكتاب والسنة (لأنّ الكتاب دعا إلىٰ السنة) أنسب بالنظر لتصدر الكلام بالعبارة: «**دليلها مكيث الكلام**».

ثم أضافعليه السلام قائلاً: «**من تقدمها مرق**[1]**، ومن تخلف عنها زهق**[2] **ومن لزمها لحق**».

فالعبارة تشير إلىٰ كيفية التعامل الطوائف الثلاث من الناس مع الحق: طائفة مفرطة تتقدم على الحق فتصيبها الحيرة والضلال كالخوارج الذين ذهبت بهم الظنون بأنّهم إنّما يعملون بالقرآن فتقدموا على إمام زمانهم فعاشوا بحماقتهم ذلك التناقض، أو كأولئك الذين كانوا على عهد رسول اللهصلى الله عليه وآله فرأوه أفطر حين سافر فزعموا أنّهم لايفطرون رعاية طرحة شهر رمضان حتى تسموا بالعصاة[3] الطائفة الثانية من أهل التفريط الذين يتقدمون بضع خطوات في الحق ثم تحول أهوائهم وضعفهم دون مواصلة الطريق.

والطائفة الثالثة الملازمة للحق التي لا تتقدم عليه ولا تتخلف عنه؛ فهى تتحرك دائماً في ضل الحق حتى تبلغ أهدافها.[4]

---

١. «مرق» من مادة «مروق» على وزن غروب الخروج عن الدين، ومن هنا اطلق الخوارج علىٰ تلك الفرقة التي خرجت عن الإيمان.

٢. «زهق» من مادة «زهوق» الاضمحلال والهلكة.

٣. وسائل الشيعة ١٢٥/٧، ح ٧ (ابواب من يصح منه الصوم).

٤. يمكن أن يكون مفعول لحق كتاب الله أو رسول الله أو الحق أو جميعها.

ثم قال ﷺ: «**دليلها مكيث**[١] **الكلام، بطيىء القيام، سريع إذا قام**».

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا: هل المراد بالدليل في العبارة حامل الراية؟ أم الشخص الذي يتحرك في مقدمة العسكر والعارف بالطريق الذي يهدي الآخرين إلىٰ جادة الصواب؟

يبدو الاحتمال الأول هو الاقوى، لأنّ حامل الراية ينهض بمسؤولية الهداية أيضاً، والعسكر مكلف باتباعه أينما حل.

على كل حال فقد صرح أغلب شرّاح نهج البلاغة أنّ المراد به شخص أمير المؤمنين عليه السلام أو جميع أهل البيت عليهم السلام؛ فقد قرنوا عليهم السلام ـ حسب حديث الثقلين ـ بالقرآن وأنّهم لن يفترقوا عنه أبداً، حيث جاء في الحديث: «**إنّي تارك فيكم الثقلين ما أن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبداً كتاب الله وعترتي أهل بيتي وقد نبأني اللطيف الخبير أنّها لن يفترقا حتى يردا علي الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما**».

وأميرالمومنين علي عليه السلام من قال له رسول الله ﷺ حسب مصادر الفريقين: «**انت مع الحق والحق معك حيثما دار**»[٢].

فقد كان عليه السلام القرآن الناطق ومبين سنة رسول الله ﷺ.

والعبارة «**مكيث الكلام**» لا تعني أنّه قليل الكلام؛ بل تعني تريثه في الكلام، وبعبارة أُخرىٰ أنّه رزين في كلامه فلا يبادر من غير روية. والعبارة «**بطيئى القيام، سريع إذا قام**» تأكيد لهذا المعنى وهو أنّ أعماله هي الاخرىٰ رزينة كأقواله، فلايعجل في قيامه بالأعمال، ولكن إذا حان العمل لم يفوت الفرصة، فيقدم عليه بكل صرامة دون أدنى ترديد. والحق أنّ من عرف

---

١. «مكيث» من مادة «مكث» الرزين في قوله فلايبادر من غير روية في قوله وعمله.

٢. نقل هذه الحديث عن أم سلمة بطرق مختلفة عن النبي الأكرم ﷺ. ومن ذلك نقله ابن عساكر في تاريخ دمشق وأبوبكر البغدادي في تاريخ بغداد والحموي في فرائد السمطين. وجاء في صحيح الترمذي أنّ رسول الله ﷺ قال «**اللّهم أدر الحق معه حيثما دار**»(للوقوف علىٰ تفاصيل هذا الحديث راجع كتاب احقاق الحق ٦٢٣/٥ والغدير ١٧٦/٣). والطريف مانقله الفخر الرازي في تفسير سورة الحمد في مورد الجهر بالبسملة عن البيهقي عن أبي هريرة ان رسول الله ﷺ كان يجهر بالبسملة، ثم قال: كماكان يجهر بها عمر وابن عباس وعبدالله بن عمر وعبد الله بن الزبير أمّا علي عليه السلام فقد ثبت بالتواتر أنّه كان يجهر بالبسملة دائماً، فمن اقتدى به في دينه هدى إلىٰ الحق والدليل على ذلك حديث النبي ﷺ أنّه قال: «**اللّهم أدر الحق مع علي حيث دار**»(تفسير الفخر الرازي ٢٠٤/١ـ٢٠٥).

سيرة أميرالمؤمنين عليﷺ يذعن بهذه الصفات التي انطوت عليها شخصيته. فقد تواتر عليه بعض الأفراد بعد رحيل النبيﷺ وناشدوه القيام؛ إلّا أنّه لم يجبهم بسبب عدم توفر الشرائط اللازمة إلىٰ جانب خشيته من الأعداء المتربصين بالإسلام، بينما نهض بالأمر لما تغيرت الظروف.

وهناك شواهد أُخرى كثيرة وردت في كلماتهﷺ بهذا الشأن[1].

ثم قالﷺ: «**فاذا أنتم ألنتم له رقابكم، وأشرتم إليه باصابعكم، جاءه الموت فذهب به**».

إشارة إلى أنّه يعاني الأمرين حتى يجمعكم تحت رايته، وتسلمون لإمامته بحيث تشيرون إليه من كل جانب، ولكن ما أن تتمهد مقومات الاتحاد وعناصر النصر والغلبة حتى تأخذه يد القدر منكم فتتفرقون ثانية ويتسلط عليكم الأعداء.

ولعل العبارة إشارة لما أوردناه سابقاً في سند الخطبة في أنّ الناس اجتمعوا على الإمامﷺ في الشهر الذي قتل فيه بحيث اجتمع له مأة الف سيف، عقد كل عشرة الآف لرجل، فخرجﷺ يريد الشام، فحال ابن ملجم بينه وبين ذلك. إلّا أنّ بعض شرّاح نهج البلاغة فسروها بعصرهﷺ، إلّا أنّ هذا التفسير يبدو بعيداً، وذلك لأن العبارات قبل هذه الجملة تفيد خلاف هذا المعنى، ولاسيما أنّ الخطبة بعد خلافتهﷺ وفيها اشارات إلىٰ المستقبل.

ثم حاول الإمامﷺ الحيلولة دون شعور أصحابه باليأس، فبشرهم بالنصر القادم قائلاً: «**فلبثتم بعده ماشاء الله حتى يطلع الله لكم من يجمعكم، ويضم نشركم**».

أمّا من المقصود بهذا القيام؟ فقد أورد الشرّاح احتمالين: أحدهما: أن يكون المراد قيام الإمام المهديﷺ، والآخر قيام بني العباس الذي أنهى حكومة بني أمية واجتث جذور ظلمهم وفسادهم، وان ما رسوا بدورهم نوعاً آخر من الجرائم والجنايات. ويبدو الاحتمال الأول أنسب، فلم تكن لبني العباس مثل هذه الجدارة في عباراتهﷺ، كما لم تكن جناياتهم بحق شيعة عليﷺ وأهل العراق بأقل من جنايات بني أمية. أضف إلىٰ ذلك فالكلام في رافع راية

---

١. راجع شرح الخطبة الخامسة والسادسة من المجلد الأول من هذا الكتاب.

الحق، ومن المسلم به أنّ راية بني العباس كانت باطلة.

كما قيل في تفسير العبارة المذكورة أنّ المراد بذلك الاجتماع لأصحابه هو الاجتماع الفكري والثقافي إلىٰ جانب الاجتماع السياسي والعسكري، وهو المعنى الذي تحقق على عهد الإمام الباقر والصادق والرضا عليهم السلام، والعبارات الأخيرة من الخطبة إنّما تؤيد هذا المعنى.

إلّا أنّ هذا الاحتمال يبدو مستبعداً بالنظر إلىٰ عدم انسجام هذا التفسير مع العبارات السابقة التي أشارت إلىٰ الاجتماع السياسي والعسكري. ولكن على كل حال، فالهدف من هذه العبارة نفي ما يسيطر على الأفكار عادة بعد الهزيمة و هو اليأس و التشاؤم. فوصفها بأنها أمواج عابرة و هنالك المستقبل المشرق الذي ينتظر المجتمع الإسلامي. و من هنا ذكر ما يؤيد ذلك.

ثم قال عليه السلام: «**فلا تطمعوا في غير مقبل، ولاتيأسوا من مدبر، فانّ المدبر عسى أن تنزل به إحدى قائمتيه، وتثبت الأُخرىٰ، فترجعا حتى تثبتا جميعاً**».

فالواقع هو أنّ الإمام عليه السلام بين قاعدتين كليتين لابدّ من الاهتمام بهما في الحوادث الصعبة:

الاولىٰ: لاينبغي التفاؤل المفرط في مثل هذه الحالات والاعتماد علىٰ شيء لم تتوفر بعد مقدماته.

الثانية: ألاتدعو الهزيمة إلىٰ اليأس والقنوط ـ فيشبه الإمام عليه السلام ذلك بمن يتحرك في جادة فتزل احدى قدميه، فيظن الناس أنّه سقط ولاسبيل إلىٰ قيامه ثانية، إلّا أنّه سرعان مايعتمد على قدمه الأُخرى فينهض من سقطته ويجد في الحركة ثانية.

بناءاً على هذا لاينبغي اليأس عند الحوادث الاجتماعية الصعبة والاستسلام لمعاناتها، كما لاينبغي التعلق بالحركات الطائشة.

وذهب بعض شرّاح نهج البلاغة إلىٰ أنّ سائر الأئمة عليهم السلام غير الإمام المهدي عليه السلام هم المرادون بقوله «غير مقبل»، وأنّ قوله عليه السلام لاتطمعوا في غير مقبل، إشارة إلىٰ الشرائط اللازمة لقيامهم عليهم السلام ليست متوفرة، ومدبر إشارة إلىٰ الإمام المهدي عليه السلام فلاينبغي اليأس من ظهوره في أي زمان.

إلّا أنّ هذا التفسير لاينسجم قط والعبارات في آخر هذا المقطع من الخطبة؛ لأنّ زلل القدم

والاعتماد على الأُخرى لاينطبق عليه‌ﷺ إلّا بتكلف شديد.

اضافة إلىٰ أنّ التعبير بمقبل ومدبر بصيغة التنكير يدل على أنّ المراد بيان قاعدة كلية، لا الإشارة إلىٰ مصداق شخصيي، وإلّا كان من المناسب تحليتها بالالف واللام.

تأمّلان

١ ـ أولياء الله

إنّ الخصائص التي ذكرها الإمام‌ﷺ بحقه بصورة غير مباشرة في العبارة المذكورة، هى في الواقع إشارة إلىٰ الصفات التي ينبغي أن يشتمل عليها كل زعيم رباني مدير ومدبر:

الأول: لابدّ أن يكون رزينا في كلامه إلىٰ جانب التريث والتروي قبل المبادرة. كما ورد ذلك في ماروي عن أميرالمومنين‌ﷺ قوله «**لسان العاقل وراء قلبه، وقلب الأحمق وراء لسانه**».[١]

فالعاقل يفكر أولاً ثم يتكلم، أمّا الأحمق فهو يتكلم ثم يفكر.

الثاني: أعماله هى الأُخرىٰ رزينة كأقواله، فهو يفكر في عواقب العمل، فاذا احاط به وعرفه أقدم عليه دون تردد ـ فقد جاء في الحديث الشريف عن النبي‌ﷺ أنّه قال: «**إذا هممت بأمر فتدبر عاقبته، فان يك خيراً ورشداً فاتبعه، وان يك غياً فاجتنبه**»[٢].

٢ ـ الفشل قنطرة النجاح

هناك من يشعر باليأس لأدنى حادثة صعبة، فيما رس بعض ردود الفعل الساذجة، ومثل هذا اليأس يحول دون القيام بالأنشطة والمواقف المطلوبة مستقبلاً؛ الأنشطة التي قد تحيل النشل نجاحا والهزيمة نصراً. والالتفات إلىٰ أمرين مهمين أوردهما الإمام‌ﷺ في الخطبة من شأنه أنّ يعالج هذه المواقف السلبية.

الأول: إجتناب الاستعجال في الأعمال والتعويل علىٰ مالم تتوفر مقدماته، الثاني: عدم

---

١. نهج البلاغة، الكلمة ٤٠.

٢. شرح نهج البلاغة للعلامة الخوئي ١٥٩/٧.

اليأس من جراء بعض الاخفاقات المرحلية؛ لأنّ الاخفاق يتحول إلىٰ نجاح بالتجارب.

أضف إلىٰ ذلك فانّ الألطاف الإلهية قد تشمل الإنسان وتمهد له كل أسباب النجاح ومقومات النصر. فقد ورد عن أميرالمؤمنين علي عليه السلام طبق رواية الشيخ الصدوق في الامالي أنّه قال «**كن لما لاترجو أرجى منك لما ترجو**»، ثم يوضح ذلك عليه السلام بذكر ثلاثة نماذج رائعة بقوله أنّ موسى بن عمران خرج يلتمس لاهله ناراً فعاد نبياً، كما قدمت ملكة سبأ للقاء نبي الله سليمان عليه السلام فأسلمت وآمنت، كما خرج السحرة يبغون العزة لفرعون فانقلبوا مؤمنين بالله وبموسى عليه السلام.[1]

———

١. امالي الصدوق / ١٥٠ ح ٧.

القسم الثاني

«ألَا إِنَّ مَثَلَ آلِ مُحَمَّدٍ، صَلَّى اللّه عَلَيْهِ وَآلِهِ كَمَثَلِ نُجُومِ السَّماءِ، إِذَا خَوَىٰ نَجْمٌ طَلَعَ نَجْمٌ، فَكَأَنَّكُمْ قَدْ تَكَامَلَتْ مِنَ اللّه فِيكُمُ الصَّنَائِعُ، وَأَرَاكُمْ مَا كُنْتُمْ تَأْمُلُونَ».

ﻸﻹ

الشرح والتفسير

هدي آل محمدﷺ

خاطب الإمامﷺ كافة الناس في آخر الخطبة داعيا اياهم إلىٰ الحركة خلف آل النبيﷺ بصفتهم الكواكب الزاهرة، وكلما غاب كوكب خلفه آخر «**ألا إنّ مثل آل محمد صلى الله عليه وآله كمثل نجوم السماء، إذا خوى[1] نجم طلع نجم**».

ثم قالﷺ: «**فكأنكم قد تكاملت من الله فيكم الصنائع[2]، وأراكم ماكنتم تأملون**»، فقد أشار الإمامﷺ بهذه العبارة القصيرة إلىٰ عدّة أمور: منها أنّ آل محمدﷺ كالنجوم التي قال بشأنها الحكيم في كتابه الكريم: **﴿وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾**[3]، كما قال في موضع آخر: **﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجومَ لِتَهْتَدُوا بِها فِي ظُلُماتِ الْبَرِّ وَالبَحْرِ﴾**[4] فالقوافل كانت تهتدي في الصحارى والبحار في الليالي الظلماء بنجوم السموات، حيث لم يخترع آنذاك البوصلة، كما لم تكن الطرق معبدة بالشكل الذي هي عليه اليوم.

فالنجاة في الدنيا والآخرة ونيل السعادة إنّما تتحقق في ظل هدي آل محمدﷺ والأمر الآخر أنّ السماء لاتخلو لياليها من النجوم، فاذا غابت نجمة، أشرقت أُخرىٰ في أفقها؛ وهكذا

---

١. «خوىٰ» من مادة «خوىٰ» بمعنى غرب.

٢. «صنايع» جمع «صنيعة» النعمة والاحسان.

٣. سورة النحل/١٦.

٤. سورة الانعام/٩٧.

أهل البيت عليهم السلام إذا رحل امام خلفه آخر حتى يقوم آخرهم المهدي عليه السلام فيملأ الدنيا قسطا وعدلا، فالعبارة تفيد اتصال سلسلة الإمامة التي تأبى القطع. بعبارة أُخرى فانّ الأرض لاتخلو من حجة الله. والعجيب ما أورده بعض شرّاح نهج البلاغة كابن أبي الحديد حين بلغ العبارة المذكورة اذ قال: وهذا إشارة إلىٰ المهدي الذي يظهر في آخر الوقت، وعند أصحابنا أنّه غير موجود الان وسيوجد ويملأ الأرض قسطاً وعدلاً.

ولو أمعن هذا القائل في العبارات التي وردت في ذيل الخطبة لوقف على خطأه في ما ذهب إليه؛ ولكن للأسف! فانّ التعصب قد لايسمح أحياناً بان يلتفت الإنسان إلىٰ القرائن الواضحة.

وأخيراً قال الإمام عليه السلام بأنّ اتباع أهل البيت عليهم السلام يؤدي إلىٰ نيل كافة الأماني وبلوغ جميع النعم، وهذا ما يكشف بدوره عن دور أهل البيت في التكامل الديني والدنيوي في كافة الازمنة، وماذهب إليه بعض الشرّاح من أنّه إشارة إلىٰ زمان ظهور الإمام المهدي عليه السلام فهو كلام يفتقر إلىٰ الدليل.

كما يمكن ان يكون المراد بالعبارة هو أنّ الإمام عليه السلام قال: إنّ الله سبحانه وفرّ لكم كل أسباب السعادة ومنها وجود آل محمد صلى الله عليه وآله.

تأمّلان

١ـ حديث النجوم

ما أورده الإمام عليه السلام في هذه الخطبة شأن آل محمد صلى الله عليه وآله وتشبيههم بنجوم السماء، هو في الواقع اقتباس من الحديث النبوي المعروف الذي قال فيه صلى الله عليه وآله: «**النجوم أمان لأهل الأرض من الغرق، وأهل بيتي أمان لأمتي من الاختلاف**».

رواه الحاكم النيشابوري من علماء العامة في كتاب المستدرك عن ابن عباس وقال: «**هذا حديث صحيح الاسناد**»[1].

١. مستدرك الحاكم ١٤٩/٣ (طبق نقل احقاق الحق ٢٩٤/٩).

كما رواه عدد من محدثي العامة ومنهم الحمويني في فرائد السمطين وابن حجر في الصواعق ومحمد بن صبان في اسعاف الراغبين وغيرهم[١] وقد أفرد المرحوم العلّامة المجلسي في بحث الإمامة من كتابه بحار الانوار عنواناً أسماه: «**إنّهم أمان لأهل الأرض من العذاب**»، وقد نقل فيه عدة أحاديث عن طرق أهل البيت، كما صرح قائلاً: رواه أحمد بن حنبل في مسنده عن النبي ﷺ.[٢]

ومن الواضح أنّ تشبيه أهل البيت عليهم السلام بالنجوم يدل على ما أورده الإمام عليه السلام في الخطبة أيضاً بدليل الدلالة الالتزامية، لأنّ طبيعة نجوم السماء بهذه الشاكلة إذا غرب أحدها في أفق المغرب، طلع الآخر في أفق المشرق ـ أضف إلىٰ ذلك فان التعبير بأمتي تفيد أن جميع أمّة النبي ﷺ على طول الزمان يمكنها أن تهتدي بأهل البيت عليهم السلام، وبالنتيجة فانه سيكون هناك إماماً على الدوام من اهل البيت عليهم السلام في الأُمّة.

٢ ـ آخر مراحل تكامل النعم الإلهية

هذه النقطة جديرة بالالتفات أيضاً وهى أنّ تكامل النعم الإلهية في ظل أهل البيت عليهم السلام سيكون في كل زمان، إلّا أنّ ذروة كما لها ستكون في عصر ظهر الإمام المهدي عليه السلام أرواحنا فداه.

فقد نقل المرحوم ابن ميثم حديثا في شرح هذه الخطبة وقال: رأيت حديثا للإمام عليه السلام يمكنه أن يوضح هذه الخطبة: «**يا قوم اعلموا علما يقيناً، إن الذي يستقبل قائمناً من أمر جاهليتكم ليس بدون ما استقبل الرسول من أمر جاهليتكم... ولعمري لينزعن عنكم قضاة السوء، وليقبضن عنكم المراضين (المرائين) وليعزلن عنكم أمراء الجور، وليطهرن الأرض من كل غاش، وليعملن فيكم بالعدل، وليقومن فيكم بالقسطاس المستقيم**».[٣]

---

١. احقاق الحق ٢٩٤/٩ ـ ٢٩٦.
٢. بحارالانوار ٣٠٨/٢٧.
٣. شرح نهج البلاغة لابن ميثم ٩/٣.

الخطبة[1] ١٠١

ومن خطبة له عليه السلام

وهي إحدى الخطب المشتملة على الملاحم

نظرة إلى الخطبة

هذه الخطبة كما ينهم من عنوانها تتحدث بصورة رئيسية عن الحوادث القادمة، والأخطار التي تهدد المسلمين، خاصة أهل العراق.

الا أنّها تتناول أمرين قبل ذلك: الأول: حمد الله والثناء عليه والشهادة له بالوحدانية مع ذكر بعض الأُمور. والثاني: الاعراب عن القلق من بعض من يسمع كلمات الإمام عليه السلام واخباراته على سبيل الشك والترديد.

---

١. سند الخطبة: ورد في كتاب مصادر نهج البلاغة لم تذكر هذه الخطبة في غير مصدر السيد الرضي (ره)، وأن ذكرت اسناد هذه الخطبة في نهج البلاغة، طبعة جماعة مدرسي الحوزة للمحقق المرحوم حجة الإسلام الدشتي، غير أنّه تبين خطأها بعد الرجوع إلى المصادر الأصلية التي ذكرت في ذلك الكتاب.

القسم الأول

«الْحَمْدُ لِلّهِ الأَوَّلِ قَبْلَ كُلِّ أَوَّلٍ، وَالْآخِرِ بِعْدَ كُلِّ آخِرٍ، وَبِأَوَّلِيَّتِهِ وَجَبَ أَنْ لَا أَوَّلَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللّهُ شَهَادَةً يُوَافِقُ فِيهَا السِّرُّ الإِعْلَانَ، وَالْقَلْبُ اللِّسَانَ».

الشرح والتفسير

الشهادة المطلقة

استهل ﷺ هذه الخطبة كسائر الخطب بحمد الله والثناء عليه والشهادة له بالوحدانية، ثم تطرق إلىٰ ذكر صفات الحق سبحانه: **«الحمد لله الأول قبل كل أول، والآخر بعد كل آخر»**.

فالإمام ﷺ انطلق هنا نحو أزلية الله وأبديته سبحانه التي تعد من أهم صفاته وتعود اليها سائر الصفات؛ وذلك لأننا قلنا في بحث الصفات: أنّ أساس صفاته الجمالية والجلالية عدم تناهي ذاته المقدسة من جميع الجهات، والازلية والأبدية هي بيان آخر لعدم محدودية تلك الذات المقدسة.

ثم خاض ﷺ في بيان الدليل أو وضح ذلك بقوله **«وبأوليته وجب أن لا أول له، وبآخريته وجب أن لا آخر له»**.

فالعبارة تشتمل علىٰ نقطة لطيفة وهي أنّ أوليته سبحانه وتعالى ليست أولية زمانية، بل أولية ذاتية وبمعنى الأزلية، ومن الواضح أنّ الذاتي الذي هو أزلي ليس له من أولية زمانية. وكذلك آخريته هي الآخرىٰ ذاتية، لا زمانية وبمعنى الأبدية، وما كان أبدياً فلاآخر زماني له.

وقد أورد بعض شرّاح نهج البلاغة احتمالات أُخرى في تفسير هذه العبارة لا تنسجم وسائر عبارات الإمام ﷺ.

ثم شهد لله بالوحدانية والعبودية له علىٰ مستوىٰ اللسان والقلب: «**وأشهد أن لا إله إلّا الله شهادة يوافق فيها السر الاعلان، والقلب اللسان**».

فالعبارة تفيد ان الشهادة المطلوبة التي تشمل تمام وجود الإنسان والكيان والتي ينسجم فيها الظاهر والباطن والقلب واللسان.

فالأعم الأغلب يشهد بالوحدانية لساناً، بينما يعيش الوثنية والصنمية في قلبه. وكذلك الكثير ممن يشهد قلباً بهذه الوجدانية، بينما تخالط الشرك أعمالهم وأفعالهم. فهم يسجدون للمال والمقام ويركعون أمام الشهوات؛ بينما قد يرددون صباح مساء على ألسنتهم أو قلوبهم «**لا إله إلّا أنت**»، و نعلم أنّ كل هذا من شعب النفاق، ومثل هؤلاء الأفراد بحق في زمرة المنافقين.

القسم الثاني

«أَيُّهَا النَّاسُ، لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي، وَلَا يَسْتَهْوِيَنَّكُمْ عِصْيَانِي، وَلَا تَتَرَامَوْا بِالأَبْصَارِ عِنْدَ مَا تَسْمَعُونَهُ مِنِّي. فَوَ الَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ وَبَرَأَ النَّسَمَةَ، إِنَّ الَّذِي أُنَبِّئُكُمْ بِهِ عَنِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، مَا كَذَبَ الْمُبَلِّغُ، وَلَا جَهِلَ السَّامِعُ».

الشرح والتفسير

الحق ما أقول

مهد الإمام عليه السلام في الواقع بكلامه ما أراد أنّ يورده هنا في إماطة اللثام عن بعض الحوادث الآتية هو عين اليقين والحق الذي سمعه من رسول الله صلى الله عليه وآله ولا سبيل إلىٰ مخالفته. وتفيد هذه العبارات أن الإمام عليه السلام قد أخبر سابقاً عن بعض الحوادث فانكرها عليه بعض المنافقين أوضعاف الإيمان. فو عظهم عليه السلام بأنّ عدائي ومخالفتكم لي لا تدفعكم إلىٰ مقارفة الذنب، ولاينبغي أن تسوقكم معصيتكم لي إلىٰ اتباع هوىٰ أنفسكم، فاذا سمعتم ما أقول أنكرتم عليَّ **«أيّها الناس لا يجرمنكم[1] شقاقي[2]، ولا يستهو ينكم[3] عصياني، ولا تتراموا بالأبصار، عند ما تسمعونه منّي».**

ومراده عليه السلام أنّ الحقد والحسد والضغينة تسوق الإنسان في أغلب الأحيان إلىٰ ارتكاب الذنب والمعصية، فتكون حجاباً علىٰ بصره لتمنعه عن رؤية الحقائق.

---

١. «يجرمّن» من مادة «جرم» على وزن جهر (جرم على وزن ظلم، اسم مصدر) تعني في الأصل القطع، ولما كان الإثم يقطع صلته بالله، فهذه الكلمة تطلق علىٰ الذنب، وعليه لايجرمنكم بمعنىٰ لا يحملنكم على الذنب.

٢. «شقاق» في الأصل تعني المخالفة والنزاع.

٣. «يستهوين» من مادة «هوى» من هوى النفس.

ثم قال عليه السلام: «**فو الذي فلق[١] الحبة وبرأ[٢] النسمة[٣] إن الذي أنبئكم به عن النبي الأمّي[٤] صلى الله عليه وآله، ما كذب المبلغ، ولا جهل السامع**» والعبارة التي صدرت بالقسم لمن ابداعات أميرالمؤمنين عليه السلام التي ذكرت لمرات في خطب نهج البلاغة، حيث يشير إلىٰ نقطة مهمّة وهى أنّ أهم وأعقد مسألة في نظام عالم الوجود هى مسألة الحياة؛ سواء في عالم النباتات أوفي عالم البشرية، ورغم الجهود المضنية التي بذلها الإنسان في هذا المجال، مازالت هنالك الأسرار التي تختزنها هذه الحياة لم تكتشف بعد. وبناءاً على هذا فانّ الحياة رائعة الخلق و هـو الشيء الذي يربطنا تأمله بالله و يدل على أن هذه الظاهرة العجيبة ليست بالشيء الذي انبثق دون علم الله وقدرته، فالاستفادة من هذه الأوصاف حين القسم تجسد مفهوما بارزاً في الأذهان.

على كل حال فانّ هـدف الإمـام عليه السلام طـمأنة مخـاطبيه إلىٰ أنّ مـايقوله بشأن الحـوادث المستقبلية لايستند إلىٰ الحدس والتخمين، ولا من قبيل نبوءات الكهنة، بل هو واقع وحـق سمعه من رسول الله صلى الله عليه وآله وليس الإمام عليه السلام من يخطىء في إدراك كلام النبي صلى الله عليه وآله. وعليه فما يقوله هو عين الحقيقة والصواب، واطلاعهم علىٰ هذه الأحداث من سبيله الحد من أخطارها.

فقد ورد في الخبر حين نزلت الآية الشريفة: ﴿**وَتَعِيَها أُذُنٌ واعِيَةٌ**﴾[٥].

قال رسول الله صلى الله عليه وآله لعلي عليه السلام: «**سألت الله تعالى أن يجعلها أذنك يا علي! قال عليه السلام فما نسيت شيئاً بعد ذلك**»[٦].

٭٭٭

١. «الخلق»: وتأتي أحيانا بمعنىٰ الابداع والايجاد والتقدير، وأحيانا بمعنىٰ الابتعاد والبرائة من الشيء. وفي هذه الخطبة جاءت هذه الكلمة بالمعنىٰ الاول.

٢. «برأ» من مادة «برء» على وزن ظلم وتعني الصحة وحسن الحال، أي خروج الشخص من حالته الاولىٰ، والتي كان فيها مريضاً إلى حالة جيدة وحسنة.

٣. «نسمة» تعني في الأصل هبوب الرياح المعتدلة، كما تأتي بمعنى التنفس، ومن هنا تطلق على الإنسان.

٤. التعبير بالأمي يطلق على الشخص الذي لا يعرف القراءة والكتابة، أو على الشخص الذي ينسب الى الأم، وهو الذي تعلم في أحضان أمه ولم يتعلم من غيرها.

وهنا نود ان نشير اشارة لطيفة في هذا المورد، وهي أن الرسول الاكرم صلى الله عليه وآله كان أمياً، ولكنه أخبر عن الماضي والمستقبل، وهذه من علامات ارتباطه بالله سبحانه وتعالى.

٥. سورة الحاقة/١٢.

٦. كفاية الطالب للكنجي /٤٠ وردى مثل هذا المعنى أغلب مفسري العامة كالقرطبي في تفسير جامع الأحكام والبرسوي في روح البيان والآلوسي في روح المعاني، ذيل الآية ١٢ من سورة الحاقة.

القسم الثالث

«لَكَأَنّي أَنْظُرُ إِلَىٰ ضِلِّيلٍ قَدْ نَعَقَ بِالشَّامِ، وَفَحَصَ بِرَايَاتِهِ فِي ضَوَاحِي كُوفَانَ، فَإِذَا فَغَرَتْ فَاغِرَتُهُ، وَاشْتَدَّتْ شَكِيمَتُهُ، وَثَقُلَتْ فِي الأَرْضِ وَطْأَتُهُ، عَضَّتِ الْفِتْنَةُ أَبْنَاءَهَا بِأَنْيَابِهَا، وَمَاجَتِ الْحَرْبُ بِأَمْوَاجِهَا، وَبَدَا مِنَ الأَيَّامِ كُلُوحُهَا، وَمِنَ اللَّيَالِي كُدُوحُهَا. فَإِذَا أَيْنَعَ زَرْعُهُ، وَقَامَ عَلَىٰ يَنْعِهِ، وَهَدَرَتْ شَقَاشِقُهُ، وَبَرَقَتْ بَوَارِقُهُ، عُقِدَتْ رَايَاتُ الْفِتَنِ الْمُعْضِلَةِ، وَأَقْبَلْنَ كَاللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، وَالْبَحْرِ الْمُلْتَطِمِ. هٰذا، وَكَمْ يَخْرِقُ الْكُوفَةَ مِنْ قَاصِفٍ وَيَمُرُّ عَلَيْهَا مِنْ عَاصِفٍ وَعَنْ قَلِيلٍ تَلْتَفُّ الْقُرُونُ بِالْقُرُونِ، وَيُحْصَدُ الْقَائِمُ، وَيُحْطَمُ الْمَحْصُودُ!».

ಐಌ

الشرح والتفسير

فتنة ضليل الشام

كشف الإمام عليه السلام في هذا الكلام ـ الذي يمثل في الواقع جوهر الخطبة ـ النقاب عن الحوادث المستقبلية الخطيرة التي تنتظر أهل العراق، ثم يشرح عليه السلام بعض تفاصيل وجزئيات هذه الحوادث المروعة، بغية أعداد الأمّة للحد من أخطارها: **«لكأنّي أنظر إلىٰ ضليل[1] قد نعق[2] بالشام، وفحص[3] براياته في ضواحي كوفان»[4].**

---

١. «ضليل» من مادة «ضلال» الشديد الضلال فهو ضال مضل.

٢. «نعق» من مادة «نعق» على وزن نعل تعني في الاصل صوت الفرس، ثم اطلق على الأصوات التي تطلق لحركة الحيوانات و أمرها و نهيها، و وردت في العبارة بمعنى أنّ بني أمية قد استضعفوا جماعة، يسوقونها كالحيوانات حيثما أرادوا.

٣. «فحص» البحث والتفتيش.

٤. «كوفان» بمعنى الكوفة.

ثم خاض في توضيح هذه الفاجعة الكبرىٰ: «**فاذا فغرت**[١] **فاغرته، واشتدت شكيمته**[٢] **وثقلت في الأرض وطأته، عضت الفتنة أبناءها بانيابها، وماجت الحرب بامواجها، وبدا من الايام كلوحها**[٣]**، ومن الليالي كدوحها**[٤]».

هناك قولان رئيسيان لشرّاح نهج البلاغة في المراد بالضليل في عبارة الإمامعليه السلام:

الأول: أن يكون المراد به معاوية الذي أحكم قبضته على العراق بعد شهادة أميرالمومنين عليعليه السلام وصلحه مع الإمام الحسن عليه السلام، وقد نفذ كل ماورد في العبارة عملياً، والثاني: أن يكون المراد به عبدالملك بن مروان الذي سلط ذلك المجرم المعروف الحجاج على الكوفة فسام الناس سوء العذاب وجرعهم أنواع الظلم، ومهما كان فالعبارة إشارة إلىٰ الطغاة من حكام بني أمية.

والعبارة: «**عضت الفتنة أبناءها بأنيابها**» إشارة إلىٰ أن هذه الفتن ستطيل حتى أولئك الذين يثيرونها! فعادة ماتعصف بهم الاختلافات الداخلية، أو أن يتسلط عليهم أعداؤهم فيذيقونهم أشد العذاب.

ثم قالعليه السلام: «**فاذا أينع زرعه وقام على ينعه**[٥]**، وهدرت شقاشقه**[٦]**، وبرقت بوارقه، عقدت رايات الفتن المعضلة، وأقبلن كالليل المظلم، والبحر الملتطم**».

في إشارة إلىٰ أنّ حكومة هؤلاء لن تدوم، كما لن يلتذ هؤلاء الضلال الظلمة بفتنهم، وسرعان ما تحيط بهم رايات المخالفين.

ويمكن أن تكون هذه العبارة إشارة إلىٰ قيام بني العباس ضد بني أمية.

ثم اختتمعليه السلام الخطبة بالقول: «**هذا، وكم يخرق الكوفة من قاصف، ويمرعليها من عاصف، وعن قليل تلتف القرون بالقرون، ويحصد القائم، ويحطم المحصود**».

والعجيب أن ما تكهن به الإمامعليه السلام في هذه العبارات القصار قد وقع سريعاً، فقد طحنت

---

١. «فغرت» من مادة «فغر» على وزن فقر فتح الضم.

٢. «شكيمة» تعني في الاصل الحديدة المعترضة في اللجام في فم الدابة، ويعبر بقوتها عن شدة البأس، ثم اطلقت علىٰ كل قوة.

٣. «كلوح» عبوس.

٤. «كدوح» شدة السعي والجهد، وتعني في الأصل الخدش وأثر الجراحات.

٥. «ينع» بمعنى نضج الفاكهة، ثم اطلق على كل نضج واستعداد لتلقي نتيجة.

٦. «شقاشق» جمع «شقشقة» شيء كالرئة يخرجه البعير من فيه إذا هاج.

الكوفة بفتن بني أمية ومن بعدهم بني العباس؛ لتصبح هذه المنطقة مركزاً لمختلف الحوادث العنيفة، وكل من كان له أدنى المام بتاريخ الكوفة يدرك بسهولة عمق كلمات الإمام﷣ التي أوردها في هذه الخطبة.

والعبارة: «**تلتف القرون بالقرون**» إشارة إلىٰ الحروب الطاحنة التي خاضها مختلف الأقوام في العراق والكوفة، ولاسيما حروب بني أمية وبني العباس.

والعبارة: «**يحصد القائم، ويحطم المحصود**» كناية لطيفة عن الاضرار والخسائر التي تلحق بالأُمّة طيلة هذه الحوادث. فمن كان قائما صرع، و من كان مصروعا تحطم.

أمّا ابن أبي الحديد فقد قال في شرحه للعبارة: «**يحصد القائم**» كناية عن قتل أمراء بني أمية في الحرب و«**يحطم المحصود**» كناية عن قتل المأسورين منهم صبراً، وهكذا وقعت الحال.

والحق أن ماذكره ابن أبي الحديد هو بعض مصاديق المفهوم الواسع للعبارة المذكورة.

تأمّلان

١ ـ الملاحم

ملاحم جمع ملحمة تعني في الأصل الواقعة المهمة المقرونة بالفتنة، وقد طالعتنا أغلب خطب نهج البلاغة في بعض الموارد التي يتحدث فيها أميرالمومنين علي﷣ عن الفتن المهمة التي تنتظر الناس، ثم يشرح جزئياتها، ويعلن صراحة أنه سمع ذلك عن رسول اللهﷺ. ويبدو أن الإمام﷣ يهدف شيئين من هذه الأخبار: الأول: حب الإمام﷣ للناس الذي يدفعه لاخبارهم بغية تأهبهم واستعدادهم ليحذروا من أخطار هذه الفتن؛ بالضبط كمن يخبر الآخرين قبل وقوع الزلزال أو السيل؛ وان تعذر منعها، إلّا أنّ العلم المسبق يحد من هذه الاخطار. الثاني: افهامهم أنّ التواني عن الجهاد والضعف والاختلاف إنّما يقود إلىٰ مثل هذه الحوادث، علهم يفيقون إلىٰ أنفسهم فيتوبون وينيبون إلىٰ الله.

وسنبحث نظير هذه الأُمور في شرحنا للخطب ١٢٨ و١٣٨ من هذه الكتاب.

٢ ـ الكوفة مركز الازمات والعواصف

لاشك أنّ من له أدنى معلومات مختصرة بتأريخ الكوفة، ليعلم أنّ الكوفة من المناطق التي شهدت أقسى الأحداث وأخطرها طيلة التأريخ الإسلامي. بعبارة أُخرى فان الكوفة كانت مسرحاً لاحداث دامية، وجرائم وجنايات بشعة مارستها بحقها طغاة بني أمية وبني العباس، بما يندى لها جبين البشرية حين يتصفح التاريخ.

هذا وقد أوردنا شرحاً مفصلاً في الخطبة ٢٥ و٤٧ من المجلد الثاني والخطبة ٨٧ من المجلد الثالث بشأن الحوادث البشعة التي تعرضت لها الكوفة، ولا نرىٰ من ضرورة لإعادتها.

❀❀

الخطبة[1] ١٠٢

ومن خطبة له ﵇

تجري هذا المجرى وفيها ذكر يوم القيامة وأحوال الناس المقبلة

نظرة إلىٰ الخطبة

تتالف هذه الخطبة من قسمين:

القسم الأول: وهو قصير، إشارة إلىٰ الحوادث الصعبة ويوم القيامة، الذي يجمع الله فيه الاولين والاخرين للحساب والثواب والعقاب القسم الثاني: إشارة إلىٰ الفتن المرعبة التي تهجم على الناس كقطع الليل المظلم فتضيق الخناق على الناس، حتى يهب لها جماعة من المجاهدين. ثم يركز الإمام﵇ في كلامه علىٰ البصرة التي ستكون مسرحا لهذه الفتن.

---

١. سند الخطبة: لم ترد هذه الخطبة في المصادر التي الفت قبل السيد الرضي (ره)، ولكن يبدو أنها جزء من الخطبة ١٢٨ التي سنتعرض باذن الله لشرحها، إلّا أنّها ذكرت في الكتب التي دونت بعد السيد الرضي (ره).

القسم الأول

«وَذٰلِكَ يَوْمٌ يَجْمَعُ اللهُ فِيهِ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ لِنِقَاشِ الْحِسَابِ، وَجَزَاءِ الأَعْمَالِ، خُضُوعاً، قِياماً، قَدْ أَلْجَمَهُمُ الْعَرَقُ، وَرَجَفَتْ بِهِمُ الأَرْضُ، فَأَحْسَنُهُمْ حَالاً مَنْ وَجَدَ لِقَدَمَيْهِ مَوْضِعاً، وَلِنَفْسِهِ مُتَّسَعاً».

الشرح والتفسير

هول المحشر

كما أوردنا سابقاً أن الإمامعليه السلام أشار في القسم الأول من الخطبة إلىٰ وضع الناس في يوم القيامة بعبارات قصار مؤثرة وقد ذكر المميزات المهولة لذلك اليوم.

فقد قالعليه السلام: «**وذلك يوم يجمع الله فيه الأولين والآخرين لنقاش الحساب، وجزاء الاعمال، خضوعاً قياماً**».

فالعبارة «**الأولين**» و«**الأخرين**» تشير إلىٰ حقيقة وهي أنّ القيامة والحساب سيشمل جميع الناس في يوم واحد، كما ورد ذلك في القرآن الكريم: **﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيامَةِ فَرْداً﴾**[1]. وورد في موضع آخر: **﴿قُلْ إِنَّ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ * لَمَجْمُوعُونَ إِلىٰ مِيقاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾**[2].

والتعبير بالنقاش يفيد الدقة في الحساب حيث تخضع أصغر الأعمال ذلك اليوم للحساب فيعاقب الإنسان أو يثاب عليه.

والتعبير بالخضوع والقيام إشارة إلىٰ أنّ الناس يوم القيامة كمثل من يحضر في المحكمة ويمثل بين يدي القاضي العادل، حيث تظهر عليه آثار الخوف والخشية.

---

١. سورة مريم/٩٥.

٢. سورة الواقعة/٤٩ ـ ٥٠.

وقد أشارت بعض الآيات القرآنية إلىٰ هذه المعاني، ومن ذلك الآية الشريفة: **﴿خُشَّعاً أَبْصارُهُمْ...﴾**[1] والآية **﴿يَوْمَ يَقُومُ النّاسُ لِرَبِّ العالَمِينَ﴾**[2].

ثم قال عليه السلام: «**قد الجمهم العرق، ورجفت**[3] **بهم الأرض**».

فهل هذا العرق بسبب حرارة محيط المحشر، أم من شدة الخجل، أم كلاهما؟ وهل رجف الأرض بسبب أعمالهم، أم هكذا هي طبيعة محكمة العدل الإلهي، بحيث ينشغل الجميع بأنفسهم ويعترفوا بكل ما اقترفوا؟

كيفما كان فالاجواء هناك مرعبة مهولة للغاية.

وقد صرحت الآيات والروايات الإسلامية بالعوامل التي تدعو إلىٰ الخوف والخشية في ذلك اليوم (نسأل الله أن يشملنا جميعاً برحمته وألطافه ويجنبنا هلع ذلك اليوم).

وقد ذهب بعض شرّاح نهج البلاغة ـ كديدنهم في سائر الموارد ـ إلىٰ أن الألفاظ المذكورة كناية عن الأمور الباطنية والروحية، والحال ليست هناك آية قرينة تدعو إلى مثل هذا التأويل ـ ولو فتح الباب لمثل هذه التأويلات بشأن الآيات والرويات وباب التفسير بالرأي وأن يسطر الإنسان كل ما يفهمه من الآية والرواية، أو الاسلوب الذي يعتمده بعض من يتسمى بالانفتاحي والذي يكمن في القراءات الجديده للآيات والروايات، فمن المسلم به لسوف تزول إصالة المتون الدينية، ولا يبقى من شيء للاستدلال بالمسائل العقائدية والعلمية.

ثم أشار عليه السلام في ختام هذا القسم من الخطبة إلىٰ معضلة أُخرىٰ من معضلات القيامة: «**فأحسنهم حالاً من وجد لقدمية موضعاً، ولنفسه متسعاً**».

فالعبارة تشير إلىٰ زحام الناس وضيق المكان، حيث يفهم من الروايات أنّ هول المحشر ووحشة حساب الأعمال مسألة عامة تشمل كافة أهل المحشر؛ وذلك لأن خلص عباد الله أيضاً يخشون الحساب! فلهول المحشر عدة عوامل، يكمن أحدها في ضيق المكان الذي ورد في هذه العبارة.

---

١. سورة القمر/٧.

٢. سورة المطففين/٦.

٣. «رجف» من مادة «رجف» على وزن ربط تعني الاضطراب، ولما كانت أخبار الفتن تدعو لاضطراب المجتمع فقد اصطلح عليها بالاراجيف.

القسم الثاني

ومنها:

«فِتَنٌ كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، لَا تَقُومُ لَهَا قَائِمَةٌ، وَلَا تُرَدُّ لَهَا رَايَةٌ، تَأْتِيكُمْ مَزْمُومَةً مَرْحُولَةً: يَحْفِزُهَا قَائِدُهَا، وَيَجْهَدُهَا رَاكِبُهَا، أَهْلُهَا قَوْمٌ شَدِيدٌ كَلَبُهُمْ، قَلِيلٌ سَلَبُهُمْ، يُجَاهِدُهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ قَوْمٌ أَذِلَّةٌ عِنْدَ الْمُتَكَبِّرِينَ، فِي الْأَرْضِ مَجْهُولُونَ، وَفِي السَّمَاءِ مَعْرُوفُونَ. فَوَيْلٌ لَكِ يَا بَصْرَةُ عِنْدَ ذٰلِكَ، مِنْ جَيْشٍ مَنْ نِقَمِ اللهِ! لا رَهَجَ لَهُ، وَلَا حَسَّ، وَسَيُبْتَلَىٰ أَهْلُكِ بِالْمَوْتِ الْأَحْمَرِ، وَالْجُوعِ الْأَغْبَرِ».

الشرح والتفسير

فتنة البصرة

أشار الإمام عليه السلام في هذا الكلام من الخطبة إلىٰ فتنة أُخرىٰ تنتظر أهل العراق ولا سيما البصرة، لعل الأُمّة تستعد للدفاع وتقلل من خسائرها في هذه الفتنة، وكذلك تخشى العقاب الإلهي الذي يتمثل أحياناً بظهور الفتن فلا تحيد عن الطريق وتلتزم بدينها. فقد وصف عليه السلام هذه الفتن بأنّها كقطع[1] الليل المظلم، والتي لا يسع أحد الوقوف برجهها والتغلب عليها **«فتن كقطع الليل المظلم، لا تقوم لها قائمة، ولا ترد لها راية»**.

في إشارة إلىٰ أنّ مثيري هذه الفتن يردون الميدان بكل قوة واقتدار فيأتون على كل ما يقف في طريقهم.

---

١. «قطع» جمع «قطعة» ولعله إشارة إلىٰ بعض أقسام الليل كنصفه، أو الوقت الذي فيه القمر، كما فسّره البعض بالظلمة.

ثم يواصل الإمام عليه السلام كلامه بتشبيه هذه الفتن بالناقة التي وضع عليها رجلها ويسوقها سائقها بسرعة: «**تأتيكم مزمومة**[١] **مرحولة**[٢] **يحفزها**[٣] **قائدها، ويجهدها راكبها**».

ثم أشار عليه السلام إلىٰ شدة هذه الفتنة وجسامة خسائرها بعد أن شبهها بالناقة المعدة للركوب وقد استسلمت لراكبها بعبارة أخرى فإن كل شيء جاهز للفتنة بحيث تكون ضربة أصحابها غاية في الشدة و تلفاتها قليلة: «**أهلها قوم شديد كلبهم**[٤] **وقليل سلبهم**[٥]».

فالإمام عليه السلام بين خصائص هؤلاء القوم الذين يقتحمون الميدان بكامل العدة والعدد، وسنرىٰ لاحقاً ومن خلال ما ورد في التواريخ من تنطبق عليه هذه الأوصاف.

ثم أشار الإمام عليه السلام إلىٰ نقطة مهمّة وهي عدم تداوم هذه الفتنة لمدة طويلة، حيث يتصدى لها طائفة من أولياء الله فيهبون للوقوف بوجه أصحاب هذه الفتن (ويقضون عليهم)، ثم وصف هذه الطائفة بأنّها ذليلة لدى المتكبرين، فهي ليست معروفة في الأرض، لكنها معروفة في السماء: «**يجاهدهم في سبيل الله قوم أذلة عند المتكبرين، في الأرض مجهولون، وفي السماء معروفون**».

فهذه الطائفة من أولياء الله ذات المقام الرفيع لديه والشديدة في الجهاد في سبيل الله ستخمد نار الفتنة، كما تفقد هذه الطائفة منزلتها لدىٰ المتكبرين بسبب زهدها في الدنيا وبعدها عن التظاهر والرياء، فهي مجهولة في الأرض بين الناس، بينما معروفة لدىٰ ملائكة السماء الخبيرة بباطن هذا العالم.

أمّا من هم هؤلاء القوم الذين أخبر الإمام عليه السلام عن فتنتهم وفجائهم، ومن هم المجاهدون الذين سيتصدون لهم ويخمدوا نيران الفتنة، فيبدو هنالك اختلاف بين شرّاح نهج البلاغة بهذا الشأن.

---

١. «مزمومة» من مادة «زمام» الحيوان الذي الجم.
٢. «مرحولة» من مادة «رجل» جهاز الناقة أو أدوات السفر، ومرحولة هنا بمعنى الناقة الجاهزة للركوب، وهي كناية عن تمام الفتن وقوتها.
٣. «يحفز» من مادة «حفز» على وزن حبس يحث ويدفع.
٤. «كلب» على وزن طلب الاذىٰ والشدة.
٥. «سلب» محركة ما يأخذه القاتل من ثياب المقتول وسلاحه في الحرب.

فقد ذهب البعض إلىٰ أنّ المراد بأصحاب الفتن هم أنصار رجل يدعىٰ صاحب الزنج واسمه علي بن محمد وقد نسبوه إلىٰ سلالة النبيﷺ (وإن كان هنالك شك في نسبه) حيث يجمع عددا من الزنوج حوله ومن هنا لقب بصاحب الزنج. فقد نهض في نصف القرن الثالث وأثار فتنة عظيمة أطراف البصرة، ثم قتل علىٰ يد المجاهدين بعد ١٢ سنة من حكومة لتلك المنطقة.

كما فسرها البعض الآخر بفتنة المغول، الذين لم يسيطروا على العراق فحسب، بل سيطروا علىٰ أجزاء واسعة من العالم الإسلامي، ثم تصدى لهم المجاهدون المسلمون بعد مدة طويلة وقضوا عليهم. وأخيرا فسرها البعض بحوادث آخر الزمان وتعم الفتنة أغلب العالم الإسلامي فلا تقتصر على العراق، ثم يهب لهم جيش الإمام المهديعليه السلام فيقضي عليهم.

ولما كان أغلب شرّاح نهج البلاغة يرون هذه الخطبة جزءا من الخطبة ١٢٨، لذلك نرجح تناول هذا الموضوع بصورة أعمق حين نخوض في شرح تلك الخطبة.

ثم اختتم الإمامعليه السلام خطبته مخاطبا البصرة: «**فويل لك يا بصرة عند ذلك، من جيش من نقم الله! لارهج[1] له ولا حس[2]، وسيبتلى أهلك بالموت الأحمر، والجوع الأغبر[3]**».

والعبارة عند ذلك تشير إلىٰ أنّ حادثة البصرة ليست حادثة منفصلة، بل البصرة إحدى مراكز الفتنة التي يتعرض أهلها إلىٰ أشد الضربات والعقوبات.

والعبارة نقم الله تفيد أنّ هذه الفتنة المرعبة جزاء لاعمالهم.

والعبارة لارهج له ولا حس إشارة إلىٰ الاستعداد التام للقوات المهاجمة بحيث تدخل المدينة وفق خطة دقيقة دون أن تثير بعض الاصوات والجلبة فتسلب زمام المبادرة من الطرف الآخر بحيث لايبقى أمامه من مجال للمقاومة.

والعبارة الموت الاحمر إشارة إلىٰ عظم المقتلة التي تقع في البصرة، فقد ورد في تاريخ صاحب الزنج أنّه قتل ثلاثمئة ألف من الناس حين دخل البصرة.[4]

---

١. «رهج» بالتحريك والسكون الغبار كناية عن دخول الجيش بكل هدوء وبصورة مباغتة دون أن يثير شيئاً.
٢. «حس» الجلبة والاصوات المختلفة.
٣. «أغبر» من الغبار والجوع الأغير كناية عن المحل والجذب والقحط الشديد؛ فوجوه الناس تبدو مغبرة في القحط من شدة الجوع.
٤. مروج الذهب ١١٩/٤.

والعبارة الجوع الأغبر إشارة إلىٰ القحط الشديد إثر الحروب والاضطرابات بحيث يشحب وجههم.

وقد صرح بعض المؤرخين بأنّ الظروف الصعبة جعلتهم يقتلون بعض الحيوانات من قبيل الكلب والقط والفأر ويأكلونها، كما كانوا أحياناً يأكلون ميتة الإنسان[1].

وقد فسّر بعض شرّاح نهج البلاغة الموت الأحمر والجوع الأغبر بالطاعون والوباء والغرق أثر السيول وهجوم أمواج البحر، ولا يبدو مثل هذا التفسير مناسباً.

٭٭٭

١. مروج الذهب ١١٩/٤.

الخطبة[1] ١٠٣

ومن خطبة له عليه السلام

في التزهيد في الدنيا

نظرة إلى الخطبة

يستفاد من تعبيرات المرحوم السيد الرضي (ره) (منها ومنها) أنّه لم يأت بتمام الخطبة هنا، بل اقتطف بعضها كعادته. ويبدو بصورة عامة أنّ لهذه الخطبة عدة أهداف: الأول: الحث على الزهد والتقوى والرغبة عن الدنيا. الثاني التفكر والاعتبار والتبصر في الأُمور، ثم التعريف بالعالم الحق وبيان اتباع الحق من اتباع الباطل من خلال ذكر الصفات، ثم اختتام الخطبة ببيان محن المؤمنين في آخر الزمان ومصير الإسلام في ظل تلك الشرائط، بغية تأهب المؤمنين والحد من الاضرار على مستوى الإيمان والأخلاق.

والخطبة على العموم ارشاد معنوي ومادي للإنسان يجعله يتغلب على ما يواجهه من مشاكل.

---

١. سند الخطبة: ما نقله المرحوم السيد الرضي (ره) في هذه الخطبة جزء من خطبة طويلة ولذلك قال منها ومنها. وقد وردت أجزاء مختلفة من هذه الخطبة في عدة مصادر قبل نهج البلاغة، ومنها روضة الكافي وتحف العقول واصول الكافي وعيون الأخبار لابن قتيبة وكتاب الفتن لنعيم بن حماد الخزاعي المتوفى عام ٢٢٨ (مصادر نهج البلاغة ٢/٢٠٦).

القسم الأول

«أَيُّهَا النَّاسُ! انْظُرُوا إلىٰ الدُّنْيَا نَظَرَ الزَّاهِدِينَ فِيهَا، الصَّادِفِين عَنْهَا؛ فَإِنَّهَا وَاللّهِ عَمَّا قَلِيلٍ تُزِيلُ الثَّاوِيَ السَّاكِنَ، وَتَفْجَعُ الْمُتْرَفَ الآمِنَ؛ لَا يَرْجِعُ مَا تَوَلّىٰ مِنْهَا فَأَدْبَرَ، وَلَا يُدْرىٰ مَا هُوَ آتٍ مِنْهَا فَيُنْتَظَرَ. سُرورُهَا مَشُوبٌ بِالْحُزْنِ، وَجَلَدُ الرِّجَالِ فِيهَا إلَىٰ الضَّعْفِ وَالْوَهْنِ، فَلا يَغُرَّنَّكُمْ كَثْرَةُ مَا يُعْجِبُكُمْ فِيهَا لِقِلَّةِ مَآ يَصْحَبُكُمْ مِنْهَا».

الشرح والتفسير

الدنيا الفانية

كما ذكرنا سابقاً فانّ الإمامعليه السلام تطرق في هذا الكلام من الخطبة إلىٰ مسألة الزهد في الدنيا الذي يقود إلىٰ كافة الصالحات والفضائل.

فقالعليه السلام: «**أيّها الناس! انظروا إلى الدنيا نظر الزاهدين فيها، الصادفين**[1] **عنها**»، طبعاً لا تعني هذه العبارة أنّ الإنسان ينبغي أن يترك الدنيا ويعيش الرهبنة فيها، بل الهدف عدم فقدان النفس، وعدم الركون إلىٰ الدنيا والاغترار بها. فقد ثبت بوضوح أنّ التعلق بالدنيا والاغترار بما لها وجاهها ولذاتها يشكل حجاباً علىٰ سمع الإنسان وبصره، فيؤدي به إلىٰ مقارفة الذنب والمعصية.

فقد ورد في الحديث أنّ رسول اللهصلى الله عليه وآله قال: «**حب الدنيا رأس كل خطيئة**»[2].

---

١. «صادف» من مادة «صدف» على وزن حرف بمعنى الأعراض عن الشيء.

٢. روى هذا الحديث بعبارات مختلفة عن النبي الأكرمصلى الله عليه وآله وأميرالمؤمنين والإمام الصادق وحتى الأنبياء الماضينعليهم السلام. (ميزان الحكمة ٢/ح ٥٨١٣ ـ ٥٨٢٣)ـ وفي الحديث الذي نقله الكليني في الكافي عن الإمام السجادعليه السلام بعد شرح ودوافع الذنوب قال: «فاجتمعن كلهن في حب الدنيا». فقال الأنبياء والعلماء ـ بعد معرفة ذلك ـ «حب الدنيا رأس كل خطيئة». (اصول الكافي ١٣١/٢).

إنّ الذنب هو المادة التي تفضي إلىٰ كافة الحروب والنزاعات والجنايات وسفك الدماء وما إلىٰ ذلك من انحرافات.

ثم تطرق الإمام عليه السلام بعبارات قصيرة لأدلة اثبات تلك الحقيقة فأوجزها في ستة أدلة: **«فانّها والله عما قليل تزيل الثاوي[1] الساكن»**.

نعم لابدّ لكل إنسان دون استثناء ان يودع يوماً هذا العالم، بعضهم يودع أبكر، والبعض الآخر قليل يتأخر، ولكن لامناص من تذوق هذه المرارة: **﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾**[2].

والفارق بين ثاوي وساكن هو أنّ الثاوي تطلق عن من أقام بصورة مستمرة في مكان وقد استقر فيه، وقد يكون الساكن كذلك أو لايكون، وبناءاً على هذا فالشباب الذين يعتقدون باستقرارهم لمدة مديدة في هذه الدنيا معرضون للزوال، وكذلك الكهول يبدو سكنهم مؤقتاً ومحدوداً، فالجميع يسير نحو الفناء والزوال، إلىٰ عالم البقاء والخلود.

ثم قال في الدليل الثاني أنّ الدنيا تفجع بمصائبها من غرق في النعم واغترّبها: **«وتفجع المترف[3] الأمن»**.

نعم بينما ترىٰ هذا الإنسان غارقاً في لذاته ونعمه وإذا نقل إليه خبر موت فلان. ويالها من عبرة هذه الوفيات المفاجئة، وما أكثرها في هذا الزمان. ويالها من عبرة أنّ تراه غارقاً ليلاً في نعمه وملذاته فيصحوا صباحاً وقد فقد كل شيء.

أمّا الدليل الثالث والرابع فهو أنّ ما يذهب من الدنيا لايعود أبداً، ولا يعلم كيف سيكون المستقبل: **«لايرجع ما تولى منها فأدبر، ولايدري ما هو آت منها فينتظر»**.

وياله من محنة إلّا يعثر الإنسان على ضالته قط، كما يفقد الأمل بالمستقبل! فهو في حسرة دائمة! فلا الشباب يعود إليه، ولا قواه وطاقاته التي ذهبت أدراج الرياح مع تقادم العمر، هذا كله من جانب، ومن جانب آخر فالخوف من المستقبل الغامض الذي يهز كيانه ويؤرق تفكيره ويقض مضجعه.

---

١. «ثاوي» من مادة «ثواء» الاقامة مع الاستقرار.
٢. سورة آل عمران/١٨٥.
٣. «مترف» من مادة «ترف» التنعم ويطلق «المترف» علىٰ من تغفله كثرة النعم وتؤدي به إلىٰ الغرور والطغيان.

ثم أوردﷺ الدليل الخامس والسادس الذي يدعو إلىٰ الزهد في الدنيا وهو أنّ فرحها مقرون بالحزن وسرورها بالهم وقدرة الرجال وقوتهم إلىٰ الضعف والوهن: «**سرورها مثوب بالحزن وجلد[1] الرجال فيها إلىٰ الضعف والوهن**».

فشكلة النعم المادية الدنيوية قد أشار اليها الإمامﷺ في موضع آخر فقال: «**لاتنالون منها نعمة إلّا بفراق أُخرىٰ**»[2]، على سبيل المثال فالعقيم يتصدع قلبه بفعل عدم وجود الأولاد؛ إلّا أنّ مشكلته قد تحل بأن يمنح الأولاد، فسرعان ما تهجم عليه سائر المشاكل! ليس له ثروة كافية فيؤرقه ألم الفقر والحاجة، فاذا ما أصاب ثروة، واجهته مشاكل الحسد وخيانة الخونة وطمع اللصوص بثروته، حتى يفقد سكينته واستقراره. نعم فسرور الدنيا مشوب بالهم والغم والحزن، وقوة الإنسان آيلة فيها إلىٰ الوهن، وهكذا يخلص الإمامﷺ من هذه الأدلة إلىٰ نتيجة مؤداها: «**فلا يغرنكم كثرة ما يعجبكم فيها لقلة ما يصحبكم منها**».

صحيح أنّ الدنيا مليئة بمعاني الزينة والجمال والمظاهر الخلابة، إلّا أنّها وعلاوة على استبطانها للمشاكل والمحن، فهي متقلبة سائرة نحو الفناء والزوال. وعليه فلا يجدر بالعاقل الاهتمام بها والركون إليها.

على كل حال فانّ أدنى تأمل لهذه الأدلة يكفي لافاقة الغافلين من سباتهم، إلّا أنّ المؤسف هو أنّ أغلب الناس يبخل على نفسه حتى بتلك اللحظة من التأمل.

تأمّل

الزهد في الدنيا

قد يتصور أحياناً بأنّ مفهوم الزهد هو التخلي التام عن الدنيا، والتقوقع في زاوية والابتعاد عن المجتمع، والحال لاينسجم هذا المعنى والروح الاجتماعية للإسلام؛ الأمر الذي ورد النهي عنه في الروايات الإسلامية.

والحق أنّ للزهد معنى آخر وهو ترك التعلق المفرط بالدنيا وعدم الوقوع أسيراً في قبضة

---

١. جلد بمعنى القوة والصلابة.

٢. نهج البلاغة، الخطبة ١٤٥.

زخارفها ومفاتنها؛ وبخلافه فانّ الإنسان يسير نحو الذنب والخطيئة ويبيع دينه وآخرته بمتاع الدنيا الفاني وهذا ما أشار إليه الإمام﷣ بقوله: «**إنّ من أعون الاخلاق على الدين، الزهد في الدنيا**»[١].

وقال الإمام الصادق﷣ بهذا الخصوص: «**إذا تخلى المؤمن من الدنيا لسما، ووجد حلاوة حب الله**»[٢]. وورد في الحديث أنّ علياً﷣ رأى جابر بن عبدالله وهو يتنهد فقال: «**يا جابر علام تنفسك؟ أعلى الدنيا؟**» قال جابر: بلى.

فتطرق الإمام﷣ إلىٰ بيان لذات الدنيا وأنّها لا تعدو أن تكون في المأكل أو المشرب أو اللباس الفاخر، أو اللذة الجنسية أو المركب الهنيئ، ثم شرح ذلك قائلاً: فألذ المأكولات العسل وهو بصق من ذبابة، وأحلى المشروبات الماء؟ وكفى باباحته وسياحته على وجه الأرض، وأعلى الملبوسات الديباج وهو من لعاب دودة، وأعلى المنكوحات النساء وهو مبال في مبال، ومثال لمثال، وإنّما يراد أحسن ما في المرأة لأقبح ما فيها، وأعلى المركوبات الخيل وهو قواتل، وأجمل المشمومات المسك وهو دم من سرة دابة، وأجل المسموعات الغناء والترنم وهو إثم، فما هذه صفته لم يتنفس عليه عاقل.

قال جابر بن عبدالله: فو الله ما خطرت الدنيا بعدها على قلبي[٣].

٨٠٥٥

١. منهاج البراعة، للعلّامة الخوئي ١٨٢/٧.
٢. المصدر السابق.
٣. بحارالانوار ١١/٧٥.

القسم الثاني

«رَحِمَ اللهُ امْرَأً تَفَكَّرَ فَاعْتَبَرَ فَأَبْصَرَ، فَكَأَنَّ مَا هُوَ كَائِنٌ مِنَ الدُّنْيَا عَنْ قَلِيلٍ لَمْ يَكُنْ، وَكَأَنَّ مَا هُوَ كَائِنٌ مِنَ الآخِرَةِ عَمَّا قَلِيلٍ لَمْ يَزَلْ، وَكُلُّ مَعْدُودٍ مُنْقَضٍ، وَكُلُّ مُتَوَقَّعٍ آتٍ، وَكُلُّ آتٍ قَرِيبٌ دَانٍ».

الشرح والتفسير

سرعة العمر

قال عليه السلام في هذا المقطع من الخطبة ـ والذي يعتبر في الواقع نتيجة لما تقدم ـ «**رحم الله امرأ تفكر فاعتبر، واعتبر فأبصر**».

طبعاً مراد الإمام عليه السلام التفكر في مصير الدنيا الذي تطرق إليه سابقاً، فانّ مثل هذا التفكير يؤدي إلىٰ الاعتبار واليقظة. ومن الواضح أنّ من يعتبر ويتعظ يتبصر الأُمور ويقف علىٰ بواطن الأشياء بدلاً من ظواهرها، ويفكر في المقدمات والنتائج فيلتمس سبيل النجاة في ظل هذا الاعتبار والأبصار. وبعبارة أُخرى فانّ الإنسان ليتعرف علىٰ سلسلة من الحقائق من خلال تأمل حوادث الماضي والحاضر، فيحتذيها في مسيره ليميز الحق من الباطل.

فقد ورد في الحديث أنّ رجلاً سأل الإمام الصادق عليه السلام عن صحة هذا الخبر «**إن تفكر ساعة خير من قيام ليلة**»، فأجاب عليه السلام: نعم، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**تفكر ساعة خير من قيام ليلة**». فسأل الراوي: «**كيف يتفكر؟**». قال عليه السلام: «**يمر بالدور الخربة، فيقول: أين بانوك؟ أين ساكنوك؟ مالك لا تتكلمين؟**»[1].

---

١. بحارالانوار ٦٨/٣٢٤ ح ١٦.

ولو كانت له أذن سامعة لسمعها وهي تناديه: لقد ارتحلوا جميعاً بعد أن توسدوا التراب ولم يبق سوى آثارهم.

ثم قال ﷺ: «**فكأن ما هو كائن من الدنيا عن قليل لم يكن، وكأن ما هو كائن من الآخرة عما قليل لم يزل**».

أي أنّ الدنيا لتمضي بسرعة، والآخرة تأتي بسرعة بحيث يتصور الإنسان أنّه لم تكن هناك من دنيا، والآخرة هي التي كانت موجودة دائماً.

وقد جربنا هذه المسألة في العديد من حوادث الدنيا؛ فقد نمر أحياناً بدار بعض الاشراف وقد كانت داره تغص بالناس والذهاب والاياب، وإذا بها صامتة هادئة وكأن لم تشهد تلك الضجة.

ثم اختتم ﷺ خطبته بثلاث عبارات غاية في الروعة والدقة، في أنّ ما كان معدوداً (كساعات عمر الإنسان) فهو إلىٰ انقضاء، وما كان منتظرا فهو إلىٰ قدوم ووقوع، وما كان قريباً فهو حاصل: «**وكل معدود منقض، وكل متوقع آت، وكل آت قريب دان**».

فالعبارة الأُولىٰ إشارة إلىٰ قاعدة كلية فلسفية في محدودية كل ما دخل تحت العدد، وما كان محدوداً فهو إلىٰ انقضاء، ولما كان عمر الإنسان والدنيا برمتها داخل في العدد والارقام، فلابدّ من انتظار انقضائه، والعبارات اللاحقة مكملة لذلك؛ لأنّ ما ننتظره سيأتينا يوماً لا محالة، وما يأتينا ليس ببعيد عنا! وعليه فلا ينبغي الاعتقاد ببعد الموت وخلود الحياة، والعمر ليس بباق. و الواقع هو أن هذه العبارات الثلاث بمنزلة الدليل على العبارات السابقة.

تأمّل

في الاعتبار

مليئة حياة الإنسان في كل عصر ومصر بالدروس والعبر؛ الدروس التي توقظ القلب وترفع الحجب وتفضح ماهية الحياة الدنيا؛ إلّا أنّ الموسف قلة الاعتبار. فالناس عادة ما تمر مرّ الكرام علىٰ الحوادث التي من شأنها اثارة الاعتبار لديهم، كما أنّ تكرارها يدعوهم لاهمالها.

العامل الآخر الذي يقف وراء عدم الاعتبار إنّما يكمن في حصر مكاره الدهر في الآخرين،

وكأنا بمعزل عن تلك المكاره وأنا مخلدون في هذه الدنيا. ولو كانت هناك بصيرة حقا فإن كل شيء في الأرض يشتمل على عبرة تدعونا للإعتبار.

جاء في الأخبار أن هارون الرشيد كتب رسالة إلىٰ الإمام موسىٰ بن جعفرعليه السلام طلب فيها أن يعظه قائلاً «**عظني وأوجز**» (طبعا من المستبعد أن يكون مثل هؤلاء الأفراد صادقين وأنّهم يطلبون النصح والوعظ والارشاد؛ لأنّ هذه الأمور إنّما تكون عادة جزءاً من مخططاتهم السياسية، ليوحوا للآخرين أنا من اهل الوعظ الذي نسأله من ابن رسول اللّه).

فأجابهعليه السلام: «**ما من شيء تراه عينك ألّا وفيه موعظة**»[1].

نعم فالأرض والسماء والكائنات والاشجار والحوادث وأنين المرضى ومشيب الشعر وانحناء الظهر والمقابر والقصور الخاوية للملوك، كلها تغص بالدروس والعبر فالواقع هو أنّ الإمامعليه السلام اراد أن يقول له لوكان لك عين باصرة لاعتبرت.

فقصور الملوك مملوءة بالعبر، ولكن لايعتبر بها سوى من له آذانا صاغية.

وكفى بالقرآن واعظا بهذا الشأن: ﴿**كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ * كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْماً آخَرِينَ * فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ**﴾[2].

---

١. سفينة البحار ـ مادة وعظ.

٢. سورة الدخان / ٢٥ ـ ٢٩.

القسم الثالث

ومنها: «**الْعَالِمُ مَنْ عَرَفَ قَدْرَهُ، وَكَفَىٰ بِالْمَرْءِ جَهْلاً أَلّا يَعْرِفَ قَدْرَهُ؛ وَإِنَّ مِنْ أَبْغَضِ الرِّجَالِ إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ لَعَبْداً وَكَلَهُ اللهُ إِلَىٰ نَفْسِهِ، جَائِراً عَنْ قَصْدِ السَّبِيلِ، سَائِراً بِغَيْرِ دَلِيلٍ؛ إِنْ دُعِيَ إِلَىٰ حَرْثِ الدُّنْيَا عَمِلَ، وَإِنْ دُعِيَ إِلَىٰ حَرْثِ الْآخِرَةِ كَسِلَ! كَأَنَّ مَا عَمِلَ لَهُ وَاجِبٌ عَلَيْهِ؛ وَكَأَنَّ مَا وَنَىٰ فِيهِ سَاقِطٌ عَنْهُ!**».

الشرح والتفسير

العلماء والمتشبهون بهم

اتجه الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبة ـ والذي يبدو منفصلاً، وان كان له نحو ارتباط بالمقاطع الماضية ـ صوب التعريف بالعلماء الحق ومن تشبه بالعلماء (العلماء الحقيقيون والعلماء المزيفون) حيث يعرض لصفات كل منهما، فقال عليه السلام: «**العالم من عرف قدره**».

ثم أكد هذه العبارة بقوله عليه السلام «**وكفى بالمرء جهلا ألا يعرف قدره**».

وقد وردت عدة احتمالات في تفسير هاتين العبارتين كلها مناسبة، ويمكن جمعها في مفهوم كلامه عليه السلام.

الأول: أنّ العالم الحقيقي من يعرف قيمته وقدره ازاء عظمة الله سبحانه في هذا العالم، فيرى أنّه ليس بشيء يذكر بالنسبة لذلك الوجود المطلق، وأنّه تابع له، فيحث الخطى للفوز بقربه، ولعل هذا هو المعنى الذي هدف إليه الحديث: «**من عرف نفسه فقد عرف ربّه**»[1].

والثاني: أن المراد معرفة القيم والمكانة الواقعية في المجتمع، وبعبارة أُخرىٰ: العالم الحقيقي من

---

١. بحار الانوار ٣٤/٢ ح ٢٢.

يبتعد عن الامال التي لا تستند لأي المنطق، ولايتجاوز حدود نفسه، ولايضع نفسه في موضع ليس له باهل، فلا يعبث بماء وجهه وقدره. على غرار ما ورد في بعض الروايات: «**رحم الله من عرف قدره، ولم يتجاوز حده**»[١].

والثالث: أنّ المراد هو أنّ الإنسان موجود قيم له استعدادته العاليه، فلا ينبغي أن يبيع هذه الجوهرة الثمينة برخص ولايزهد في نفسه وإمكاناته؛ الأمر الذي ورد في الشعر المنسوب لأمير المومنين عليﷺ إذ قال:

أتـزعم أنك جـرم صـغير وفيك انطوى العالم الأكبر

وبالنظر إلىٰ إمكانية استعمال اللفظ لأكثر من معنى، حيث يعد ذلك مـن جمـالية الكـلام وبدائعه، فلا يبدو من المستبعد الجمع بين هذه الاحتمالات الثلاث في تفسير الكلام المذكور؛ وإن كانت العبارات القادمة أنسب للمعنى الثاني والثالث.

ثم واصلﷺ كلامه بالتعريف بمن تشبه من العلماء من الجهال البعيدين عن الحق والصواب فقالﷺ: «**وإن من أبغض الرجال إلى الله تعالى لعبدا وكله الله إلى نـفسه، جـائراً عـن قصد السبيل، سائراً بغير دليل**».

طبعا لايسع الإنسان ما لم تحفه عناية الله والطافه ان يتجاوز هذه الموانع والآفات الخطيرة التي تعترض طريقه، فاذا وكلّ إلى نفسه فسوف لن تكون عاقبته سوى المهلكة؛ فهو ينحرف عن الصراط، ويفقد الدليل فيسير علىٰ عمىٰ وضلال.

ثم وضح ذلكﷺ بالقول أنّه اغتر بالدنيا وخدع بها بحيث لايعمل إلّا لها ولا يجهد نفسه إلّا من أجل الحصول على متاعها: «**إن دعي إلى حرث الدنيا عمل، وإن دعي إلىٰ حرث الآخرة كسل**».

فهو نشط من أجل الدنيا، كسل من أجل الآخرة، وذلك لضعف ايمـانه بـالآخرة وعـدم اعتقاده بالوعد والوعيد الإلهي. فلم يبصر سوى الدنيا و ينسى الآخرة.

ومن هنا إختتمﷺ كلامه بهذا الشأن بالقول: «**كأن ما عمل له وأحب عليه، وكأن ما ونى فيه ساقط عنه**»[٢].

---

١. اشتهرت هذه العبارة التي يطلقها العلماء بالاستفادة من الاحاديث.

٢. «ونى» بمعنى ضعف وتعب.

والتعبير بالزرع عن الدنيا والآخرة هو اقتباس من الآية الشريفة: **﴿مَنْ كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيا نُؤْتِهِ مِنْها وَما لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾**[١].

يمكن للدنيا أن تكون مزرعة الآخرة، كما يمكنها أن تكون مزرعة لنفسها. ويذرها الأعمال الحسنة والسيئة، وأعمالها الحسنة كالحبة التي تنبت سبع سنابل وفي كل سنبلة مأة حبة. أمّا الأعمال السيئة فهى البذور التي تزرع في الأراضي المالحة: **﴿لا يَخْرُجُ إِلّا نَكِداً﴾**[٢].

وتشير العبارة الأخيرة ضمنيا إلىٰ أنّ الأعمال الصالحة والطالحة إنّما تفرزها طبيعة الاعتقادات القوية والضعيفة.

تأمّل

العلماء الحقيقيون

أوضح الإمام عليه السلام بجلاء في هذه الخطبة صفات العلماء، و من تشبه بهم من علماء السوء، فكان في مقدمتها عدم معرفة قدر النفس. عدم معرفة قدر النفس ازاء عظمة الله، ولا قدره تجاه المجتمع، ولا قدر نفسه حيال نفسه. ومن لم يعرف قدر نفسه فانّه سيتيه في أمواج من الجهل والبؤس والحيرة والشقاء، حتى يكله الله إلىٰ نفسه فيضل في خضم هذه الحياة؛ فهو لا يرى سوىٰ النعم المادية، وعليه فالدنيا عنده ماء، والآخرة سراب من الهواء. والحلال والحرام والحق والباطل لديه على حد سواء؛ وهو ينطلق نحو المال والمقام وكأنّها أوجب الواجبات، بينما يتقاعس عن واجباته وكأنّها من المحرمات.

وقد اوردنا شرحاً مفصلاً بهذا الخصوص في الخطبة السابعة عشر من المجلد الأول، ولا حاجة للتكرار.

٨٠٣

١. سورة الشورى/٢٠.
٢. سورة الاعراف/٥٨.

القسم الرابع

ومنها: «**وَذٰلِك زَمَانٌ لَا يَنْجُو فِيهِ إِلَّا كُلُّ مُؤْمِنٍ نُوَمَةٍ، «إِنْ شَهِدَ لَمْ يُعْرَفْ، وَإِنْ غَابَ لَمْ يُفْتَقَدْ، أُولَئِكَ مَصَابِيحُ الْهُدىٰ،» وَأَعْلَامُ السُّرَىٰ، لَيْسُوا بِالْمَسَايِيحِ، وَلَاالْمَذَايِيعِ الْبُذُرِ، أُولَئِكَ يَفْتَحُ اللهُ لَهُمْ أَبْوَابَ رَحْمَتِهِ وَيَكْشِفُ عَنْهُمْ ضَرَّاءَ نِقْمَتِهِ.**

أَيُّهَا النَّاسُ، سَيَأْتِي عَلَيْكُمْ زَمَانٌ يُكْفَأُ فِيهِ الإِسْلَامُ، كَمَا يُكْفَأُ الإِنَاءُ بِمَا فِيهِ، أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ اللهَ قَدْ أَعَاذَكُمْ مِنْ أَنْ يَجُورَ عَلَيْكُمْ، وَلَمْ يُعِذْكُمْ مِنْ أَنْ يَبْتَلِيكُمْ، وَقَدْ قَالَ جَلَّ مِنْ قَائِلٍ:«إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ»».

الشرح والتفسير

علامات آخر الزمان

أشار الإمام‌عليه السلام في هذا المقطع الذي يمثل آخر الخطبة إلىٰ الوضع في آخر الزمان، وبعبارة أُخرى الزمان الذي يسوده الشر قبل الإمام المهدي‌عليه السلام. فكان‌عليه السلام يتطرق إلىٰ خصائص المؤمنين في ذلك الزمان أحياناً، وأحياناً أُخرى إلىٰ وضع الإسلام والأحكام الإسلامية.[1]

فقال‌عليه السلام: «**وذلك زمان لا ينجو فيه إلّا كل مؤمن نومة، إن شهد لم يعرف وإن غاب لم يفتقد**».

صحيح أنّ النومة من النوم بمعنى الشخص الكثير النوم؛ إلّا أنّه من الواضح هنا أنّ ذلك كناية عن الفرد المجهول وغير المعروف، ولا سيما أنّ الإمام‌عليه السلام وضح ذلك بالعبارات القادمة.

---

١. يفيد عدم الارتباط المعنوي بين هذا المقطع من الخطبة والذي سبقه، أنّ السيد الرضي (ره) حذف بعض الأقسام بينهما، والشاهد علىٰ ذلك تعبيره (منها).

طبعاً من البديهي في الظروف التي يعم فيها الفساد المجتمع، ويكون زعماء المجتمع وقادته من الفسدة والمنحرفين، ألا يكون الأفراد المؤمنين من الشخصيات المعروفة في المجتمع، لأنّهم سيكونون فريسة للجبابرة الذين لن يتركوهم وشأنهم أبداً؛ فأما أن يتسلموا ويكونوا عوناً لهم، وامّا ان يقاوموا ويمتنعوا وفي هذه الحالة ليس لهم سوى الحديد والنار.

وبناءاً على هذا يتوجب علىٰ الأفراد المؤمنين في ظل هذه الظروف أن يختفوا عن الأضواء ويعيشوا بعيداً عن الشهرة والمعرفة، كي لا يكون هناك من يتعقبهم ويبحث عنهم.

وبالطبع فان هذه المجهولية لن تحط من قدرهم وتقلل من مكانتهم، وأنّهم لن يتخلوا عن دورهم المعنوي في المجتمع، ومن هنا وصفهم الإمامﷺ بقوله: «**أولئك مصابيح الهدىٰ، وأعلام السرى**»[١].

فهم صامتون خاملون، إلّا أنّهم قدوة للاخرين، فهم مصابيح هدىٰ كتلك العلامات التي تنصب على الطريق لكي لا يضل السائر فيه ليلاً.

ثم قالﷺ في وصف هذه الطائفة من المؤمنين: «**ليسوا بالمساييح، ولا المذاييع البذر**».

قال المرحوم السيد الرضي المساييح جمع مسياح وهو الذي إذا سمع لغيره بفاحشة أذاعها، والبذر جمع بذور وهو الذي يكثر سفهه ويلغو منطقه.

وعليه فمعنى العبارة هو أنّ هذه الطائفة من المؤمنين ليست بمفسدة ولا مثيرة للفتنة وليست سفيهة تشيع الفاحشة.

ثم قال: «**أولئك يفتح الله لهم أبواب رحمته، ويكشف عنهم ضراء نقمته**». فالعبارة تفيد أنّ الله سبحانه وتعالىٰ لم يسلب الطائفة المؤمنة الحقة عنصر هدايتها في تلك الظروف العصيبة، وهو حافظهم من شر الظلمة ومكاره ذلك الزمان وحوادثه.

ثم واصل الإمامﷺ كلامه بنبوءة صريحة وتوضيح أكثر لذلك الزمان، فقالﷺ: «**أيها الناس! سيأتي عليكم زماناً يكفا[٢] فيه الإسلام، كما يكفأ الاناء بما فيه**».

فالعبارة «**يكفأ فيه الإسلام**» كناية لطيفة عن انقلاب كافة المفاهيم الإسلامية رأساً على

١. «السرىٰ» تعني السير في الليل.
٢. «يكفأ» من مادة «كفأ» على وزن نفع بمعنى الانقلاب.

عقب وذهاب حقيقتها وجوهرها، لأنّها شبهت الإسلام بالاناء الذي وضعت فيه المعارف والقوانين والأحكام والأخلاق الإسلامية، وكما يضيع كل الماء إذا قلب الاناء، فكذلك الإسلام في ذلك الزمان يضيع كل محتواه، ولا يبقي منه سوىٰ القشور.

ويبدو أنّ عصرنا يشهد مثل هذه العلامات حيث يكتفي أغلب المسلمين بذكر اسم الإسلام فقط، دون أن يكون هناك أي أثر للأخلاق أو انفتاح على السنة النبوية؛ فليس هناك سوىٰ الشهوات والمال والمقام واللذة المادية والشهوات الحيوانية.

ولا شك أنّ احد عوامل البؤس والشقاء هو التفسير بالرأي والقراءات الكاذبة والمنحرفة للإسلام، حيث يقوم بعض الأفراد خداعاً لأنفسهم وللأخرين بتقديم بعض التفاسير المشبوهة للحقائق الإسلامية المسلمة انسجاماً مع أهوائهم وأفكارهم؛ الأمر الذي يجعل الإسلام العوبة بيدهم يفعلون به ما يشاؤون.

فقد ورد في الحديث أنّ النبي الأكرمﷺ قال لعليؑ: «**يستحلون حرامه بالشبهات الكاذبة، والأهواء الساهية**»[1].

ثم اختتم الإمامؑ كلامه بالاجابة علىٰ سؤال مقدر وهو: لم يبتلي الله المسلمين بهذه الحوادث والاضطرابات؟ فقالؑ: «**أيها الناس إنّ الله قد أعاذكم من أن يجور عليكم، ولم يعذكم من أن يبتليكم، وقد قال جل من قائل إن في ذلك لآيات وإن كنّا لمبتلين**»[2].

في إشارة إلىٰ أنّ مثل هذه الحوادث اختبار للناس وامتحان لهم، ولابدّ أن يخوض عامة الناس ـ بما فيهم الأنبياء وسائر الأفراد ـ هذا الامتحان الإلهي! الامتحان الذي قد ينطوي أحياناً علىٰ بعد فردي، وأحياناً جماعي؛ كما ورد في العبارة المذكورة من شمول الجميع بالامتحان، لتمييز الصادق من الكاذب والمؤمن من المنافق.

كلام السيد الرضي(ره)

قال السيّد الشرّيف الرّضى: أَمَّا قَوْلُهُؑ: «**كُلُّ مُؤْمِنٍ نُوَمَةٍ**» فَإِنَّمَا أَرَادَ بِهِ الْخَامِلَ الذِّكْرِ، الْقَلِيلَ الشَّرِّ.

---

١. نهج البلاغة، الخطبة ١٥٦.
٢. سورة المؤمنون/٣٠.

وَ«الْمَسَايِيحُ» جَمْعُ «مِسْيَاحٍ» وَهُوَ الَّذِي يَسِيحُ بَيْنَ النَّاسِ بِالْفِسَادِ وَالنَّمَائِمِ. وَ«الْمَذَايِيعُ» جَمْعُ «مِذْيَاعٍ» وَهُوَ الَّذِي إِذَا سَمِعَ لِغَيْرِهِ بِفَاحِشَةٍ أَذَاعَهَا، وَنَوَّهَ بِهَا. وَ«الْبُذُرُ» جَمْعُ «بَذُورٍ»وهُوَ الَّذِي يَكْثُرُ سَفَهُهُ وَيَلْغُو مَنْطِقُهُ.

تأمّل

الفساد في آخر الزمان

وردت عدة روايات التي تذم آخر الزمان، حيث فسر آخر الزمان عادة بالزمان القريب من ظهور الإمام المهدي عليه السلام: والواقع هو كثرة الفساد الذي يجتاح العالم بأسره: «**كما ملئت ظلما وجورا**» فيعد القلوب الواهة إلىٰ تقبل وجوده عليه السلام بصفته مظهر العدل والصلاح.

هذا ومن جملة العوامل التي تؤدي إلىٰ سعة حجم الفساد في آخر الزمان ما يلي:

١ ـ الابتعاد عن تعاليم الأنبياء وارشادات الاوصياء عليهم السلام.

٢ ـ إزدياد وسائل الفساد والشهوات.

٣ ـ اتساع حجم الوسائل الدعائية التي تقوم بنشر الفساد إلىٰ مختلف الأماكن لمجرّد حصوله في زاوية من الأرض.

٤ ـ إزدياد الشبهات في المباني الدينية والأخلاقية من خلال التفسير بالرأي والقراءات المختلفة للمعارف والمفاهيم الدينية.

٥ ـ تسلط حكام الجور والفساد الذين لايهمون سوىٰ بتحقيق منافعهم المادية، إلىٰ جانب بذلهم الجهود الحثيثة من أجل افساد الناس ولا سيما الشباب من اجل الوصول إلىٰ اهدافهم الخبيثة.

حقاً أنّ التدين لصعب في مثل هذه العصور والأزمنة، بل الواقع هو أنّ هذا العصر من أصعب العصور اختباراً وامتحاناً. ولا يمكن للصالحين إجتياز هذا الامتحان العسير إلّا من حلال الاستغاثة بالله ليشملهم بلطفه وعنايته.

الخطبة[1] ١٠٤

ومن خطبة له ﷺ

نظرة إلىٰ الخطبة

أشار الإمام ﷺ في القسم الأول من هذه الخطبة إلىٰ قيام النبي الأكرم ﷺ في وسط جاهلية العرب وجهوده المضنية في سبيل هداية الأمّة.

وأشار في القسم الآخر من الخطبة إلىٰ سعي بعض المنحرفين لاحياء تقاليد الجاهلية: ثم قال ﷺ أني سأواصل طريق رسول الله ﷺ ولأبقرن الباطل حتى أخرج الحق من خاصرته، لتعلم الأمّة كيف تنهض بتكاليفها وتتعامل معه، وتتاهب لمحاربة أعراف الجاهلية.

---

١. سند الخطبة: تشبه هذه الخطبة إلىٰ حد كبير الخطبة الثالثة والثلاثين. ومن هنا قال المرحوم السيد الرضي (ره) في آخر الخطبة: وقد تقدم مختار هذه الخطبة، إلّا أنني وجدتها في هذه الرواية على خلاف ما سبق من زيادة ونقصان، فأوجبت الحال إثباتها ثانية. فالعبارة تفيد ان الخطبتين مرتبطة بواقعة واحدة، وإن نقلهما الرواة مع بعض الاختلاف؛ إلّا أنّ التفاوت الواضح بين الخطبتين يجعل احتمال التعدد أقوى.
وللوقوف على التفاصيل راجع ما أوردناه ذيل الخطبة ٣٣.

القسم الأول

«أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ اللّهَ سُبْحَانَهُ بَعَثَ مُحَمَّداً صَلَّى اللهُ عَلَيهِ، وَآلِهِ وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنَ الْعَرَبِ يَقْرَأُ كِتَاباً، وَلَا يَدَّعي نُبُوَّةً وَلَا وَحْياً، فَقَاتَلَ بِمَنْ أَطَاعَهُ مَنْ عَصَاهُ، يَسُوقُهُم إِلَىٰ مَنْجَاتِهِمْ؛ وَيُبَادِرُ بِهِمُ السَّاعَةَ أَنْ تَنْزِلَ بِهِمْ، يَحْسِرُ الْحَسِيرُ، وَيَقِفُ الْكَسِيرُ، فَيُقِيمُ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يُلْحِقَهُ غَايَتَهُ، إِلَّا هَالِكاً لَا خَيْرَ فِيهِ، حَتَّىٰ أَرَاهُمْ مَنْجاتَهُمْ وَبَوَّأَهُمْ مَحَلَّتَهُمْ، فَاسْتَدَارَتْ رَحَاهُمْ، وَاسْتَقَامَتْ قَنَاتُهُمْ».

الشرح والتفسير

النهضة التغييرية للنبيﷺ

استهل الإمامؑ الخطبة ـ بعد الحمد والثناء الذي لم يذكر في العبارة ـ بالحديث عن بعثة النبي الأكرمﷺ في ذلك الوسط الجاهلي فقالؑ: **«أمّا بعد، فان الله سبحانه بعث محمداًﷺ وليس أحد من العرب يقرأ كتاباً، ولا يدعي نبوة ولا وحياً».**

فالعبارة إشارة إلىٰ الأغلبية الساحقة من العرب آنذاك التي كانت تعبد الأوثان والأصنام وقد تناست دعوة الأنبياء السابقين. وبناءاً على هذا فليس هناك من منافاة بين هذا الحكم العام الناظر للأغلبية العظمى ووجود الأقليات الدينية آنذاك كاليهود والنصارىٰ. أضف إلىٰ ذلك فانّ الأقلية اليهودية كانت مهاجرة أتت إلىٰ الحجاز من الشام، كما قدمت الأقلية النصرانية من اليمن، فهما لا تنتميان إلىٰ العرب. كما يحتمل أن يكون المراد بالكتاب، الكتاب السماوي غير المحرف، الذي لم يكن موجودا آنذاك. أمّا ما قيل من أنّ المراد بالكتاب هنا هو القراءة والكتابة فيبدو بعيداً، لا سيا أنّ العبارة القادمة على الخلاف من ذلك.

أضف إلىٰ ذلك فقد كا هناك من يحسن القراءة والكتابة آنذاك.

ثم واصل الإمام‌ﷺ كلامه بتقسيم الناس ازاء الدعوة الإسلامية إلىٰ ثلاث طوائف: الطائفة التي تقبلت الإسلام بكل كيانها، وأُخرى التي استجابت بعد جهود، والثالثة التي اعتمدت التعصب واللجاجة فوقفت بقوة بوجه الدعوة، فلم تتعاطف معها أبدا، وقد قضي عليها.

فقال‌ﷺ بشأن الطائفة الاولى: «**فقاتل بمن أطاعه من عصاه، يسوقهم إلى منجاتهم، ويبادر بهم الساعة أن تنزل بهم**».

والمراد بالساعة في هذه العبارة القيامة الصغرىٰ يعني الموت، لا القيامة الكبرىٰ التي تقوم بعد نهاية العالم.

وقال بشأن الطائفة الثانية: «**يحسر الحسير**[1]**، ويقف الكسير، فيقيم عليه حتى يلحقه غايته**».

ثم أشار إلىٰ الطائفة الثالثة وهى الطائفة الضالة التي لايؤمل هدايتها: «**إلّا هالكاً لا خير فيه**».

فما ورد في الحديث الشريف هو عين ماورد في عبارة أميرالمؤمنين‌ﷺ، ثم عاد‌ﷺ إلىٰ أصل المطلب: «**حتى أراهم منجاتهم وبوأهم محلتهم، فاستدارت رحاهم**[2]**، واستقامت قناتهم**[3]».

تأمّلان

١ ـ هل بعث نبي من العرب؟

تضمنت بداية الخطبة إشارة إلىٰ عدم قيام نبي من العرب؛ وهذا في الواقع اقتباس من الآية الشريفة: ﴿**لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أُنْذِرَ آباؤُهُمْ**﴾.[4]

---

١. «حسير» من مادة «حسر» على وزن حبس بمعنى العري وسلب اللباس من شيء. ثم استعمل بمعنى الكسل والتعب.

٢. «رحى» كناية عن وفرة أرزاقهم، فالرحى تدور على ما تطحنه من حب.

٣. «القناة» من مادة «قنو» على وزن صنف في الأصل فرع الشجرة، كما اطلقت على الرمح لشباهته بفرع الشجرة، وهى كناية عن صحة الأحوال وصلاحها.

٤. سورة يس/٦.

وهنا يمكن أن يطرح هذا السؤال: إنّ القرآن صرّح في موضع آخر قائلاً: **﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّـةٍ إِلَّا خَـلا فِـيها نَذِيرٌ﴾**[١].

أضف إلىٰ ذلك فانّ قاعدة اللطف تقتضي أن يكون لكل أمّة رسول مبعوث من الله.

ونقول في الجواب: أنّ المراد بالآية وما ورد في الخطبة كبار أنبياء الله الذين ذاع صيتهم في الارجاء، وإلّا فليس هناك من زمان ليس لله فيه من حجة بين الناس. ومن هنا يصطلح بالفترة علىٰ الفاصلة الواقعة بين بعث السيد المسيحعليه السلام والنبي صلى الله عليه وآله؛ والحال كان هناك أوصياء المسيحعليه السلام من بعده.

أضف إلىٰ ذلك لم يدع أحد من العرب في زمان بعثة النبي صلى الله عليه وآله ـ المراد بهذه الخطبة ـ النبوة والاتصال بالوحي والإتيان بكتاب سماوي.

٢ ـ القوة في الدين

يستفاد من عبارات الإمامعليه السلام الواردة في هذه الخطبة أنّ ظهور الإسلام لم يقتصر على اصلاح دين الناس فقط، بل حل إلىٰ جانب ذلك الكثير من مشاكلهم الدنيوية.

وهكذا تبلورت أمة قوية وحكومة مقتدرة في ظل الدين الجديد، تمكنت من إدارة شؤون الأُمّة وزعامتها لسنوات طويلة؛ ولعل هذه الحكومة كانت ستخلد لو لم تنحرف عن المسار الإسلامي الصحيح. اضافة إلىٰ ذلك نهضت الحضارة وتطورت الثقافة لتشهد اتساعاً ورقياً في ظل التعليمات الإسلامية، حتى كانت صفحة جديدة في فصل التأريخ البشري.

كل هذه أدلة على أن اتباع التعاليم الإسلامية إنّما يؤدي إلىٰ ضمان سلامة دين الإنسان وعمارة دنياه.

والعبارات الاربع الواردة في الخطبة شاهد على هذا الادعاء، فقد قالعليه السلام: حتى أراهم منجاتهم، وبوأهم محلتهم، فاستدارت رحاهم، واستقامت قناتهم. لتصف بمجموعها سعادتهم المعنوية والمادية.

---

١. سورة فاطر/٢٤.

القسم الثاني

«وَايمُ اللّهِ، لَقَدْ كُنْتُ مِنْ سَاقَتِهَا حَتَّىٰ تَوَلَّتْ بِحَذَافِيرِهَا، وَاسْتَوْسَقَتْ فِي قِيَادِهَا؛ مَا ضَعُفْتُ، وَلَا جَبُنْتُ، وَلَا خُنْتُ، وَلَا وَهَنْتُ وَايْمُ اللّهِ، لَأَبْقُرَنَّ الْبَاطِلَ حَتَّىٰ أُخْرِجَ الْحَقَّ مِنْ خَاصِرَتِهِ!».

٨٠٥

الشرح والتفسير

بقر الباطل واخراج الحق

أشار الإمام عليه السلام هنا إلىٰ دوره في انتشار الدعوة الإسلامية ودحر عسكر الكفر فقال عليه السلام: **«وايم الله، لقد كنت من ساقتها حتى تولت بحذافيرها[١]، واستوسقت قيادها»**[٢].

ساقه جمع سائق. وقد كان سائداً في السابق أن يتقدم حركة الركب أو القافلة شخص يسمى القائد، ويقال عن خلفه السائق.

وهكذا كان الأمر بالنسبة للجيوش فقد كان القادة في مقدمة الجيش و الأمراء خلفه. فالإمام عليه السلام يشير إلىٰ أنّ الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله كان القائد للجيش وهو بمنزلة السائق، كما ورد السائق أحياناً بمعنى القائد. أضف إلى ذلك فان ساقة الجيش وردت بمعنى القسم الخلفي منه و في هذه الحالة لاتكون جمع سائق.

على كان حال فانّ العبارة تكشف عن دور الإمام عليه السلام في زعامة جيش الإسلام وهزيمة جيش الكفر.

---

١. «حذافير» جمع «حذفور» الجماعة الكثيرة، كما وردت بمعنى الجانب، إشارة إلىٰ أنّ كل طوائف الباطل تولت وانتهت.

٢. حسب التفسير الذي اوردناه فان الضمير في «ساقتها» و«قيادها» يعود إلىٰ جيش الإسلام، بينما يعود إلىٰ جيش الكفر في حذافيرها بقرينة المقام.

ثم قالعليه السلام: «**ما ضعفت، ولا جبنت، ولا خنت، ولا وهنت**» فالواقع هو أنّ الهزيمة إنّما يفرزها أحد هذه العناصر الأربعة: الضعف الخوف، الخيانة والوهن.

والفارق بين الضعف والوهن هو أنّ الضعف يعني العجز وعدم وجود القدرة، بينما هناك قدرة في الوهن، غير أنّ هناك مسامحة في الاستعمال. وعليه فلا يمكن العثور على أي من هذه العناصر في شخص الإمامعليه السلام، ومن هنا كان منتصراً على الدوام.

ثم اختتم الخطبة بالقول: «**وايم الله، لأبقرن الباطل حتى أخرج الحق من خاصرته**».

فالعبارة تفيد وجود الحق في الدنيا دائماً، وإن غطاه الباطل وعليه فبقر الباطل وطرح حجابه يظهر منه الحق. و هي نقطة رائعة أشار إليها الإمامعليه السلام بكلامه.

كلام السيد الرضي:

قال السيّد الشرّيف الرّضى: وَقَدْ تَقَدَّمَ مُخْتَارُ هٰذِهِ الْخُطْبَةِ، إلا أَنّي وَجَدْتها فِي هذِهِ الرِّوايَةِ عَلَىٰ خِلَافِ مَا سَبَقَ مِنْ زِيَادَةٍ وَنُقْصَانٍ، فَأَوْجَبَتِ الْحَالُ إِثْبَاتَهَا ثَانِيَةً. (و هذا يكشف بدوره عن مدىٰ دقة السيد الرضي(ره) في ذكر الخطب حيث لم يهمل حتى إختلاف الروايات).

ℵ℘

الخطبة[1] ١٠٥

ومن خطبة له ﷺ

في بعض صفات الرسول الكريم ﷺ وتهديد بني أمية وعظة الناس

نظرة إلى الخطبة

يتضح من عنوان الخطبة أنّها تشتمل على ثلاثة أقسام:

القسم الأول في ذكر بعض صفات الرسول الأكرم ﷺ ويصرح الإمام ﷺ فيه بأنّ الرسول ﷺ خير الخليقة طفلاً وأعظمها كهلاً. حيث هدف الإمام ﷺ في الواقع إلى لفت إنتباه الناس إلى أهمية موروث النبي ﷺ و حفظ القرآن و الإسلام.

القسم الثاني يذم فيه بني أمية و يلفت إنتباههم إلى الدنيا التي أقبلت عليهم، ويحذرهم من غضب الله لما سفكوه من دماء بريئة، مؤكداً على أنّ هذه الخلافة ستؤول قريبا إلى الاعداء.

القسم الثالث في وعظ الناس ونصيحتهم بعدم الاستجابة للاهواء، والسعي لتحصيل العلم وعدم ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

---

١. سند الخطبة، روى بعض هذه الخطبة المفسر المعروف علي بن ابراهيم المتوفى عام ٣٠٧ في المجلد الأول من تفسيره /٣٨٤ ذيل الآية «ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة» (سورة النحل /٢٥) عن الإمام الصادق ﷺ. كما روى بعضها الشيخ المفيد في كتابه الارشاد /١٦٠٠ وقد عاش كلاهما قبل السيد الرضي (ره).

القسم الأول

«حَتَّى بَعَثَ اللّهُ مُحَمَداً صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَآلِهِ، شَهِيداً وبَشِيراً، وَنَذيراً، خَيرَ الْبَرِيَّةِ طَفْلاً، وَأَنْجَبَها كَهْلاً، وأطْهَرَ الْمُطَهَّرينَ شِيمَةً، وَأَجْوَدَ الْمُسْتَمْطَرِينَ ديمَةً».

الشرح والتفسير

صفات النبي صلى الله عليه وآله

أشار الإمام عليه السلام في القسم الأول من هذه الخطبة إلىٰ النعمة الوفيرة بظهور نبي الإسلام صلى الله عليه وآله وقد أثنى على سبع من صفاته البارزة، فقال عليه السلام: (أن الناس كانوا في هالة من الضلال) حتى بعث الله سبحانه محمداً صلى الله عليه وآله شهيدا على أعمالهم وبشيراً (بالثواب الإلهي على الأعمال الصالحة) ونذيراً (بين يدي عذاب شديد على السيئات) وقد كان خير الخلق طفلاً وانجبهم كهلاً، أخلاقه تفوق أخلاق الجميع، وكرمه وسخاؤه ليس له من مثيل «**حتى بعث الله محمداً صلى الله عليه وآله لشهيداً وبشيراً ونذيراً، خير البرية طفلاً، وانجبها كهلاً**[1]**، وأطهر المطهرين شيمة**[2]**، وأجود المستمطرين ديمة**»[3].

فصفة الشهيد إشارة لما ورد في الآية الشريفة: **﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنا بِكَ شَهِيداً عَلىٰ هٰؤُلاءِ﴾**[4]. وصفة البشير والنذير إشارة لما وردت كراراً في الآيات القرآنية كالآية **﴿إِنّا أَرْسَلْناكَ بِالحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً﴾**[5].

---

١. «كهل» متوسط العمر، وقيل تطلق علىٰ من جاوز الثلاثين، ولا تعني العجز.

٢. «شيمة» بمعنى الأخلاق وجمعها «شيم».

٣. «ديمه» بكسر الدال المطر المستديم الذي يخلو من الرعد والبرق.

٤. سورة النحل/٨٩

٥. سورة البقرة/١١٩.

ثم تحدث الإمامعليه السلام عن طفولتهصلى الله عليه وآله حيث كان متميزاً فيها. حيث ورد في مناقب ابن شهر آشوب عن ابن عباس أن النبيصلى الله عليه وآله كان يخالط الأطفال دون أن يأتي ببعض أعمالهم التي تستند إلى الجهل. كما ورد عن أبي طالب قوله: لم أعهد فيه كذبة ولم يتخلق بأخلاق الجاهلية، و لم يضحك عبثا. كما يروى أن عبدالمطلب كان يفرش في ظل الكعبة ولم يجلس على فرشه أحد حتى يخرج سوى رسول اللهصلى الله عليه وآله و حين يحاول أعمامه إبعاده كان يرد عليهم عبدالمطلب: دعوه، فوالله إن له لشأنا عظيما.[١]

و قد أنشد ابوطالب في خلقه هذين البيتين:

ولقد عهدتك صادقا	في القول لا تتزيد
ما زلت تنطق بالصوا	ب و أنت طغل أمرد[٢]

و العجيب ما روى أنه كان يكتفي بالثدي الأيمن من مرضعته حليمة السعدية و كأنه كان حريصا على العدل ليترك الثدي الايسر لولد حليمة.[٣]

ثم أشارعليه السلام إلىٰ نجابة النبيصلى الله عليه وآله وكرامته في الكهولة؛ الأمر الذي يشهد به التأريخ، كما لايخفى علىٰ أحد.

أماتواضعه ورأفته وفطنته وعفوه وصفحه فقد دوت في أرجاء كافة المعمورة وهى أشهر من نار على علم. كان يهب كل مالديه للآخرين ويجود بالعطاء.

كان أسخى الجميع بحيث لم يبق عنده دينار أو درهم، وان زاد لديه شيء لم تكن تغمض عينيه دون أن يوصله إلىٰ المحتاجين.

كان يكرم الفضلاء، ويجهد في صلة الأرحام، وكان يقبل العذر ويصفح عن المسيىء.

---

١. مناقب ابن شهر آشوب ١/٣٤ـ٣٧ (طبق نقل شرح نهج البلاغة للشوشتري ٢/٢٠٤) و سيرة ابن هشام ١/١٧٨.

٢. المصدر السابق.

٣. ابن شهر آشوب طبق نقل بحار الأنوار ١٥/٣٣٢.

القسم الثاني

«فَمَا احْلَوْلَتْ لَكُمُ الدُّنْيَا فِي لَذَّتِهَا، وَلَا تَمَكَّنْتُمْ مِنْ رَضَاعِ أَخْلَافِهَا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا صَادَفْتُمُوهَا جَائِلاً خِطَامُهَا، قَلِقاً وَضِينُهَا، قَدْ صَارَ حَرَامُهَا عِنْدَ أَقْوَامٍ بِمَنْزِلَةِ السِّدْرِ الْمَخْضُودِ، وَحَلَالُهَا بَعِيداً غَيْرَ مَوْجُودٍ، وَصَادَفْتُمُوهَا، وَاللّهِ، ظِلّاً مَمْدُوداً إِلَى أَجَلٍ مَعْدُودٍ. فَالأَرْضُ لَكُمْ شَاغِرَةٌ. وَأَيْدِيكُمْ فِيهَا مَبْسُوطَةٌ؛ وَأَيْدِي الْقَادَةِ عَنْكُمْ مَكْفُوفَةٌ، وَسُيُوفُكُمْ عَلَيْهِمْ مُسَلَّطَةٌ، وَسُيُوفُهُمْ عَنْكُمْ مَقْبُوضَةٌ. أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ دَمٍ ثَائِراً، وَلِكُلِّ حَقٍّ طَالِباً وَإِنَّ الثَّائِرَ فِي دِمَائِنَا كَالْحَاكِمِ فِي حَقِّ نَفْسِهِ، وَهُوَ اللّهُ الَّذِي لَا يُعْجِزُهُ مَنْ طَلَبَ، وَلَا يَفُوتُهُ مَنْ هَرَبَ. فَأُقْسِمُ بِاللّهِ، يَا بَنِي أُمَيَّةَ، عَمَّا قَلِيلٍ لَتَعْرِفُنَّهَا فِي أَيْدِي غَيْرِكُمْ وَفِي دَارِ عَدُوِّكُمْ! أَلَا إِنَّ أَبْصَرَ الأَبْصَارِ مَا نَفَذَ فِي الْخَيْرِ طَرْفُهُ! أَلَا إِنَّ أَسْمَعَ الأَسْمَاعِ مَا وَعَى التَّذْكِيرَ وَقَبِلَهُ!».

الشرح والتفسير

زوال حكومة بني أمية

صرح أغلب شرّاح نهج البلاغة بأنّ هذا المقطع من الخطبة ـ والذي يبدو أنّ هناك حذف بينه وبين القسم الأول، جريا على عادة السيد الرضي في اقتطاف بعض كلمات الإمامعليه السلام ـ في بني أمية، والشاهد على ذلك أن اسمهم ورد صراحة في أواخر هذا القسم، بينما يرى جمع من شرّاح نهج البلاغة أنّ المخاطب هو من تبق من الصحابة والتابعين، وذيلها في بني أمية، والعبارات التي استهل بها هذا القسم إنّما تؤيد المعنى الثاني؛ لأنّ هذه العبارات تبين أن الإمامعليه السلام إنّما عاتب أفرادا لم يكن يتوقع منهم الانحراف عن جادة الحق، ونعلم أنّ بني أمية

طائفة ظالمة طيلة التاريخ معروفة بانحرافها عن الإسلام. على كل حال قال الإمام: «**فما احلولت[1] لكم الدنيا في لذتها، ولا تمكنتم من رضاع اخلافها[2] إلّا من بعد ما صادقتموها جائلاً[3] خطامها،[4] قلقا[5] وضينها[6]**».

المراد أنّكم تكالبتم على لذات الدنيا وزخارفها في عهد عثمان وبعد الفتوحات الإسلامية والتطاول علىٰ بيت المال، وهذا ماجعلكم تبتعدون عن الله، فقد انهمك الحكام بجمع الثروات، بينما انشغلت الأُمّة بدنياها ولذاتها.

ومن هنا قال أنّ حرام الدنيا أصبح سهلاً يسيراً كالسدر الخالي من الشوك، بينما أصبح الحلال بعيداً غائباً: «**قد صار حرامها عند أقوام بمنزلة السدر المخضود، وحلالها بعيداً غير موجود**»، فقد انهال البعض علىٰ بيت المال فنهب ماشاء، ثم اتسعت هذه الأموال الحرام بين الناس.

العبارة «**السدر المخضود**» إشارة إلىٰ أن نهي الله وتحريمه كالشوك تجاه لذات الدنيا المحظورة، أمّا الأفراد من عديمي الورع والتقوىٰ فهم لايكترثون للنواهي الإلهية، والحرام عندهم كالسدر المخضود، وقد صرح ارباب اللغة أنّ شجرة السدر أنواع، لبعضها ثمار شديدة الحلاوة فواحة العطر تفيض رائحته علىٰ يد الإنسان وثيابه إذا ما تناول منه.[7]

نعم فاصحاب الدنيا يبتلعون الأموال الحرام وكأنّها ثمار لذيذة كالسدر المنضد الذي قطع شوكه، ولا يلتفتون إلىٰ أوامر الله ونواهيه، وبالطبع فانّ الحرام إنّما ينتشر ويعم مثل هذا الوسط فلا يبقى للحلال من مكان.

---

١. «احلولت» أصبحت حلوة من مادة «حلو».
٢. «اخلاف» جمع «خلف» على وزن جلف حلمة ضرع الناقة.
٣. «جائل» من مادة «جولان» تعني في الأصل إزالة الشئ من مكانة، وتطلق على الحيوان الذي ينزل عنانه وينطلق اينما يشاء.
٤. «خطام» ما يوضع في أنف البعير ليقاد به.
٥. «قلق» من مادة «قلق» الاضطراب وتحريك الشيء.
٦. «وضين» بطان عريض منسوج من سيور أو شعر يكون للرحل كالحزام للسرج.
٧. لسان العرب، مادة سدر.

ثم قالﷺ: «**وصاد فتموها والله، ظلاً ممدوداً إلىٰ أجل معدود، فالأرض لكم شاغرة**[١]**، وأيديكم فيها مبسوطة؛ وأيدي القادة عنكم مكفوفة، وسيوفكم عليهم مسلطة، وسيوفهم عنكم مقبوضة**».

فهذه العبارات تبيّن أنّ الكلام هنا بخصوص فريق من المؤمنين من بقية الصحابة والتابعين الذين لم يتمالكوا أنفسهم حين الاختبار الإلهي، فيميلون حيثما مالت الريح.

فقد شغلتهم الدنيا وغرتهم بزينتها وزخرفها وبالطبع قد حصل هذا في وقت لم يسع الإمامﷺ حتى في زمان حكومته أن يصدهم عنه؛ وذلك لأنّهم غرقوا في هذه الدنيا على عهد عثمان بالشكل الذي لم يبق معه من أمل لانقاذهم بسهولة.

ثم هددهمﷺ ليعلموا أن المسألة ليست بهذه السهولة وهناك الحساب الذي ينتظرهم، محذرهم قائلاً: اعلموا أنّ لكل دم شائراً، ولكل حق طالباً: «**ألا وإن لكل دم ثائراً**[٢] **ولكل حق طالباً، وإن الثائر في دمائنا كالحاكم في حق نفسه، وهو الله الذي لايعجزه من طلب، ولا يفوته من هرب**».

فاذا تأخر العذاب والانتقام الإلهي عن بعض العصاة المردة الذين يجاهرون بجناياتهم، فهذا لايعني نسيان هذه الأعمال الشائنة، أو قدرة هؤلاء الجناة علىٰ الفرار من مخالب العدل الإلهي.

والعبارة «**إن الثائر في دمائنا...**» تعني أنّ الثائر لدمائنا أهل البيت والتي تسفك بغير حق هو الله سبحانه وتعالىٰ، فهى تسفك في سبيل الله ومن أجل إعلاء كلمته، فلا تشتمل هذه الدماء علىٰ جانب شخصي أو قبلي، وقطعاً أن مثل هذا الثائر لايعجزه شيء، ولايفوته شيء وهو بالمرصاد.

ثم حذر بني أمية قائلاً: «**فاقسم بالله، يا بني أمية، عما قليل لتعرفنها في أيدي غيركم وفي دار عدوكم**».

---

١. «شاغرة» من مادة «شغور» خالية.

٢. «ثائر» من مادة «ثأر» على وزن قعر «وقد بُدلت الهمزة بألف. و «ثأر» تقرأ على وزن غار. وفي الاصل جاءت بمعنىٰ الثأر والانتقام، وتأتي أحيانا بمعنىٰ الدم، وهو كناية عن الثأر أيضاً. وتعبير «ثارالله» أُطلق على الامام الحسين والإمام علىﷺ «يا ثارالله وابن ثاره»، ومعنىٰ ذلك ان ثأر هذين الامامين لا يتعلق بعائلة او قبيلة، بل يرتبط بالله سبحانه وتعالى وبكل بني الانسان في هذا العالم.

إيّاكم والظن بأنّكم أن سفكتم دماء الأبرياء ولم ترحموا صغيراً وتوقروا كبيراً، ورسختم دعائم حكومتكم علىٰ الظلم والعدوان ونهب الأموال وقتل الناس، فانّ هذه الحكومة دائمة لكم! فسرعان ما ينهض لكم الأعداء ويسددوا لكم ضرباتهم الماحقة حتى يطيحوا بحكومتكم ويقضوا عليكم، بل سوف لن يرحموا حتى موتاكم، فسيخرجونهم من قبورهم ويحرقون أجسادهم.

ويشير التأريخ إلىٰ تحقق كل ما أخبر به الإمام عليه السلام، وقد مر شرح ذلك في الخطبة ٨٧.[١]

ثم إختتم الكلام بقوله عليه السلام: «**ألا إنّ أبصر الأبصار ما نفذ في الخبر طرفه! ألا إنّ أسمع الاسماع ما وعى التذكير وقبله**».

أي إن كان لكم بصر وسمع مفتوح، لم تعد عليكم من صعوبة في الظفر بسبيل الخير والسعادة، غير أنّه لمن المؤسف أن أهوائكم النفسية وطغيانكم قد غطى أبصاركم وأسماعكم بالحجب، بحيث لايسعكم رؤية الحق ولاسماع المواعظ.

جدير ذكره سئل بعض شيوخ بني أمية عقيب زوال الملك عنهم:

ماكان سبب زوال ملككم؟ فقال: جار عمالنا على رعيتنا، فتمنوا الراحة منا، وتحومل على أهل خراجنا فجلوا عنا، وخربت ضياعنا فخلت بيوت أموالنا، ووثقنا بوزرائنا فآثروا مرافقهم على منافعنا، وأمضوا أموراً دوننا، أخفوا علمها عنا، وتأخر عطاء جندنا فزالت طاعتهم عنا، واستدعاهم عدونا فظافروه على حربنا، وطلبنا أعداءنا فعجزنا عنهم لقلة أنصارنا، وكان استتار الأخبار عنّا من أوكد أسباب زوال ملكنا.[٢]

ونرىٰ هنا بوضوح عمق ما أخبر به الإمام عليه السلام في هذه الخطبة.

---

١. المجلد الثالث من هذا الكتاب في الخطبة ٨٧؛ ج ٤ الخطبة ٩٣.
٢. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٣٦/٧.

القسم الثالث

«أَيُّهَا النَّاسُ، اسْتَصْبِحُوا مِنْ شُعْلَةِ مِصْبَاحٍ وَاعِظٍ مُتَّعِظٍ، وَامْتَاحُوا مِنْ صَفْوِ عَيْنٍ قَدْ رُوِّقَتْ مِنَ الْكَدَرِ.

عِبَادَ اللّهِ، لَا تَرْكَنُوا إِلَىٰ جَهَالَتِكُمْ، وَلَا تَنْقَادُوا لِأَهْوَائِكُمْ، فَإِنَّ النَّازِلَ بِهٰذَا الْمَنْزِلِ نَازِلٌ بِشَفَا جُرُفٍ هَارٍ، يَنْقُلُ الرَّدَىٰ عَلَىٰ ظَهْرِهِ مِنْ مَوْضِعٍ إِلَىٰ مَوْضِعٍ، لِرَأْيٍ يُحْدِثُهُ بَعْدَ رَأْيٍ؛ يُرِيدُ أَنْ يُلْصِقَ مَا لَا يَلْتَصِقُ، وَيُقَرِّبَ مَا لَا يَتَقَارَبُ! فَاللّٰهَ اللّهَ أَنْ تَشْكُوا إِلَىٰ مَنْ لَا يُشْكِي شَجْوَكُمْ، وَلَا يَنْقُضُ بِرَأْيِهِ مَا قَدْ أَبْرَمَ لَكُمْ».

٭٭٭

الشرح والتفسير

التمسك بالإمام

خاض الإمام عليه السلام هنا في نصح الناس ووعظهم فقال في البداية لإعداد أنفسهم: «**أيّها الناس، استصبحوا من شعلة مصباح واعظ متعظ، وامتاحوا [1] من صفو عين قد روقت [2] من الكدر**».

كما أنّ الاشارات الضوئية تنير للإنسان طريقه إذا مشى ليلاً في الظلام وتقيه الوقوع في المطبات أو أن يضل الطريق، فانّ نصائح الواعظ المتعظ تصون الإنسان في مسيرته وسلوكه المعنوي والفكري والأخلاقي من الانحرافات العقائدية، وكما أنّ الماء الزلال والخالي من الكدر هو مادة حياة جسم الإنسان وسائر الكائنات الحية؛ كذلك نصائح دعاة الحق تشكل مادة حياة روح الإنسان ونفسه.

ومن الواضح أنّ المراد بهذا الواعظ المتعظ الذي ينبغي الاستصباح من شعلته والتروي من

---

١. «امتاحوا» من مادة «متح» سحب الدلو من بئر الماء.

٢. «روقت» من مادة «روق» على وزن فوق بمعنى صفيت، فتأتي بمعنى التصفية إذا حملت على باب التفعيل.

صفو عينه هو الإمام عليه السلام الذي وظفت الناس بالتمسك به والاستفادة منه: أمّا للأسف لم يفعلوا وانّنا لنهتدي اليوم بما وصلنا من كلماته عليه السلام ونستقي من عينه الصافية.

ثم واصل عليه السلام كلامه بخطاب كافة عباد الله وحذرهم من الجهل والهوى والأفكار الباطلة المنحرفة.

فقال عليه السلام: «**عبادالله، لاتركنوا إلى جهالتكم، ولا تنقادوا لأهوائكم**» ثم بين عليه السلام دليل ذلك قائلاً: «**فإن النازل بهذا المنزل نازل بشفا[1] جرف هار، ينقل الردىٰ على ظهره من موضع إلىٰ موضع**»، ثم قال عليه السلام: «**لرأي يحدثه بعد رأي؛ يريد أن يلصق ما لا يلتصق، ويقرب ما لا يتقارب**».

فقد بين الإمام عليه السلام بهذه العبارات البليغة حقيقة مهمّة وهي أنّ أحد مصادر الضلال إنّما يكمن في الاستناد إلىٰ الاوهام والظنون الباطلة والآراء الفاسدة البعيدة عن البرهان والدليل.

وقد شبههم الإمام عليه السلام بحافة النهر حيث يتمتعون بظاهر خلاب، في حين يستبطن الخلاء والجوفية! فاذا وطي الجهال تلك الحافة هووا في القعر.

ثم خلص الإمام عليه السلام إلىٰ هذه النتيجة: «**فالله الله أن تشكوا إلى من لا يشكي شجوكم[2]، ولا ينقض برأيه ما قد أبرم لكم**».

ولعل هذه العبارة إشارة إلىٰ أن أحد منابع الجهل وعدم العلم والوقوع في متاهات الظنون الباطلة إنّما يتمثل باستشارة غير الاكفاء من الأفراد الذين يفتقرون إلىٰ الفكر السليم والرأي القاطع والاطلاع الكافي واللازم للتغلب على المشاكل والصعوبات، فاذا ما استشير حمل معه من استشاره إلىٰ وادي الضلال والهلكة.

كما يحتمل أن تكون إشارة إلىٰ ضرورة عدم الاغترار بالقدرات الكاذبة والجبارة التي لا تفكر سوىٰ في تحقيق أطماعها ومآربها (كبني أمية). وعليه فلا ينبغي لهم الاستعانة بهؤلاء من أجل حل مشاكلهم. فهم ليسوا فقط غير قادرين على حل هذه المشاكل فحسب، بل غالباً ما يسهمون في مضاعفة هذه المشاكل.

---

١. «شفا» حافة الشيء وتعني في الأصل حافة البئر والنهر، و«الهار» من «هور» على وزن غور بمعنى المتهدم أو المشرف على الانهدام.

٢. «شجو» الهم والغم (ولهذه المفردة معنى المصدر واسم المصدر).

القسم الرابع

«إنَّهُ لَيسَ عَلَى الإمَامَ إلَّا مَا حُمِّلَ مِنْ أَمْرِ رَبِّهِ: ألإِ بْلَاغُ فِي الْمَوْعِظَةِ، وَالاِجْتِهَادُ فِي النَّصِيحَةِ، وَالإِحْيَاءُ لِلسُّنَّةِ، وَإِقَامَةُ الْحُدُودِ عَلَىٰ مُسْتَحِقِّيهَا، وَإِصْدَارُ السُّهْمَانِ عَلَىٰ أَهْلِهَا. فَبَادِرُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِ تَصْوِيحِ نَبْتِهِ، وَمِنْ قَبْلِ أَنْ تُشْغَلُوا بِأَنْفُسِكُمْ عَنْ مُسْتَثَارِ الْعِلْمِ مِنْ عِنْدِ أَهْلِهِ، وَانْهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَتَنَاهَوْا عَنْهُ، فَإِنَّمَا أُمِرْتُمْ بالنَّهْيِ بَعْدَ التَّنَاهِي!».

الشرح والتفسير

وظائف الإمام والأُمّة

أشار الإمام؈ في هذا الموضع من الخطبة إلىٰ الوظائف الخمس لإمام المسلمين و وظائف المسلمين فذكر بعض الأُمور المهمة بهذا الشأن، وكأن ما أورده الإمام؈ سابقاً يدعو إلىٰ سؤال يقتدح في الاذهان، وهو أننا إذا وقعنا في وادي الجهل أو شكونا ما يحل بنا لغير أهله، فذلك لأنّ الإمام لم يأخذ بايدينا ويهدينا ويدلنا علىٰ الطريق.

فقد ردّ الإمام؈ علىٰ مثل هذا السؤال المقدّر بالقول: «**إنّه ليس على الإمام إلّا ما حمل من أمر ربّه**».

والوظائف الملقاة على عاتقه هي:

١ ـ الوعظ لعامة الناس «**الا بلاغ في الموعظة**».

٢ ـ الجد والاجتهاد في الخير والنصح «**والاجتهاد في النصيحة**».

٣ ـ «**والإحياء للسنة**».

٤ ـ «**وإقامة الحدود على مستحقيها**».

٥ ـ «**واصدار السهمان**[١] **على أهلها**».

هذه هي وظائف حاكم المسلمين. فعليه أن يوصل الأحكام الإسلامية كاملة إلىٰ الأمّة بحيث يخرج من نشد الحق عن الجهل والضلال ولا يبقي له من عذر في الجهل بهذه الأحكام. هذا من جانب.

ومن جانب آخر: يسعى ويجتهد من أجل خير المسلمين وإصلاح أوضاعهم الدينية والدنيوية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية.

ومن جانب ثالث: أن يسعى لاحياء السنة النبوية والأحكام الشرعية من خلال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أو سائر الوسائل.

ومن جانب رابع: إجراء الحدود بحق المستحقين دون التميز بين أحد وآخر والتساهل في إقامتها بهدف منع الجرائم والجنايات.

ومن جانب خامس: دفع حقوق المستحقين والمحتاجين من بيت المال.

فاذا فعل امام المسلمين ذلك فقد أدى دينه تجاه عبادالله، فان كان هناك من اشكال واضطراب فانّما يعود إلىٰ الناس.

ثم خاض عليه السلام في وظائف الأمّة ليوجزها في ثلاث، تعلم العلم من قبل أن تجف شجرته، وقبل أن ينشغلوا بأنفسهم ويتلوثوا بالدنيا، كما عليهم أن يستقوا هذا العلم من منابعه: «**فبادروا العلم من قبل تصويح**[٢] **نبته، ومن قبل أن تشغلوا بأنفسكم عن مستثار**[٣] **العلم من عند أهله**».

ولعل المراد بجفاف شجرة العلم شهادته عليه السلام، والمراد شخصه عليه السلام أيضاً بمركز فيض العلم ـ ومن هنا فقد لفت انتباههم إلىٰ ضرورة السؤال والاستفسار مادامه عليه السلام بينهم.

والعبارة تشبه تلك التي أطلقها عليه السلام أواخر عمره الشريف: «**سلوني قبل أن تفقدوني**»[٤].

كما يحتمل ان يكون المراد بهذه العبارة جفاف شجرة وجود الإنسان، لأنّ الإنسان لايمتلك

---

١. «سهمان» على وزن لقمان جمع «سهم» الحظ والنصيب.
٢. «تصويح» جفاف النبات.
٣. «استثار» من مادة «استيثار» بمعنى الاستثارة والنشر.
٤. نهج البلاغة، الخطبة، ٩٣.

القدرة الكافية علىٰ تناول العلم في أي سن وعمر وينسجم هذا الاحتمال والعبارة القادمة، لأنّ الإنسان كلما تقدم به العمر ازدادت مشاكله وهمومه، كما يقل استعداده ـ كما يمكن الجمع بين الاحتمالين.

ثم أشار إلىٰ الوظيفة الثانية والثالثة للأُمّة بالقول: «**وانهوا عن المنكر وتناهوا عنه، فانّما أمرتم بالنهي بعد التناهي**».

وعليه فوظيفة الناس أولاً: ان يرفع من مستواه العلمي ويزيد من معارفه، لأنّ الجهل من عوامل التخلف.

وثانياً: الجد في امتثال أوامر الله وعدم نسيان وظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر التي تعد وظيفة عامة. والحق أنّ السعادة ستعم الأُمّة لو عملت بوظائفها ونهض أئمة المسلمين بوظائفهم.

وقد برز سؤال بين شرّاح نهج البلاغة ـ وهو السؤال الذي يتبادر إلىٰ ذهن كل متتبع ـ وهو؛ كيف اشترط الإمام عليه السلام النهي عن المنكر بانتهاء، الشخص عنه فقال: «**فانما أمرتم بالنهي بعد التناهي**»؟ رد ابن أبي الحديد علىٰ هذا السؤال بالقول: لم يرد عليه السلام أنّ وجود النهي عن المنكر مشروط بانتهاء ذلك الناهي عن المنكر، وإنّما أراد: أني لم آمركم بالنهي عن المنكر إلّا بعد أن أمرتكم بالانتهاء عن المنكر.[1]

بينما اعتبر الشارح الخوئي هذا الرد تكلفاً وقال: الأفضل أن يقال للسائل: أنّه عليه السلام أوجب الأمرين (دون اشتراط أحدهما بالآخر) والعبارة الأخيرة إشارة إلىٰ الانتهاء عن المنكرات التي أكدت اكثر عن وجوب النهي عن المنكر. لانّ اصلاح النفس مقدم على اصلاح الآخرين.[2]

إلّا أنّ الأفضل أن يقال: إنّ الانتهاء عن المنكر لشرط كمال النهي عنه، لا شرط وجوبه، لأنّ الإنسان حين يرتكب الذنب ويريد نهي الآخرين عنه، سوف لن يكون لكلامه من تأثير، ولو علم الناس منه ذلك لسخروا منه وقالوا: «**طبيب يعالج الناس وهو عليل**».

١. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٧٠/٧.
٢. شرح نهج البلاغة للمرحوم الخوئي ٢٥١/٧.

ومن هنا أكد أئمة الدين عليهم السلام أننا لا ننهاكم عن شيء حتى ننتهي عنه قبلكم.

فقد قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**أيها الناس، إني والله ما أحثكم على طاعة إلّا وأسبقكم إليها، ولا أنهاكم عن معصية إلّا وأتناهى قبلكم عنها**»[1].

---

١. نهج البلاغة، الخطبة ١٧٥.

الخطبة[1] ١٠٦

ومن خطبة له ﷺ

وفيها يبين فضل الإسلام ويذكر الرسول الكريم ﷺ ثم يلوم أصحابه

نظرة إلىٰ الخطبة

كما يتضح من عنوان الخطبة أنّها تتألف من ثلاثة أقسام:

القسم الأول: يتحدث عن أهمية الإسلام وبركاته وآثاره والتركيز علىٰ بعض النقاط المهمة بهذا الشأن.

القسم الثاني: يتحدث عن شخصية الرسول الأكرم ﷺ بعبارات قصار عميقة المعنى، ثم يختتمه بالدعاء للنبي ﷺ وعامة المؤمنين.

القسم الثالث: يلوم أصحابه علىٰ سكوتهم على الظلم والفساد رغم ما آتاهم من النعم، والسماح لهؤلاء الظلمة بانتهاك الحرمات. و ممارسة كل ما يحلو لهم من أعمال.

وجاء في بعض الرّوايات أن رجلاً سأل أميرالمؤمنين عن الإسلام والإيمان والكفر والنفاق فخطب ﷺ بهذه الخطبة. وفي خبر عن الاصبغ بن نباتة أنّ أميرالمؤمنين ﷺ خطبها في داره أو في دار الامارة ثم أمر بكتابتها.[2]

---

١. سند الخطبة: ورد في مصادر نهج البلاغة سنذكر مدارك هذه الخطبة في ذيل الكلمات القصار (الكلمات ٣٠، ٣١، ٢٦، ٢٦٨) ويبدو انها في خطبة واحدة للإمام ﷺ (فصلها المرحوم السيد الرضي (ره))، ولكن ليس لدنيا مدارك واضحة لما نقله المصادر. والذي يستفاد من كتاب المستدرك والمدارك لنهج البلاغة ان جانب من هذه الخطبة ورد في كتاب اصول الكافي وجانب آخر منها في الامالي للطوسي (من اول الخطبة إلىٰ العبارة والجنّة سبقته).

٢. شرح نهج البلاغة للشوشترى ١٢/٣٣٩.

القسم الأول

«الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذي شَرَعَ الإسْلَامَ فَسَهَّلَ شَرَائِعَهُ لِمَنْ وَرَدَهُ، وَأَعَزَّ أَرْكَانَهُ عَلَىٰ مَنْ غَالَبَهُ، فَجَعَلَهُ أَمْناً لِمَنْ عَلِقَهُ، وَسِلْماً لِمَنْ دَخَلَهُ، وَبُرْهَاناً لِمَنْ تَكَلَّمَ بِهِ، وَشَاهِداً لِمَنْ خَاصَمَ عَنْهُ، وَنُوراً لِمَنِ اسْتَضَاءَ بِهِ، وَفَهْماً لِمَنْ عَقَلَ، وَلُبّاً لِمَنْ تَدَبَّرَ، وَآيَةً لِمَنْ تَوَسَّمَ، وَتَبْصِرَةً لِمَنْ عَزَمَ، وَعِبْرَةً لِمَنِ اتَّعَظَ، وَنَجَاةً لِمَنْ صَدَّقَ، وَثِقَةً لِمَنْ تَوَكَّلَ، وَرَاحَةً لِمَنْ فَوَّضَ، وَجُنَّةً لِمَنْ صَبَرَ. فَهُوَ أَبْلَجُ الْمَناهِجِ، وَأَوْضَحُ الْوَلَائِجِ؛ مُشْرَفُ الْمَنَارِ، مُشْرِقُ الْجَوَادِّ، مُضِيءُ الْمَصَابِيحِ، كَرِيمُ الْمِضْمَارِ، رَفِيعُ الْغَايَةِ، جَامِعُ الْحَلْبَةِ، مُتَنَافِسُ السُّبْقَةِ، شَرِيفُ الْفُرْسَانِ. التَّصْدِيقُ مِنْهَاجُهُ، وَالصَّالِحَاتُ مَنَارُهُ، وَالْمَوْتُ غَايَتُهُ، وَالدُّنْيَا مِضْمارُهُ، وَالْقِيَامَةُ حَلْبَتُهُ، وَالْجَنَّةُ سُبْقَتُهُ».

الشرح والتفسير

خصائص الإسلام

أشار الإمام عليه السلام في هذه الخطبة ضمن الخطبة ٢٦ إلىٰ الخصائص المهمة للإسلام والمميزات التي ينطوي عليها بعبارات قصيرة ذات معان عميقة. وكما أوردنا سابقاً ـ نظرة إلىٰ الخطبة ـ أنّ الإمام عليه السلام خطب بهذه الخطبة في المسجد لعامة الناس، رداً علىٰ من سأله عن خصائص الإسلام والكفر والإيمان والنفاق. فقد استهل عليه السلام خطبته بحمد الله والثناء عليه قائلاً: «**الحمد لله الذي شرع الإسلام فسهل شرائعه لمن ورده**». حيث نعلم أن الشريعة تعني الطريق الذي يشقه الناس إلىٰ جانب الأنهار الكبيرة نحو الماء لستفيد منه الناس.

فقد بين الإمام عليه السلام أنّ الإسلام أشبه بالنهر العظيم و وصف طرق الوصول إليه بأنها سهلة

يسيرة. كما أنّ اعتناق الإسلام سهل يخلو من أي تكلف؛ فيكفي فيه أن ينطق الإنسان من صميم قلبه بالشهادتين ليخرج من صف الكفر والنفاق ويلتحق بصفوف المسلمين والمؤمنين، كما أنّ البرامج الإسلامية هي الأُخرى سهلة يسيرة سمحاء، فهناك الأدلة من قبيل **«لاضرر»** و**«نفي الحرج»** التي رفعت أي تكلف وثقل عن كاهل الإنسان! كما منحت الاصالة في الشرع للبراءة وحمل أفعال الآخرين علىٰ الصحة. كما رفضت أي إكراه أو إجبار، كما حكم ببطلان كافة العقود التي تبرم على أساس الإكراه والاجبار والاضطرار. كما صرحت ببعض الواجبات التي لاتدعو إلىٰ المشقة والعسر والحرج. وزبدة الكلام فقد قال النبي ﷺ: **«بعثت إليكم بالحنيفية السمحة السهلة البيضاء»**[1].

إلّا أن لسهولتها لا تعني قدرة أرباب السوء علىٰ السيطرة عليها والتغلب عليها، ومن هنا قال: **«وأغر أركانه على من غالبه»**، ثم بحكم: **﴿أَشِدّاءُ عَلَى ٱلكُفّارِ رُحَماءُ بَيْنَهُمْ﴾**[2] فانّ المسلمين مكلفون بالقوة والشدة تجاه الأعداء والرحمة والرأفة ازاء المؤمنين.

ثم واصل ذكر الصفات الأُخرىٰ للإسلام كونه ملاذاً آمناً لمن لجأ إليه من الأفراد وسلاماً وأمناً لمن دخل حصنه وولج حريمه، ودليلاً وبرهاناً قاطعاً لمن اعتمده في منطقه، وحجة دامغة لمن احتج به على خصمه: **«فجعله آمناه لمن علقه**[3]**، وسلماً لمن دخله، وبرهاناً لمن تكلم به، وشاهداً لمن خاصم به»**.

نعم فالمسلمون جميعاً يتمتعون بالأمن قاطبة دون استثناء في الإسلام، وأسسه ودعائمة رصينة قوية تدعو دعاة الحق للاستدلال بها، كما تسوقهم للدفاع عنها تجاه خصوم الدعوة وأعدائها.

ثم قال ﷺ في ذكره لعدة صفات أخرى: **«ونوراً لمن استضاء به، وفهماً لمن عقل، ولباً لمن تدبر»**، فبلوغ الحقيقة يمر عبر ثلاث مراحل: الظفر بموقعها ومن ثم إدراكها وفهمها وأخيراً تحليلها بصورة دقيقة. وقد بين الإمام ﷺ هذه المراحل الثلاث بالعبارات الثلاث

---

١. بحار الانوار ٣٤٦/٦٥.
٢. سورة الفتح/٢٩.
٣. «علق» من مادة «علوق» التعلق بالشيء والالتصاق به.

المذكورة، فقال أولاً أنّ الإسلام نور يستقطب نحوه الأفراد ليصلوا إليه. ثم قال: إنّ من تعقله سيد ركه ويفهمه. وأخيراً من تدبر بلغ حقيقته.

والحق أنّ الإسلام يتمتع بكل هذه الصفات، فالقرآن الذي تكفل بشرح الإسلام وتوضيحه إنّما يستند على الدوام إلىٰ الدليل والبرهان والمنطق والعقل؛ الأمر الذي نلمسه بوضوح في الآية ١٥ و١٦ من سورة المائدة: **﴿قد جاءكم من الله نور و كتاب مبين* يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلىٰ النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلىٰ صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾**.

ثم قال ﷺ: «**وآية لمن توسم، وتبصرة لمن عزم، وعبرة لمن اتعظ**»، توسم من مادة وسم وضع العلّامة، والمتوسم تطلق على من يفهم الواقعة من خلال أبسط أثر أو علامة، وهى الفراسة التي ذكرها القرآن في الآية الشريفة: **﴿إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآياتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ﴾**[1]. فعبارته في الواقع إشارة إلى أمور مهمة و ظريفة في القرآن يدركها ممن تحلى بالفراسة.

ثم واصل ﷺ ذكره لسائر صفات الإسلام بصفته وسيلة النجاة لمن صدق به، والاطمئنان والثقة لمن استند إليه وتوكل عليه، كما يغرق الإنسان بالهدوء والراحة إذا ما وكلّ أعماله إليه وهو الجنّة الواقية لمن استقام وصبر: «**ونجاة لمن صدق، وثقة لمن توكل، وراحة لمن فوض، وجنّة لمن صبر**».

فالعبارة تتحدث عن أربع فضائل أخلاقية هى: التصديق والتوكل والتفويض والصبر.

فتصديق الإسلام في الاعتقاد والعمل إنّما يودي بلا شك إلىٰ النجاة، كما أن الاعتماد علىٰ المعارف الإسلامية يقود إلىٰ الاطمئنان بالمستقبل والحاضر للدنيا والآخرة، وتفويض الأُمور إلىٰ أُصول الإسلام وفروعه بمعنى الحركة في ظله هى سبب الهدوء والسكينة والاستقرار والراحة، وأخيراً فان الصبر والاستقامة في هذه المسيرة وتحمل الشدائد في سبيل حفظ العقيدة والعمل علىٰ ضوء أحكام الشريعة إنّما تجعل الفرد في جنّة وثيقة تجاه الأمور التي تهدد سعادته أو سعادة المجتمع.

---

١. سورة الحجر/٧٥.

والواقع هو أنّ الإنسان إنّما يطلب النجاة والاطمئنان والهدوء والراحة والأمن؛ وهي الأمور التي لاتحصل الأمن خلال العمل بالبراج الإسلامية وعلىٰ ضوء التعاليم السماوية.

ثم تطرقﷺ إلىٰ خمس صفات أُخرى تمثل في الواقع النتيجة لما سبق من أوصاف، وهي أنّ طرق الإسلام أوضح الطرق ومداخلها من أظهر المداخل، وعلاماتها جلية ظاهرة، ومسالكها بينه منيرة «**فهو أبلج**[١] **المناهج**[٢] **وأوضح الولائج**[٣]؛ **مشرف المنار**[٤] **مشرق الجواد**[٥]، **مضيىء المصابيح**».

فالواقع هو أنّ الإمامﷺ رسم هنا صورة للجادة التي تضم كافة الامتيازات.

فهي على درجة من الوضوح بحيث يبلغها كل شخص بسهولة. ولها أبواب متعددة ماثلة امام اصحاب الحق واضحة لديهم. وتتطلب هذه الجادة بعض العلامات التي تبدو من بعيد؛ وهذه في الواقع جادة الإسلام.

(فقد كانوا يعمدون في السابق إلىٰ بناء الأبراج في الطرق ثم ينصبون المصابيح فوقها لتبدو للعيان من مسافات بعيدة وتحول دون ضلال الطريق ويطلقون عليها اسم المنار؛ أي موضع النور، إلّا أنّ المعنى الواسع لهذه الكلمة يشمل جميع العلامات التي تمنع السالكين من الانحراف).

ولعل هذه العبارات كناية عن محكمات الآيات القرآنية وصريح السنة النبوية والمعجزات والكرامات وأدلة العقل والنقل التي تضيئ معالم الطريق للموحدين السائرين علىٰ هدىٰ الإسلام.

ثم شبهﷺ الإسلام بالمسابقة التي تمثل أركانها ذروة الحسن والكمال.

فللمسابقة عادة بعض الأركان من قبيل:

١ ـ ميدان التمرين ٢ ـ نقطة انتهاء المسابقة ٣ ـ الخيل الجاهزة ٤ ـ الجائزة الكبيرة ٥ ـ الفرسان النجباء.

---

١. «أبلج» من مادة «بلوج» على وزن بلوغ واضح ونير.
٢. «المناهج» جمع «منهج» الطريق الواضح والمستقيم.
٣. «ولائج» جمع «وليجة» من مادة «ولوج» بمعنى الدخول فولائج أبواب الدخول.
٤. «مشرف» من مادة «اشراف» بمعنى المرتفع.
٥. «جواد» جمع «جادة» الطريق الواسع الواضح، كما تطلق على مطلق الطريق.

فقالﷺ أنّ ميدان السباق الإسلامي طاهر مطهر وكريم، ونقطة انتهـاء السباق هى نقطة رفيعة سامية، وفرسان هذه المسابقة معروفون بالاصالة والاستعداد، أمّا الجائزة المترتبة علىٰ هذه المسابقة فهى عظيمة للغاية، وأهلها من النجباء «**كريم المضمار**[١]**، رفيع الغاية، جامع الحلبة**[٢]**، متنافس**[٣]**، السبقة**[٤]**، شريف الفرسان**».

ثم أضافﷺ بأنّ التصديق واليقين هو سبيل (الوصول إلى الأهداف) الإسلام، وعـلامة ذلك الأعمال الصالحة (فالواقع هو أنّ الإيمان والعمل الصالح هما العنصران الذان يؤديان إلىٰ الفوز في هذا السباق).

«**التصديق منهاجه، والصالحات مناره**».

ثم اختتمﷺ كلامه بالقول: «**والموت غايته، والدنيا مضماره، والقيامة حلبته، والجنّة سبقته**». ليشخص بصورة جزئية ما ورد سابقاً بنحو الكلية.

أمّا عدم ذكر فرسان المسابقة فلوضوح الأمر؛ فهم ليسوا سوىٰ المؤمنين من ذوي الأعمال الصالحة.

وقد مرعلينا مثل هذا التشبيه الرائع مع إختلاف طفيف في الخطبة ٢٨ إذ قالﷺ: «**ألا وإنّ اليوم المضمار، وغدا السباق، والسبقة الجنّة والغاية النار**».

تأمّلان

١ ـ منزلة الدنيا والآخرة في النظرة الإسلامية

تمثل الدنيا بالنسبة لطلابها ولاولئك الذين ينكرون الآخرة علماً أو عملاً منتهى الطموح والهدف، وعليه فهم يضحون بكافة القيم و المثل من أجلها.

ولعل البؤس والشقاء الذي يعيشه المجتمع العالمي هو وليد هذا النوع مـن التـفكير. أمّـا

١. «المضمار» موضع تضمير الخيل وزمان تضميرها.
٢. «الحلبة» من مادة «حلب» على وزن قلب خيل تجمع من كل صوب للنصرة كما تطلق علىٰ حلب اللبن من الحيوان، ثم اطلقت علىٰ الخيل التي تتسابق في الميدان.
٣. «متنافس» من مادة «تنافس» سعي الإنسان للحصول علىٰ شيء نفيس.
٤. «سبقة» جزاء السابقين.

الإسلام فهو لايرىٰ الدنيا سوىٰ مرحلة عابرة ومقدمة للآخرة، حتى وردت الروايات والأخبار التي شبهتها بالمزرعة والقنطرة والمتجر (وقد مر شرح ذلك في الخطبة ٢٨).

أمّا في هذه الخطبة والبعض الآخر من خطب نهج البلاغة فقد شبهت الدنيا بميدان التمرين والآخرة بميدان السباق؛ وهو تشبيه رائع غاية في الدقة والروعة. فالإنسان إنّما يتزود بالقوة والقدرة في هذا الميدان بواسطة التعاليم العقائديّة والتربوية والأخلاقية، بما يمكنه من إجتياز مسابقة الأخرى بسرعة لدخول الجنّة والفوز برضوان الله وقربه. والتصديق الذي ورد في الخطبة بصفته المنهاج والصالحات بصفتها المنار إنّما يشيران إلىٰ هذه التربية والتعليم الرباني.

فالذي نستفيده من هذا التشبيه مايلي!

١ ـ أنّ السعادة والنجاة في الآخرة ليست عبثاً؛ بل تتأتى في ظل البناء الفكري والأخلاقي والعقائدي.

٢ ـ إنّما تغلق صحيفة الأعمال بانتهاء الدنيا، والقيامة يوم حساب ولا عمل، كما أنّ ميدان المسابقة للسباق لا للتمرين.

٣ ـ جائزة هذه المسابقة من أعظم الجوائز، وذلك لان هذه المسابقة من أعظم المسابقات

٤ ـ يعتمد تفاوت واختلاف درجات الناس ومقاماتهم على أعمالهم وعقائدهم وأخلاقهم. فقد يدخل الإنسان الجنّة إلّا أنّ درجته تختلف عن غيره، على غرار الفائزين في السباق، فهناك الفائز الأول والثاني والثالث وهكذا.

٥ ـ ليس هنالك أي عمل من أعمالنا في هذه الدنيا يمكنه أن يزول وأنّ آثاره باقية، على غرار آثار التمارين التي يقوم بها المتسابقون.

وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم بالقول: **﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ﴾**[1].

وجاء في الحديث عن الإمام الحسن عليه السلام بعد أنّ وصف شهر رمضان بصفته مضمار الخلق وميدان التمرين أنّه قال: «**وايم الله لو كشف الغطاء لعلموا أنّ المحسن مشغول باحسانه، والمسيئى مشغول باسائته**»[2].

---

١. سورة الزلزلة/٧ ـ ٨.
٢. بحار الانوار ٧٥/ ١١٠.

٢ ـ الشريعة السمحاء

كما أوردنا في الخطبة المذكورة والرواية التي نقلناها في شرحها أنّ الإسلام لشريعة سهلة سمحاء؛ أي ليس هنالك من تكلف ولا عسر ولا حرج في ممارسته وطقوسه فهى لاتدعو إلىٰ الضجر والتعب.

والتمعن في أحكام الإسلام سواء في العبادات والمعاملات والروابط الإنسانية أو في العقوبات والجزاء يفيد أنّها برمجت على ذلك الأساس أيضاً. فقد روعي هذا الأصل حتى في أشد العقوبات الإسلامية من قبيل قتل الزاني بالمحصنة، وذلك لأنّ العقاب ان كان شديداً تعذر بسهولة إثبات الجرم. فعادة ما تثبت الدعاوىٰ بشاهدين، بينما يلزم هنا اربعة شهود. وهكذا الحال في اجراء بعض الحدود من قبيل الجلد، فقد أوصي باجرائه في الجو البارد في فصل الصيف، والحار في فصل الشتاء، وعدم رفع اليد إلىٰ مكان مرتفع وعدم ضرب المواضع الحساسة وما إلىٰ ذلك من الأوامر.

من جانب آخر فانّ هؤلاء المجرمين ينالون العفو عما ارتكبوا فيما إذا تابوا قبل القبض عليهم، اضافة إلىٰ العمل بقاعدة درء الحدود عند الشبهات في كافة الجرائم وعند بروز أدنى شك أو شبهة.

وقد جاء في حديث عن الإمام الصادقعليه السلام أنّه قال لأحد أصحابه كلفوا الناس من دينهم ما يطيقون، ثم نقل لهعليه السلام قصة ذلك المسلم الذي كان له جار كافر رغب في الإسلام، فكان يحمله صباحا وظهراً وليلاً إلىٰ المسجد، بحيث كان يقضي أغلب وقته فيه في أداء الواجبات والمستحبات. حتى فارق هذا الرجل الإسلام بعد أن شق عليه الأمر وقال: لا طاقة لي بهذا الدين. ثم قال الإمامعليه السلام: «**إن إمارة بني أمية كانت بالسيف والعسف، وإن إمارتنا بالرفق، والوقار، والتقية، وحسن الخلطة، والورع، والاجتهاد. فرغبوا الناس في دينكم، وفيما أنتم فيه**»[١].

---

١. الخصال للشيخ الصدوق ٢/الباب ٧، ح ٣٥.

ولا يخفى أن الحب والرفق والمداراة والخلطة الحسنة إنّما تكون مع الأفراد الذين لا يعملون بالشر وإلّا فالإسلام صلب المعاملة لشديد فيها تجاه الظلمة والطغاة والاشرار والأوباش، بغية الحفاظ على سلامة المجتمع وأمنه.

القسم الثاني

ومنها في ذكر النبي ﷺ

«حَتَّى أَوْرَىٰ قَبَساً لِقَابِسٍ، وَأَنَارَ عَلَماً لِحَابِسٍ، فَهُوَ أَمِينُكَ الْمَأْمُونُ، وَشَهِيدُكَ يَوْمَ الدِّينِ، وَبَعِيثُكَ نِعْمَةً وَرَسُولُكَ بِالْحَقِّ رَحْمَةً. اللَّهُمَّ اقْسِمْ لَهُ مَقْسَماً مِنْ عَدْلِكَ، وَاجْزِهِ مُضَعَّفَاتِ الْخَيْرِ مِنْ فَضْلِكَ. اللَّهُمَّ أَعْلِ عَلَى بِنَاءِ الْبَانِينَ بِنَاءَهُ! وَأَكْرِمْ لَدَيْكَ نُزُلَهُ، وَشَرِّفْ عِنْدَكَ مَنْزِلَهُ، وَآتِهِ الْوَسِيلَةَ، وَأَعْطِهِ السَّنَاءَ وَالْفَضِيلَةَ، وَاحْشُرْنَا فِي زُمْرَتِهِ غَيْرَ خَزَايَا، وَلَا نَادِمِينَ، وَلَا نَاكِبِينَ، وَلَا نَاكِثِينَ، وَلَا ضَالِّينَ، وَلَا مُضِلِّينَ، وَلَا مَفْتُونِينَ».

الشرح والتفسير

صفات النبي ﷺ ومقاماته

أشار ﷺ في هذا الموضع من الخطبة إلىٰ خصائص النبي ﷺ وعلو صفاته، ثم سأل الله تعالىٰ له رفيع الدرجات، كما اختتم بالدعاء لنفسه ولجميع المؤمنين بالحشر في زمرة الرسول الكريم ﷺ. فقال ﷺ: «**حتى أورىٰ[1] قبساً[2] لقابس، وأنار علماً لحابس[3]**».

وبالنظر إلىٰ أنّ هذا القسم من الخطبة ـ كما صرح المرحوم السيد الرضي (ره) ـ رواية أُخرى للخطب السابقة (٧٢)، فالذي يفهم أن «**حتى**» غائية بالنسبة لسعي النبي ﷺ وجهده،

---

١. «أورى» من مادة «ورى» على وزن نفى بمعنى التغطية والستر، وتستعمل بمعنى اشعال النار إذا جاءت من باب الأفعال؛ وكأن النار التي كمنت في جوف المواد المشتعلة قد خرجت، وتشير في الخطبة إلىٰ أنوار الهداية التي نصبها الرسول ﷺ لدعاة الحق.

٢. «قبس» الشعلة من النار، والقابس آخذ النار من النار، وهي هنا إشارة إلىٰ النور والهداية.

٣. «الحابس» من حبس ناقته وعقلها حيرة منه لا يدري كيف يهتدي فيقف عن السير.

كما يمكن القول بأنّ الفاعل في عبارة أورى وأنار هو لشخص النبي الأكرمﷺ. وعليه فقد قامﷺ بعملين مهمين هما:

الأول: أنّه أمد طلاب الحق بقبسات النور، والثاني أنّه نصب مصابيح الهداية في طريق الحيارىٰ.

وكأنّ العبارة الاولىٰ إشارة إلىٰ علماء الأمّة الذين يأخذون بشعلة الهدىٰ فيواصلون مسيرتهم ويحملون الآخرين معهم. والعبارة الثانية إشارة إلىٰ الأفراد العاديين الذين ليست لديهم مثل هذه القبسات وعيونهم متطلعة إلىٰ مصابيح الهدىٰ الموضوعة علىٰ جانب الطريق.

وبعبارة أُخرىٰ فان النبيﷺ قد أمد دعاة الحق بالهداية العامة والخاصة.

ثم قالؑ على سبيل النتيجة الواضحة و الرائعة: «**فهو أمينك المأمون، وشهيدك يوم الدين، وبعيثك نعمة ورسولك بالحق رحمة**».

وقولهؑ أمينك المأمون تأكيد لمطلق أمانته وكمالها، وشهيد يوم الدين ويوم الحساب والجزاء إشارة للآية الشريفة ٨٩ من سورة النحل: ﴿**وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنا بِكَ شَهِيداً عَلىٰ هٰؤُلاءِ**﴾.

ويمكن أن تكون هذه الشهادة على الاصول الكلية التي تضمنتها دعوة كافة الأنبياء، أو علىٰ جزئيات الأعمال، بفعل الشهود العلمي للنبيﷺ بالنسبة لأعمال كافة الامُم.

وقولهؑ: «**بعيثك نعمة**» إشارة إلى أنّ بعثة النبيﷺ كانت نعمة كبيرة من جانب الله سبحانه، كما كانت نموذجاً بارزاً لرحمته الواسعة سبحانه، فقد اهتدت به الملايين من أفراد البشرية وانقادت إلى الحق في ظل تعاليمه السامية، وهذا الكلام في الواقع اقتباس من الآيات القرآنية ومنها: ﴿**لَقَدْ مَنَّ اللّٰهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ**﴾[1] و﴿**وَما أَرْسَلْناكَ إِلّا رَحْمَةً لِلْعالَمِينَ**﴾[2].

ثم واصلؑ كلامه في إطار امتنانه وتقديره لجهود النبيﷺ العظيمة، فرفع يده بالدعاء مبتهلاً إلىٰ الله بافاضة نعمه علىٰ النبيﷺ فقال: «**اللّهم أُقسم له مقسماً من عدلك، واجزه**

---

١. سورة آل عمران/١٦٤.
٢. سورة الأنبياء/١٠٧.

مضعفات الخير من فضلك، اللّهم أعل على اباء البانين بناءه وأكرم لديك نزله[1]، وشرف عندك منزله، وآته الوسيلة، واعطه السناء[2] والفضيلة».

ويختزن الدعاء الأول والثاني هذه النقطة، وهي أنّ النبيﷺ يستحق مزيد الثواب بمقتضى العدل الإلهي، كما يتضاعف هذا الثواب بمقتضي الفضل الإلهي. قال القرآن الكريم: **﴿مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثالِها﴾**[3].

وسؤال الله علو بناء النبيﷺ علىٰ بناء جميع البانين إمّا إشارة إلىٰ علو دينه علىٰ جميع الاديان بمقتضى **﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾**[4].

وإمّا علو مقاماته في الجنّة، أو علو فضائله المعنويةﷺ.

ويبدو التفسير الأول أنسبها جميعاً.

والعبارة «**آية الوسيلة**» إشارة إلىٰ المقام العالي للقرب ونتيجة ذلك الدرجات الرفيعة في الجنّة، فقد ورد في الحديث النبوي أنّهﷺ خاطب أصحابه قائلاً: «**سلوا الله لي الوسيلة**»، ثم أضاف: «**هي درجتي في الجنّة، وهي ألف مرقاة... فلا يبقى يومئذ نبي ولا صديق ولا شهيد إلّا قال طوبى لمن كان هذه الدرجة درجته**»[5].

ثم اختتم كلامهﷺ بهذا الدعاء: «**واحشرنا في زمرته غير خزايا[6]، ولا نادمين، ولا ناكبين، ولا ناكثين، ولا ضالين، ولا مضلين، ولا مفتونين**» في إشارة إلىٰ أن الأفراد يسعهم بالعمل والعلم أن يكونوا في زمرة النبيﷺ ويجتازوا هذه الفضائح السبع، فلا يندمون ويفتضحون يوم القيامة، وإذا رأوا أعمالهم لا يشعرون بالندم، فلا يكونوا في صف الناكثين، ولا يحملون أوزار الآخرين ولا يخدعون بالشياطين.

فالواقع هو أنّ الإمامﷺ اشار إلىٰ طوائف أمة النبيﷺ حين ترد المحشر حيث ترد كل

---

١. «نزل» بضمتين ما هيئى للضيف لينزل عليه.

٢. «السناء» علو المقام والرفعة.

٣. سورة الانعام/١٦٠.

٤. سورة الصف/٩.

٥. تفسير نور الثقلين ٦٢٦/١ ح ١٧٨.

٦. «خزايا» جمع «خزيان» الخجل والافتضاح.

واحدة منها وادياً من الأودية المذكورة السبع، ولعل هذه الطوائف كانت موجودة وقد خاطبهاﷺ محذراً إياها بهذا الدعاء.

كلام المرحوم السيد الرضي

قال المرحوم السيد الرضي (ره) ذيل هذا الكلام: «**وقد مضى هذا الكلام فيما تقدم؛ إلّا أننا كررناه هنا لما في الروايتين من الاختلاف**».[1]

تأمّل

إعتراف مهم

قال ابن أبي الحديد في ذيل هذا المقطع من الخطبة: سألت استاذي النقيب أبا جعفر، وكان منصفاً بعيداً عن الهوى والعصبية عن هذا الموضع، فقلت له: وقد وقفت على كلام الصحابة وخطبهم فلم أر فيهم من يعظم رسول اللهﷺ تعظيم هذا الرجل، ولايدعو كدعائه: فانا قد وقفنا من نهج البلاغة ومن غيره على فصول كثيرة مناسبة لهذا الفصل، تدل على إجلال عظيم، وتبجيل شديد منه لرسول اللهﷺ. فقال: ومن أين لغيره من الصحابة كلام مدون يتعلم منه كيفية ذكرهم للنبيﷺ ؟

وهل وجد لهم إلّا كلمات مبتدرة، لاطائل تحتها! ثم قال: إنّ علياًﷺ كان قوي الإيمان برسول اللهﷺ والتصديق له، ثابت اليقين، قاطعاً بالامر، مستحققاً له، وكان مع ذلك يحب رسول اللهﷺ لنسبته منه، وتربيته له، واختصاصه به من دون أصحابه، وبعد، فشرفه له، لانّهما نفس واحدة في جسمين، الأب واحد، والدار واحدة، والأخلاق متناسبة، فاذا عظمه فقد عظم نفسه، وإذا دعا إليه فقد دعا إلى نفسه، ولقدكان يود أن تطبق دعوة الإسلام مشارق الأرض ومغاربها؛ لأنّ جمال ذلك لاحق به، وعائد عليه، فكيف لا يعظمه ويبجله ويجتهد في إعلاء كلمته.[2]

---

١. الخطبة ٧٢ في المجلد الثالث.
٢. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٧٤/٧.

القسم الثالث

ومنها في خطاب أصحابه

«وَقَدْ بَلَغْتُمْ مِنْ كَرَامَةِ اللهِ تَعَالَىٰ لَكُمْ مَنْزِلَةً تُكْرَمُ بِهَا إِمَاؤُكُمْ وَتُوصَلُ بِهَا جِيرَانُكُمْ، وَيُعَظِّمُكُمْ مَنْ لَا فَضْلَ لَكُمْ عَلَيهِ، وَلَا يَدَ لَكُمْ عِنْدَهُ، وَيَهَابُكُمْ مَنْ لَا يَخَافُ لَكُمْ سَطْوَةً، وَلَا لَكُمْ عَلَيْهِ إِمْرَةٌ وَقَدْ تَرَوْنَ عُهُودَ اللهِ مَنْقُوضَةً فَلَا تَغْضَبُونَ! وَأَنْتُمْ لِنَقْضِ ذِمَمِ آبَائِكُمْ تَأْنَفُونَ! وَكَانَتْ أُمُورُ اللهِ عَلَيْكُمْ تَرِدُ، وَعَنْكُمْ تَصْدُرُ، وَإِلَيْكُمْ تَرْجِعُ، فَمَكَّنْتُمُ الظَّلَمَةَ مِنْ مَنْزِلَتِكُمْ، وَأَلْقَيْتُمْ إِلَيْهِمْ أَزِمَّتَكُمْ، وَأَسْلَمْتُمْ أُمُورَ اللهِ فِي أَيْدِيهِمْ، يَعْمَلُونَ بِالشُّبُهَاتِ، وَيَسِيرُونَ فِي الشَّهَوَاتِ، وَايْمُ اللهِ، لَوْ فَرَّقُوكُمْ تَحْتَ كُلِّ كَوْكَبٍ، لَجَمَعَكُمُ اللهُ لِشَرِّ يَوْمٍ لَهُمْ!».

الشرح والتفسير

تضييع النعم

أشار الإمام ﷺ في هذا الموضع من الخطبة إلىٰ أمرين مهمين مرتبطين مع بعضهما ارتباطاً واضحاً وهما:

الأول: أنّ المجد والعظمة التي بلغها المسلمون في ظل الإسلام لهي عظمة فريدة لدىٰ العدو والصديق.

الثاني: أنّ اولئك الناس لم يعرفوا قدر هذه النعمة، وقد آلت أمورهم إلىٰ الحكام الظلمة من عديمي الإيمان وأصحاب الشهوات بفعل ضعفهم وذلهم وهوانهم، وهذا بحد ذاته جحود عظيم فقال ﷺ: **«وقد بلغتم من كرامة الله تعالى لكم منزلة تكرم بها إماؤكم وتوصل بها جيرانكم».**

واثر ذلك أخذ يعظكم من لستم خيرا منه، وليس لكم من حق عليه «**ويعظمكم من لا فضل لكم عليه، ولا يد لكم عنده**».

كما يهابكم ويبجلكم من ليس لكم قدرة عليه، ولا حكومة أو سيطرة عليه «**ويها بكم**[١] **من لا يخاف لكم سطوة**[٢]**، ولا لكم عليه إمرة**» فالواقع هو أنّ الإمام ﷺ قد بيّن بهده العبارات الرائعة البليغة منزلة المسلمين في ظل الإسلام، ولم تقتصر حرمة العدو والصديق لهم فحسب، بل شملت حتى جواريهم، كما عومل جيرانهم باللطف والرحمة كرامة لهم. كما كان يكبرهم ويجلهم من الأقوام من ليس لهم عليهم سطوة ولا قوة ولافضل ولا احسان، بل كان يهابهم حتى من لم يكن تابعاً لبلادهم.

فمن الواضح وعلىٰ ضوء الحديث الشريف: «**من خاف الله أخاف الله منه كل شيء ومن لم يخف الله أخافه الله من كل شيء**»[٣]، أنّ المسلم إذا التزم بجوهر الإسلام وعمل باحكامه وما أمر به الله سبحانه واعتمد الورع والتقوى في مسيرته الدينية، يحظى باحترام الآخرين وإجلالهم. فهذه حقيقة لامبالغة فيها.

فقد أصبح المسلمون وفي ظل الإيمان يتمتعون بكافة معاني الشجاعة والاقدام والتضحية والقوة والمنعة.

أصنف إلىٰ ذلك فقد حفتهم العناية الإلهية والامدادات الغيبية.

فقد نقل ابن أبي الحديد قصة رائعة بهذا الشأن. حيث قال: قيل إنّ العرب لما عبرت دجلة إلى القصر الأبيض الشرقي بالمدائن عبرتها في أيام مدها، وهى كالبحر الزاخر على خيولها وبأيديها رماحها، ولا درع عليها ولا بيض؛ فهربت الفرس بعد رمي شديد منها للعرب بالسهام؛ وهم يقدمون ويحملون، ولا تهولهم السهام، فقال فلاح نبطي، بيده مسحاته وهو يفتح الماء إلى زرعه لأسوار من الاساورة معروف بالبأس وجودة الرماية: ويلكم! أمثلكم في سلاحكم يهرب من هؤلاء القوم الحاسرين! ولذعه باللوم والتعنيف: فقال له: أقم مسحاتك،

---

١. «يهاب» من مادة «هيبة» الاحترام المقرون بالخوف.

٢. «سطوة» و أصله كما ورد في مفردات الراغب، من سطا الفرس اذا اقام على رجليه رافعاً يديه. القهر والغلبة والتسلط.

٣. الكافي ٦٨/٢.

فأقامها فرماها، فخرق الحديد حتى عبر النصل إلى جانبها الآخر، ثم قال: انظر الآن، ثم رمى بعض العرب المارين عليه عشرين سهما لم يصبه ولا فرسه منها بسهم واحد؛ وأنّه لقريب منه غير بعيد. ولقد كان بعض السهام يسقط بين يدي الاسوار، فقال له بالفارسية: أعلمت أنّ القوم مصنوع لهم! قال: نعم.[١]

ثم أشار في القسم الأخير من هذا الموضع من الخطبة إلىٰ جحد الناس لتلك النعم والقدرة، فقال رغم كل ذلك لاتهتز لكم قصبة وأنتم ترون كل هذه الانتهاكات ونقض العهود والقوانين والأحكام الإلهية! في حين تشتاطون غضباً فيما إذا نقضت ذمم آبائكم: «**وقد ترون عهود الله منقوضة فلا تغضبون! وأنتم لنقض ذمم آبائكم تأنفون**[٢]».

أي لو نقضت سنة قبلية أو طائفية كانت شائعة بينهم لارتفعت أصواتهم، في حين ينتهك بني أمية السنن الإلهية بمرأىٰ ومسمع منهم دون أن ينبسوا ببنت شفة، وهذا قمة جحود النعم الإلهية.

ثم قال: «**وكانت أُمور الله عليكم ترد، وعنكم تصدر، وإليكم ترجع، فمكنتم الظلمة من منزلتكم، وألقيتم إليهم أزمتكم، وأسلمتم أُمور الله في أيديهم**».

وهذا جحود آخر، فبعد كل تلك القوة والقدرة ـ بحيث كان كل شيء بأيديهم وتابع لارادتهم ـ أخلوا الساحة للظلمة ودعوهم يجلسون على منبر رسول الله ويتحكموا بأمور المسلمين.

ثم قال في وصف هؤلاء: «**يعملون بالشبهات، ويسيرون في الشهوات**».

نعم فقد فوضت الأُمور على عهد رسول الله إلىٰ الصالحين فكانوا يعملون علىٰ ضوء التعاليم الإسلامية، إلّا أنّ الغفلة والضعف وجحود النعم أدىٰ لأنّ يتزعم الأُمور تلك الثلة من سليلي الجاهلية وبقايا أهل الشرك والعصبية، حيث تربع ابن أبي سفيان ـ أعدى أعداء الإسلام ـ على عرش الحكومة الإسلامية فقلب أُمور الإسلام رأساً علىٰ عقب.

ذهب بعضى شرّاح نهج البلاغة إلىٰ المراد بالعبارة ١١: «**وكانت أُمور الله عليكم ترد...**»

---

١. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٧٧/٧.
٢. «تأنفون» من مادة «أنف» على وزن شرف بمعنىٰ الحمية و الغضب و العِزّة.

الأحكام الشرعية، لا الحكومة وقالوا: كانت الأحكام الشرعية اليكم ترد من رسول الله ﷺ ومن الإمام عليه السلام، ثم تصدر عنكم إلىٰ من تعلمونه إيّاها من اتباعكم وتلامذتكم، ثم يرجع إليكم بأن يتعلمها بنوكم وإخوتكم من هؤلاء الاتباع. أو المراد الحكم في الأحكام الإلهية.

وتبدو هذه الاحتمالات ضعيفة، ولا تنسجم والعبارة «**فمكنتم الظلمة من منزلتكم**» التي تشير إلىٰ أمر الحكومة.

والمراد بالعبارة «**يعملون بالشبهات**» هو أنّ بني أمية كانوا يتمسكون بمتشابه القرآن أو كلمات النبي ﷺ ـ حيث كانوا يكيفونها بالاستعانة بالقراءات الجديدة علىٰ مقاصدهم الانحرافية ـ من أجل توجيه أعمالهم الشائنة، وهم لايفكرون سوىٰ في حفظ مصالحهم وشهواتهم الحيوانية واحياء سنن الجاهلية.

ثم إختتم خطبته قائلاً: «**وايم الله، لو فرقوكم تحت كل كوكب، لجمعكم الله لشر يوم لهم**».

وقد ذهب أغلب شرّاح نهج البلاغة إلىٰ أنّ المراد بهذه العبارة قيام أبي مسلم الخراساني وقيام أهل العراق ضد بني أمية بحيث ينتقمون منهم شر انتقام ويجتثون جذورهم، بل قيل أنّهم ارتكبوا مالم يحفل التاريخ بمثيله.

ولايبدو صحيح الاحتمال الذي أورده بعض شرّاح نهج البلاغة من أنّ المراد بالعبارة المذكورة قيام المهدي عليه السلام حيث لاينسجم وسائر عبارات الخطبة.

وتشير العبارة: «**لو فرقوكم تحت كل كوكب**» كناية إلىٰ ذروة التشتت والفرقة، وإلّا لايمكن جعل كل إنسان تحت كوكب.

الخطبة[1] ١٠٧

ومن كلام له عليه السلام

في بعض أيام صفين

نظرة إلى الخطبة

بالنظر إلىٰ أنّ الإمام عليه السلام اورد هذه الخطبة في أحد أيام صفين، وأنّها ناظرة إلىٰ حادثه في بداية صفين حيث انسحب أصحاب الإمام عليه السلام وتراجعوا ثم عادوا فانتصروا على العدو، فمقصود الإمام عليه السلام هو ذم تراجعهم بالفاظ لطيفة رقيقة، ومن ثم الإشارة بحملتهم ثانية إلىٰ جانب حثهم وتشجيعهم علىٰ الصمود والمقاومة. ولايخفى التأثير الذي يلعبه الكلام حين يتصدر ببيان نقاط الضعف، ثم يتتابع بذكر عناصر القوة.

---

١. سند الخطبة: رواه الطيبري في تاريخه في حوادث عام ٣٧، والمرحوم الكليني في كتاب الجهاد من فروع الكافي، ونصرين مزاحم في كتاب صفين (باختلاف)، وفسر ابن أثير في كتاب النهاية بعض مفرداتها، ممّا يدل على عثوره عليها (مصادر نهج البلاغة ٢٢١/٢).

«وَقَدْ رَأَيْتُ جَوْلَتَكُمْ، وَانْحِيَازَكُمْ عَنْ صُفُوفِكُمْ، تَحُوزُكُمُ الْجُفَاةُ الطَّغَامُ، وَأَعْرَابُ أَهْلِ الشَّامِ، وَأَنْتُمْ لَهَامِيمُ الْعَرَبِ، وَيآفِيخُ الشَّرَفِ، وَالأَنْفُ الْمُقَدَّمُ، وَالسَّنَامُ الأَعْظَمُ. وَلَقَدْ شَفَىٰ وَحَاوِحَ صَدْرِي أَنْ رَأَيْتُكُمْ بِأَخَرَةٍ تَحُوزُونَهُمْ كَمَا حَازُوكُمْ، وَتُزِيلُونَهُمْ عَنْ مَوَاقِفِهِمْ كَمَا أَزَالُوكُمْ؛ حَسّاً بِالنِّصَالِ، وَشَجْراً بِالرِّمَاحِ، تَرْكَبُ أُولاهُمْ أُخْرَاهُمْ كَالإِبِلِ الْهِيمِ الْمَطْرُودَةِ؛ تُرْمَىٰ عَنْ حِيَاضِهَا؛ وَتُذَادُ عَنْ مَوَارِدِهَا!».

الشرح والتفسير

أثلجتم صدري

ذكر بعض شرّاح نهج البلاغة أنّ الإمامعليه السلام خطب هذه الخطبة حين تراجعت ميمنة أهل العراق، ثم عادت لتهجم ثانية بعد أن قادها مالك الاشتر وحمل علىٰ أهل الشام ففرقهم.[1]

فلما رأىٰ ذلك الإمامعليه السلام خطب بهذا الكلام. فقد قالعليه السلام: إنّي شاهدت فراركم وهـزيمتكم وتراجعكم عن صفوفكم بعد أن ذادكم عنها الجفاة من العرب من أهل البادية: **«وقـد رأيت جولتكم[2]، وانحيازكم[3] عن صفوفكم تحوزكم الجفاة[4] الطغام[5] وأعراب أهل الشام».**

---

١. جاء في كتاب «وقعة صفين» «لنصر بن مزاحم»، حول سبب ايراد هـذه الخـطبة قـوله: كـان ذلك فـي يـوم السابع من صفر، وهو من الايام العصيبة في حرب صفين، في ذلك اليوم هاجم جيش معاوية قسماً من جيش الإمام اميرالمؤمنينعليه السلام و أجبروهم على التـراجـع إلى الخـلف، فـتألم الإمـام عـلىعليه السلام لذلك، و لام جـيشه، وبعدها حرضهم و شجعهم على القتال، وقد قاد هجوماً شاملاً بـنفسه يـصحبه مـالك الاشـتر، فـهزم جـيش معاوية و فرقهم، و بعدها خطب الإمام علىعليه السلام في جيشه هذه الخطبة. (كتاب وقعة صفين، ٢٤٣/ إلى ٢٥٤/، طبعة بصيرتى ـ قم المقدسة).

٢. «جولة» من مادة «جولان» تعني في الأصل الدوران في الميدان، ثم وردت بمعنى التراجع والحـملة ثـانية، وهكذا وردت في العبارة.

٣. «انحياز» ترك المواضع.

٤. «الجفاة» جمع «الجافي» بمعنىٰ السفلة من الناس و ذوي الخلق السيء و الخشن.

٥. «الطغام» جمع «طغامة» الأوباش والأراذل.

والحال لا يليق هذا بكم «**وأنتم لها ميم[١] العرب، ويا فيخ[٢] الشرف، والانف[٣] المقدم، والسنام الاعظم**».

ولم أكن أتوقع هذا التراجع منكم، كما لا يليق بكم، إلّا أنّ الذي اثلج صدري معاودتكم الكر وازاحتكم لهم عن مواضعهم: «**ولقد شفى وحاوح[٤] صدري أن رأيتكم بأخرة تحوزونهم كما حازوكم، وتزيلونهم عن مواقفهم كما أزالوكم**».

ثم وصف ذلكﷺ بقوله «**حسا[٥] بالنصال[٦]، وشجراً[٧] بالرماح، تركب أولاهم أخراهم كالابل الهيم[٨] المطرودة، ترمىٰ عن حياضها، وتذاد[٩] عن مواردها**».

وممّا لا شك فيه أن صفين كانت مقابلة بين عسكرين، ضم أحدهما أغلب الشخصيات الإسلامية من قبيل بعض صحابة النبيﷺ وابناء الصحابة ومن البيوتات الصالحة السابقة إلىٰ الإسلام والإيمان، وقد كانت هذه الجماعة تحت إمرة الإمام عليﷺ. وبالمقابل كان الطرف الآخر يتمثل في الواقع ببقايا الجاهلية والشرك والاراذل والاوباش من طلاب الدنيا وعبدة الأهواء الذين قدموا الميدان بدينار معاوية ودرهمه واجزل لهم في العطاء، وفي مقدمتهم عمرو بن العاص الذي لم يبايع لمعاوية حتى اشترط عليه ولاية مصر.

وعليه فعبارات الإمامﷺ بشأن أهل الشام والعراق كانت تمثل عين الواقع، بعيداً عن أُسلوب الحث والتشجيع والمبالغة.

---

١. «لهاميم» جمع «لهميم» و«لهموم» وهو السابق الجواد من الخيل والناس.
٢. «يافيخ» جمع «يافوخ» وهو من الرأس حيث يلتقي عظم مقدمه مع مؤخره، ووردت هنا كناية عن القادة.
٣. «الانف» المراد به الموضع البارز من الوجه، وتطلق العرب هذه الكلمة علىٰ المقدم.
٤. «وحاوح» جمع «وحوح» صوت مع بحح يصدر عن المتألم.
٥. «حس» بالفتح القتل.
٦. «النصال» جمع «نصل» السهم.
٧. «شجر» الطعن بالرمح.
٨. «هيم» شدة العطش جمع «أهيم» أو «هائم».
٩. «تذاد» من مادة «ذود» بمعنىٰ الطرد و الدفع.

الخطبة[١] ١٠٨

ومن خطبة عليه السلام

وهى من خطب الملاحم

نظرة إلى الخطبة

تتالف هذه الخطبة من أقسام: استهل عليه السلام القسم الأول: كسائر الخطب بحمد الله والثناء عليه وبيان أوصاف الجلال والجمال وأدلة إثبات وجوده سبحانه. والقسم الثاني: جرى كسائر الخطب في الحديث عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وفضائله وكمالاته.

القسم الثالث: الحديث عن طبيب دوار يتفقد مرضاه وقد اعد كافة وسائل العلاج، وفسره أغلب شرّاح نهج البلاغة بان المراد شخصه عليه السلام أو النبي صلى الله عليه وآله.

القسم الرابع: لوم الأصحاب الضعفاء وتذكيرهم بأنّ هذا الضعف والاختلاف يؤدي إلى عاقبة وخيمة يسلط فيها العدو عليكم، فيسدد ضرباته إليكم ولا يبقي لكم باقية.

القسم الخامس: وهو أهم قسم في الخطبة في الوعظ والنصح. والقسم السادس والأخير اخبار عن الحوادث المستقبلية في قطع الأرض والسماء لبركتهما، وظهور التحريف وتحول المعروف إلى منكر والمنكر إلى معروف.

***

١. سند الخطبة: روى بعض هذه الخطبة الآمدي في الغرر والزمخشري في ربيع الأبرار وجانباً آخر رواه الآمدي في الغرر باختلاف مع ماورد في نهج البلاغة، وهذا يدل على أنّه نقلها من مصادر أخرى غير نهج البلاغة. (مصادر نهج البلاغة ٢/٢٢٧).

القسم الأول

«الْحَمْدُ لِلّهِ الْمُتَجَلِّي لِخَلْقِهِ بِخَلْقِهِ، وَالظَّاهِرِ لِقُلُوبِهِمْ بِحُجَّتِهِ. خَلَقَ الْخَلْقَ مِنْ غَيْرِ رَوِيَّةٍ، إِذْ كَانَتِ الرَّوِيَّاتُ لاَ تَلِيقُ إِلاَّ بِذَوِي الضَّمائِرِ، وَلَيْسَ بِذِي ضَمِيرٍ فِي نَفْسِهِ. خَرَقَ عِلْمُهُ بَاطِنَ غَيْبِ السُّتُرَات، وَأَحَاطَ بِغُمُوضِ عَقَائِدِ السَّرِيرَاتِ».

ﮪﮫ

الشرح والتفسير

تجلى الله للعباد

كما أوردنا سابقاً فانّ الإمامؑ استهل الخطبة بحمد الله والثناء عليه وذكر جماله وجلاله وأدلة وجوده سبحانه بعبارات قصار رائعة وهو يشير إلىٰ أدلة التوحيد، فقالؑ: «**الحمد لله المتجلي**». والواقع هو أنّ العبارة تشير إلىٰ برهان النظم الذي ورد في عدة آيات قرآنية التي تأخذ بيد الإنسان أحياناً إلىٰ السموات والسيارات والثوابت والمجرات العظيمة كما تصحبه أحيانا أُخرى إلىٰ عمق الذرة ودقة بنائها العجيب وتنتقل به تارة إلىٰ عجيب خلقة الطيور، كما تريه تارة أُخرىٰ اسرار البحار والمحيطات، فهى تريه عظمة الخالق من خلال المخلوقات، ويتضح ممّا تقدم ان الخلق في (لخلقه) تشير إلى الإنسان، وفي بخلقه إلىٰ جميع المخلوقات فاحدها خاص والآخر عام.

ثم أشارؑ فيما بعد إلىٰ برهان الفطرة فقال: «**والظاهر لقلوبهم بحجيته**».

فأية حجة أعظم من هذه، وهى حين يعود الإنسان إلىٰ قلبه وروحه يستمع نداء التوحيد يأتيه من كل مكان. ومن هنا مهما سعت الشياطين لانكار ذاته، وجهدت من أجل انحراف العباد، فبمجرّد زوال هذه التزيينات، وتلاشي السحب القائمة للوساوس الشيطانية، تتجلى

هذه الفطرة التوحيدية في الإنسان فيعود إلىٰ ربّه وخالقه.

ثم أشار في العبارة الثالثة إلىٰ ما يمكن تسميته ببرهان الابداع فقال ﷺ: «**خلق الخلق من غير روية، إذ كانت الرويات لاتليق إلّا بذوي الضمائر**[1]**، وليس بذي ضمير في نفسه**».

نعلم أنّ جميع المصنوعات البشرية إنّما تعود إلىٰ الفكر والبرمجة والخطط والمشاريع المسبقة، وهذه بدورها إلىٰ المخلوقات والمصنوعات في هذا العالم. أي كل ما يصنعه الإنسان فقد شاهد شبيهه في عالم الخلقة، كما قد يركب أحيانا بين عدة أشياء ليصنع منها شيئاً معيناً، فقد يحتذي بطيور البحر في صنعه للسفينة وبخلقة الطيور في صنعه للطائرة وهكذا، وعليه فهو يحتاج إلىٰ التفكير في صناعته من جانب، ويحتاج إلى موجودات أُخرى لكي يقلدها ويستعين بها في صناعته من جانب آخر. أمّا الابداع بمعنى الخلق دون الحاجة إلىٰ التفكير أو النموذج للاقتداء فانّما يختص به وحده سبحانه. ثبت اليوم أن على الأرض فقط ملايين الأنواع من النباتات و الحيوانات و الحشرات، حيث لم تكتشف بعد للإنسان لأنها تعيش فى أعماق البحار أو في متاهات الغابات أو في الصحاري النائية و المناطق القطبية. وكل ذلك يرمز إلى الإبداع الإلهي في عجائب خلقتها، و يشير هذا الإبداع إلى وجوده و علمه و قدرته.

و بغض النظر عن كل ذلك فإن الصناعات البشرية إنما تتكامل مع تقادم الزمان و الإنفتاح على تجارب الآخرين، و الحال مخلوقات الله ليست كذلك. فتكاملها يستند إلى ذاتها، لا إلى التجارب الجديدة.

ثم فسر قوله السابق ﷺ قائلاً: «**خرق علمه باطن غيب السترات**[2]**، وأحاط بغموض عقائد السريرات**[3]».

فان كان غنياً سبحانه في تنويعه لخلقه عن التفكير والمثال الذي يحتذيه فانّما ذلك لعلمه المطلق النافذ في كل شيء والمحيط بكل شيء.

---

١. «ضمائر» جمع «ضمير» من مادة «ضمور» على وزن قبول تعني في الأصل الضعف كما يراد بها باطن الإنسان.

٢. «سترات» جمع «ستره» على وزن قربة ما يستربه.

٣. «سريرات» جمع «سريرة» ما يخفيه الإنسان ويكتمه، وقد تجمع سريرة جمع تكسير فيقال سرائر، كما تجمع جمع مؤنث سالم.

نعم فمن يحتاج إلىٰ الفكر والانفتاح علىٰ تجارب الآخرين، من كان علمه محدوداً، جاهلاً بما غاب عنه.

والعبارة السابقة من قبيل ذكر الخاص بعد العام؛ أي أنّها تحدثت أولاً عن علم الله بباطن جميع الأشياء، ثم علمه بالعقائد الخفية للإنسان.

٨٠٣

تأمّل

في سعة علم الله

تعتبر مسألة علم الله من المسائل المهمة من خلال النظرة المعرفية، وكذلك من حيث الآثار الأخلاقية والتربوية.

وهى المسألة التي أورد القرآن بشأنها عدة أبحاث مهمة، وقد كشف عن سعتها بأمثلة رائعة، من ذلك: **﴿وَلَوْ أَنَّ ما فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ ما نَفِدَتْ كَلِماتُ اللّٰهِ إِنَّ اللّٰهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾**[1].

ولو تأملنا هذا المثال وتصورنا معناه، لاكتشفنا هذه الحقيقة وهى أنّ علمه سبحانه أوسع وأشمل ممّا نعتقد.

ومن البداهة أنّ هذا العلم ليس بعلم حصولي يتأتى عن طريق التصور والتصديق، بل هو علم حضوري. أي أن حضور الحق سبحانه في كل زمان ومكان وحضور جميع الأشياء لدى ذاته المطهرة يقتضى ألايخفى عليه شيء، لأنّ حقيقة العلم تعني حضور المعلوم لدى العالم. غير أنّه في العلم الحصولي لايحضر شخصاً لدىٰ العالم، بل تحضر صورته في الذهن عن طريق التصور أو التصديق. أمّا في العلم الحضوري فالذي يحضر لدى العالم ذات المعلوم، وجميع الأشياء والحوادث في كل زمان ومكان، باطنها وظاهرها عن طريق هذا العلم الحضوري واضحة لدى الله. ومن هنا قال: خرق علمه باطن غيب السترات، وأحاط بغموض عقائد السريرات.

---

١. سورة لقمان/٢٧.

قد يتعذرفهم العلم الحضوري لدىٰ البعض، ولكن توضيحه بمثال وهو: إنّ ممّا لا شك فيه أنّ علمنا بصورنا الذهنية والتصورات والتصديقات التي ترتسم في أذهاننا عن العالم الخارجي، والعلم الحضوري يعني أن هذه الصور الذهنية حاضرة لدىٰ روحنا ولا تنفصل عنها.

نعم هذا هو علم الله بجميع عالم الوجود، لا أنّ لديه صور ذهنية عنها، بل وجودها العيني حاضر لديه، لأننا نعلم أنّه معنا في كل مكان: **﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ ما كُنْتُمْ﴾**[1] و**﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾**[2].

ومن هنا نكتشف الآثار المهمة التربوية من خلال الالتفات إلىٰ سعة علمه المطلق. لأنّ الإنسان إذا علم بأنّ العالم حاضر لدى الله وعلمه محيط بأسرار الأشياء وخفاياها فباليقين سيعيش حالة من مراقبة أعماله، بل حتى أفكاره ونياته.[3]

---

١. سورة الحديد/٤.

٢. سورة ق/١٦.

٣. راجع نفحات القرآن ٤.

القسم الثاني

ومنها في ذكر النبي ﷺ

«إِخْتَارَهُ مِنْ شَجَرَةِ الأَنْبِيَاءِ، وَمِشْكَاةِ الضِّيَاءِ، وَذُؤَابَةِ الْعَلْيَاءِ، وَسُرَّةِ الْبَطْحَاءِ، وَمَصَابِيحِ الظُّلْمَةِ، وَيَنَابِيعِ الْحِكْمَةِ».

الشرح والتفسير

وصف النبي ﷺ

بعد أنّ حمد الإمام عليه السلام الله سبحانه وتعالى وأثنى عليه وأشار إلىٰ أدلة وجوده، تطرق في القسم الثاني من الخطبة إلىٰ ذكر فضائل النبي ﷺ حيث عدد فضائله الفريدة ببضع عبارات قصيرة و ستة تشبيهات فقال عليه السلام: «**إختاره من شجرة الأنبياء، ومشكاة الضياء، وذؤابة العلياء، وسرة البطحاء، ومصابيح الظلمة، وينابيع الحكمة**».

فكل تشبيه واستعارة في هذه العبارة تشير إلىٰ فضيلة من فضائل رسول الله ﷺ.

التشبيه الأول ـ حسب قول أغلب شرّاح نهج البلاغة ـ إشارة إلىٰ آل ابراهيم عليه السلام الذي ظهر منه الأنبياء العظام، وينتمي رسول الله ﷺ إلىٰ نبي الله ابراهيم عليه السلام عن طريق إسماعيل.

التشبيه الثاني: إشارة إلىٰ أنّ أنوار المعارف الإلهية في مشكاة وجود الأنبياء، وحامل هذه الأنوار هو رسول الله ﷺ. والمشكاة وعاء لحفظ السراج لاتطفأه الريح، وعليه فالأنبياء حفظة أنوار المعارف الإلهية.

التشبيه الثالث: بالالتفات إلىٰ أنّ ذؤابة شعر مقدم الرأس، وعلياء المرتفع، فهي إشارة إلىٰ أنّ نسب رسول الله ﷺ ينتهي إلىٰ أفضل السلالات البشرية وقد ورث عنها ذلك الشرف والمجد.

التشبيه الرابع: بالنظر إلىٰ أنّ البطحاء جزء من مكة سكنته قبيلة قريش، والسرة تعني المركز، فهي إشارة إلىٰ أنّ النبي ﷺ قد انحدر من مركز قبيلة تعتبر أشرف القبائل (وإن دفع حب الدنيا البعض منها إلىٰ عدم اجابة دعوة النبي ﷺ حتى عرفوا بكفار قريش).

التشبيه الخامس: أنّ الأنبياء والرسل هم مصابيح الهدىٰ ومشكاة الأنوار التي تكشف ظلمات الكفر والجهل، وأنّه ﷺ مركز هذه الأنوار وحاملها.

التشبيه الأخير الذي شبه الأنبياء بينابيع العلم والحكمة وأنّ النبي ﷺ أحد هذه الينابيع.

ﮩ ﮨ

القسم الثالث

ومنها: «طَبِيبٌ دَوَّارٌ بِطِبِّهِ، قَدْ أَحْكَمَ مَرَاهِمَهُ، وَأَحْمَىٰ مَوَاسِمَهُ، يَضَعُ ذٰلِكَ حَيْثُ الْحَاجَةُ إِلَيْهِ، مِنْ قُلُوبٍ عُمْيٍ، وَآذَانٍ صُمٍّ، وَأَلْسِنَةٍ بُكْمٍ؛ مُتَتَبِّعٌ بِدَوَائِهِ مَوَاضِعَ الْغَفْلَةِ، وَمَوَاطِنَ الْحَيْرَةِ؛ لَمْ يَسْتَضِيئُوا بِأَضْوَاءِ الْحِكْمَةِ؛ وَلَمْ يَقْدَحُوا بِزِنَادِ الْعُلُومِ الثَّاقِبَةِ؛ فَهُمْ فِي ذٰلِكَ كَالأَنْعَامِ السَّائِمَةِ، وَالصُّخُورِ الْقَاسِيَةِ».

الشرح والتفسير

طبيب سيار

ذهب أغلب شرّاح نهج البلاغة إلىٰ أنّ المراد بهذه الصفات التي ذكرها الإمام عليه السلام إنّما تعود إليه، حيث خاض في بيان صفاته بعد أنّ بين صفات رسول الله صلى الله عليه وآله، واصفا نفسه بأنّه طبيب سيار وقد حمل معه كافة أسباب العلاج التي تشفي المرضى ـ ولم يشذ من الشرّاح في نسب هذه الصفات إلىٰ شخص الإمام عليه السلام سوىٰ شخص واحد نسبها إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وآله ـ فقد صرح الآمدي في كتاب غرى الحكم قائلاً: «**إنّه في ذكر رسول الله صلى الله عليه وآله**»[1].

إلّا أنّ ارتباط هذه العبارة بالعبارات السابقة من جهة، وانطباقها علىٰ الأوضاع التي كانت سائدة على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله من جهة أُخرى تؤيد أنّ هذه الصفات في رسول الله صلى الله عليه وآله. وأننا لنتعجب كيف لم يطرح قاطبة الشرّاح هذا الأمر على الاقل ـ علىٰ نحو الاحتمال والحال أنّهم لم يقيموا أي دليل لاثبات صحة مدعاهم. صحيح أنّ النبي صلى الله عليه وآله وعلي عليه السلام من شجرة واحدة، وهما

---

١. غرر الحكم ودرر العلم، الحكمة ٦٠٢٣.

روح واحدة في جسمين وعامة الصفات تصدق عليهما معا؛ غير أنّه لابدّ من الدقة في ارجاع الضمائر إلىٰ أصولها.

على كل حال فقد قالﷺ: «**طبيب دوار بطبه، قد أحكم مراهمة[1] وأحمى مواسمه،[2] يضع ذلك حيث الحاجة إليه: من قلوب عمي، واذان صم، والسنة بكم، متتبع بدوائه مواضع الغفلة، ومواطن الحيرة**».

يا لها من تعبيرات رائعة تشبه النبيﷺ (أو الإمام) بالطبيب!

لأنّ الأطباء يتولون علاج مرضى الأبدان، وينهمك هو في علاج مرضى الروح والأخلاق الذي يفوق بمراتب مرضى البدن.

حيث أشار إلىٰ ثلاثة منها في العبارة: أولئك الذين تعمى أبصار قلوبهم ويفقدون السمع واستقبال الحق وعجز اللسان عن ذكر الحق بفعل الذنب والمعصية والغفلة واتباع الهوىٰ.

ثم وصفه بأنّه (دوار) في إشارة إلىٰ أنّه ليس على غرار أطباء الابدان الذين يجلسون في عياداتهم وينتظرون مراجعة المريض.

بل يحمل وسائله وعلاجه معه ويتجول بحثاً عن المريض، وهذا هو منهج الأنبياء والأوصياء وروثتهم من العلماء، الذين ينبغي لهم أن يقتدوا بالأنبياء ولا يروا أنفسهم كالكعبة وأنّ أفراد الأُمّة مطالبون بالطواف حولهم، بل عليهم أن يكونوا كالصياد الذي يبحث عن صيده، فيفيضوا علومهم علىٰ الناس ويأخذوا بأيديهم إلىٰ الحق.

ثم قالﷺ واصفاً ما أورده سابقا من مواضع الغفلة ومواطن الحيرة؛ وأصحابها من أهل الغفلة والحيرة: «**لم يستضيئوا بأضواء الحكمة، ولم يقدحوا[3] بزناد[4] العلوم الثاقبة، فهم**

---

١. مراهم جمع مرهم الدهون التي يداوى بها الجروح.

٢. «مواسم» جمع «ميسم» بمعنىٰ الآلات التي يوسم بها بدن الانسان أو الحيوان بعد أن يحمىٰ عليها. و «وسم» على وزن رسم، و يطلق على العلامة التي تظهر على جسم الحيوان أو الانسان بعد وسمه بالآلات الحارة.

٣. «يقدحوا» من مادة «قدح» على وزن «مدح» بمعنىٰ إضرام النار بواسطة القداحة «وهي الآلة التي تحتوي على حجر خاص يستعمل في قديم الزمان، حيث يقدح عليه فيولد ناراً، و كانوا يستفيدون منه كما نستفيد في الوقت الحاضر من الشخاط الحاوي على الكبريت».

٤. «زناد» جمع «زند» وهي آلات تستخدم لتوليد شرارة لغرض اضرام النار و اشعالها في الوقود، كالخشب والفحم و الحطب، و قد اعتاد العرب في القديم على الاستفادة من هذه الوسيلة لاشعال النار في الوقود.

في ذلك كالانعام السائمة،[1] والصخور القاسية».

فالعبارة لم يستضيئوا ولم يقدحوا تفيد أنّهم كانوا يستطيعون حتى قبل قيام الأنبياء أنّ يتخلصوا من جانب من غفلتهم وحيرتهم بنور الحكمة والعلم ودليل العقل، إلّا أنّهم لم يلتفتوا قط للعلم والعقل.

ولعل «**لم يستضيئوا...**» و«**لم يقدحوا...**» إشارة إلىٰ طائفتين من الأفراد الضالين الذين كان يمكن أن يتبدل ضلالهم نوراً ولو لومضة من العلم والمعرفة التي تصل إلىٰ قلوبهم، والطائفة الأُخرىٰ التي كان لها أن تهدي نفسها وان عجزت عن هداية الآخرين.

كما يمكن أن تكون العبارة «**أنعام سائمة**» و«**صخور قاسية**» إشارة إلىٰ فئتين: فئة ضالة وهى كالأنعام التي لها إلىٰ حد امكانية التعليم والتربية، والفئة الأُخرىٰ كالصخرة الصماء التي يصعب اختراقها.

جدير بالذكر هناك تفاوت بين مواضع الغفلة ومواطن الحيرة؛ فالغفلة تطلق حيث لايلتفت الإنسان إلىٰ أمر ولايرىٰ أخطاره المحدقة به؛ أو كالأمراض الخالية من الألم وفجأة يصاب بها الإنسان فلا يشفى منها.

أمّا مواطن الحيرة؛ فالإنسان يلتفت فيها إلىٰ الأخطار، إلّا أنّه لايعرف كيف يواجهها.

على كل حال فانّ هذا الطبيب الروحي السيار إنّما يتجول بحساب وبرنامج حيثما حل، فيشفي المرضى ويمنحهم العافية والسلامة.

٨٠٠٣

---

١. «سائمة» من مادة «سوم» على وزن «قوم» بمعنىٰ حركة الحيوان في الصحراء. وكذلك على هبوب الرياح المستمرة. و يطلق «الحيوانات السائمة» على الحيوانات التي ترعىٰ و تحصل على علفها من الصحراء و هي سائبة في الصحراء.

القسم الرابع

«قَدِ انْجَابَتِ السَّرائِرُ لِأَهْلِ الْبَصَائِرِ، وَوَضَحَتْ مَحَجَّةُ لِخَابِطِهَا وَأَسْفَرَتِ السَّاعَةُ عَنْ وَجْهِهَا، وَظَهَرَتِ الْعَلامَةُ لِمَتَوسِّمِهَا. مَا لي أَرَاكُمْ أَشْبَاحاً بِلاَ أرْوَاحٍ، وَأرْوَاحاً بِلاَ أَشْبَاحٍ، وَنُسَّاكاً بِلاَ صَلاَحٍ، وَتُجَّاراً بِلاَ أَرْبَاحٍ، وَأيْقَاظاً نُوَّماً، وَشَهُوداً غُيَّباً، وَنَاظِرةً عَمْيَاءَ، وَسَامِعَةً صَمَّاءَ، وَنَاطِقَةً بَكْمَاءَ!».

٥٥٥

الشرح والتفسير

اشباح بلا أرواح

أشار الإمام عليه السلام في هذا الموضع من الخطبة إلىٰ وضع المنافقين والمعاندين من بني أمية، فقال عليه السلام سرائرهم وبواطنهم ظاهرة لأهل البصائر، وقد إتضح سبيل الحق لسالكه (وعليه فقد تمت الحجة على الجميع) «**قد انجابت**[1] **السرائر لأهل البصائر، ووضحت محجة الحق لخابطها**[2]».

ثم قال عليه السلام: «**واسفرت**[3] **الساعة عن وجهها، وظهرت العلّامة لمتوسمها**».

يمكن أن يكون المراد من علامات ظهور القيامة، بعثة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بصفته خاتم

---

١. «انجابَت» من مادة «جوب» على وزن قَوْمَ. و «جوبه» على وزن توبه بمعنىٰ قطع وفصل، وعلى هذا الاساس سمي الرد على الكلام بـ«الجواب»، و ذلك لان السؤال يُقطع و ينتهي بواسطة الجواب. و اذا جاءت هذه الكلمة على وزن انفعال، فيكون معناها الانكشاف و الاعلان، وفي الخطبة أعلاه جاءت بهذا المعنىٰ.

٢. «خابط» من مادة خبط، و تأتي تارةً بمعنىٰ القرب الشديد، وتارة بمعنىٰ السير على غير هدىً، كالذي يسير ليلاً بدون ضياء، وقد جاءت الكلمة هذه في الخطبة أعلاه بهذا المعنىٰ.

٣. «أسفرت» من مادة «سفور» بمعنىٰ جلد أي شيء و يستفاد من هذه الكلمة بشكل أكثر عند الحديث عن جلود الحيوانات.

الأنبياءﷺ وآخر بني من أنبياء الله، وكذلك ظهور الفتن في العالم الإسلامي وعلىٰ الأرض، وليست هناك من منافاة بين هذا الأمر ومرور آلاف السنين، لأنّ هذا الزمان قصير جداً إذا ماقورن بعمر الدنيا.

فقد ورد في الحديث النبوي أنّه ﷺ قال: «**بعثت أنا والساعة كها يتن وضم السبابة والوسطى**»[1].

ونخلص ممّا سبق إلىٰ أن اتضاح السرائر ووضوح سبيل الحق واقتراب الساعة لمن دواعي يقظة الغافلين من نوم الغفلة والتوبة إلىٰ الله من الذنوب والمعاصي وسلوك طريق الحق والاستقامة عليه.

ومن هنا يتعجب الإمامﷺ لعدم وجود ردود الفعل المناسبة من قبل الناس ازاء هذه الأُمور فقالﷺ: «**مالي أراكم اشباحا بلا أرواح، وأرواحاً بلا أشباح، ونساكاً[2] بلا صلاح، وتجاراً بلا أرباح وأيقاظا[3] نوماً[4]، وشهوداً غيباً، وناظرة عمياء، وسامعة صماء، وناطقة بكماء**».

العبارة: «**أشباح بلا أرواح، وأرواح بلا أشباح**» بعض الجماعات التي لها قدرة ظاهرية بينما ليس لها من تفكير أو تدبر، أو أنّها مفكرة ومدبرة لكنها تفتقر إلىٰ قدرة الاستخدام. ومن الطبيعي ألا تكون كلا الجماعتين على صواب وليس من شأنها فعل شيء، كخواء الجسم الذي لاروح فيه والروح التي لا جسم لها. والعبارة: «**نسا كابلا صلاح**» إشارة إلىٰ العبادات الجوفاء لعباد ذلك الزمان. لأنّ الأثر الأول للعبادة إنّما يتمثل بالتربية والصلاح الإنساني؛ فاذا لم يكن العبد صالحاً كان ذلك دليل علىٰ أنّ عبادته قشر لا لبّ فيه.

والعبارة «**تجاراً بلا أرباح**» يمكن أن تكون إشارة إلىٰ ماورد في سورة العصر: ﴿**وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ**﴾.

---

١. أورد أغلب مفسرين الفريقين هذا الحديث ذيل الآية ١٨ من سورة محمد ﷺ.
٢. «نساك» جمع «ناسك» العابد.
٣. «أيقاظ» جمع «يقظان» ضد النائم.
٤. «نوم» جمع «نائم».

والعبارة «**أيقا ظانوماً**» والعبارات الأربع القادمة إشارة إلى الأفراد اليقظين ظاهراً وهم حضور في الساحة ويتمتعون بالسمع والبصر والنطق، إلاّ أنّهم لايبدون أي رد فعل تجاه الحوادث الحسنة والسيئة، وكأنّهم نيام غير شهود، ولا سمع لهم ولابصر ولا كلام.

نعم فالإسلام يرىٰ وجود كل شيء في آثاره، والإنسان الحي الذي لا اثر له كأنّه في عداد الأموات، ومن لابصيرة له فهو أعمى، وقد ورد هذا المعنى كراراً في القرآن بشأن المنافقين من الأفراد عديمي الايمان، كالاية: **﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلونَ﴾**[1] وما شابه ذلك فالذي يستفاد من كلامه ﷺ أنّه وبخ بشدة أصحابه على عدم ابداء أي رد فعل تجاه بني أمية بعد أن اتضح لهم باطنهم وخبث مقاصدهم، وكأنّهم نيام فقدوا السمع والبصر والنطق، فلا يأبهون بجنايات بني أمية. و لا يعلمون أي مصير مظلم ينتظر الإسلام و المسلمين.

تأمّل

الوجود الباهت كالعدم

عادة ما ينظر إلىٰ وجود الأشياء وعدمها من خلال عينيتها في الخارج، بينما ينظر إليها في المنطق القرآني والروائي علىٰ أساس الآثار والمعطيات. وعليه فقد يرىٰ بعض الأحياء في عداد الموتى إذا ما انعدمت آثارهم والعكس الصحيح فقد يرى الموتى أحياءاً بفعل عطائهم وآثارهم.

وقد أكد القرآن الكريم هذا المعنى كراراً. فقد خاطب النبي الاكرام ﷺ بالقول: **﴿إِنَّكَ لا تُسْمِعُ ٱلمَوْتىٰ وَلا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعاءَ إِذا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾**[2].

ومن المسلم به أنّ المراد بالموتى والصم هنا الأفراد الذين يتمتعون بظاهر والحياة لهم أذان سامعة؛ إلّا أنّ القران عدهم أمواتاً حين اتخذوا موقف المتفرج ازاء دعوة النبي ﷺ.

ثم قال في موضع آخر: **﴿وَما عَلَّمْناهُ الشِّعْرَ وَما يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ * لِيُنْذِرَ مَنْ كانَ حَيّاً﴾**[3].

---

١. سورة البقرة/١٧١.
٢. سورة النمل/٨٠.
٣. سورة يس/٦٩ـ ٧٠.

قال أمير المؤمنين علي﵇ لكميل بن زياد: «**هلك خزان الأموال وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقي الدهر: أعيانهم مفقودة، وأمثالهم في القلوب موجودة**»[1].

ولو اعتمدنا المقياس القرآني والروائي في تقييم الأفراد والحضارات والمدنيات وسائر الأمور، لرأينا العالم بحلة جديدة أُخرى، والحق لابدّ أن يكون هذا هو المعيار والمقايس، وذلك لأنّ الكائن الحي من كان له آثار حيوية، ومن افتقر لهذه الآثار فهو ميت. والأموات الذين يخلفون بعض الآثار فهم أحياء مادامت آثارهم الوجودية قائمة في المجتمع البشري. ولما كانت آثار الشهداء في سبيل الله باقية، فهم أحياء خالدون (بغض النظر عن الحياة البرزخية).ليس للظلمة والطغاة سوىٰ الموت كيف لا وهم يخلفون هذا الفساد والدمار.

ومن هنا نعت الإمام﵇ تلك الجماعة من أهل الكوفة والعراق بأنّها أشباح بلا أرواح وايقاظ نوماً وشهود غيباً من خلال ذلك المعيار القرآني والروائي.

---

١. نهج البلاغة، كلمات القصار ١٤٧.

القسم الخامس

«رَايَةُ ضَلاَلٍ قَدْ قَامَتْ عَلَىٰ قُطْبِهَا، وَتَفَرَّقَتْ بِشُعَبِهَا، تَكِيلُكُمْ بِصَاعِهَا، وَتَخْبِطُكُمْ بِبَاعِهَا. قَائِدُهَا خَارِجٌ مِنَ الْمِلَّةِ، قَائِمٌ عَلَىٰ الضِّلَّةِ؛ فَلاَ يَبْقَىٰ يَوْمَئِذٍ مِنْكُمْ إلاَّ ثُفَالَةٌ كَثُفَالَةِ الْقِدْرِ، أَوْ نُفَاضَةٌ كَنُفَاضَةِ الْعِكْمِ، تَعْرُكُكُمْ عَرْكَ الأَدِيمِ، وَتَدُوسُكُمْ دَوْسَ الْحَصِيدِ، وَتَسْتَخْلِصُ الْمُؤْمِنَ مِنْ بَيْنِكُمُ اسْتِخْلاَصَ الطَّيْرِ الْحَبَّةَ الْبَطِينَةَ مِنْ بَيْنِ هَزِيلِ الْحَبِّ».

الشرح والتفسير

طغاة بني أمية يأتون على الأخضر و اليابس

ذهب بعض شرّاح نهج البلاغة إلىٰ أنّ هذا المقطع من الخطبة منفصلا عن الاقسام السابقة، ويرون أنّ بينهما مطالب أُخرى حذفها السيد الرضي (ره) جريا على عادته في اقتطاف بعض المقاطع من الخطب على أساس فصاحتها وبلاغتها. ومن هنا اعتبر اولئك الشرّاح هذا المقطع إشارة إلىٰ حوادث وفتن آخر الزمان. في حين لايرىٰ البعض الآخر من الشرّاح انفصالاً بين هذه المقاطع، ومنهم ابن ميثم البحراني، فيرىٰ هذا الكلام في طغاة بني أمية وحكامهم الظلمة، ويبدو هذا الاحتمال قريباً لأنّ عادة السيد الرضي (ره) حين يحذف بعض مقاطع الخطبة يذكرها بقوله (ومنها ومنها)، الأمر الذي شاهدناه بوضوح في الخطب السابقة.

على كل حال قال الإمامﷺ: **«راية ضلال قد قامت على قطبها، وتفرقت بشعبها».**

ورغم أنّ ذلك اخبار عن الحوادث الآتية ليتأهب الناس ويقللوا من اضرارها وخسائرها إلىٰ أقل حد ممكن، مع ذلك فقد أوردها بصيغة الفعل الماضي، أي أنّ مثل هذه الأُمور واقعه لا محالة!

كما صرّح بذلك الأدباء بأنّ المضارع المتحقق الوقوع بمنزلة الماضي. والعبارة «**قد قامت على قطبها**» إشارة إلىٰ أنّ راية الضلالة التي سترفعها الطغمة الفاسدة والمفسدة من بني أُمية على درجة من الثبات والرسوخ بحيث لايمكن الاطاحة بها بهذه السهولة.

والعبارة «**تفرقت بشعبها**» وإن بدت ظاهراً في تفرق فروع هذه الراية، إلّا أنّ المراد في الواقع فرقة الانصار في البلاد الإسلامية، ثم قالﷺ: «**تكيلكم[1] بصاعها، وتخبطكم بباعها[2]**» في إشارة إلىٰ أنّهم يحملونكم على أساس معاييرهم، فمن وافقها رغبوا فيه وإلّا فلا، كما يحتمل أن يكون المراد بالعبارة الاولىٰ أنّهم يمسكون بجميع مقدراتكم، ويعطون لكل شخص ما يريدون.

والعبارة «**تخبطكم بباعها**» بالنظر إلى «تخبط» التي تعني تساقط ورق الأشجار بضرب الخشب وباع بمعنى الأيدي المفتوحة إشارة إلىٰ أنّهم يستذلونكم بكل ما أُوتوا من قوة، وهذا هو أُسلوب الحكام الظلمة الذين يحرقون الاخضر واليابس في البلاد. و هذا هو أسلوب الحكومات المستبدة التي تسوق الجميع حسب معاييرها و يفنى كل من يخالف تلك المعايير.

ثم يصفﷺ هذه الحكومة الجائرة بأنّها خارجة عن الإسلام، وقائمة على أساس الضلال والفساد: «**قائدها خارج من الملة، قائم على الضلة**».

هذه العبارة التي تشير إلىٰ معاوية أو سائر حكام بني أمية، ناظرة إلىٰ هذه المعنى وهو أنّ زعماء هذه الجماعة ليس فقط لايعملون علىٰ ضوء قوانين الإسلام ويتجاوزون ضروريات الدين فحسب، بل أساس عملهم ونشاطهم هو الضلال؛ الأمر الذي يشهد به التأريخ.

ثم أشارﷺ إلىٰ النهاية المأساوية لهذه الأحداث في أنّه لا يبق منكم آنذاك إلّا النزر اليسير كالذي يتبق في قعر القدر فاذا حرك وقع: «**فلا يبقى يومئذ منكم إلا ثفالة[3] كثفالة القدر، أو نفاضة[4] كنفاضة العكم[5]**».

---

١. «تكيل» من مادة «كيل» على وزن ذيل بمعنى المكيال وتستعمل عادة في المواد الغذائية كالحنطة والشعير، كما تستعمل في غيرها مجازاً.

٢. «باع» يعني في الأصل المسافة بين أصابع اليدين، حين يفتحها نحو اليمين أو اليسار بصورة تامة، كما يستعمل مجازاً بمعنى القدرة الكاملة للإنسان.

٣. «ثفالة» من مادة «ثفل» هو ما استقر تحت الشيء من كدره.

٤. «النفاضة» من مادة «نفض» علىٰ وزن نبض ما يسقط بالنفض.

٥. «العكم» بمعنى الكيس الذي يحفظ فيه الأشياء.

فالعبارة تفيد عدم سلامتهم فيها سوىٰ القلة القليلة منهم، لأنّ هؤلاء الظلمة لا يدعون بقاء أحد من المؤمنين الصالحين.

ولا يكتفون بذلك بل: «**تعرككم**[1] **عرك الأديم**[2] **وتدوسكم**[3] **دوس الحصيد**».

ويفصلون أهل الإيمان منكم فيقضون عليهم كما تلتقط الطيور الحبوب القوية من الضعيفة: «**وتستخلص المؤمن من بينكم استخلاص الطير الحبّة البطينة**[4] **من بين هزيل**[5] **الحبّ**».

في إشارة إلىٰ أنّ ظلمهم يعم الجميع، إلّا أنّ ظلمهم وجورهم يتضاعف تجاه المؤمنين من الأفراد.

تأمّل

الحكومات المستبدة

إنّ ما اورده الإمام عليه السلام في هذه الخطبة وإن كان أخباراً عن بني أمية وحكومتهم في المستقبل، إلّا أنّه يبدو أنّ ذلك يمثل قانوناً عاماً كلياً بشأن كافة الحكومات المستبدة الجائرة، فهي تجهد من أجل ترسيخ دعائمها واعتماد المعايير اللازمة لضمان منافعها وديمومتها، والتعامل بمنتهى العنف والقوة مع من يهب لمعارضتها، فتقمع العناصر المؤمنة ولا سيما الناشطة منها، فهي لا تعرف أية قيمة لقانون أو رأفة ورحمة وإنسانية، كما لا تأبه بحقوق الناس؛ الأمر الذي نلمسه بوضوح في الحكومات المعاصرة.

---

١. «تعرك» من مادة «عرك» شديد الدلك ومن هنا تطلق المعركة علىٰ ميدان القتال حيث يدك كل منها الطرف الآخر.

٢. «الاديم» في الأصل بمعنىٰ جلد أي شيء. ويستفاد من هذه الكلمة بشكل أكثر عند الحديث عن جلود الحيوانات.

٣. «تدوس» من مادة «دوس» على وزن قوس.

٤. «بطينة» من مادة «بطن» سمين.

٥. «هزيل» ضد بطين بمعنى الضعيف وخفيف الوزن.

القسم السادس

«أَيْنَ تَذْهَبُ بِكُمُ الْمَذَاهِبُ، وَتَتِيهُ بِكُمُ الْغَيَاهِبُ وَتَخْدَعُكُمُ الْكَوَاذِبُ؟ وَمِنْ أَيْنَ تُؤْتَوْنَ، وَأَنَّى تُؤْفَكُونَ؟ فَلِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ، وَلِكُلِّ غَيْبَةٍ إِيَابٌ. فَاسْتَمِعُوا مِنْ رَبَّانِيِّكُمْ، وَأَحْضِرُوهُ قُلُوبَكُمْ، وَاسْتَيْقِظُوا إِنْ هَتَفَ بِكُمْ. وَلْيَصْدُقْ رَائِدٌ أَهْلَهُ، وَلْيَجْمَعْ شَمْلَهُ، وَلْيَحْضِرْ ذِهْنَهُ، فَلَقَدْ فَلَقَ لَكُمُ الأَمْرَ فَلْقَ الْخَرَزَةِ، وَقَرَفَهُ قَرْفَ الصَّمْغَةِ. فَعِنْدَ ذلِكَ أَخَذَ الْبَاطِلُ مَآخِذَهُ، وَرَكِبَ الْجَهْلُ مَرَاكِبَهُ، وَعَظُمَتِ الطَّاغِيَةُ، وَقَلَّتِ الدَّاعِيَةُ، وَصَالَ الدَّهْرُ صِيَالَ السَّبُعِ الْعَقُورِ، وَهَدَرَ فَنِيقُ الْبَاطِلِ بَعْدَ كُظُومٍ، وَتَوَاخَى النَّاسُ عَلَى الْفُجُورِ، وَتَهَاجَرُوا عَلَى الدِّينِ، وَتَحَابُّوا عَلَى الْكَذِبِ، وَتَبَاغَضُوا عَلَى الصِّدْقِ».

الشرح والتفسير

احذروا المستقبل المشؤوم

خاطب‌ﷺ صحبه من أجل الفات نظرهم إلىٰ ما ينتظرهم من حوادث صعبة مأساوية ـ ستصيب المسلمين في المستقبل ـ بهدف كبس خسائرها واضرارها أو إرشادهم إلى طرق الإبتعاد عنها، فقال‌ﷺ: **«أين تذهب بكم المذاهب، وتتيه[1] بكم الغياهب[2] وتخدعكم الكواذب؟ ومن أين تؤتون، وأنّى تؤفكون»**.

وهكذا قام‌ﷺ هذا الزعيم الرباني بايقاظ مخاطبيه من نوم الغفلة واعدهم لسماع قول الحق، ثم لفت انتباههم إلى الموت وانتهاء أجل الإنسان، فقال‌ﷺ: **«فلكل أجل كتاب، ولكل غيبة إياب»**.

---

١. «تتيه» من مادة «تيه» على وزن «بيه» بمعنىٰ الضلال والحيرة.

٢. «غياهب» جمع «غيهب» على وزن «حيرت» بمعنىٰ شدة ظلام الليل.

فلا تتصوروا أنّ أعماركم ممتدة لانهاية لها وأنّ الفرصة سانحة على الدوام لتدارك مافرط، ولا تظنوا أنّ أعمالكم خافية مستترة ولا تعود عليكم، فالموت حق والعمر محدود والأعمال محفوظة عند الله تنتظر الثواب أو العقاب.

وعليه فالمراد بقوله: «**لكل غيبة إياب**» إمّا الموات وأعمال الإنسان!

كما نرىٰ مثل هذا التعبير في سائر خطب نهج البلاغة. فقد خاطب عليه السلام الأمّة في الخطبة ٨٣ داعياً إياها إلىٰ التوبة قبل حلول الموت الذي عبر عنه بالقول: «**قبل قدوم الغائب المنتظر**».

كما ورد مثل هذا المعنى في الخطبة ٦٤[١].

ثم قال عليه السلام: «**فاستمعوا من ربانيكم، واحضروه قلوبكم، واستيقظوا إن هتف[٢] بكم**».

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه بالنصح والوعظ والتحذيرات، على أنّ الزعيم لابدّ أن يتحدث بصدق إلىٰ اتباعه، ويحرص على لم شملهم وجمع كلمتهم، ويحضر لديهم ذهنه بغية نجاتهم وانقاذهم وهذا ما عليه الحال بالنسبة لزعيمكم «**وليصدق رائد[٣] أهله، وليجمع شمله[٤]، وليحضر ذهنه**».

وخلاصة القول فانّ لزعيم الجماعة وظيفة، كما للأمّة وظيفة أيضاً، فهو يجب عليه أنّ يبيّن للأمّة الواقع والحقائق من جانب، ومن جانب آخر عليه أن يجمع أفراده وينظمهم ويمنحهم فكره وذهنه، فاذا قام الإمام بهذه الأمور، كانت وظيفة الامة تتمثل بالجد والاجتهاد من أجل امتثال أوامره.

ثم قال عليه السلام: «**فلقد فلق[٥] لكم الأمر فلق الخرزة[٦]، وقرفه[٧] قرف الصمغة**».

---

١. ذهب بعض شرّاح نهج البلاغة إلى ان هذه العبارة منقطعة حيث لم يروا من إرتباط واضح بينها وبين العبارات السابقة علىٰ أنّ السيد الرضي فصلها طبق عادته في الانتخاب، والحال هذا ليس من عادة الرضي (ره) في ان يحذف عبارة دون أن يشير إليها كما مر معنا ذلك بقوله (ومنها) وعليه وكما ذكرنا فان هناك علاقة معنوية وطيدة.

٢. «هتف» من مادة «هتاف» صراخ.

٣. «الرائد» من يتقدم القوم ليكشف لهم مواضع الكلأ ويتعرف سهولة الوصول اليها من صعوبته.

٤. «شمل» بمعنى الجمع.

٥. «فلق» بفتحتين بمعنى الشق.

٦. «الخرزة» الجواهر القيمة النفيسة او قليلة الثمن.

٧. «قرف» من مادة «قرف» على وزن حرف بمعنى التقشير.

فالعبارة كناية عن بيان الحقائق والواقعيات واظهار باطن الأُمور، والعبارة: «**قرفه قرف الصمغة**[١]» إشارة إلىٰ أني أخرجت لكم عصارة المطالب وجوهرتها، كما تجري تلك المادة اللزجة من الأشجار. خاض الإمام‌ﷺ هنا ثانية في الحديث عن الحوادث القادمة التي ذكرها سابقاً حيث أتمها ببيان الوقائع الإجتماعية و الأخلاقية و الدينية للحكومات المستبدة، و قد أوضح الآثار المختلفة الإجتماعية و الدينية لهذه الحكومات. و إرتباط هذا القسم من الخطبة بالأقسام السابقة واضح تماما، و إن تخللها بعض العبارات لإيقاظ أصحابه. و العجيب ما ذهب إليه بعض شراح نهج البلاغة من مجانبة هذا القسم للأقسام السابقة بفعل عادة السيد الرضي(ره) في الإقتطاف، و كأن هذا الإقتطاف الرائع للسيد أصبح ذريعة لمن لم يتأمل الإرتباط بين أقسام الخطبة ليحملها جامع نهج البلاغة.

ثم قال‌ﷺ: «**فعند ذلك أخذ الباطل ماخذه، وركب الجهل مراكبه، وعظمت الطاغية، وقلت الداعية**».

يمكن أن يكون للطاغية هنا معنى مصدري: أي أنّ الطغيان يكبر ويتسع على مستوىٰ المجتمع، كما يمكن أن يكون لها معنى اسم الفاعل؛ أي يستفحل أمر طائفة طاغية، ويقل عدد دعاة الحق أمامها، فأمّا أن تقضي عليهم أو تقصيهم عن الساحة الاجتماعية، وهذه أهم الأخطار التي تنبثق من هذه الحكومات الباطلة المستبدة التي تجهد في كم أفواه دعاة الحق.

ثم قال‌ﷺ: «**وصال الدهر صيال السبع العقور، وهدر فنيق الباطل بعد كظوم**».

نعم فقد اقتحمت الساحة ثانية من قبيل الجماعات المنافقة وسليلة الجاهلية ـ التي طردت من الميدان ـ أثر ضعف دعاة الحق. وعلىٰ هذا الضوء تقلب كافة الموازين والقيم: «**وتوافى الناس على الفجور، وتهاجروا على الدين، وتحابوا على الكذب، وتباغضوا على الصدق**».

وهكذا وبمقتضى «**الناس على دين ملوكهم**» فانّ هؤلاء الحكام الفسقة والفجرة عديمي الدين يجدون في طبع الأمّة بهذه الصفات الخبيثة بحيث يحيلون الساحة الإسلامية إلىٰ جحيم لايطاق.

---

١. «صمغه» ما يجري من الشجرة من مادة لزجة.

ورغم أنّ الدين يشمل ترك الكذب والفجور، وهجر الدين يعني هجر القيم والمثل، إلّا أنّ الإمام عليه السلام يركز بالخصوص على مسألة الفجور والكذب، لأنّ هذه الرذائل لمن من أخطر الرذائل التي تفرزها طبيعة الحكومات المستبدة الفاقدة للدين، حيث تركز على الفساد والتحلل الأخلاقي والكذب.

أمّا التعبير «**توافي وتهاجروا وتحابوا وتباغضوا**» تشير إلىٰ نقطة لطيفة وهى أنّ الناس في مثل هذه المجتمعات تتجه زرافات وجماعات نحو الكذب والفجور، وبعبارة أُخرىٰ ليس لها من بعد فردي، بل بعد اجتماعي عظيم الخطر.

القسم السابع

«فَإِذَا كَانَ ذٰلِكَ الْوَلَدُ غَيْظاً، وَالْمَطَرُ قَيْظاً، وَتَفِيضُ اللِّئَامُ فَيْضاً، وَتَغِيضُ الْكِرَامُ غَيْضاً، وَكَانَ أَهْلُ ذٰلِكَ الزَّمَانِ ذِئَاباً، وَسَلَاطِينُهُ سِبَاعاً، وَأَوْسَاطُهُ أُكَّالاً، وَفُقَرَاؤُهُ أَمْوَاتاً؛ وَغَارَ الصِّدْقُ، وَفَاضَ الْكَذِبُ، وَاسْتُعْمِلَتِ الْمَوَدَّةُ بِاللِّسَانِ، وَتَشَاجَرَ النَّاسُ بِالْقُلُوبِ، وَصَارَ الْفُسُوقُ نَسَباً، وَالْعَفَافُ عَجَباً، وَلُبِسَ الإِسْلَامُ لُبْسَ الْفَرْوِ مَقْلُوباً».

الشرح والتفسير

الانقلاب رأس على عقب

واصل الإمام عليه السلام بحثه السابق في الأخبار عن المستقبل وسيطرة الحكام الظلمة والأعمال الوحشية التي يمارسونها بحق الناس، في التعرض إلىٰ جانب آخر من الآثار المشؤومة لهذه الحكومات، والوضع الأخلاقي والاجتماعي والاقتصادي للناس في ظل هذه الحكومات.

فتطرق عليه السلام بادى الأمر إلىٰ الأولاد الذين يثيرون غضب آبائهم، وأصبح المطر قيظاً، وانتشر اللئام في كل مكان وقل الاخيار: **«فاذا كان ذلك كان الولد غيظا[1] والمطر قيظاً[2] وتفيض اللئام فيضاً[3] وتغيض الكرام غيضاً[4]»**.

في إشارة إلىٰ أنّ رذائل السوء للحكام الظلمة إنّما تخترق الأسر والعوائل، والأولاد الذين

١. «غيض» بمعنى الغضب، وقيل حالة أشد من الغضب.

٢. «قيض» بمعنى وسط الصيف «قلب الاسد» واذا وردت بالمعنى المصدري فهي شدة الحرارة.

٣. فيض سيل الماء أو المطر والدمع.

٤. غيض الغور في الأرض والنقصان.

ينبغي أن يكونوا قرة أعين والديهم ومصدر سعادتهم وخيرهم، يكونون سبب شقائهم وبؤسهم.

من جانب آخر تتضح الآثار الوضعية لهذه الأعمال السيئة في عالم الطبيعة والنعم الإلهية، كما ينزل المطر في الصيف فيدعو إلىٰ الانزعاج وضياع المحاصيل الزراعية بدلاً من نزوله في فصل الشتاء فيؤدي إلىٰ برودة الجو وتلطيفه.

أضف إلىٰ ذلك وإثر انقلاب القيم وضياعها يفتح الميدان لحثالة المجتمع فيصولون ويجولون فيه، الأمر الذي يعني إقصاء الأخيار والصالحين من الساحة، فهذه العناصر الأربعة تشاهد بوضوح في كل حكومة طاغية مستبدة.

ثم واصل كلامه عليه السلام بالإشارة إلىٰ أربع صفات حيث قسم الفئات الاجتماعية آنذاك إلىٰ أربع وقال: «**وكان أهل ذلك الزمان ذئاباً، وسلاطينه سباعاً، وأوساطه أكالاً،**[1] **وفقراؤه أمواتاً**».

والمراد بأهل ذلك الزمان أعوان الحكام الظلمة وعمالهم وولاتهم.

فاذا كان السلطان ذئباً ضارياً، كان من الطبيعي أن تكون هذه هي صفة بطانته، كما أنّ من الطبيعي أيضاً أن تكون الطبقة المتوسطة من المجتمع فريسة لهذه الذئاب، أمّا الفقراء فيعتريهم النسيان وكأنّهم أموات محوا من صفحة التاريخ.

وكأنّ الإمام عليه السلام قد طالع عن كثب كافة تفاصيل التاريخ البشري، فكشف النقاب بهذه العبارات القصيرة عن عمق مميزات الحكومات المستبدة الطاغية.

ثم إختتم عليه السلام خطبته بالاشارة إلىٰ سبع ظواهر مقيتة في هذه المجتمعات والتي تمثل قمة البؤس والشقاء. حيث قال سيزول الصدق في ذلك الزمان ويكثر الكذب وظهرت المودة على اللسان في حين انطوت القلوب على البغض والعدوان، ويتفاخر بالذنب ويندهش من العفة والطهر،

---

١. «أُكال» جمع «آكل» مثل طلاب بمعنىٰ الآكل، و على هذا المعنىٰ يكون معنىٰ الجملة «أوساطُه أكالاً»، المقصود به الطبقة المتوسطة في ذلك الزمان والذين لاهم لهم غير الاكل والشرب وسلب ونهب الأموال، واذا جاءت بصيغة اسم فاعل، حيث نرىٰ أنها جاءت على صيغة «اسم مفعول، وهو ما يناسب الجمل التي سبقتها، فيكون معناها، بالشكل الذي أوردناه في الشرح أعلاه.

فيلبس الإسلام ثوباً مقلوباً: «**وغار[١] الصدق، وصار الفسوق نسبا، والعفاف عجباً، ولبس الإسلام لبس الفرو[٢] مقلوباً**».

يمكن أن تكون العبارة «**غار الصدق، وفاض الكذب**» وبالالتفات إلىٰ معنى الغور الذي يعني الانتشار داخل الأرض وفاض من فيض بمعنى الماء الوفير أو المطر وأمثال وذلك، إشارة إلى ذلك الزمان وكأنّ عيون الصدق قد غارت فيه في الأرض بينما جفت بساتين الحياة الإنسانية اثر ابتعادها عن هذه المياه، وبدلا من ذلك فقد عم وانتشر الكذب وكأنه الماء المالح الذي يخرب كل شيء.

والعبارة «**صار الفسوق نسباً**» تفيد مدىٰ اقتراب الفسقة من بعضهم وتوطيد أواصرهم وكأنهم قرابة ونسب.

وقد فسر بعض شرّاح نهج البلاغة الفسوق هنا بالزنا؛ أي يكثر أولاد الحرام في المجتمع، وينسجم هذا التفسير والعبارة: «**والعفاف عجباً**».

الاحتمال الآخر في تفسير هذه العبارة أنّ الفسقة يفتخرون بفسقهم، كما تفتخر العرب بنسبها، وعلى العكس من ذلك فانّ الأفراد من أهل الطهر والعفاف يشعرون بالخجل إثر ذم المجتمع وملامتهم لهم.

والعبارة: «**لبس الإسلام لبس الفرو مقلوباً**» إشارة إلىٰ نقطة لطيفة وهى أنّ حكام الجور والفسقة والفجرة لايسعون إلىٰ القضاء على الإسلام وسلب الناس دينهم، بل يحرفون الإسلام ويقلبون محتواه من أجل تحقيق أطماعهم ومآربهم. وشهد تاريخ الحكومات المستبدة ولاسيما حكومة بني أمية علىٰ صدق هذا الكلام.

طبيعي أنّ اللباس إذا قلب لم يعد له من شبه بثياب الناس، بل يبدو من يرتديه حيواناً، أما ذكر هذه العبارة بعد الحديث عن مفاسد ذلك الزمان يمكن أن يكون من قبيل ذكر العام بعد الخاص؛ لأنّ الإسلام إذا قلب كان الكذب بدل الصدق والفسوق بدل العفاف وسائر الرذائل بدل الفضائل والقيم.

---

١. «غار» من مادة «غور» الدخول في الشيء وإذا استعمل في الماء عنى غوره في الأرض، ومن هنا يستعمل بمعنى الانعدام أيضاً.

٢. «فرو» ما يهيىء من جلد الحيوانات وله صوف عادة ما يلبس في الشتاء.

تأمّل

آثار سلطة الأوباش

لقد رسم الإمام‰ في هذه الأقسام الثلاثة من الخطبة صورة واضحة ببيانه للاحداث القادمة التي ستواجه المجتمع الإسلامي عن كافة الحكومات الطاغية والمستبدة علىٰ مدى التاريخ.

حيث تسعى هذه الحكومات لتقوية دعائمها فان استتبت لها الأُمور واستقرت أقصت كافة الأخيار والشرفاء عن الميدان، واستقطبت بطانتها من حثالة المجتمع ليمارسوا أبشع الأساليب بحق الناس ولا سيما المؤمنين، كما يسعون إلىٰ سوق الناس لأن يعيشوا في هالة من الجهل والتخبط.

الكذب هو السائد والصدق غائب، والفسوق عامر والطهر ضامر. أضف إلىٰ ذلك فانّ الناس سرعان ما تكتسب رذائل الحاكم، ولاغرو فالناس على دين ملوكهم. وزبدة الكلام فانّ قيم المجتمع ومثله تقلب تماماً على سبيل المثال يكون الفسق والفجور فخراً، بينما يصبح الطهر والعفاف نقصاً.

وبالطبع فانّ مثل هذه الحكومات لا تقف بوجه الدين في الأوساط الدينية بل تسعى جاهدة لتحريفه واخلائه من محتواه بغية تمرير مخططاتها، إلىٰ جانب تعبئة الرأي العام لصالحها من خلال ترويجها للخرافات التي تستهوي العوام.

والحق اننا إذا اعتمدنا هذه المعايير التي أوردها الإمام‰ تجاه عالمنا المعاصر ولاسيما غالبية البلدان الإسلامية لرأيناها مصداقا واضحاً لما ذكر، وكأن الإمام‰ كان ينظر لكافة الأحداث التي تشهدها مجتمعاتنا اليوم.

أمّا ما أورده الإمام‰ من نبوءة في هذه الخطبة فانّما يشبه بعض مضامين الروايات التي نقلت عن رسول الله ﷺ فقد جاء في الحديث الشريف أنّ رسول الله ﷺ قال:

«يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ وُجُوهُهُمْ وُجُوهُ الادَمِيِّينَ، وَقُلُوبُهُمْ قُلُوبُ الشَّيَاطِينَ، كَأَمْثَالِ الذِّئَابِ الضَّوارِي، سَفَّاكُونَ لِلدِّمَاءِ، لَايَتَنَاهَوْنَ عَنِ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ، إنْ تَابَعْتَهُمْ ارْتَابُوكَ وَإِنْ حَدَّثْتَهُمْ كَذَّبُوكَ، إِنْ تَوَارَيْتَ عَنْهُمْ اغْتَابُوكَ. أَلسُّنَّةُ فِيهِمْ بِدْعَةٌ والبِدْعَةُ فِيهِمْ سُنَّةٌ،

والْحَلِيمُ مِنْهُمْ غَادِرٌ، وَالْغَادِرُ بَيْنَهُمْ حَلِيمٌ، أَلْمُؤْمِنُ فِيما بَيْنَهُمْ مُسْتَضْعَفٌ، وَالْفَاسِقُ فِيما بَيْنَهُمْ مُشَرَّفٌ... فَعِنْدَ ذٰلِكَ يَحْرِمُهُمُ اللهُ قَطْرِ السَّمَاءِ فِي أوانه، وِ يُنْزِلُهُ فِـي غَـيْرِ أَوَانِـهِ، وَيُسَلِّطُ عَلَيْهِمْ شِرَارَهُمْ...»[1].

۞

١. سفينة البحار، مادة زمن.

الخطبة[1] ١٠٩

ومن خطبة له عليه السلام

في بيان قدرة الله وانفراده بالعظمة وأمر البعث

نظرة إلى الخطبة

تعد هذه الخطبة من أفصح وأبلغ خطب نهج البلاغة إلىٰ جانب عظم محتواها ومن هنا أسموها بالزهراء. حتى صرح ابن أبي الحديد قائلاً: من أراد أن يتعلم الفصاحة والبلاغة، ويعرف فضل الكلام بعضه على بعض فليتأمل هذه الخطبة، فانّ نسبتها إلىٰ كل فصيح من الكلام نسبة الكواكب المنيرة الفلكية إلىٰ الحجارة المظلمة الأرضية، ثم لينظر الناظر إلى ماعليها من البهاء، والجلالة والرواء والديباجة وما تحدثه من الروعة والرهبة والمخافة والخشية؛ حتى لو تليت على زنديق ملحد مصمم على اعتقاد نفي البعث والنشور لهدت قواه، وأرعبت قلبه، وأضعفت على نفسه، وزلزلت اعتقاده.[2]

والخطبة تتألف بصورة عامة من ثمانية أقسام:

القسم الأول: يتحدث عن عظمة قدرة الله وعجز المخلوقات أمامه حيث يورد بعض الأمور الدقيقة بهذا الشأن.

---

١. سند الخطبة: جاء في مصادر نهج البلاغة أنّ المرحوم الرضي (ره) اقتطفها من الخطبة المعروفة بالزهراء. ورواها ابن عبد ربّه المالكي في العقد الفريد والزمخشري والآمدي (مصادر نهج البلاغة ٢٣٥/٢).

٢. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٢٠٢/٧.

القسم الثاني: في خلقة الملائكة وبعض صفاتها وخصائصها، التي ستحقر عبادتها تجاه عظمة الحق، لو اطلعت على اسرار الغيب، رغم اجتهادها وذوبانها في العبادة والطاعة.

القسم الثالث: عن غفلة العباد واقبالهم على الدنيا وابتعادهم عن دعوة الأنبياء مع وجود الآخرة ونعمها الدائمة.

القسم الرابع: يعالج عشاق الدنيا من أهل الذنوب والمعاصي حين الموت، بعبارات بليغة مؤثرة تسوق الغافل إلىٰ التفكير وإعادة النظر في سلوكه وتصرفاته.

القسم الخامس والسادس: حول القيامة ومقدمات يوم الحساب وسؤال الإنسان عن أعماله، وسعادة المؤمنين، وتعاسة المذنبين وعاقبة كل من هاتين الطائفتين.

القسم السابع: عن النبي الأكرم ﷺ وزهده بالدنيا ورغبته عنها. وكونه الأسوة التي ينبغي لأهل الايمان الاقتداء بها.

القسم الثامن: عن أهل البيت عليهم السلام واتباعهم وعظم منزلتهم.

القسم الأول

«كُلُّ شَيْءٍ خَاشِعٌ لَهُ، وَكُلُّ شَيْءٍ قَائِمٌ بِهِ: غِنَىٰ كُلِّ فَقِيرٍ، وَعِزُّ كُلِّ ذَلِيل، وَقُوَّةُ كُلِّ ضَعِيفٍ، وَمَفْزَعُ كُلِّ ملْهُوفٍ. مَنْ تَكَلَّمَ سَمِعَ نُطْقَهُ، وَمَنْ سَكَتَ عَلِمَ سِرَّهُ، وَمَنْ عَاشَ فَعَلَيْهِ رِزْقُهُ، وَمَنْ مَاتَ فَإِلَيْهِ مُنْقَلَبُهُ. لَمْ تَرَكَ الْعُيُونُ فَتُخْبِرَ عَنْكَ، بَلْ كُنْتَ قَبْلَ الْوَاصِفِينَ مِنْ خَلْقِكَ. لَمْ تَخْلُقِ الْخَلْقَ لِوَحْشَةٍ، وَلاَ اسْتَعْمَلْتَهُمْ لِمَنْفَعَةٍ، وَلاَ يَسْبِقُكَ. مَنْ طَلَبْتَ، وَلاَ يُفْلِتُكَ، مَنْ أَخَذْتَ، وَلاَ يَنْقُصُ سُلْطَانَكَ مَنْ عَصَاكَ، وَلاَيَزِيدُ فِي مُلْكِكَ مَنْ أَطَاعَكَ، وَلاَيَرُدُّ أَمْرَكَ مَنْ سَخِطَ قَضَاءَكَ، وَلاَ يَسْتَغْنِي عَنْكَ مَنْ تَوَلَّى عَنْ أَمْرِكَ. كُلُّ سِرٍّ عِنْدَكَ عَلاَنِيَةٌ، وكُلُّ غَيْبٍ عِنْدَكَ شَهَادَةٌ. أَنْتَ الأَبَدُ فَلاَ أَمَدَ لَكَ، وَأَنْتَ الْمُنْتَهَىٰ فَلاَ مَحِيصَ عَنْكَ، وَأَنْتَ الْمَوْعِدُ فَلاَ مَنْجَىٰ مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ. بِيَدِكَ نَاصِيَةُ كُلِّ دَابَّةٍ، وَإِلَيْكَ مَصِيرُ كُلِّ نَسَمَةٍ. سُبْحَانَكَ مَا أَعْظَمَ شَأْنَكَ! سُبْحَانَكَ مَا أَعْظَمَ مَا نَرَىٰ مِنْ خَلْقِكَ! وَمَا أَصْغَرَ كُلَّ عَظِيمَةٍ فِي جَنْبِ قُدْرَتِكَ! وَمَا أَهْوَلَ مَا نَرَىٰ مِنْ مَلَكُوتِكَ! وَمَا أَحْقَرَ ذٰلِكَ فِيمَا غَابَ عَنَّا مِنْ سُلْطَانِكَ! وَمَا أَسْبَغَ نِعَمَكَ فِي الدُّنْيَا، وَمَا أَصْغَرَهَا فِي نِعَمِ الآخِرَةِ!».

الشرح والتفسير

الصفات الكمالية لله

كما ذكرنا سابقاً فانّ هذه الخطبة من أعمق خطب نهج البلاغة و أروعها و أجملها، وقد تطرق عليه السلام في بداية الخطبة إلى أوصافه سبحانه وتعالى الجمالية والجلالية وصفات الأفعال بصورة واسعة جامعة.

فاشار ﷺ إلىٰ عشر صفات من صفات الكمال: «**كل شيء خاشع له، وكل شيء قائم به: غنى كل فقير، وعزّ كل ذليل، وقوة كل ضعيف، ومفزع كل ملهوف**».

فهذه الصفات الست تعود إلىٰ قدرته المطلقة سبحانه ووجوده المطلق اللامحدود وحاجة جميع الممكنات إليه.

«**خاشع**» من مادة «**خشوع**» تعني في الأصل الخضوع؛ مع ذلك لها مفهوم أوسع يشمل الخضوع الظاهري والباطني والتشريعي والتكويني. وعليه فخشوع كل شيء له بمعنى التسليم لله والانصياع لقوانينه.

وقيام كل شيء بالله من حيث إنّه واجب الوجود وغيره ممكن الوجود، والممكن يتوقف على الواجب، كتوقف ضياء الشمس عليها. وإليه يعزى أيضاً غنى كل فقير وعز كل ذليل وقوة كل ضعيف؛ وذلك لأنّ الممكنات والمخلوقات لا تملك لنفسها شيئاً، وكل ما لديها من الله، وكل كمال تحصل عليه فانّما هو فيض من كماله المطلق.

ملهوف من مادة لهف تعني في الأصل الغم والهم الذي يعاني منه الإنسان اثر فقدانه لشيء: كما تستعل أحياناً لمن يظلم من الأفراد ويصرخ مستغيثاً. ولما كانت قدرة الناس زهيدة لا تمكنهم من تحقيق كافة رغباتهم أو الحفاظ على مالديهم، فان حالة الهم والغم والحزن تسيطر عليهم حين يفقدون سندهم المادي والمعنوي، فليس أمامهم من سبيل سوىٰ اللجوء إلىٰ تلك الذات القادرة المقتدرة من أجل حل مشاكلهم والتغلب على مصاعبهم.

والواقع هو أن ماورد سابقاً إنّما اقتبس من عدّة آيات قرآنية اشارت إلىٰ هذه الصفات. فقد صرح القرآن في موضع: ﴿**وَلِلّٰهِ يَسْجُدُ ما فِي السَّمٰواتِ وَما فِي الأَرْضِ**﴾[1]. وقال في موضع آخر: ﴿**اللّٰهُ لا إِلٰهَ إِلّا هُوَ الحَيُّ القَيُّومُ**﴾[2]. وقال: ﴿**يا أَيُّها النّاسُ أَنْتُمُ الفُقَراءُ إِلىٰ اللّٰهِ وَاللّٰهُ هُوَ الغَنِيُّ الحَمِيدُ**﴾[3]. وقال: ﴿**قُلِ اللّٰهُمَّ مالِكَ المُلْكِ تُؤْتِي المُلْكَ مَنْ تَشاءُ وَتَنْزِعُ المُلْكَ مِمَّنْ تَشاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشاءُ بِيَدِكَ الخَيْرُ إِنَّكَ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾[4].

---

١. سورة النمل/٤٩.
٢. سورة البقرة/٢٥٥.
٣. سورة فاطر/١٥.
٤. سورة آل عمران/٢٦.

ثم اردفهاﷺ بست صفات أُخرىٰ: «**ومن تكلم سمع نطقه، ومن سكت علم سره، ومن عاش فعليه رزقه، ومن مات فإليه منقلبه**».

نعم فهو عليم بظاهرنا وباطننا، وهو العالم بحياتنا وموتنا، وإنا إليه راجعون لا محالة.

والحق لو عشنا الايمان علىٰ مستوىٰ القلب والعمل بهذه الصفات التي بينها الإمامﷺ لكفتنا في اصلاح أنفسنا، لابدّ أن نعلم بأنّ كل كالدينا منه سبحانه، وعلينا أن نسأله كل ما نريد، فهو العالم باسرارنا، وأنّ يوماً سنعود إليه ونمثل بين يديه في محكمته العادلة.

ثم قالﷺ و قد ذكر بعضا من صفات الخالق السلبية: «**لم ترك[١] العيون فتخبر عنك، بل كنت قبل الواصفين من خلقك**».

فالعبارة «لم ترك العيون» إشارة إلىٰ أنّه ليس بمخلوق ولا بجسم ليرى، وتبيّن صفاته من خلال الرؤية والمشاهدة.

والعبارة اللاحقة بمنزلة العلة؛ لأنّ الله كان منذ الأزل، ولا يمكن أن يكون جسماً. فالجسم حادث. وعليه فان أردنا أن نصف الذات المقدسة علينا ان نستعين بما أورده انبياء الله وكتبه السماوية.

ثم اشارﷺ إلىٰ ثمان صفات أُخرى من صفات الجلال ذات البعد السلبي، وفي الواقع تتحدث عن غنى الحق المطلق.

«**لَمْ تَخْلُقِ الْخَلْقَ لِوَحْشَةٍ، وَلاَ اسْتَعْمَلْتَهُمْ لِمَنْفَعَةٍ، وَلاَ يَسْبِقُكَ مَنْ طَلَبْتَ، وَلاَ يُفْلِتُكَ[٢] مَنْ أَخَذْتَ، وَلاَ يَنْقُصُ سُلْطَانَكَ مَنْ عَصَاكَ، وَلاَيَزِيدُ فِي مُلْكِكَ مَنْ أَطَاعَكَ، وَلاَيَرُدُّ أَمْرَكَ مَنْ سَخِطَ قَضَاءَكَ، وَلاَيَسْتَغْنِي عَنْكَ مَنْ تَوَلَّى عَنْ أَمْرِكَ**».

نعم فهو الغني عن الجميع، وكل كماله مصدره الحق سبحانه و ليس لشيء من قدرة على تحدي إرادته ــ و عليه فخلقه للمخلوقات يستند إلى فيضه لالدفع وحشة وحدة أو جلب منفعة، فلا عبادة العباد تزيد من جلاله، ولاكفرهم ينال من كبريائه، فمن تولى عنه لم يستغن

١. «لم تر» فعل، والكاف مفعوله، و فاعله «العيون» يعني «لا تبصرك الانظار».
٢. «يفلت» من مادة «افلات» ينفك أويفر. ومنه الحديث المعروف لعمر في كتب الفريقين «إن بيعة أبي بكر كانت فلتة وقى الله شرّها».

عنه، و من إعترض على قضائه لم يسعه دفعه. ثم ذكر الإمام﷣ خمس من صفاته الجمالية فقال: **«كل سر عندك علانية، وكل غيب عندك شهادة، أنت الابد فلا أمد لك، وأنت المنتهى فلا محيص[١] عنك، وأنت الموعد فلا منجى منك إلا إليك».**

قد تبدو للوهلة الاولىٰ مفردة «**سر**» و«**غيب**» بمعنى واحد، وكذلك مفردتي «**علانية**» و«**شهادة**»، ولكن لايبعد أن يكون المراد بالسر، الأسرار الباطنية للعباد التي يعلمها الله، وبعبارة أُخرى فانّ كل سر علانية لديه، أمّا الغيب فيعني الحوادث الآتية، أو الماضية الغائبة على حسناً وشعورناً، أو الكائنات الموجودة حاليا في هذه السموات والأرض والتي لا يبلغها حسنا.[٢]

والعبارة أنت الأبد تأكيد لأبدية الله سبحانه. فهو على درجة من الأبدية وكأنه عينها وذاتها، فهو واجب الوجود، ومن هنا لابداية له ولا نهاية. فالبداية والنهاية من صفات المخلوقات المحدودة من مختلف الجهات.

والتعبير بالمنتهى والموعد صفتان متفاوتان بشأن الله سبحانه وتعالىٰ. فهو المنتهى بمعنى كل شيء ينتهي إليه: «**انا لله وانا إليه راجعون**»، وليس لأحد القدرة علىٰ الفرار من محكمة عدله. وقد قال القرآن الكريم صراحة: ﴿**وَعُرِضُوا عَلىٰ رَبِّكَ صَفّاً لَقَدْ جِئْتُمُونا كَما خَلَقْناكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِداً**﴾[٣].

والرسالة التي تحملها هذه الصفات هو أن نعلم ونؤمن بان الله خبير عليم بكل شيء بما في ذلك بواطن أسرارنا وخفايانا، فما نكتمه على الخلق ليس بمكتوم على الخالق، واننا مرجعنا يوماً إلىٰ محكمة العدل الإلهي، واخيراً لايخفى الدور التربوي والحيلولة دون الوقوع في الذنب والمعصية إذا ما التفتنا ألىٰ هذه الصفات.

ثم واصل﷣ كلامه مؤكداً على قدرة الله وعودة جميع الكائنات الحية إليه فقال: «**بيدك ناصية كل دابة، وإليك مصير كل نسمة**».

---

١. «محيص» من مادة «حيص» على وزن حيف بمعنى العودة والعدول واعتزال الشيء ومحيص اسم مكان، وعليه قد تعني الملاذ.
٢. يستفاد من المصادر اللغوية ان السر ما يخفيه الإنسان، أمّا الغيب فما خفى على عيننا وحسنا.
٣. سورة الكهف/٤٨.

فالتعبير بالناحية كناية عن تسليم المخلوقات لإرادة الله المطلقة. والتعبير بكل نسمة يعني في الأصل هبوب الرياح المعتدلة، ثم اطلق على روح الكائنات الحية، في إشارة إلىٰ أنّ كل موجود راجع إليه ماثل في محكمته.

ثم اختتم الإمام ﷺ الخطبة بالقول: «**سبحانك ما أعظم شأنك! سبحانك ما أعظم ما نرىٰ من خلقك! وما أصغر كل عظيمة في جنب قدرتك! وما أهول ما نرىٰ من ملكوتك! وما أحقر ذلك فيما غاب عنا من سلطانك**».

والحق ان عظمة هذا العالم وعمق غرائبه تتسع لدينا شيئاً فشيئاً كلما تقدمت مسيرة العلم وتطورت الأجهزة. وقد عبرّ أحد العلماء بأنّ عالم الخلقة ـ حسب ما لدينا من معلومات ـ بمثابة المكتبة العظيمة التي تضم ملايين الكتب، وكرتنا الأرضية بكل ما فيها بمنزلة نقطة في صفحة من صفحات كتاب من تلك المكتبة الضخمة. كما صرح آخر بأن ما ثبت اليوم أن كواكب السماء على قدر من الكبر بحيث تذهل الإنسان. فكوكب الجوزاء يبلغ أكبر من كرتنا الأرضية ثلاثين مليارداً، هذا بالنسبة لكواكب واحد ـ و ما أروع ما قاله الإمام ﷺ بأن ماخفي عنا لأعظم مما نرىٰ ـ و قد قال ذلك حيث تنعدم الإكتشافات آنذاك و حين كانت الهيئة البطليموسية التي ترىٰ صغر عالم الوجود هى السائدة في كافة الأوساط العلمية.

فقد انطلق الإمام ﷺ في الواقع من خلال الرؤية القرآنية لهذه المسألة **﴿لَخَلْقُ السَّمٰوٰتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النّاسِ وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ النّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾**[1].

ثم اختتم ﷺ كلامه في بيان نعم الدنيا والآخرة فقال: «**وما أسبغ**[2] **نعمك في الدنيا، وما أصغرها في نعم الآخرة**».

٭٭٭

١. سورة غافر/٥٧.

٢. «اسبغ» من مادة «اسباغ» الكثير الوافر.

القسم الثاني

ومنها: «مِنْ مَلائِكَةٍ أَسْكَنْتَهُمْ سَمَاوَاتِكَ، وَرَفَعْتَهُمْ عَنْ أَرْضِكَ؛ هُمْ أَعْلَمُ خَلْقِكَ بِكَ، وَأَخْوَفُهُمْ لَكَ، وَأَقْرَبُهُمْ؛ لَمْ يَسْكُنُوا الأَصْلاَبَ، وَلَمْ يُضَمَّنُوا الأَرْحَامَ، وَلَمْ يُخْلَقُوا «مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ» وَلَمْ يَتَشَعَّبْهُمْ «رَيْبَ الْمَنُونِ»؛ وَإِنَّهُمْ عَلَىٰ مَكَانِهِمْ مِنْكَ، وَمَنْزِلَتِهِمْ عِنْدَكَ، وَاسْتِجْمَاعِ أَهْوَائِهِمْ فِيكَ وَكَثْرَةِ طَاعَتِهِمْ لَكَ، وَقِلَّةِ غَفْلَتِهِمْ عَنْ أَمْرِكَ، لَوْ عَايَنُوا كُنْهَ مَا خَفِيَ عَلَيْهِمْ مِنْكَ لَحَقَّرُوا أَعْمَالَهُمْ، وَلَزَرَوْا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ، وَلَعَرَفُوا أَنَّهُمْ لَمْ يَعْبُدُوكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ، وَلَمْ يُطِيعُوكَ حَقَّ طَاعَتِكَ».

الشرح والتفسير

عبودية الملائكة

لما فرغ الإمامعليه السلام من الحديث في الأقسام السابقة عن عظمة خلق الله وملكوت السموات، وأنّ ما نراه لأصغر بكثير عما خفي علينا من أسرار، أشار هنا إلىٰ الملائكة بفضلها دلالة علىٰ عظمة خلق الله فقالعليه السلام: «**من[1] ملائكة أسكنتهم سماواتك، ورفعتهم عن أرضك**».

لاشك أنّ ملائكة لا تقتصر علىٰ سكنة سماواته، فهناك ملائكة الأرض التي تحفظ أعمال الانس وتدبر الأمور باذن الله وتتولىٰ قبض الأرواح. لكن بالنظر إلى أن الإمامعليه السلام لم يبين بالعبارة المذكورة حكما كليا بشأن الملائكة بل تحدث عن طائفة منها فليست هناك من مشكلة ـ و لا ضرورة لتلك التوجيهات التي ذكرها هنا بعض شراح نهج البلاغة.

---

١. بناء على ماورد فان «من» تبعيضية وإشارة إلىٰ بعض مخلوقات الله العظيمة التي وردت في المقطع السابق من الخطبة.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه في الإشارة إلىٰ بعض الصفات الثبوتية والسلبية للملائكة قائلاً: **«هم أعلم خلقك بك، وأخوفهم لك، وأقربهم منك»**.

فالصفات الثلاث مرتبطة مع بعضها؛ لأنّه المعرفة العظمى للملائكة بالنسبة لذات الله تؤدي إلىٰ خوفها، الخوف من التقصير في إداء الوظائف والمسؤوليات، والخوف الناشيء من عظمته وهيبة مقامه. والصفتان تؤديان إلىٰ قرب الملائكة من الله.

وهنا يبرز هذا السؤال كيف أنّ الملائكة أعلم من جميع المخلوقات بالله وأقربها إليه، والحال أنا نعلم أنّ أنبياء الله ـ ولاسيما نبي الإسلام ـ وحتى بعض الصالحين أفضل من الملائكة، وأفضل دليل على ذلك سجود كافة الملائكة لآدم، وأفضليته عليهم من حيث العلم والمعرفة، وقد ورد في الحديث أنّ طائفة من الملائكة تقوم على خدمة الأنبياء والصلحاء والمؤمنين، كما هناك الحديث المشهور عن تركيب خلق الإنسان من العقل والشهوة والملائكة من العقل دون الشهوة، فانّ غلب عقله شهوته كان أفضل من الملائكة، هو الآخر دليل علىٰ أفضلية الإنسان على الملائكة[1] ويمكن القول في الاجابة على هذا السؤال: المراد الأعلمية والقرب النسبي، وبعبارة أُخرىٰ فانّ العبارة المذكورة شبيه الحصر الاضافي، كما يمكن القول أنّ العبارة حكم عام يستثنى منه الأنبياء والأولياء.

ثم أشار إلىٰ صفاتهم السلبية بعدم وجود نواقص في الملائكة على غرار الناس، فذكر أربع صفات منها: **«لم يسكنوا الأصلاب، ولم يضمنوا الأرحام، ولم يخلقوا من ماء مهين[2] ولم يتشعبهم[3] ريب[4] المنون»**.

من الواضح أنّ الاستقرار في مكان محدود كصلب الأب ومن ثم رحم الأُم، والخلق من قطرة ماء تبدو تافهة، هو نقص في الإنسان؛ والحال ليست الملائكة كذلك، فلا من زواج ولا ولادة كالإنسان.

---

١. وسائل الشيعة ١٦٤/١١، أبواب جهاد النفس، الباب ٩، ح ٢.

٢. «مهين» من مادة «مهانة» بمعنى الضعة والحقارة وماء مهين إشارة إلىٰ المني الذي ليس له قيمة من حيث المقدار ولا الظاهر.

٣. «يتشعبهم» من مادة «تشعب» التفرق، وشعبة بمعنى الفرع الذي فصل عن الأصل.

٤. «ريب» كل شك وترديد، ومنون حوادث الدهر أو الموت.

أضف إلىٰ ذلك فهي لا تموت ولا تتغير بسبب الزمان، ولا تمرض ولا تشيب وتعجز. فوجود هذه المميزات وإن كانت من علامات شرف خلقة الملائكة، وأنّ الإنسان لاشك هو أسمى مقاماً منها من هذه الناحية. إلّا أنّ سبب عظمة الإنسان وأفضليته على الملائكة إنّما تعود إلىٰ روحه التي أشارت إليها الآية الشريفة: **﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾**[1].

ومن هنا سجد الملائكة كلهم أجمعون لآدم عليه السلام.

أمّا هدف بيان الإمام عليه السلام لكل هذه الصفات ما أراد ذكره في العبارات اللاحقة «**وأنّهم على مكانهم منك، ومنزلتهم عندك، واستجماع أهوائهم فيك، وكثرة طاعتهم لك، وقلّة غفلتهم عن أمرك، لو عاينوا كنه ما خفي عليهم منك لحقروا أعمالهم، ولزروا**[2] **على أنفسهم، ولعرفوا أنهم لم يعبدوك حق عبادتك، ولم يطيعوك حق طاعتك**».

نعم فالملائكة ورغم تلك المعرفة والمقام الشامخ، فهي قاصرة عن معرفة عظمته ودائرة صفاته في الجمال والجلال، وعليه فلو فرض تعرفها على الله كما هو، لأكتشفوا أنّهم لم يعبدوه كما هو أهله ولم يطيعوه كما يستحقه. وكل ما أدوه ذرة لاقيمة لها ولاوزن.

فالعبارة تفيد من جانب أنّ معرفة الإنسان بالله كلما تسامت، تضاعفت عبادته وطاعته لله. كما تفيد من جانب آخر أنّ أحداً لم يعبد الله حق عبادته، كما أنّ أحداً لم يعرف الله حق معرفته، وذلك لأنّ الإنسان والملك ـ حتى أعظم الناس والملائكة ـ إنّما هو وجود محدود، والذات الإلهية ليست محدودة، فليس لهذا المحدود أن يؤدي حق عبادة الله ولاطاعته ولامعرفته. أمّا التعبير بالأهواء جمع هوىٰ في العبارة «**واستجماع أهوائهم فيك**» فلا تعني هوىٰ النفس وشططها، بل تعني الحب والرغبة، لانّ لهذا اللفظ معنيان. وبعبارة أُخرىٰ يستعمل أحياناً في الحب الإيجابي وأُخرىٰ في السلبي. والمراد بالعبارة أنّ الملائكة ركزت حبّها وعشقها في الله سبحانه والعبارة «**قلة غفلتهم عن أمرك**» تفيد امكانية غفلة الملائكة، إلّا أنّها طفيفة جداً. وشاهد ذلك الروايات الواردة في بعض الملائكة في ترك الاولىٰ. وعليه فلا حاجة لذلك التكلف الذي صرح به بعض شرّاح نهج البلاغة من أنّ القلة هنا تعني العدم.

---

١. سورة الحجر/٢٩.

٢. «زروا» من مادة «زرى» على وزن سعى العيب والتوبيخ واللوم، والازراء بهذا المعنى أيضاً.

على كل حال هذا هو حال الملائكة بهذه العبادة والطاعة لالآف السنين فما ظنك بعباداتنا وطاعاتنا البخسة؟ والجدير بالذكر أنّ الرسول الأكرمﷺ وبالنظر إلىٰ الحديث المعروف «**ما عبدناك حق عبادتك، وما عرفناك حق معرفتك**»[1]، قد التفت إلىٰ هذه الحقيقة، أي عدم معرفة الله وعبادته كما يستحق، بينما تبيين العبارة المذكورة للإمامعليه السلام عدم التفات الملائكة لهذه المسألة، ولعل الآية الشريفة: **﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾**[2] دليل آخر علىٰ هذا المعنى، وهذا ما يوضح أفضلية الإنسان على الملائكة.

٭٭٭

١. بين المرحوم العلامة المجلسي في المجلد ٦٨ من بحار الانوار ص٢٣ الحديث المذكور عن النبيﷺ ضمن شرحه لبعض الاحاديث.

٢. سورة البقرة/٣٠.

القسم الثالث

«سُبْحَانَكَ خَالِقاً وَمَعْبُوداً! بِحُسْنِ بَلاَئِكَ عِنْدَ خَلْقِكَ. خَلَقْتَ دَاراً، وَجَعَلْتَ فِيهَا مَأْدُبَةً: مَشْرَباً وَمَطْعَماً، وَأَزْوَاجاً وَخَدَماً، وَقُصُوراً، وَأَنْهَاراً، وَزُرُوعاً، وَثِمَاراً؛ ثُمَّ أَرْسَلْتَ دَاعِياً يَدْعُو إِلَيْهَا، فَلا الدَّاعِيَ أَجَابُوا، وَلاَ فِيمَا رَغَّبْتَ رَغِبُوا، وَلاَ إِلَىٰ مَا شَوَّقْتَ إِلَيْهِ اشْتَاقُوا. أَقْبَلُوا عَلَىٰ جِيفَةٍ قَدْ افْتَضَحُوا بِأَكْلِهَا، وَاصْطَلَحُوا عَلَىٰ حُبِّهَا، وَمَنْ عَشِقَ شَيْئاً أَعْشَىٰ بَصَرَهُ، وَأَمْرَضَ قَلْبَهُ، فَهُوَ يَنْظُرُ بِعَيْنٍ غَيْرِ صَحِيحَةٍ، وَيَسْمَعُ بِأُذُنٍ غَيْرِ سَمِيعَةٍ، قَدْ خَرَقَتِ الشَّهَوَاتُ عَقْلَهُ، وَأَماتَتِ الدُّنْيَا قَلْبُه، وَوَلِهَتْ عَلَيْهَا نَفْسُهُ، فَهُوَ عَبْدٌ لَهَا، وَلِمَنْ فِي يَدَيْهِ شَيْءٌ مِنْهَا، حَيْثُما زَالَتْ زَالَ إِلَيْهَا، وَحَيْثُما أَقْبَلَتْ أَقْبَلَ عَلَيْهَا؛ لاَ يَنْزَجِرُ مِنَ اللهِ بِزَاجِرٍ، وَلاَ يَتَّعِظُ مِنْهُ بِوَاعِظٍ، وَهُوَ يَرَىٰ الْمَأْخُوذِينَ عَلَىٰ الْغِرَّةِ، حَيْثُ لاَ إِقَالَةَ وَلاَرَجْعَةَ، كَيْفَ نَزَلَ بِهِمْ مَا كَانُوا يَجْهَلُونَ، وَجَاءَهُمْ مِنْ فِرَاقِ الدُّنْيَا مَا كَانُوا يَأْمَنُونَ، وَقَدِمُوا مِنَ الاخِرَةِ عَلَىٰ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ. فَغَيْرُ مَوْصُوفٍ مَا نَزَلَ بِهِمْ».

الشرح والتفسير

عالم الآخرة

تحدث الإمام عليه السلام هنا عن الدار الآخرة وخلق الجنّة وما تضمه من نعم جمة فقال عليه السلام: «**سبحانك خالقاً ومعبوداً! بحسن بلائك عند خلقك**» فقد خلقت تلك الدار العظيمة (الآخرة) وجعلت فيها مختلف النعم من مشارب ومطاعم وأزواج وخدمة وقصور وأنهار

وزرع وثمار «**وجعلت فيها مأدبة**[١]**: مشرباً ومطعماً وأزواجاً وخدماً وقصوراً وأنهاراً وزروعاً وثماراً**».

قطعاً أنّ الهدف من بيان هذه الأمور هو تطهير الإنسان من الرذائل والادناس والذنوب والمعاصي وسوقه إلىٰ القرب من الله سبحانك: وقد وفرها الحق جميعا لعباده بصفتها تشجع الإنسان علىٰ الثبات في الطريق القويم ومواصلته.

ثم قال: «**ثم أرسلت داعياً يدعو إليها، فلا الداعي أجابوا، ولا فيما رغبت رغبوا، ولا إلىٰ ما شوقت إليه اشتاقوا**».

فهم لم يكتفوا بعدم الرغبة بتلك النعم المطهرة الخالدة، بل اقبلوا علىٰ جيفة نتنة افتضحوا بأكلها والعجيب في الأمر أن كلمتهم اتفقت على حبها: «**أقبلوا على جيفة**[٢] **قد افتضحوا بأكلها، واصطلحوا على حبّها**».

طبعاً مراد الإمام من ارسال الداعي هو بعث الأنبياء ولاسيا نبي الإسلام والمراد بعدم إجابة الدعوة لاتشمل جميع الناس؛ بل الأغلبية من أهل الدنيا المفارقين للآخرة من اتباع الهوى والشهوات.

ومن هنا فقد شبههم بالحيوانات المفترسة التي تنهال على جيفة فتفضح نفسها؛ وذلك لأنّ الرائحة النتنة لتلك الجيفة تفوح من فمها ويدها.

وقوله: «**واصطلحوا على حبها**» لا يعني عدم وجود النزاع بين أهل الدنيا، بل هم دائماً كالحيوانات التي تجتمع حول جيفة نتنة وتهجم عليها ليتناول كل قطعة منها. والمراد أنّهم اتفقوا على حبها.

وتشبيه الدنيا بالجيفة، هو تشبيه ورد في بعض الروايات، وذلك للتعفن الكامن في باطن الدنيا التي تختزن أنواع الظلم والذنب، أو لأنّ أصحاب الدنيا يهبون للتنازع والاقتتال بهدف سلبها من بعضهم البعض الآخر.

---

١. «المأدبة» بضم الدال وفتحها ما يصنع من الطعام للمدعوين في عرس ونحوه، والمراد هنا نعيم الجنّة، من مادة أدب التي تعني في الأصل الدعوة.

٢. «جيفه» بمعنى الميتة، وأصلها من مادة «جَيَفَ» و «الأجيف» بمعنى الأنتن، ولذلك فان كل شيء فاسد ونتن يُشَبّهُ بـ«الجيفة»، ومن هنا فقد شُبهت الخطبة أعلاه الدنيا المادية بانها «جيفة».

ثم بيّن الإمام عليه السلام نتيجة هذا الحب للدنيا بشكل قاعدة كلية وعامة وهي: «**ومن عشق**[1] **شيئاً أعشى**[2] **بصره، وأمرض قلبه، فهو ينظر بعين غير صحيحة، ويسمع باذن غير سميعة**».

فقد ركز الإمام عليه السلام علىٰ نقطة يكشف فيها عن حقيقة وهي أنّ حب الدنيا وعشق زخرفها وزبرجها وزينتها المادية إنّما يسلب الإنسان اصدار الأحكام بصورة صحيحة، بحيث يحسب أنّ سعادته وموفقيته إنّما تتمثل بالوصول إلىٰ هذه الدنيا المادية، مهما كان وكيفما كان الطريق المؤدي اليها.

ومن الطبيعي أن يتعذر على مثل هذا الفرد تشخيص الحق من الباطل والمصالح من المفاسد. فهو ينطلق بشكل جنوني نحو لذات الدنيا، فاذا أفاق رأى نفسه وقد فقد كل شيء.

وسنتحدث في البحث القادم ان شاء الله عن حقيقة العشق وآثاره.

ونختتم هذا البحث بالحديث النبوي الشريف: «**من جعل الدنيا أكبر همه، فرق الله عليه همه، وجعل فقره بين عينيه**»[3].

ثم قال عليه السلام: «**قد خرقت الشهوات عقله، وأماتت الدنيا قلبه، وولهت عليها نفسه**».

فقد شبه الإمام عليه السلام العقل في العبارة الاولىٰ بالثوب، الذي يمكنه أن يحفظ الإنسان ويكون له زينة، أمّا الشهوة فهي تمزق ثوب العقل الجميل. وفي العبارة الثانية وصف غلبة الشهوات على العقل بأنّه موت للعقل. كما أشار عليه السلام في العبارة الثالثة إلىٰ أنّ حب الدنيا والرغبة فيها قد أحاط بجميع كيان أهل الدنيا وطلابها.

وعليه فمثل هذا الإنسان عبد للدنيا، ولمن في يده شيء من حطامها: «**فهو عبد لها، ولمن يده شيء منها، حيثما زالت زال إليها، وحيثما أقبلت أقبل عليها**».

---

١. «عَشَقَ» من مادة «عشق» على وزن فكر بمعنىٰ العلاقة الشديدة بالشيء.
و«عشقه» على وزن ثمرة بمعنىٰ الشجرة الخضراء اليانعة، والتي لا يمر عليها الا وقت قصير فتصبح صفراء وذابلة.
وبعضهم قال: ان العشق أشتق في الأصل من هذه المادة، وذلك لان العاشق يصبح نحيفاً ذابلاً.
٢. «أعشىٰ» من مادة «عشو» على وزن «خشم» بمعنىٰ ضعف النظر و عدم قدرة العين على الابصار بصورة جيدة، و تأتي أحيانا بمعنىٰ العمىٰ الليلي أو العشو ليلاً.
٣. شرح نهج البلاغة لابن ميثم ٦٣/٣.

فهو لاينزجر بأي زاجر ولا يكترث لأي ناهي، ولايتعظ بموعظة واعظ ولا يصغي إلىٰ نصح ناصح، والحال يرى بأم عينيه من يؤخذ بغتة لاصفح ولاعفو ولارجعة «**لا ينزجر من الله بزاجر، ولا يتعظ منه بواعظ، وهو يرى المأخوذين علىٰ العزة**[1] **حيث لا إقالة**[2] **ولارجعة، كيف نزل بهم ما كانوا يجهلون، وجاءهم من فراق الدنيا ما كانوا يأمنون، وقدموا من الآخرة على ما كانوا يوعدون، فغير موصوف ما نزل بهم**».

نعم فمن يرىٰ بعينه كل يوم تقلب أحوال الدنيا وغدرها بأهلها لابدّ أنّ يكون يقظاً، يستمع إلىٰ الوعظ والنصح وينتهي بنهي الآخرين، إلّا أنّ المؤسف له هو أنّ حب الدنيا والتكالب عليها والاغترار بزخارفها ليعمي عين الإنسان ويصم سمعه ويستحوذ علىٰ فكره بحيث لايسمح له بأن يفيق إلىٰ نفسه.

تأمّل

العشق المقدس والهجين

لقد أشار الإمام عليه السلام بعبارة قصيرة بليغة إلىٰ حقيقة مهمة، طالما استغرق فيها العلماء والعرفاء والشعراء والأدباء.

فقد قال عليه السلام: «**من عشق شيئاً أعشى بصره، وأمرض قلبه، فهو ينظر بعين غير صحيحة، ويسمع باذن غير سميعة**»، وقد دفعتنا هذه العبارة لأن نتحدث عن العشق، المقدس منه الايجابي، والمستهجن السلبي. فقد قيل الكثير في العشق وعظمته وجنونه وأمراضه، ولعلها من الكلمات القل التي وردت بشأنها كل هذه التعبيرات والتعاريف المختلفة والمتناقضة. فقد سمى به بعض الكتاب إلىٰ درجة جعلتهم يرونه بمثابة ضابط الحياة والسعادة الأبدية! أو أنّ العشق معيار عالم الوجود.

كما أنّ تحدثوا عن إعجازاته بالنسبة للإنسان حيث ينشط روح الإنسان ويملأ قلبه حيوية وحركة، بل قيل بانعدام طعم الحياة بدونه.

---

١. «غرة» بمعنى الغفلة من مادة «غرور» بمعنى الخداع، حيث يستغفل هذا الخداع الإنسان ويأخذه بغتة.

٢. «إقالة» من مادة «قيل» على وزن سيل بمعنى فسخ المعاملة، وقيل معناها الأصلي انقاذ الإنسان من السقوط، ووردت في الخطبة بمعنى العفو عن الذنوب.

وبالمقابل فهناك طائفة من الكتاب والفلاسفة الذين صعدوا من حملاتهم واتهاماتهم للعشق ليصوره كمرض مقيت يدعو إلىٰ التقزز. فقد قال أحد الكتاب المعروفين: علينا أن نرىٰ العشق عبارة عن عصارة الأدمغة الخاوية إن لم نقل بأنّه نوع من الجنون.

وقال كاتب آخر: أنّ العشق كمرض السرطان والنقرس الذي ينبغي أنّ يفر منه الإنسان العاقل.

فالتفسيرات المتناقضة للعشق تشير إلىٰ أنّ العلماء والمفكرين لم يتحدثوا جميعاً عن شيء واحد. فهناك من تكلم عن العشق المقدس الذي يضفي القدسية والطهارة علىٰ الإنسان، ويشده بقوته الفائقة نحو معشوقه الحقيقي خالق الوجود.

أمّا من ذمه منهم فانما قصد به ذلك العشق المادي والمفعم بالخطايا والرذائل والجنايات الذي يفضي غالباً إلىٰ المرض والفضيحة والشقاء.

فالإنسان في العشق المادي يقبل بجنون علىٰ الشيء الذي يتعلق به ويعشقه، ويضحي بكل مالديه من أجله. فالمراد بهذا العشق هو تلك القوة السحرية التي تقود الإنسان إلىٰ المعصية والذنب والخطيئة، وكل ما قيل في ذمه فهو قليل.

فهذه القوة الطاغية تخرب العقل وتشل حركته وفاعليته بحيث يقدم الإنسان علىٰ الأعمال الجنونية الطائشة.

وتتمثل اولى مخاطر ذلك بتعظيمه العيوب والقبائح. فمثل هؤلاء العشاق يبتكرون أنواع التفاسير المذهلة لأقبح العيوب.

فهم لايقبلون النصح ولا يصغون إلىٰ الوعظ، بل يهبون أحياناً للوقوف بشدة بوجه الناصحين والوعاظ.

والغريب في الأمر أنّ الأشخاص الذين يعيشون مثل هذا العشق المادي الجنوني يشعرون أنّهم بلغوا إدراكاً حرم منه معظم الآخرين.

فهم يعيشون في هالة من الأوهام والخيالات ولايفهمون سوىٰ لغة العشق الطائش، فلا يفهمون لسان العلم والمنطق الذي يحدثهم به الآخرون.

وبالطبع فان جذبة هذا العشق غالباً ما تطفيء بالمجامعة!

آنذاك تطرح الحجب فيلتفت إلىٰ الواقع. وكان هذا العاشق قد نهض من سبات عميق ليتبدل لديه ذلك العشق إلىٰ نفرة ومقت، وذلك لأنّه يرىٰ نفسه قد فقد كل شيء مقابل ذلك المعشوق؛ الأمر الذي يقود بالتالي إلىٰ الفضيحة والخزي.

الفضيحة التي لايمكن تلافيها بعد اليقظة.

وبالطبع فانّ أغلب حالات الانفصال والانتحار إنّما تفرزه هذه الحالة من العشق لعمق الهوة بين الخيال والواقع.

ولا تقتصر هذه النتائج المريرة علىٰ العشق الجنسي، بل تترتب نفسها علىٰ عشق المال والمقام والجاه والجلال المادي.

ولعل هذا هو المعنى الذي أشار إليه الإمام الصادق عليه السلام حين سأله أحد أصحابه فقال عليه السلام: «**قلوب خلت عن ذكر الله، فأذاقها الله حب غيره**»[1].

وورد في حديث عن علي عليه السلام في عجز العاشق عن رؤية الحقائق إذ قال: «**عين المحب عمية عن معايب المحبوب، وأذنه صماء عن قبح مساويه**»[2].

وإلىٰ هذا العشق المجازي أشار الحديث النبوي الشريف: «**من عشق فعف ثم مات، مات شهيداً**»[3].

كما قال صلى الله عليه وآله: «**من عشق وكتم وعف وصبر، غفر الله له، وأدخله الجنّة**»[4].

وعلى العكس من ذلك في العشق الحقيقي والمقدس فانّ روح الإنسان تعيش حالة من الصفاء والنور، فلا يرىٰ سوى معشوقه الحقيقي مظهر الكمال المطلق، فيتحمل في سبيله كافة الشدائد.

فقد ورد في الحديث القدسي: «**إذا كان الغالب على العبد الاشتغال بي جعلت بغيته ولذته في ذكري، فاذا جعلت بغيته ولذته في ذكري، عشقني وعشقته، فاذا عشقني رفعت الحجاب فيما بيني وبينه**»[5].

---

١. بحار الانوار ١٥٨/٧٠.
٢. غرر الحكم، ٦٣١٤.
٣. كنز العمال، ٦٩٩٩.
٤. كنز العمال، ٧٠٠٢.
٥. كنز العمال ٤٣٣/١، ح ١٧٧٢.

وما مناجاة أمير المؤمنين عليه السلام بالاسحار ودعاء الصباح ودعاء كميل وتضرع الإمام الحسين عليه السلام في يوم عرفة في تلك الصحراء والمناجاة الخمس عشرة للإمام السجاد عليه السلام التي وردت في الصحيفة السجادية ودعاء الندبة الذي يلهج به لسان المنتظر لظهور إمام العصر والزمان عليه السلام الامعطيات وآثار هذا العشق الطاهر. وعليه يتضح ممّا مر معنا أنّ الذم الذي أورده بعض العلماء لمفردة العشق وتلك الحساسية التي ابدوها تجاهه إنّما مرادهم العشق الملوث المشوب بالخطيئة، وإلّا فالعشق المقدس من أعظم القوى المحركة للإنسان والتي تدفع به نحو الله سبحانه والقيم والمثل الإنسانية النبيلة، ويخطىء كل من يتصور خلو كلمات المعصومين عليهم السلام من هذه المفردة التي كثرت في روايات النبي صلى الله عليه وآله وأئمة العصمة عليهم السلام.

ومن ذلك مارواه المرحوم الكليني عن النبي صلى الله عليه وآله أنّه قال: «**أفضل الناس من عشق العبادة فعانقها، وأحبها بقلبه، وباشرها بجسده، وتفرغ لها**»[1].

وورد في حديث آخر بشأن الصحابي الجليل سلمان: «**إن الجنّة لأعشق لسلمان من سلمان للجنّة**»[2].

قال العلامة المجلسي في ذيل الحديث الأول العشق يعني الإفراط في الحب و قد تصوروه يختص بالأمور الباطلة دون حب الله، بينما تفيد هذه الرواية ليس الأمر كذلك، و إن إقتضى الإحتياط أن لانستعمل مفردة العاشق و المعشوق على الله.

---

١. الكافي ٨٣/٢ ح ٣، باب العبادة.
٢. بحار الانوار ٣٤١/٢٢.

القسم الرابع

«اجْتَمَعَتْ عَلَيْهِمْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ وَحَسْرَةُ الْفَوْتِ، فَفَتَرَتْ لَهَا أَطْرَافُهُمْ، وَتَغَيَّرَتْ لَهَا أَلْوَانُهُمْ، ثُمَّ ازْدَادَ الْمَوْتُ فِيهِمْ وُلُوجاً، فَحِيلَ بَيْنَ أَحَدِهِمْ وَبَيْنَ مَنْطِقِهِ، وَإِنَّهُ لَبَيْنَ أَهْلِهِ يَنْظُرُ بِبَصَرِهِ، وَيَسْمَعُ بِأُذُنِهِ، عَلَىٰ صِحَّةٍ مِنْ عَقْلِهِ، وَبَقَاءٍ مِنْ لُبِّهِ، يُفَكِّرُ فِيمَ أَفْنَىٰ عُمْرَهُ، وَفِيمَ أَذْهَبَ دَهْرَهُ! وَيَتَذَكَّرُ أَمْوَالاً جَمَعَهَا، أَغْمَضَ فِي مَطَالِبِهَا، وَأَخَذَهَا مِنْ مُصَرَّحَاتِهَا وَمُشْتَبِهَاتِهَا، قَدْ لَزِمَتْهُ تَبِعَاتُ جَمْعِهَا، وَأَشْرَفَ عَلَىٰ فِرَاقِهَا، تَبْقَىٰ لِمَنْ وَرَاءَهُ يَنْعَمُونَ فِيهَا، وَيَتَمَتَّعُونَ بِهَا، فَيَكُونُ الْمَهْنَأُ لِغَيْرِهِ، وَالْعِبءُ عَلَىٰ ظَهْرِهِ. وَالْمَرْءُ قَدْ غَلِقَتْ رُهُونُهُ بِهَا، فَهُوَ يَعَضُّ يَدَهُ نَدَامَةً عَلَىٰ مَا أَصْحَرَ لَهُ عِنْدَ الْمَوْتِ مِنْ أَمْرِهِ، وَيَزْهَدُ فِيمَا كَانَ يَرْغَبُ فِيهِ أَيَّامَ عُمُرِهِ، وَيَتَمَنَّىٰ أَنَّ الَّذِي كَانَ يَغْبِطُهُ بِهَا وَيَحْسُدُهُ عَلَيْهَا قَدْ حَازَهَا دُونَهُ! فَلَمْ يَزَلِ الْمَوْتُ يُبَالِغُ فِي جَسَدِهِ حَتَّىٰ خَالَطَ لِسَانُهُ سَمْعَهُ، فَصَارَ بَيْنَ أَهْلِهِ لاَيَنْطِقُ بِلِسَانِهِ، وَلاَ يَسْمَعُ بِسَمْعِهِ: يُرَدِّدُ طَرْفَهُ بِالنَّظَرِ فِي وجُوهِهِمْ، يَرَىٰ حَرَكَاتِ أَلْسِنَتِهِمْ، وَلاَيَسْمَعُ رَجْعَ كَلامِهِمْ. ثُمَّ ازْدَادَ زاد الْمَوْتُ الْتِيَاطاً بِهِ، فَقُبِضَ بَصَرُهُ كَمَا قُبِضَ سَمْعُهُ، وَخَرَجَتِ الرُّوحُ مِنْ جَسَدِهِ، فَصَارَ جِيفَةً بَيْنَ أَهْلِهِ، قَدْ أَوْحَشُوا مِنْ جَانِبِهِ، وَتَبَاعَدُوا مِنْ قُرْبِهِ. لاَ يُسْعِدُ بَاكِياً، وَلاَ يُجِيبُ دَاعِياً. ثُمَّ حَمَلُوهُ إِلَىٰ مَخَطٍّ فِي الأَرْضِ، فَأَسْلَمُوهُ فيهِ إِلَىٰ عَمَلِهِ، وَانْقَطَعُوا عَنْ زَوْرَتِهِ».

الشرح والتفسير

سكرات الموت

تطرق الإمام‏ﷺ هنا إلىٰ سكرات الموت بعبارات تهز أعماق الإنسان وتلفت انتباهه إلىٰ

تلك الحقيقة: «**اجتمعت عليهم سكرة الموت وحسرة الفوت**».

فالواقع هناك هجوم ثقيل على الإنسان وهو على أعتاب الموت: الأول هجوم سكرات الموت، وهو حالة تشبه السكر تحدث للإنسان حين يحل أجله، وقد تستولي أحياناً على عقله فتجعله يعيش حالة من الاضطراب والقلق العظيم.

والآخر حسرة فقد ان كل شيء كان قد أجهد نفسه عمراً طويلاً من أجل الحصول عليه وعانى في سبيله الأمرين.

وهي أُمور تعلق وشغف بها وكأنّها أصبحت جزءاً من وجوده وكيانه، وإذا به يرى الآن أنّه يودعها إلىٰ غير رجعة، وهذا ما يضاعف من قلقه واضطرابه ثم خاض ﷺ في شرح تفاصيل تلك السكرات، حيث تضعف حينها الأعضاء والجسد بعد أن يتغير لونها، ثم يدب فيها الموت بالتدريج، فيفصلها عن اللسان، والحال هو جالس بين أهله يراهم بعينه ويسمع كلامهم باذنه، وهو علىٰ سلامة من عقله: «**ففترت لها أطرافهم، وتغيرت لها أطرافهم، ثم ازداد الموت فيهم ولوجاً، فحيل بين أحدهم وبين منطقه، وإنّه لبين أهله ينظر ببصره، ويسمع باذنه، على صحة من عقله، وبقاء من لبه**».

فالذي يستفاد من هذه العبارات أنّ أول ما يتوقف عن العمل هو لسان الإنسان. اللسان الذي يعدّ أكبر سند للإنسان من أجل حل مشاكله، ويالها من حسرة وفاجعة أن يرى الإنسان بعينه ويسمع باذنه وهو على سلامة من عقله ولبه، لكنه لا يستطيع أن ينبس ببنت شفة فيلهج بما يريد. ذكر أحد شراح نهج البلاغة هنا مثالا من التوراة عن الموت حيث شبهته بالشجرة ذات الأشواك التي تغوص في جميع البدن، و يغرس كل شوكة في عصب من عصبه فتمزقها جميعاً و تقضي عليه.

ثم واصل ﷺ كلامه بشأن من هجم عليه سكرة الموت في أنّه فاق من غفلته واستغرق في التفكير فهو يفكر فيم أقضى عمره وذهب به أدراج الرياح وكيف أفنى دهره: «**يفكر فيم أفنى عمره، وفيم أذهب دهره**».

يتذكر هنا الأموال والثروات التي جمعها وقد أغمض عينيه عن الكيفية التي جمعت بها

دون الاكتراث إلىٰ الحلال والحرام والمحظور والممنوع: «**ويتذكر أموالاً جمعها، أغمض[1] في مطالبها، وأخذها من مصرحاتها ومشتبهاتها، قد لزمته تبعات جمعها، وأشرف على فراقها**».

نعم فهو يفيق إلىٰ نفسه وأول كابوس يقض مضجعه ويهيمن على كيانه هو كابوس أمواله؛ الأموال التي لم يفكر بالحلال والحرام في جمعها بعد أن أعماه حبّ الدنيا، أو أنّه اعتمد بعض التوجيهات المشبوهة ليستحوذ على بعض الأشياء، والآن بعد أن رفع عنه الحجاب فهو يرىٰ العبىء الثقيل الذي طال عاتقه متمثلاً بحق الله وحق الناس، والأنكى من ذلك عدم وجود سبيل إلىٰ الفرار. ليس له من لسان لبيان هذه المشكلة، وإن كان له من بيان، فليس هنالك من يسمع! ولو سمعه من حوله من قرابته وورثيه اكتفوا بالقول (أنّه ليهجر حيث فقد عقله وفكره) ليتمكنوا من مصادرة أمواله بسهولة.

وهذا هو البؤس الحقيقي في أن يشق الإنسان بجمع هذه الأموال وتبق عليه تبعتها ومسؤوليتها، بينما يخلفها الآن إلىٰ غيره ويفارقها إلىٰ غير رجعة.

ومن هنا قالﷺ: «**تبقى لمن وراءه ينعمون فيها، ويتمتعون بها، فيكون المهنأ لغيره، والعب[2] على ظهره، والمرء قد غلقت رهونه[3] بها**».

يالها من مصيبة! أن يرىٰ الإنسان كل هذه القصور الفخمة والأجهزة المتطورة والثياب الفاخرة ووسائل الراحة الراقية والأموال الوفيرة التي عانى ما عانى في الدنيا من أجل الحصول عليها وهو يهبها الان لقمة سائغة لمن وراءه! والأدهى من ذلك ذهبت لذتها لغيره وبقيت تبعتها عليه.

وليت شعري ليس له الآن سوىٰ الحسرة والندم فلم تعد هناك من فرصة لتلافي ما فرط منه وتدارك ما قصر فيه ولذلك قالﷺ: «**فهو يعض يده ندامة على ما أصحر له[4] عند الموت من أمره، ويزهد فيما كان يرغب فيه أيام عمره**».

١. «أغمض» من مادة «غمض» علىٰ وزن نبض اطباق الجفن على العين، ثم اطلق على كل تساهل وغفلة.
٢. «العب» بمعنى الحمل والثقل.
٣. «رهون» جمع «رهن» حبس الشيء وهو عادة سند يسلم مقابل قرض لايعاد مالم يسدد «والمرء قد غلقت رهونه بها» استحقها مرتهنها وأعوزته القدرة على تخليصها، كناية عن تعذر الخلاص.
٤. «أصحر» برز في الصحراء، أي على ما ظهر له وانكشف من أمره.

وهنا يتذكر الحساد الذين واجهوه في حياته وحاولوا الاستيلاء على أمواله وثرواته ويسلبوه ملكيتها، إلّا أنّه حال دونهم بفكره وشطارته ولم يدعهم ينيلون منها، إذ ذاك تمنى حين هجم عليه الموت ألا يكون قد أخذها، وليتها صارت من نصيب من حسده وغبطه عليها: «**ويتمنى أن الذي كان يغبطه بها ويحسده عليها قد حازها دونه**».

ثم خاضﷺ في تفاصيل الموت بعبارات تهز النفس وتوقظ الضمير، وكأنّه يعيش تلك الحالة ويوشك أن يودع الدنيا الفانية: «**فلم يزل الموت يبالغ في جسده حتى خالط لسانه سمعه، فصار بين أهله لاينطق بلسانه، ولايسمع بسمعه**».

فأخذت الأعضاء تموت الواحد بعد الآخر ولم يبق له من لسان ناطق أو أذن سامعة: «**يردد طرفه بالنظر في وجوههم، يرى حركات ألسنتهم، ولايسمع رجع كلامهم**» أنّهم يسعون لأنّ يرتبطوا به ولكن لم يعد هنالك من سبيل.

ثم قالﷺ: «**ثم ازداد الموت التياطاً[١] به، فقبض بصره كما قبض سمعه، وخرجت الروح من جسده، فصار جيفة بين أهله، قد أو حشوا من جانبه، وتباعدوا من قربه، لا يسعد باكياً، ولا يجيب داعياً**».

ثم بلغ مرحلته الأخيرة: «**ثم حملوه إلىٰ مخط[٢] في الأرض، فأسلموه إلىٰ عمله، وانقطعوا عن زورته[٣]**».

لقد ألفوه سنوات، كان يضحكون معه وربما لم يطيقوا بعده، أمّا الآن بعد أنّ حل الموت بساحته، فهم لم يعودوا يتحملوا الجلوس بقربه ولو لساعه، وكأنهم لم يألفوه وكانوا غرباء عنه.

تأمّل

سكرة الموت والاحتضار

ليست هناك من لحظة يتعرض فيها الإنسان لأعظم خطر طيلة حياته أبلغ وأوجع من لحظة الاحتضاره فهي.

---

١. «التياط» من مادة «ليط» علىٰ وزن ليل الالتصاق.
٢. «مخط» الحفرة وتطلق علىٰ القبر، لأنّهم بحظون ثم يحفرون.
٣. «زوره» من مادة «الزيارة» وجاءت بهذا المعنىٰ.

لحظة انتهاء الامال والأماني.

لحظة الاغماض عن كافة وسائل الحياة.

لحظة مفارقة الأهل والأقرباء والأصدقاء.

لحظة وداع الدنيا وما فيها.

وبالتالي لحظة الانتقال إلىٰ عالم جديد ربما انطوى علىٰ كثير من المشاكل والمعضلات الخطيرة.

وقد صور الإمام‌عليه السلام هذه اللحظات بصورة دقيقة متابعا الموت مرحلة مرحلة تملأ القلب رعبا وخشية إذا ما تمثلها علىٰ حقيقتها.

فقد هدف الإمام‌عليه السلام إلىٰ ايقاظ الإنسان من غفلته قبل أن يفيق في اللحظة حين لا يجديه نفعاً، فيستعد لها ويهيئ الزاد اللازم لها.

وهنا لاينبغي أن ننسى بأنّ أولياء الله والصالحين من العباد إنّما يستقبلون الموت برحابة صدر وطلاقة وجه؛ وذلك لأنّهم يرون الموت طفرة نحو السعادة والخلود والحياة الابدية، وبعبارة أُخرىٰ فانّ سكرات الموت إنّما تتوقف علىٰ أعمال الإنسان، وعليه فيمكن أن تكون من أخطر اللحظات وأصعبها، كما يمكن أن تكون من أجملها وأروعها.

القسم الخامس

«حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ، وَالأَمْرُ مَقَادِيرَهُ، وَأُلْحِقَ آخِرُ الْخَلْقِ بِأَوَّلِهِ، وَجَاءَ مِنْ أَمْرِ اللهِ مَا يُرِيدُهُ مِنْ تَجْدِيدِ خَلْقِهِ، أَمَادَ السَّماءَ وَفَطَرَهَا، وَأَرَجَّ الأَرْضَ وَأَرْجَفَهَا، وَقَلَعَ جِبَالَها وَنَسَفَهَا، وَدَكَّ بَعْضُهَا بَعْضاً مِنْ هَيْبَةِ جَلاَلَتِهِ وَمَخُوفِ سَطْوَتِهِ، وَأَخْرَجَ مَنْ فِيهَا، فَجَدَّدَهُمْ بَعْدَ إِخْلاَقِهِمْ، وَجَمَعَهُمْ بَعْدَ تَفَرُّقِهِمْ، ثُمَّ مَيَّزَهُمْ لِما يُرِيدُهُ مِنْ مَسْأَلَتِهِمْ عَنْ خَفَايَا الأَعْمَالِ وَخَبَايَا الأَفْعَالِ، وَجَعَلَهُمْ فَرِيقَيْنِ: أَنْعَمَ عَلَىٰ هؤُلاَءِ وانْتَقَمَ مِنْ هؤُلاَءِ».

الشرح والتفسير

قيامة الناس

خاض الإمامعليه السلام في مرحلة أُخرىٰ تواجه الإنسان، بعد أنّ أشار إلىٰ دنيا الطالحين واللحظات المريرة التي يعيشونها آخر حياتهم حين الاحتضار. فقد تطرقعليه السلام هنا إلىٰ القيامة والحساب ليكمل بحث مصير الإنسان ويكون عبرة للاخرين، بهدف اليقظة والابتعاد عن الانحراف وسلوك الصراط المستقيم.

فقالعليه السلام: «**حتى إذا بلغ الكتاب أجله، والأمر مقاديره، وألحق آخر الخلق بأوله، وجاء من أمر الله ما يريده من تجديد خلقه**»، نعم فحياة الإنسان في هذه الدنيا ليست هدفاً غائياً، بل هي مقدمة لتلك الحياة الخالدة في ذلك العالم الخالد.

«أماد[1] السماء وفطرها، وأرج[2] الأرض وأرجفها،[3] وقلع جبالها ونسفها،[4]

---

١. «أماد» من مادة «ميد» الحركة والاضطراب.

٢. «أرج» من مادة «رجّ» على وزن «حجّ» ومعناها التحريك الشديد.

٣. «أرجف» من مادة «رجف» على وزن «كشف» بمعنىٰ الاضطراب والاهتزاز الشديد، ومن هنا يطلق على الأخبار التي تثير الفتنة بـ«الأراجيف» والتي تسبب الاضطرابات في المجتمع.

٤. «نسف» من مادة «نسف» على وزن «حذف» بمعنىٰ وضع الحبوب التي يستفاد منها كمادة غذائية في

ودك[1] بعضها بعضا من هيبة جلالته ومخوف سطوته».

حيث يقع انفجار عظيم في السموات والأرض فيضنى عالم المادة تماماً فيظهر عليه عالم جديد، كما أشار القرآن الكريم إلىٰ ذلك العالم كونه العالم الذي تقام عليه القيامة والحساب:

﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمٰواتُ وَبَرَزُوا لِلّٰهِ الواحِدِ القَهّارِ﴾.[2]

والواقع هو أنّ الإمامعليه السلام قد اقتبس هذه العبارة من الآية الشريفة: **﴿إذا ٱلسَّماءُ ٱنْفَطَرَتْ * وَإِذا ٱلكَواكِبُ ٱنْتَثَرَتْ﴾**[3].

كما قال بشأن الأرض: **﴿إذا رُجَّتِ الأَرْضُ رَجّاً * وَبُسَّتِ الجِبالُ بَسّاً * فَكانَتْ هَباءً مُنْبَثّاً﴾**[4].

وقال: **﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرّاجِفَةُ * تَتْبَعُها الرّادِفَةُ﴾**[5]

ثم قالعليه السلام: «**وأخرج من فيها، فجددهم بعد إخلاقهم جمعهم بعد تفرقهم**».[6]

وهذه بداية قيامة الإنسان، حيث يعود إلىٰ حياة جديده يرد بها المحشر.

والعبارة «**جددهم**» إشارة واضحة إلىٰ المعاد الجسماني واعادة بناء الإنسان وتكامله الجسمي في المحشر.

والعبارة «**وجمعهم بعد تفرقهم**» ممكن أن تكون إشارة إلىٰ تجمع الناس في المحشر، أو جمع الذرات المتفرقة لكل إنسان من أجل تجديد حياته، ولا مانع أن تكون العبارة إشارة إلىٰ كلا المعنيين.

ثم قالعليه السلام: «**ثم مميزهم لما يريده من مسألتهم عن خفايا الأعمال، وخبايا الأفعال،**

☜ الغربال، وتحريكه أو يُذرىٰ في الهواء من أجل فصل الحبوب عن القشور.
وهنا تأتي بمعنى تحطيم وتلاشي الجبال و بشكل شديد.

١. «دك» في الاصل بمعنىٰ تسوية الأرض، ومن هنا فان عملية تسوية وتعديل الارض الغير المستوية يحتاج الى ان ندكها، ويستعمل هذا الاصطلاح في موارد عديدة بمعنىٰ التحطيم الشديد.

٢. سورة ابراهيم/٤٨.

٣. سورة الانفطار/١ـ٢.

٤. سورة الواقعة/٤ـ٦.

٥. سورة النازعات/٦ـ٧.

٦. «إخلاق» من مادة «خلق» على وزن شفق البلى.

وجعلهم فريقين: أنعم على هؤلاء وانتقم[1] من هؤلاء».

والعبارة: «**خبايا الأفعال، وخفايا الأعمال**» يمكن أن يرادبها مطلب واحد، يعني الأعمال الخفية: كما يحتمل أن تكون «**خفايا الاعمال**» إشارة إلى الأعمال التي تتم في الخفاء وان أتي بها وسط الناس، و«**خبايا الأفعال**» إشارة إلى الأعمال التي تتم في الخلوات. لأنّ خبايا جمع خبيئة الشيء المخبوء.

على كل حال ليس هنالك من عمل من أعمالنا يخفي على الله، لأنّه حاضر في كل مكان و العالم حاضر لديه.

---

١. «انتقم» من مادة «نقمة» على وزن نعمة تعني في الأصل الجزاء والعقاب، كما تأتي بمعنى الثأر المقرون بالعداء، الا انها وردت بالمعنى الأول في الخطبة والاستعمالات القرآنية.

القسم السادس

«فَأَمَّا أَهْلُ الطَّاعَةِ فَأَثَابَهُمْ بِجِوَارِهِ، وَخَلَّدَهُمْ فِي دَارِهِ، حَيْثُ لاَيَظْعَنُ النُّزَّالُ، وَلاَتَتَغَيَّرُ بِهِمُ الْحَالُ، وَلاَ تَنُوبُهُمُ الأَفْزَاعُ، وَلاَتَنَالُهُمُ الأَسْقَامُ، وَلاَتَعْرِضُ لَهُمُ الأَخْطَارُ، وَلاَ تُشْخِصُهُمُ الأَسْفَارُ. وَأَمَّا أَهْلُ الْمَعْصِيَةِ فَأَنْزَلَهُمْ شَرَّ دَارٍ، وَغَلَّ الأَيْدِيَ إِلَىٰ الأَعْنَاقِ، وَقَرَنَ النَّوَاصِيَ بِالأَقْدَامِ، وَأَلْبَسَهُمْ سَرَابِيلَ الْقَطِرَانِ، وَمُقَطَّعَاتِ النِّيرَانِ، فِي عَذَابٍ قَدِ اشْتَدَّ حَرُّهُ، وَبَابٍ قَدْ أُطْبِقَ عَلَىٰ أَهْلِهِ، فِي نَارٍ لَهَا كَلَبٌ وَلَجَبٌ، وَلَهَبٌ سَاطِعٌ، وَقَصِيفٌ هَائِلٌ، لاَ يَظْعَنُ مُقِيمُهَا، وَلاَ يُفَادَىٰ أَسِيرُهَا، وَلاَ تُفْصَمُ كُبُولُهَا. لاَ مُدَّةَ لِلدَّارِ فَتَفْنَىٰ، وَلاَ أَجَلَ لِلْقَوْمِ فَيُقْضَىٰ».

ꕥ

الشرح والتفسير

الثواب والعقاب

أشار الإمام عليه السلام في هذا الموضع من الخطبة ـ الذي يمثل في الواقع آخر مرحلة سير الإنسان ـ إلىٰ جانب من ثواب المحسنين وعقاب المسيئين فقال: «**فأما أهل الطاعة فأثابهم بجواره، وخلدهم في داره**».

ثم تحدث عليه السلام عن خصائص تلك الدار بعبارات قصار بعيدة المعنى «**حيث لايظعن**[1] **النزال، ولا تتغير بهم الحال**». وإلىٰ جانب ذلك فلا من خوف ولا مرض ولاخطر ولاسفر يخرج من الديار «**ولا تنوبهم الأفزاع**[2]**، ولا تنالهم الأسقام، ولا تعرض لهم الأخطار ولا تشخصهم**[3] **الأسفار**».

---

١. «يظعن» من مادة «ظعن» السفر.

٢. «أفزاع» جمع «فزع» الخوف.

٣. «تشخص» من مادة «إشخاص» الاخراج من منزل إلىٰ آخر.

وعليه فالحوادث المزعجة والعوارض المقلقة التي تصدع باستمرار هدوء الإنسان في الحياة الدنيا، لا وجود لها في الآخرة، والإنسان في راحة تامة هناك ينعم بالسكينة والاستقرار والحياة المملوءة بالفرح والسرور، فليس هنالك من خطر يهدده، ولامرض ولا عوامل طبيعية مرعبة من قبيل السيول والزلازل والقحط وسائر الحوادث الاجتماعية التي تدعوا إلى النزاع والحرب فتهدد أمنه.

والفارق بين العبارة «**لايظعن النزال**» والعبارة «**ولا تشخصهم الأسفار**» في أنّ الاولىٰ إشارة إلىٰ السفر الاضطراري الذي قد يجبر عليه الإنسان في الدنيا أحياناً فيترك وطنه بالمرة، والثانية إشارة إلىٰ الأسفار التي يضطر لها الإنسان في الدنيا بهدف تلبية حاجاته ومتطلباته فيتحمل المشاق والمصاعب، وليس هنالك أي من هذين السفرين في الدار الآخرة.

نعم فالحياة الدنيا مهما كانت مريحة مفعمة بالنعم إلّا أنّها ليست حلوة مرجوة بسبب تلك الآفات والعوارض؛ بينما حلوة هى الدار الآخرة لخلوها من هذه الآفات والعوارض.

وهنا قد يقتدح إلىٰ الأذهان هذا السؤال اننا لندرك قيمة النعمة حين نفقدها والصحة والعافية والسلامة حين السقم والمرض، وما لم نر ظلمة الليل فلا نقف علىٰ أهمية شعاع الشمس في النهار، أفلا يغيب عن الإنسان إدراك لذة تلك النعم إذا لم تطرأ عليها الحوادث المذكورة؟

وللاجابة علىٰ هذا السؤال لابدّ من الالتفات إلىٰ نقطتين: الاولىٰ أنّ نعم الآخرة في حالة تغيير، أي هناك نعمة تستبدل بأُخرى على الدوام، وكل يوم يفاض عليهم نعم جديدة، ومن شأن هذا التغيير أن يقضي علىٰ حالة الرتابة. والثانية ما يجعل نعم الدنيا مريرة هو أنّها محفوفة بالاخطار، والذي يؤرق الإنسان هو عدم انفكاكه عن التفكير في سلبها وزوالها، وقد أشار الإمام عليه السلام إلىٰ عدم وجود هذه الأُمور في نعم الآخرة.

فقد ورد علىٰ لسان أهل الجنّة حين حمدهم لله وثنائهم عليه: ﴿**وَقالُوا اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الحَزَنَ إِنَّ رَبَّنا لَغَفُورٌ شَكُورٌ * الَّذِي أَحَلَّنا دارَ المُقامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لا يَمَسُّنا**

فِـيها نَصَـبٌ وَلا يَمَسُّنا فِـيها لُـغُوبٌ»[١].

ثم خاض عليه السلام في تفاصيل أهل المعصية وما يتعرضون له من مشقة «**وأمّا أهل المـعصية فأنزلهم شر دار، وغل الايدي إلى الاعناق، وقرن النواصي بالأقدام**».

والعبارات إشارة إلى ما صرح به القرآن الكريم: **﴿إِذِ الأَغْلالُ فِي أَعْـناقِـهِمْ وَالسَّـلاسِلُ يُسْحَبُونَ * فِي الحَمِيمِ ثُمَّ فِي النّارِ يُسْجَرُونَ﴾**[٢].

ثم واصل عليه السلام كلامه قائلاً: «**وألبسهم سرابيل القطران، ومقطعات النيران، في عذاب قد اشتد حره، وباب قد أطبق على أهله، في نار لها كلب**[٣] **ولجب**[٤]**، ولهب ساطع، وقصيف**[٥] **هائل**».

فالعبارات تفيد شدة حرارة نار جهنم المحرقة، حيث تتصاعد السنتها إلى عنان السماء مصحوبة بالأصوات المرعبة.

ثم قال عليه السلام: «**لايظعن مقيمها، ولا يفادى أسيرها، ولا تـفصم**[٦] **كـبولها**[٧] **لا مـدة للـدار فتفنى، ولا أجل للقوم فيقضى**».

ولو تصور الإنسان في ذهنه لحظة هذا العذاب الشديد والمرعب، لما قارف الذنب، وهذا هو هدف الإمام عليه السلام من شرح هذا العذاب!

وقد أكدت الروايات الإسلامية التمعن في الآيات القرآنية التي تتحدث عن الثواب، والتوقف عند تلك التي تتحدث عن العذاب.

ജ൫

وهو ذات الأمر الذي أكده الإمام عليه السلام في الخطبة ٩٣ وهو يصف المتقين: «**فاذا مروا بآية**

---

١. سورة فاطر/٣٤ـ ٣٥.
٢. سورة غافر/٧١ـ ٧٢.
٣. «كلب» من مادة «كَلْب» على وزن «جلب» وفي الاصل بمعنى الضغط على الحصان بواسطة المهماز و ذلك لكي يُسرع في عدوه، وهذا الاصطلاح يستعمل لأي نوع من أنواع الشدة.
٤. «لجب» له معنى المصدر واسم المصدر الصوت المرتفع.
٥. «قصيف» أشد الصوت.
٦. «تفصم» من مادة «فصم» على وزن نظم كسر الشيء دون فصله، وتعني القطع.
٧. «كبول» جمع «كبل» القيد.

فيها تشويق ركنوا إليها طمعاً، وتطلعت نفوسهم إليها شوقاً، وظنوا أنّها نصب أعينهم، وإذا مروا بآية فيها تخويف أصغوا إليها مسامع قلوبهم، وظنوا أن زفير جهنم وشهيقها في أصول آذانهم».

تأمّل

أسلوب الهداية

حقاً أنّه لاسلوب عظيم في هداية الإنسان ونجاته هذا الذي اعتمده الإمام عليه السلام بهذه العبارات التي تختزن الآثارة والتحذير.

فقد استهل الخطبة بالاشارة إلىٰ صفات الجمال والجلال وقدرته العظيمة سبحانه وعلمه المطلق بكل شيء ممّا يصدر من العباد إلىٰ جانب عظمة عالم الوجود.

ثم تحدث عليه السلام عن خلق أصناف الملائكة وعبادتها وطاعتها، ليبين زهادة عبادة الإنسان بالنسبة لتلك العبادة.

آنذاك تطرق عليه السلام إلىٰ خلق الإنسان ونعمه الجمة سبحانه، ثم ذم بشدة طلاب الدنيا، محذراً إيّاهم من التعلق بهذه النعم الزائلة.

كما تحدث عليه السلام عن الموت وانتهاء الحياة وسكرات الموت ومدعىٰ الحسرة والندم التي يشعر بها الاثم علىٰ أعتاب الموت، حتى رسم صورة يهتز لها القلب ويتيقظ لها الوجدان، وتفيق لها الأرواح الميتة.

وأخيراً إختتم عليه السلام الخطبة بالإشارة إلىٰ الثواب الذي ينتظر الصالحين والعقاب الذي ينتظر المسيئين، ليلتفت كل إنسان إلىٰ نفسه ويراقب عمله.

نعم فقد خط هذا الطبيب الروحي العظيم وصفة لمرضى القلوب لاتحمل لهم سوى العلاج إن إلتزموا بالعمل بها.

༄༅

القسم السابع

ومنها في ذكر النبي صلى الله عليه وآله

«قَدْ حَقَّرَ الدُّنْيَا وَصَغَّرَهَا وَأَهْوَنَ بِهَا وَهَوَّنَهَا، وَعَلِمَ أَنَّ اللهَ زَوَاهَا عَنْهُ اخْتِيَاراً، وَبَسَطَهَا لِغَيْرِهِ احْتِقَاراً، فَأَعْرَضَ عَنِ الدُّنْيَا بِقَلْبِهِ، وَأَمَاتَ ذِكْرَهَا عَنْ نَفْسِهِ، وَأَحَبَّ أَنْ تَغِيبَ زِينَتُهَا عَنْ عَيْنِهِ، لِكَيْلَا يَتَّخِذَ مِنْهَا رِيَاشاً، أَوْ يَرْجُوَ فِيهَا مَقَاماً. بَلَّغَ عَنْ رَبِّهِ مُعْذِراً، وَنَصَحَ لِأُمَّتِهِ مُنْذِراً، وَدَعَا إِلَى الْجَنَّةِ مُبَشِّراً، وَخَوَّفَ مِنَ النَّارِ مُحَذِّراً».

الشرح والتفسير

زهد النبي صلى الله عليه وآله

خاض الإمام عليه السلام هنا في صفات النبي صلى الله عليه وآله ورغبته عن هذه الدنيا لتكون سيرته قدوة تامة للأمّة، و ليبين كيف يستطيع الإنسان أن يعيش الأمان من أخطار الدنيا في ظل الإيمان و العمل الصالح فقال عليه السلام: **«قد حقر الدنيا وصغرها، وأهون بها وهونها»**.

فالعبارة إشارة واضحة إلىٰ زهده صلى الله عليه وآله: لأن من يحقر الدنيا ويوصي الاخرين باحتقارها، قطعا ليس له أدنى تعلق بها، وذلك لأنّ الشيء الحقير والتافه ليس له قيمة في استقطاب القلب والسيطرة على العقل.

ثم أكد عليه السلام هذا المعنى بالقول: **«وعلم أنّ الله زواها[1] عنه اختياراً[2]، وبسطها لغيره احتقاراً»**. والعبارة شبيه ماورد في الآية الشريفة من سورة الزخرف: **﴿وَلَوْلا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ**

---

١. «زوى» من مادة «زي» على وزن طي الجمع والفيض والابعاد.

٢. «اختيار» بمعنى الانتخاب والاصطفاء والاعتزاز ضد «الاحتقار».

أُمَّةً واحِدَةً لَجَعَلْنا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِنْ فِضَّةٍ وَمَعارِجَ عَلَيْها يَظْهَرُونَ* وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْواباً وَسُرُراً عَلَيْها يَتَّكِئُونَ * وَزُخْرُفاً وَإِنْ كُلُّ ذلِكَ لَمّا مَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا وَالآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾.[1]

ثم واصلﷺ كلامه عن النبيﷺ: «**فأعرض عن الدنيا بقلبه، وأمات ذكرها عن نفسه، وأحب أن تغيب زينتها عن عينه، لكيلا يتخذ منها رياشاً، أو يرجو فيها مقاماً**».

ورد الرياش بمعنى المفرد والجمع وهو اللباس الفاخر، وأصلها الريش، ويمكن أن يراد به جميع زينة الدنيا ومنها اللباس الفاخر.

فأول مزية لرسول اللهﷺ عدم اغتراره بزخرف الدنيا وزينتها فلم يقع في مخالبها قط.

المزية الأُخرى للنبي الأكرمﷺ تكمن في وظيفته بتبليغ الرسالة وايصال أوامر الله ونواهيه إلىٰ جميع العباد، وقد استفرغ وسعه في هذا السبيل، حيث قالﷺ: «**بلغ عن ربّه معذراً، ونصح لأمته منذراً، ودعا إلىٰ الجنّة مبشراً، وخوف من النار محذراً**».

قطعاً لو فشل الرسول الأكرمﷺ في المرحلة الاولىٰ في كيفية التعامل مع الدنيا واغتر بنعمها ولذاتها، لما تمكن قط من القيام بالمرحلة الثانية في ابلاغ الرسالة السماوية، فأين إسارة النفس في الدنيا من ابلاغ الرسالة.

ورد في حديث الإمام الصادقﷺ أنّ الله أوحىٰ إلىٰ موسى بن عمرانﷺ: «**يا موسى إنّ الدنيا دار عقوبة عاقبت فيها آدم عند خطيئته، وجعلتها ملعونة، ملعون ما فيها إلّا ما كان لي. يا موسى إنّ عبادي الصالحين زهدوا في الدنيا بقدر علمهم، وسائر الخلق رغبوا فيها بقدر جهلهم**».[2]

تأمّل

الشرط الاصلي في الزعامة

إنّ أعظم مشكلة تهدد القادة والزعماء إنّما تمكن في تهافتهم علىٰ ماديات الدنيا، الأمر الذي يؤدي إلىٰ تقديمهم الأفراد السيئين علىٰ الصالحين بدافع من حفظ منافعهم ومصالحهم المادية،

١. سورة الزخرف/٣٣ ـ ٣٥.
٢. الكافي ٣١٧/٢ ح ٩.

إلىٰ جانب ايثارهم للظلم والجور علىٰ العدل والقسط لذات الهدف.

إنّهم يعتمدون المنافع المادية كمعايير في تعاملهم مع كل شيء فيضحون بالمبادىء الإلهية والعقلائية والإنسانية من أجل تحقيق منافعهم الدنيوية الرخيصة.

ومن هنا كان أول أمر أكده الإمامعليه السلام في إطار وصفه للرسول الأكرمصلى الله عليه وآله هو عدم اعتنائه بالدنيا وتصغيرها وتحقيرها، ممّا جعله لا يكترث لجميع ما فيها، ويمحوها من ذاكرته.

وقد صرح القرآن الكريم مراراً بشأن الأنبياء ولاسيما نبي الرحمةصلى الله عليه وآله أنّهم لايسألون الناس أجراً علىٰ ابلاغ الرسالة، وكانت معيشتهم في الدنيا معيشة المستضعفين وهذا ما جعلهم يجرون الحق ويقيمون العدل بحق الجميع ولا يخشون سطوة ظالم ولا يحسبون حساباً لاصحاب المال والثراء.

فضريبة الحياة المرفهة با هضة لاتتأتى إلّا من خلال مماشاة أصحاب الثراء ومداهنتهم؛ الأمر الذي يهدد بالصميم الحق والعدل والإدارة الصالحة الطاهرة.

وقد بلغ من زهد رسول اللهصلى الله عليه وآله وانصرافه عن الدنيا أنّه كان يجلس علىٰ الحصير ويتوسد الليف حتى أثر في بدنه الطاهر، ولما قيل له هذا كسرى وقيصر يجلسان على الحرير والديباج وانت تجلس على الحصير. ردّ رسول اللهصلى الله عليه وآله: «**إنّما مثل الدنيا كمثل راكب مر على شجرة ولها فيء فاستظل تحتها، فلما أن مال الظل عنها ارتحل فذهب وتركها**»[1].

---

١. بحار الانوار ٢٨٣/١٦.

القسم الثامن

«نَحْنُ شَجَرَةُ النُّبُوةِ، وَمَحَطُّ الرِّسَالَةِ، وَمُخْتَلَفُ الْمَلائِكَةِ، وَمَعَادِنُ الْعِلْمِ، وَيَنَابِيعُ الْحُكْمِ، نَاصِرُنا ومُحِبُّنَا يَنْتَظِرُ الرَّحْمَةَ وَعَدُوُّنا وَمُبْغِضُنَا يَنْتَظِرُ السَّطْوَةَ».

ജ്ഞ

الشرح والتفسير

أهل البيت عليهم السلام

اختتم الإمام عليه السلام خطبته بعد ذكر أوصاف النبي صلى الله عليه وآله بالحديث عن صفات أهل البيت عليهم السلام و قد بلغ بالفصاحة و البلاغة ذروتها بهذا الختام الحسن فقال: «**نحن شجرة النبوة، ومحط الرسالة، ومختلف**[1] **الملائكة، ومعادن العلم، وينابيع الحكم**».

فالتعبير بالشجرة يفيد أنّ النبوة كالشجرة المثمرة التي لها فروع وأغصان مختلفة، جذرها وساقها النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، وأوراقها أولاده، وثمرتها هداية الناس إلى الله.

وشبه عليه السلام أهل البيت في العبارة الثانية بالموضع الذي تهبط فيه الرسالة من جانب الله سبحانه، كما وصفهم في العبارة الثالثة بالموضع الذي تختلف إليه الملائكة في صعودها ونزولها. علي عليه السلام وولده ممن تربوا في هذه الاسرة ليستضيئوا بنور الوحي.

ولعل المراد بالملائكة هنا ملائكة الوحي (جبرئيل ومن معه) الذين كانوا يهبطون على رسول الله صلى الله عليه وآله، أو أنّها إشارة إلى المعنى الأعم فيشمل جميع الملائكة الذين يختلفون عليهم للخدمة والبشارة وأمثال ذلك، على كل حال فليس المراد أنّ الوحي كان ينزل على غير رسول الله صلى الله عليه وآله.

---

١. «مختلف» من مادة «اختلاف» وتأتي هنا بمعنى الذهاب والاياب، ومن هنا فان كلمة «مُختلَف» تعني هنا محل الذهاب والاياب.

والفارق بين شجرة النبوة ومحط الرسالة أنّ للنبيﷺ مقامان: مقام النبوة وهو الأخبار عن الله ومقام الرسالة وهو ابلاغها. وبعبارة أُخرىٰ فان النبيﷺ مأمور بالابلاغ، والرسالة تقترن عادة بالإمامة والزعامة والإجراء.

والمراد بمعادن العلم أئمة أهل البيتﷺ ورثة علوم النبيﷺ وحفظة الكتاب والسنة.

فقد قيل في سبب نزول الآية الشريفة: **﴿وَتَعِيَها أُذُنٌ واعِيَةٌ﴾**[1].

إنّ رسول اللهﷺ قال: سألت ربّي أن يجعلها أذن علي. ثم قال عليﷺ: **«ما سمعت من رسول الله شيئا فنسيته»**[2].

وكذلك الحديث: **«علي مع القرآن، والقرآن مع علي»**[3].

والحديث: **«أنا مدينة العلم وعلي بابها»**[4].

وهكذا سائر الأحاديث المعروفة التي روتها كتب الفريقين، تفيد بأجمعها كون أهل البيت معادن العلم والحكمة.

والفارق بين معادن وينابيع هو أنّ المعدن الشيء الذي يقصده الناس وينتفعون بـه، أمّـا الينابيع ما يفيض على الناس.

ثم إختتمﷺ كلامه بالقول: **«ناصرنا ومحبنا ينتظر الرحمة، وعدونا ومبغضنا ينتظر السطوة»**[5].

طبعاً لا تعني هذه العبارة أنّ لهم حقا مثل هذا الانتظار، بل تعني أنّهم لابدّ أن ينتظروا مثل هذه العاقبة المشؤومة، فالواقع أنّه نوع من التهديد بالعذاب الإلهي في الدنيا والآخرة.

———

١. سورة الحاقة/١٢.
٢. راجع نفحات القرآن ٣٥٩/٩؛ بحار الانوار ٣٢٦/٣٥ـ٣٣١.
٣. الغدير ١٧٨/٣ و ١٨٠.
٤. الغدير ٦١/٦ـ٨٠.
٥. «سطوة» الوثوب على الشخص وقهره، ولما كان من لوازم ذلك العقاب، فقد وردت بهذا المعنى في العبارة.

الخطبة[1] ١١٠

ومن خطبة له ﷺ

في أركان الدين

نظرة إلى الخطبة

تتألف هذه الخطبة في الواقع من قسمين: القسم الأول: الذي تطرق فيه الإمام ﷺ إلى أفضل ما تقرب به العباد إلى الله من قبيل الإيمان والجهاد والاخلاص والصلاة والزكاة، ثم ذكر فلسفة كل شعيرة من هذه الشعائر بعبارة قصيرة عميقة المعنى.

القسم الثاني: بيان الأبعاد العملية للايمان وطرق بلوغها والوصية بذكر الله والاقتداء بهدي النبي ﷺ واتباع سنته والاهتمام بتعلم القرآن وفهم آياته.

ثم اختتم ﷺ الخطبة بالذم الشديد للعالم بلا عمل وشدة عقابة.

---

١. سند الخطبة: قال صاحب مصادر نهج البلاغة بداية الخطبة «الحمد لله فاطر الخلق وخالق الأشباح» وهي خطبة معروفة مشهورة تعرف بخطبة الديباج. رواها قبل السيد الرضي (ره) المرحوم الصدوق في كتاب من لايحضره الفقيه (١٣١/١) بتفاوت وفي علل الشرايع، كما وردت في تحف العقول وفي كتاب المحاسن (مصادر نهج البلاغة ٢٣٨/٢) إلّا أنّ الخطبة في تحف العقول بدأت «الحمد لله فاطر الخلق، وخالق الاصباح» ثم اورد الخطبة وذكرانها تعرف بخطبة الديباج. (تحف العقول، ١٠٤/ ـ ١٠٧).

القسم الأول

«إِنَّ أَفْضَلَ مَا تَوَسَّلَ بِهِ الْمُتَوَسِّلُونَ إِلَىٰ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ٱلإِيمَانُ بِهِ وَبِرَسُولِهِ، وَٱلْجِهادُ فِي سَبِيلِهِ، فَإِنَّهُ ذِرْوَةُ الإِسْلامِ؛ وَكَلِمَةُ الإِخْلاَصِ فَإِنَّهَا الْفِطْرَةُ؛ وَإِقَامُ الصَّلاةِ فَإِنَّهَا الْمِلَّةُ؛ وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ فَإِنَّهَا فَرِيضَةٌ وَاجِبَةٌ؛ وَصَوْمُ شَهْرِ رَمَضَانَ فَإِنَّهُ جُنَّةٌ مِنَ الْعِقَابِ؛ وَحَجُّ الْبَيْتِ وَٱعْتِمارُهُ فَإِنَّهُمَا يَنْفِيَانِ ٱلْفَقْرَ وَيَرْحَضَانِ الذَّنْبَ، وَصِلَةُ الرَّحِمِ فَإِنَّهَا مَثْرَاةٌ فِي الْمالِ، وَمَنْسَأَةٌ فِي الأَجَلِ؛ وَصَدَقَةُ السِّرِّ فَإِنَّهَا تُكَفِّرُ الْخَطِيئَةَ؛ وَصَدَقَةُ الْعَلانِيَةِ فَإِنَّهَا تَدْفَعُ مِيتَةَ السُّوءِ؛ وَصَنَائِعُ الْمَعْرُوفِ فَإِنَّهَا تَقِي مَصَارِعَ الْهَوَانِ».

الشرح والتفسير

فرائض الإسلام

تحدث الإمام عليه السلام هنا عن أفضل الأعمال التي يؤديها سالكي طريق العبودية ودعاة الحق للتقرب إلىٰ الله فقال عليه السلام: «**إنّ أفضل ما توسل به المتوسلون**[1] **إلىٰ الله سبحانه وتعالىٰ، الإيمان به وبرسوله**».

وكان هذه العبارة إشارة إلىٰ الآية الشريفة: ﴿**يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللّٰهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ**﴾[2]. إلىٰ جانب شرحها و تفسيرها، فقد أمر الله سبحانه في هذه الآية بالتقوى ومن ثم انتخاب الوسيلة إلىٰ الله.

وعلى هذا فالمراد بالوسيلة الإيمان والجهاد وسائر الأمور الواردة في هذه الخطبة وليس

---

١. «متوسلون» من مادة «وسيلة» بلوغ الشيء مع الميل والرغبة.

٢. سورة المائدة/٣٥.

هناك من منافاة بين هذا الكلام والتفسير الآخر الذي عنى الوسيلة هنا بشفاعة أولياء الله؛ لأنّ كل هذه الوسائل يمكن جمعها في الآية الشريفة.

على كل حال فانّ الوسيلة الاولىٰ التي ذكرت هى الإيمان؛ الإيمان بالله والنبي، لأنّ الإيمان أساس الحركة البناءة والفاعلة.

الطريف في كلام الإمامعليه السلام أنّه تطرق في كل نقطة دليلها بصيغة تعليل وفلسفة لكافة الواجبات العشر الواردة في العبارة، سوىٰ مسألة الإيمان بالله والنبي. وذلك لأنّ هذه المسألة غنية عن ذكر الدليل، وبعبارة أُخرىٰ فانّ أساس الصالحات والخيرات واعمال البر إنّما يكمن في الإيمان، وبدونه ليس هنالك من حركة نحو الفرائض الإلهية والواجبات الدينية. فالأمر على درجة من الوضوح بحيث لايحتاج إلى دليل.

ثم أشارعليه السلام إلىٰ الواجب الثاني: «**والجهاد في سبيله، فانه ذروة**[1] **الإسلام**» وللجهاد هنا معنى واسع يشمل الجهاد العلمي والإعلامي والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وكافة الجهود والمساعي البناءة من أجل النهوض بالاهداف الإسلامية وحتى جهاد النفس، إلىٰ جانب الجهاد العسكري والمقاومة ضد العدو.

والعبارة «**ذروة الإسلام**» تفيد عدم جدوى الجهاد ما لم يكن عاماً شاملاً. وقد قال الإمامعليه السلام في موضع آخر من نهج البلاغة بشأن فلسفة الأحكام ومنها الجهاد: «**والجهاد عن للإسلام**»[2].

ورغم سعي إعداء الإسلام إلىٰ استغلال مفردة الجهاد الإسلامي واساءة تفسيرها من خلال وصفها بالعنف إلّا أنّهم يغفلون عن المعنى الواقعي للجهاد والذي يتمثل بالصمود من أجل الحياة ومقاومة العناصر الهدامة؛ وهو الأمر الذي أودع طبيعة كل إنسان.

فالحق أنّ الحياة لتتعذر علينا ولو ضعفت الخلايا ليوم واحد كتلك التي ركبت في بدن الإنسان وتقوم بوظيفتها في الدفاع عنه ومهاجمة المكروبات والجراثيم التي تحاول اختراق البدن، وما المرض الخطير الذي يصطلح عليه بالايدز إلّا اختلال القوى الدفاعية للبدن. فالمجتمع الذي يتخلى عن الجهاد إنّما يكون كهذا المريض المصاب بالايدز، فيصبح مسرحاً

---

١. «ذروة» على وزن قبلة أعلى الشيء.
٢. نهج البلاغة، الحكمة ٢٥٢.

لهجوم أنواع المشاكل والمعضلات.

وبالطبع أن أولئك الذين صوبوا سهام حقدهم نحو الجهاد الإسلامي، ليعلمون جيداً أنّ التسلط على المسلمين متعذر مادام هذا الأصل المتمثل بالجهاد نابض بالحياة. فلو حذف الجهاد بحجة العنف، لم تعد هنالك من مشكلة أمام تسلط الاعداء.

على كل حال فان ذكر الإمامعليه السلام للجهاد كواجب بعد الإيمان بالله والنبي يفيد موت الدين في حالة غياب هذا الواجب.

فقد ورد في حديث عن عليعليه السلام: **«والله ما صلحت دنيا ولا دين إلّا به»**[1].

ثم ذكرعليه السلام الواجب الثالث **«وكلمة الاخلاص فانها الفطرة»**.

والمراد بكلمة الاخلاص **«لا إله إلّا الله»** التي تتضمن الشهادة لله بالوحدانية والعبودية ونفي الشرك والوثنية.

وتفيد بعض الروايات أنّ للاخلاص بعد عملي يتمثل بالاقبال على الحق سبحانه والأغماض عما سواه إلىٰ جانب التحفظ عن ارتكاب الذنب والمعصية. فقد ورد عن الإمام الصادقعليه السلام أنّه قال: **«من قال لا إلّا الله عما حرم الله»**[2].

ومن الواضح أنّ من يقارف الذنوب أو ينقاد للشيطان أو الأهواء فانّه مشرك في عمله، وهذا ما يتناقض وحقيقة الأخلاص.

ثم قالعليه السلام: **«واقام الصلاة فانّها الملة»**، والملة هنا تعني الدين، أمّا أنّ الصلاة لم تعد جزءاً من الدين بل الدين كله، وذلك لأنّ الصلاة الدعامة الأساسية للدين. فقد جاء في الحديث النبوي المعروف أنّ رسول اللهصلى الله عليه وآله قال: **«الصلاة عماد الدين، فمن ترك صلاته متعمداً فقد هدم دينه»**[3].

كما ورد عن رسول اللهصلى الله عليه وآله أنّه قال: **«مثل الصلاة مثل عمود الفسطاط إذا ثبت العمود ثبتت الأطناب والأوتاد والغشاء، وإذا انكسر العمود لم ينفع طنب، ولا وتد ولا غشاء»**[4].

ثم قالعليه السلام: **«وايتاء الزكاة فانها فريضة واجبة»**.

---

١. وسائل الشيعة ٩/١.
٢. بحار الانوار ٣٥٩/٨.
٣. جامع الأخبار (طبق نقل بحار الانوار ٢٠٢/٧٩).
٤. منهاج البراعة ٣٩٨/٧ وبحار الانوار ٢١٨/٧٩.

تطلق الفريضة عادة على الواجب، وبناءاً علىٰ فانّ ذكر الواجبة بعدها للتأكيد، إلّا أنّ للفريضة معنى آخر أنسب لموضع بحثنا، وهو قطع وفصل الشيء، وهنا قسم من المال الذي يفصل لهدف.

أو بعبارة أُخرىٰ الضريبة التي فرضت لمساعدة الضعفاء في المجتمع وتأمين بعض تكاليف الحكومة الإسلامية.

وقد ورد في القرآن بشأن أسهم الإرث: **﴿نَصِيباً مَفْرُوضاً﴾**[1].

ومن هنا عبر العلماء الاعلام في مباحث الإرث بكتاب الفرائض بدلاً من كتاب الارث.

على كل حال فانّ مسألة الزكاة من أهم أركان الإسلام بعد الصلاة.

وقد جاء في حديث عن الإمام الباقرﷺ أنّ رسول اللهﷺ كان في مسجده فنادىٰ خمسة أشخاص وقال: «**لاتصلوا فيه وانتم لا تزكون**»[2].

ثم قالﷺ: «**وصوم شهر رمضان فانّه جنّة من العقاب**».

ورد التعبير هنا «**جنّة من العقاب**» بينما وردت العبارة في الحديث المعروف «**جنّة من النار**»[3].

ويكفي في فضل الصوم أنّه يخرج الإنسان من البهيمية إلىٰ عالم الملائكة ويجلسه على بساط القرب الإلهي.

ثم بين الركن السابع من أركان الإسلام فقال: «**وحج البيت واعتماره فانّهما ينفيان الفقر ويرحضان**[4] **الذنب**».

لاشك أنّ لزيارة بيت الله بركات مادية وأُخرىٰ معنوية وروحانية، وقد أشير إليهما هنا، وقد وردت خلاصة ذلك في الآية الشريفة ٢٨ من سورة الحج: **﴿لِيَشْهَدُوا مَنافِعَ لَهُمْ﴾** وقد ورد في الحديث «**يخرج من ذنوبه كهيئة يوم ولدته أمه**»[5] أما تأثيره في ازالة الفقر ـ علاوة علىٰ بركاته المعنوية ـ فذلك أنّ المسلمين يستطيعون أن يقيموا الاسواق الاقتصادية إلىٰ

---

١. سورة النساء/٧.
٢. شرح نهج البلاغة للمرحوم الشوشتري ١٣/١٠٢.
٣. الكافي ٤/٦٢ ح ١.
٤. «يرحضان» من مادة «رحض» على وزن محض الغسل، إشارة إلىٰ أنّ الحج والعمرة يغسلان الذنوب.
٥. بحار الانوار ٦٩/٢٦.

جانب مراسم الحج من أجل ممارسة الانشطة والمبادلات التجارية بحيث بديرون نوعاً من التجارة العالمية فيما بينهم، فقد كان هناك مثل هذه الأسواق البدائية على عهد رسول الله ﷺ.

ولو جد المسلمون اليوم في تقوية بناهم الاقتصادية لتمكنوا حقاً من سد حاجات الفقراء والمعوزين. ومن هنا ورد في حديث الإمام الصادق ؛: «**ما رأيت شيئا أسرع غني ولا أنفى للفقر من إدمان حج البيت**»[1].

ثم قال ؛ في بيان الركن الثامن: «**وصلة الرحم فانّها مثراة[2] في المال ومنسأة[3] في الأجل**».

فصلة الرحم واضافة إلىٰ تأثيرها في ازدياد المال تؤدي إلىٰ نماء العمر وزيادته، ولعل ذلك لدعاء الأرحام بعضهم لبعض، إلىٰ جانب معونة بعضهم البعض في الأمراض؛ الأمر الذي يؤدي إلىٰ طول العمر، ناهيك عن تقليلها من الهم والغم والحزن.

فقد جاء عن الإمام الصادق ؛ أنّه قال: «**صلة الأرحام تزكي الأعمال، وتنمي الأموال، وتدفع البلوى، وتيسر الحساب، وتنسيء في الأجل**»[4].

ثم قال ؛ في الركن التاسع من أركان الإسلام: «**وصدقة السر فانّها تكفر الخطيئة، وصدقة العلانية فانّها تدفع ميتة السوء**»، المراد بصدقة السر المساعدات التي يقدمها الإنسان إلىٰ الأفراد المحتاجين والمحترمين بدافع من نية خالصة إلىٰ جانب السعي لحفظ ماء وجههم، ومن هنا كانت بركاتها جمة، والعبارة تشمل الصدقات الواجبة كالكفارات والنذورات والصدقات المتجة والانفاقات. والمراد بصدقة العلانية، المعونة الظاهرة ومن بركاتها تشجيع الاخرين على أفعال الخير. والعبارة اقتباس من الآية الشريفة: ﴿**اَلَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهارِ سِرّاً وَعَلانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾[5].

---

١. بحار الانوار ٦٦/٤٠٦.

٢. «مثراة» من مادة «ثرى» و «ثروة» وتعني الزيادة، وعلى هذا الاساس، يقال للمال الكثير «الثروة» و «مثراة» مصدر ميمي بمعنىٰ اسم فاعل و يعني سبب الزيادة.

٣. «منسأة» من مادة «نسأ» على وزن نسخ بمعنىٰ التأخير، ومنسأة: مصدر ميمي بمعنىٰ اسم فاعل يعني سبب التأخير.

ويقال للعصا «المنسأة» لانها تستعمل لازالة الاشياء الضارة التي تعترضنا أثناء السير.

٤. الكافي ٢/١٥٠.

٥. سورة البقرة/٢٧٤.

وتفيد روايات الفريقين أنّها نزلت في علي﷣ حين كان له أربعة دراهم انفق واحد منها في النهار وآخر في الليل وآخر سراً وآخر علانية.[١]

طبعا تطلق الصدقة في الفقه الإسلامي علىٰ ما يعطى للفقراء بقصد القربى إلى الله، إلّا أنّ للصدقة مفهوم واسع يشمل كل عمل خير اجتماعي كبناء المساجد والمدارس والطريق والمستشفيات والأعمال الثقافية، ومن هنا جاء في رواية الإمام الكاظم﷣: «**عونك للضعيف من أفضل الصدقة**»[٢] ولاشك أنّ بناء المستشفيات والمدارس وأمثال ذلك مصداق لعون الضعيف. وورد في الحديث النبوي: «**كل معروف صدقة**»[٣].

وورد عنه ﷺ أيضاً: «**الكلمة الطيبة صدقة**»[٤].

وقال الصادق﷣: «**إسماع الاصم من غير تزجر صدقة هنئة**»[٥].

ونختتم هذا الكلام بحديث عن رسول الله ﷺ في أنّه قال: على المسلم أن يتصدق كل يوم. فقال رجل: لانقدر كلنا على ذلك.

فقال ﷺ: «**إماطتك الاذىٰ عن الطريق صدقة، وإرشادك الرجل إلى الطريق صدقة، وعيادتك المريض صدقة، وأمرك بالمعروف صدقة، ونهيك عن المنكر صدقة**»[٦].

والمراد بميتة السوء، الموت تحت التعذيب والالام، كالاحتراق في النار، أو أثر الاصابة بمرض خطير شاق وحوادث الطريق.

ثم قال في الركن العاشر من أركان الإسلام: «**وصنائع[٧] المعروف فانّها تقي مصارع[٨] الهوان**».

والعبارة بصنائع المعروف تشمل كل عمل صالح، من قبيل ذكر العام بعد الخاص، كما

---

١. احقاق الحق ٣/٢٤٦ـ٢٥١.
٢. تحف العقول، الكلمات القصار للإمام الكاظم﷣.
٣. الخصال ١/١٣٤.
٤. بحار الانوار ٨٠/٣٦٩.
٥. بحار الانوار ٧١/٣٨٨.
٦. بحار الانوار ٧٢/٥٠ ح ٤.
٧. «صنائع» من مادة «صنع» على وزن «قفل» بمعنىٰ صناعة الشيء وابداعه.
وفي لغة العرب يقال للاعمال الجيدة والحسنة «الصنائع» وهو جمع «صنيعة». «نقل من المعجم الوسيط».
٨. «مصارع» جمع «مصرع» بمعنىٰ السقوط على الارض، ويطلق لمحل القتل بالمصرع، ويقال للصراع بين طرفين «المصارعة» لان كل طرف من هذين الطرفين يحاول أن يطرح الآخر أرضاً.

يحتمل أن يكون المراد بصنائع المعروف مساعدة عباد الله.

وقد وردت عن الائمةﷺ عدة روايات أكدت مسألة صنايع المعروف، منها ماورد عن الإمام الصادقﷺ أنّه قال: «**أول من يدخل الجنّة أهل المعروف**»[١]، وقال أميرالمؤمنين عليﷺ: «**عليك بصنائع المعروف فانها نعم الزاد إلى المعاد**»[٢].

كما ورد عن الإمام الصادقﷺ أنّه كان يحث أصحابه علىٰ صنائع المعروف ويقول: إنّ للجنّة باب اسمه المعروف لا يدخله إلّا من كان يصنع المعروف في الدنيا، ثم قال: «**إنّ العبد ليمشي في حاجة أخيه المؤمن، فيوكل على الله عزوجل به ملكين واحداً عن يمينه، وواحدا عن شماله، يستغفرون له ربّه ويدعوان بقضاء حاجته**»[٣].

فلسفة الأحكام

غالبا ما يعمد الاطباء المهرة إلىٰ تنبيه مرضاهم إلىٰ الآثار المهمة للأدوية والأطعمة المقوية التي تسرع في شفاء حالتهم المرضية؛ لكي يتحملوا مرارة الدواء برغبة ولهفة ويلتزموا بارشادات الطبيب. ولعل الأطباء الروحيين يسيرون على هذا النهج فيبينون فلسفة تشريع الأحكام ومعطيات البرامج الدينية للناس، ليثيروا فيهم الشعور والدافع نحو هذه البرامج ويرسخوا عزمهم في تنفيذها.

وقد راينا نموذج ذلك ـ بيان فلسفة الأحكام ـ في هذه الخطبة، حيث ينطوي هذا البيان على عدة فوائد، إلىٰ جانب كونه يحث الناس علىٰ التفاعل مع الوظائف الدينية وممارستها بكل شوق ورغبة ويهون عليهم تحمل بعضى المشاق التي تشتمل عليها بعض الوظائف الدينية. ومن الفوائد التي يمكن ذكرها هنا:

١ـ تحدد للناس الاسلوب الصحيح الذي ينبغي أن تؤدي فيه الفريضته، مثلاً حين تبيّن فلسفة الحج «**فرض الله الحج تشييدا للدين**»[٤]، فمفهوم ذلك إقامة مراسم الحج بكل عظمة

---

١. ميزان الحكمة ١٩٣١/٢ ح ١٢٦١١.

٢. غرر الحكم، ٦١٦٦.

٣. الكافي ١٩٥/٢ ح ١٠.

٤. خطبة الزهراءﷺ، احتجاج الطبرسي ٢٥٨/١، طبع اسوة، وورد مثل هذا المعنى في الكلمات القصار، ٢٥٢.

لتحقيق هذا الهدف ولا يكتفون بآدابه الصورية الظاهرية.

٢ـ أنّ يعلموا أنّ آثار وبركات هذه الأعمال تعود علينا، فليس هناك من منّة على الله، بل الله يمن علينا، الأمر الذي صرح به القرآن الكريم بشأن الإسلام والإيمان: **﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لاتَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ بَلِ اللّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَداكُمْ لِلْإِيمانِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ﴾**[1].

٣ـ يمكننا تقييم أعمالنا من خلال الالتفات إلىٰ فلسفة الأحكام، لنرى مدى قبولها عند الله، مثلاً حين يقال: «**وفرض عليكم الصوم للتقوى والصلاة نهياً عن الفحشاء والمنكر**» فانّ علينا أن نرىٰ هل حصلت لدينا ملكة التقوى بعد القيام بالصوم والصلاة أم لا؟ وهكذا نقف علىٰ قيمة عباداتنا وأعمالنا.

نعم اننا نعلم بأنّ الله حكيم، وحكمته تقتضى ألايشرع شيئاً دون أن يبيّن هدفه ونتيجته، ويا لهم من جهال أولئك الذين يزعمون أنّ أفعال الله ليست معلله بغرض؛ أي ليس هناك من هدف في تشريعاته وأعماله! أنّهم ليسيئون بهذا الكلام إلىٰ كونه حكيماً سبحانه، وهم يزعمون أنّهم اقتربوا من حقيقة التوحيد، والحال أنّهم مصداق لهذه الآية الشريفة: **﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمالاً* الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الحَياةِ الدُّنْيا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً﴾**[2].

نعم أفعال الله ليست معللة بأغراض، أي ليس هناك من هدف يعود إليه، لأنّه غني عن كل شيء وعن كل موجود؛ إلّا أنّ المؤسف له أنّ هؤلاء الجهال لايقولون ذلك، بل يزعمون أن لاضرورة لأنّ تعود نتيجة أفعال الله وأوامره على العباد، وهذا منتهى الجهل!!

على كل حال فانّ الإمام عليه السلام بين فلسفة الأحكام في هذه الخطبة، بحيث يتأجج الشوق في أعماق من يتمعنها لأن يؤدي وظائفه على أكمل وجه دون أن يشعر بالتعب والملل.

---

١. سورة الحجرات/١٧.

٢. سورة الكهف/١٠٣ـ١٠٤.

القسم الثاني

«أَفِيضُوا فِي ذِكْرِ اللهِ فَانَّهُ أَحْسَنُ الذِّكْرِ. وَارغَبُوا فِيما وَعَدَ المُتَقِينَ فَإنَّ وَعْدَهُ أَصْدَقُ الْوَعْدِ. وَاقْتَدُوا بِهَدْيِ نَبِيِّكُمْ فَإِنَّهُ أَفْضَلُ الْهَدْيِ. وَاسْتَنُّوا بِسُنَّتِهِ فَإِنَّهَا أَهْدَىٰ السُّنَنِ. وَتَعَلَّمُوا الْقُرْآن فَإِنَّهُ أَحْسَنُ الْحَدِيثِ، وَتَفَقَّهُوا فِيهِ فَإِنَّهُ رَبِيعُ الْقُلُوبِ، وَاسْتَشْفُوا بِنُورِهِ فَإِنَّهُ شِفَاءُ الصُّدُورِ، وَأَحْسِنُوا تِلاَوَتَهُ فَإِنَّهُ أَنْفَعُ الْقَصَص، وَإِنَّ الْعَالِمَ بِغَيْرِ عِلْمِهِ كَالْجَاهِلِ الْحَائِرِ الَّذِي لاَ يَسْتَفِيقُ مِنْ جَهْلِهِ؛ بَلِ الْحُجَّةُ عَلَيْهِ أَعْظَمُ، وَالحَسْرَةُ لَهُ أَلْزَمُ، وَهُوَ عِنْدَ اللهِ أَلْوَمُ».

ﮪﮫ

الشرح والتفسير

القرآن والسنة

بعد أن فرغ الإمامعليه السلام من بيان أركان الإسلام وذكر فلسفة الأحكام، دعا الناس إلىٰ امتثال الأحكام والعمل بالوظائف فقالعليه السلام: «**أفيضوا في ذكر الله فانّه أحسن الذكر**».

فالعبارة «**أفيضوا**» تفيد كثرة ذكر الله سبحانه والتوجه إليه.

والعبارة «**أحسن الذكرى**» لأنّ ذكر الله سبحانه مصدر وأساس كافة البركات المادية والمعنوية.

فقد جاء في الحديث النبوي: «**ليس عمل أحب إلى الله تعالىٰ، ولا أنجى لعبد من كل سيئة في الدنيا والآخرة، من ذكر الله. قيل: ولا القتال في سبيل الله؟ قال: لولا ذكر الله لم يؤمر بالقتال**»[1].

---

١. كنز العمال، ٣٩٣١.

ثم قال ﷺ: «**وارغبوا فيما وعد المتقين فانّ وعده أصدق الوعد، واقتدوا بهدي نبيّكم فانّه أفضل الهدىٰ، واستنوا بسنته فانّها أهدى السنن**».

لاشك أنّ الوعود الإلهية للمطيعين والمؤمنين الصالحين هي أصدق الوعود، لأنّ من يتخلف عن الوعد إمّا عاجز، أو بخيل أو جاهل، حيث يعد دون علم، ثم لايفي بوعده. أمّا من كان مطلق في علمه وقدرته فخلف الوعد محال عليه.

المراد بالهدى (على وزن منع) السبيل والاسلوب والطريقة.

والسنة تعني ما يصدر من الأوامر في مختلف المجالات، ولما كان رسول الله ﷺ هو خاتم الأنبياء، فمن الطبيعي أن تكون سنة أهدى السنن.

ثم أكد الإمام ؑ على القرآن فقال: «**وتعلموا القرآن فانّه أحسن الحديث، وتفقهوا فيه، فانّه ربيع القلوب، واستشفوا بنوره فانه شفاء الصدور، وأحسنوا تلاوته فانّه أنفع القصص**».

فقد ذكر الإمام ؑ أربع مراحل مختلفة تتقدم كل واحدة منها بصورة طبيعية على الأُخرىٰ.

في المرحلة الاولىٰ أوصى ؑ بتعلم القرآن على أنّه أحسن الحديث؛ وذلك لاشتماله على أكمل أسس سعادة الإنسان.

المرحلة الثانية أوصىٰ ؑ بالتفكير والتدبر فيه وسبر غوره والوقوف على معناه ومضمونه، بفضله ربيع القلوب، فكما تتفتح البراعم في فصل الربيع وتورق الأشجار وتنبت الأوراد والزهور وتنتشر رائحتها العطرة في كل مكان، فببركة القرآن الكريم تظهر على القلب زهور فضائل الأخلاق وبراعم المعارف الإلهية، فمن لم يكتسب منه الحياة الإنسانية، كان كالشجرة اليابسة التي لاتهتز وتتحرك في فصل الربيع.

المرحلة الثالثة الأمر بالعمل والقول: عليكم بالاستشفاء بنور آيات الله، على غرار نور الشمس التي يستشفى في ظلها المرضى، فقد قيل أشعة الشمس قد تغني عن حضور الطبيب.

والمرحلة الرابعة: «**أحسنوا تلاوته**» لتغوص القلوب فيه وتطبع بطابعه فتبلغه إلىٰ الآخرين.

وهكذا يكون الإمام ؑ قد حدد وظيفة الأفراد تجاه القرآن الكريم. وليت الأفراد لم يكتفوا بالاقتصار على حسن تلاوة القرآن وتجويده والتركيز علىٰ جمالية الصوت، والتفتوا إلىٰ سائر

المراحل التي تشكل الدف الأصلي للقرآن. وقد عبرت العبارة الاولى عن القرآن على أنّه أحسن الحديث، والعبارة الأخيرة أنفع القصص. فالحديث ما يصدر من المتحدث من كلام (لأنّ الحديث من مادة حدوث ويطلق على الكلام الحديث لأنّه حادث باستمرار) فالمفهوم أنّ القرآن أفضل كلام بين الناس، من حيث الفصاحة والبلاغة، ومن حيث المحتوى والمضمون، والواقع هو أنّ العبارة إشارة إلىٰ الآية الشريفة: **﴿اَللّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الحَدِيثِ كِتاباً مُتَشابِهاً مَثانِيَ﴾**[1].

أمّا أحسن القصص فقد ذهب بعض شرّاح نهج البلاغة إلىٰ أنّ المراد بها المجموعة القرآنية بما فيها الآثار والنتائج العلمية للقرآن التي تتحصل في ظل اجراء الأحكام والتعاليم القرآنية.

ومن هنا وردت الإشارة في آخر الخطبة إلىٰ نقطة مهمّة بالنسبة للعالم الذي لاعمل له، واولئك الذين يتلون القرآن ولايعملون به، إذ قالﷺ: «**إنّ العالم بغير علمه كالجاهل الحائر الذي لايستفيق**[2] **من جهله، بل الحجة عليه أعظم، والحسرة ألزم، وهو عند الله ألوم**[3]».

فالعبارة تشتمل على تشبيه رائع للعالم بلا عمل (أو بتعبير الإمامﷺ العالم الذي لايعمل بعلمه) يفيد أنّ مثل هذا العالم أقل درجة في الواقع من الجاهل العادي. بل هو كالجاهل الحائر الذي لايفيق من جهله قط، فليس هنالك من أمل في هدايته؛ وذلك لأنّه يسير عن علم علىٰ الطريق الاعوج، ومن هنا فان الله سبحانه يسلبه توفيق الهداية فيفقد صوابه في هذه الحيرة ولايصل ساحل النجاة أبدا فيسقط في الهاوية.

ثم أشارﷺ إلىٰ مدىٰ بؤس مثل هذه العالم السادر في غيه فقالﷺ أولاً بأنّ الحجة عليه أعظم، فقد يتذرع الجاهل بجهله (إن يكن الجهل عذراً) ولكن ما عذر العالم بلا عمل.

والثاني حسرته لازمة، فقد تخلف عن السعادة وكانت كافة أسبابها لديه فتاه حائراً في صحراء الحياة.

---

١. سورة الزمر/١٧.

٢. «يستفيق» من مادة «استفاقة» بمعنىٰ تحسن الحالة الصحية بعد المرض والوعي بعد السكر واليقظة من النوم وجاءت هذه الكلمة في هذه الخطبة بالمعنىٰ الثالث أي اليقظة من النوم.

٣. «ألوم» من مادة «لوم» على وزن قوم بمعنىٰ العتب، ومع الأخذ بنظر الاعتبار بان «ألوم» هي صيغه أفعل تفضيل، وهنا تعني الملامة، وهو الأنسب.

والثالث أنّه أكثر لوماً عند الله من الجاهل الحائر، لأنّ الحجة عليه أتم من غيره. ومن هنا ورد في الرواية عن الإمام الصادق ﷺ أنّه قال: «**يغفر للجاهل سبعون ذنباً قبل أن يغفر للعالم ذنب واحد**»[1]. بل يتعذر قبول توبة هذا العالم الذي لاعمل له. فقد صرح القرآن الكريم قائلاً: ﴿**إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ**...﴾[2].

تأمّل

عاقبة العالم غير العامل

الناس على أربع: عالم، جاهل مقصر، جاهل مقصر بسيط وجاهل مركب. فالعالم من يعلم المطلب على نحو الاجمال أو التفصيل؛ أي قد يكون له أحياناً علم اجمالي بالشيء، وقد يكون له أحياناً أُخرى علم تفصيلي. فهو يعلم مثلا علىٰ نحو الإجمال أنّ المسكر حرام وله أضرار علىٰ جسم الإنسان وروحه. أو أنّه رأىٰ على نحو التفصيل أدلة حرمة المسكر وقد درس الآثار الضارة له على كل عضو من أعضاء البدن.

والجاهل القاصر من لايعلم، وليس له من سبيل إلىٰ العلم، وربّما كان بعيداً عن مراكز العلم فانغمس في الغفلة والسهو.

والجاهل المقصر من له سبيل إلىٰ العلم، إلاّ أنّ الكسل والإهمال لم يدعه يتجه إلىٰ العلم، فيبق في جهله، مع ذلك فهو يعلم بجهله!

أي يدري أنّه لايدري.

وأمّا الجهل المركب فهو من جهل ولايدري أنّه في جهل. بل بالعكس يظن أنّه عالم وما يفهمه من الأُمور هو عين الواقع، وبعبارة أُخرىٰ فهو: لايدري أنّه لايدري.

ويبدو أنّ الخطر والمسؤوليته التي تتوجه إلىٰ الجاهل القاصر أقل من غيرها بالنسبة للطوائف الأربع، ويأتي بعده الجاهل المقصر ثم الجاهل المركب؛ الذي قد يدفعه جهله المركب لايجاد بعض المشاكل لنفسه والآخرين. إلاّ أنّ الأخطر من الجميع هو العالم.

---

١. الكافي ٤٧/١ ح ١.
٢. سورة النساء/١٧.

الذي لا عمل له. وإلىٰ هذه الطائفة تعزىٰ جميع الكوارث التي تكبدتها البشرية طيلة التأريخ بما فيها النزاعات والحروب في الماضي والحاضر.

فهم الذين يصنعون أخطر أسلحة الدمار الشامل التي تهدف إلىٰ القضاء علىٰ الأبرياء من المجتمع البشري. وهم الذين يشعلون فتيل الحرب من أجل تحقيق مآربهم واطماعهم.

وأخيراً هؤلاء هم الذين يستحوذون علىٰ المواقع المتقدمة والمراكز الحساسة في الأجهزة الإعلامية ووسائل الدعاية ليمارسوا أوسع عملية تضليل ليشوهوا الحقائق فيسوقوا الجهال إلىٰ نيران فتنهم ويقضوا علىٰ حياتهم. وقد شبههم القرآن الكريم بالكلاب إذ قال: **﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ﴾**[1].

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا: ترى ما سر هذا التضاد بين العمل والعلم أولم يكن حرياً بهذا العالم أن يتجه إلىٰ الصواب ويقود الناس إليه؟

ويبدو الجواب واضحاً على هذا السؤال وهو أن أسس ودعائم إيمان هذا العالم إنّما هي في الواقع ضعيفة خاوية، وإن انتحل الإسلام والعلم ظاهراً، إلّا أنّ لسانه الباطني «**يقولون إن الله خالق جنّة ونار وتعذيب وغل يدين**»[2].

كما قد يكون مؤمنا بالله إلّا أنّه منقاد لهوىٰ نفسه الذي يتغلب على إيمانه.

ونختتم هذا الكلام بحديث عن علي عليه السلام في أنّ التوارة قد اختتمت بخمس عبارات هي[3]:

الأول: العالم الذي لا يعمل بعلمه فهو وابليس سواء.

والثاني: سلطان لايعدل برعيته فهو وفرعون سواء.

والثالث: فقير يتذلل لغني طمعاً في ماله فهو والكلب سواء.

والرابع: غني لاينتفع بماله فهو والاجير سواء.

والخامس: إمرأة تخرج من بيتها بغير ضرورة فهي والأمّة سواء.

---

١. سورة الأعراف/١٧٦.

٢. ورد ذلك عن عمر بن سعد حين اقترح عليه قتال الحسين عليه السلام في كربلاء، واعطائه ملك الري، ففكر في الأمر ثم انشد شعرا، زعم فيه أن يقتل الحسين عليه السلام ويفوز بملك الري ثم يتوب اله الله سبحانه. ألا لعنة الله علىٰ الظالمين.

٣. الاثني عشرية/٢٠٦.

اللّهم نسألك العمل بما نعلم من العلم الذي أفضته علينا في ظل قبسات وعلوم نهج البلاغة لأميرالمؤمنين علي عليه السلام، اللّهم ولاتقرنا مع الشيطان أبداً، اللّهم نسألك حسن العاقبة وأن تختم لنا بالخير.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

تم بعون الله المجلد الرابع من شرح نهج البلاغة

في ١٧ شوال. عام ١٤٢٢ هـ ويليه المجلد الخامس ان شاء الله.

الفهرس

الخطبة الحادية والتسعون

نظرة إلىٰ الخطبة ٥
القسم الأول: جوده لا ينضب ٩
تأمّل: شمول النعم الإلهية ١٤
القسم الثاني: معرفة الله عن الله ١٧
تأمّل: الراسخون في العلم وتفسير المتشابهات ٢٠
القسم الثالث: العالي على الخيال والقياس والظن والوهم ٢٣
القسم الرابع: الحديث عن تدبيره ٢٧
القسم الخامس: انت المنزه عن الشبيه والمثيل ٣١
تأمّل: من هم المجسمة؟ ٣٣
القسم السادس: الممتنع على احاطة العقول ٣٧
القسم السابع: كلي شيء يستند إلى ارادة الله ٣٩
القسم الثامن: سر الخلق ٤١
تأمّل: أوضح طريق إلى معرفة الله ٤٣
القسم التاسع: خلق السموات ٤٥
تأمّل: خصائص السماوات ٥٠
القسم العاشر: خلق الشمس والقمر والشهب والكواكب ٥١
تأمّلات ٥٣
١ـ الكواكب الثابتة والسيارة ٥٣
٢ـ خصائص الكواكب ٥٤

٣ـ سعد ونحس الكواكب ٥٤
القسم الحادى عشر: خلق الملائكة ٥٧
القسم الثاني عشر: وظائف الملائكة ٦١
تأمّل: لم الملائكة واسطة الوحي؟ ٦٣
القسم الثالث عشر: الانقطاع إلى الله ٦٥
القسم الرابع عشر: مدبرات الأُمور ٦٧
القسم الخامس عشر: خصائص الملائكة ٧١
تأمّل: الناس والملائكة ٧٤
القسم السادس عشر: عودا على بدء في صفات الملائكة ٧٥
تأمّل: الناس والملائكة ثانية ٧٩
القسم السابع عشر: ظهور اليابسة و استقرار البحار ٨٣
القسم الثامن عشر: ظهور الجبال والعيون ٨٧
تأمّل: أسرار خلق الجبال ٨٩
القسم التاسع عشر: إحياء الأرض الميتة بالسحب الممطرة ٩١
تأمّل: سعة قاعدة اللطف في التكوين والتشريع ٩٥
القسم العشرون: خلق آدم وبعثة الأنبياء ٩٧
القسم الحادي والعشرون: الرزق وسيلة الامتحان ١٠١
تأمّل: هل رزق كل إنسان مقدر؟ ١٠٣
القسم الثاني والعشرون: العالم بكل شيء ١٠٧
تأمّل: تنوع الكائنات ١١٠
القسم الثالث والعشرون: شمولية العلم الإلهي ١١٣
تأمّلات ١١٥
١ ـ العلم الكامل ١١٦
٢ ـ علم الله بكافة الخفايا ١١٦
٣ ـ ابن أبي الحديد في شرح هذه الخطبة ١١٧
القسم الرابع والعشرون: إليك الملاذ و أنت الرجاء ١١٩

تأمّل: في اعجاز البيان ١٢١

الخطبة الثانية والتسعون

نظرة إلى الخطبة ١٢٣
دعوني والتمسوا غيري ١٢٥
تأمّلات ١٢٨
١ ـ لم قال دعوني؟ ١٢٨
٢ ـ لم لا يتحملوا عدالة علي عليه السلام؟ ١٣٠
٣ ـ لم وزارته عليه السلام خير من إمارته؟ ١٣١

الخطبة الثالثة والتسعون

القسم الاوّل: أنا فقأت عين الفتنة ١٣٥
القسم الثاني: فتنة بني أمية ١٤١
تأمّلان ١٤٥
١ ـ مميزات الفتنة ١٤٥
٢ ـ حكومة بني أمية ١٤٦
القسم الثالث: انتقام الله من بني أمية ١٤٩
تأمّلان ١٥١
١ ـ ضريبة الفرار من الحق ١٥١
٢ ـ عاقبة بني أمية ١٥٢

الخطبة الرابعة والتسعون

نظرة إلى الخطبة ١٥٥
القسم الأول: عجز الفكر عن معرفته ١٥٧
القسم الثاني (ومنها في وصف الأنبياء): المكانة الرفيعة للأنبياء ١٥٩
القسم الثالث: فضائل النبي صلى الله عليه وآله ١٦١
تأمّلان ١٦٥
١ ـ منزلة النبي صلى الله عليه وآله لدى الآخرين ١٦٥
٢ ـ أُسرة النبي صلى الله عليه وآله ١٦٥

القسم الرابع: اعملوا ما استطعتم ١٦٧

الخطبة الخامسة والتسعون

نظرة إلى الخطبة ١٦٩
النور الذي كشف الظلمة ١٧١

الخطبة السادسة والتسعون

نظرة إلى الخطبة ١٧٥
القسم الأول: الأول والآخر ١٧٧
القسم الثاني: كلامه بيان وصمته لسان ١٧٩

الخطبة السابعة والتسعون

نظرة إلى الخطبة ١٨٣
القسم الأول: عبيد كأرباب ١٨٥
القسم الثاني: شهود الابدان وغياب العقول ١٩١
القسم الثالث: العمل بالتكليف ١٩٣
تأمّل: مقارنة بين أهل العراق والشام ١٩٥
القسم الرابع: صحب النبي صلى الله عليه وآله ١٩٩
تأمّلات ٢٠٢
١ ـ ولاية أهل البيت وعصمتهم ٢٠٢
٢ ـ مميزات أهل الكوفة والشام ٢٠٣
٣ ـ حقيقة الصحابة ٢٠٣

الخطبة الثامنة والتسعون

نظرة إلى الخطبة ٢٠٧
مظالم بني أمية ٢٠٩
تأمّل: بدع بني أمية ٢١١

الخطبة التاسعة والتسعون

نظرة إلى الخطبة ٢١٥
القسم اول: السلامة في الدين والبدن ٢١٧

القسم الثاني: سرعة زوّال الدنيا ٢١٩
القسم الثالث: دروس الدنيا وعبرها ٢٢٣
القسم الرابع: هادم اللذات ٢٢٥
تأمّلان ٢٢٦
١ ـ خداع الدنيا محدود ٢٢٦
٢ ـ أكيس الناس ٢٢٧

الخطبة مأة

نظرة إلىٰ الخطبة ٢٢٩
القسم الأول: راية الحق ٢٣١
تأمّلات ٢٣٧
١ ـ أولياء الله ٢٣٧
٢ ـ الفشل قنطرة النجاح ٢٣٧
القسم الثاني: هدي آل محمد صلى الله عليه وآله ٢٣٩
تأمّلان ٢٤٠
١ ـ حديث النجوم ٢٤٠
٢ ـ آخر مراحل تكامل النعم الإلهية ٢٤١

الخطبة المأة وواحد

نظرة إلىٰ الخطبة ٢٤٣
القسم الأول: الشهادة المطلقة ٢٤٥
القسم الثاني: الحق ما أقول ٢٤٧
القسم الثالث: فتنة ضليل الشام ٢٤٩
تأمّلان ٢٥١
١ ـ الملاحم ٢٥١
٢ ـ الكوفة مركز الازمات والعواصف ٢٥٢
الخطبة المأة واثنان ٢٥٣
نظرة إلىٰ الخطبة ٢٥٣

القسم الأول: هول المحشر ٢٥٥
القسم الثاني: فتنة البصرة ٢٥٧

الخطبة المأة وثلاث

نظرة إلى الخطبة ٢٦١
القسم الأول: الدنيا الفانية ٢٦٣
تأمّل: الزهد في الدنيا ٢٦٥
القسم الثاني: سرعة العمر ٢٦٧
تأمّل: في الاعتبار ٢٦٨
القسم الثالث: العلماء والمتشبهون بهم ٢٧١
تأمّل: العلماء الحقيقيون ٢٧٣
القسم الرابع: علامات آخر الزمان ٢٧٥
تأمّل: الفساد في آخر الزمان ٢٧٨

الخطبة المأة واربع

نظرة إلى الخطبة ٢٧٩
القسم الأول: النهضة التغييرية للنبي ﷺ ٢٨١
تأمّلان ٢٨٢
١ ـ هل بعث نبي من العرب؟ ٢٨٢
٢ ـ القوة في الدين ٢٨٣
القسم الثاني: بقر الباطل واخراج الحق ٢٨٥

الخطبة المأة وخمس

نظرة إلى الخطبة ٢٨٧
القسم الأول: صفات النبي ﷺ ٢٨٩
القسم الثاني: زوال حكومة بني أمية ٢٩١
القسم الثالث: التمسك بالإمام ٢٩٥
القسم الرابع: وظائف الإمام والأمّة ٢٩٧

الخطبة المأة وست

نظرة إلى الخطبة ٣٠١

القسم الأول: خصائص الإسلام ٣٠٣

تأمّلان ٣٠٧

١ ـ منزلة الدنيا والآخرة في النظرة الإسلامية ٣٠٧

٢ ـ الشريعة السمحاء ٣٠٩

القسم الثاني: صفات النبي صلى الله عليه وآله ومقاماته ٣١١

تأمّل: إعتراف مهم ٣١٤

القسم الثالث: تضييع النعم ٣١٥

الخطبة المأة وسبع

نظرة إلى الخطبة ٣١٩

أثلجتم صدري ٣٢١

الخطبة المأة وثمان

نظرة إلى الخطبة ٣٢٣

القسم الأول: تجلى الله للعباد ٣٢٥

تأمّل: في سعه علم الله ٣٢٧

القسم الثاني: وصف النبي صلى الله عليه وآله ٣٢٩

القسم الثالث: طبيب سيار ٣٣١

القسم الرابع: اشباح بلا أرواح ٣٣٥

تأمّل: الوجود الباهت كالعدم ٣٣٧

القسم الخامس: طغاة بني أمية يأتون على الأخضر و اليابس ٣٣٩

تأمّل: الحكومات المستبدة ٣٤١

القسم السادس: احذروا المستقبل المشؤوم ٣٤٣

القسم السابع: الانقلاب رأس على عقب ٣٤٧

تأمّل: آثار سلطة الأوباش ٣٥٠

الخطبة المأة وتسع

نظرة إلى الخطبة ٣٥٣
القسم الأول: الصفات الكمالية لله ٣٥٥
القسم الثاني: عبودية الملائكة ٣٦١
القسم الثالث: عالم الآخرة ٣٦٥
تأمّل: العشق المقدس والهجين ٣٦٨
القسم الرابع: سكرات الموت ٣٧٣
تأمّل: سكرة الموت والاحتضار ٣٧٦
القسم الخامس: قيامة الناس ٣٧٩
القسم السادس: الثواب والعقاب ٣٨٣
تأمّل: أُسلوب الهداية ٣٨٦
القسم السابع: زهد النبي صلى الله عليه وآله ٣٨٧
تأمّل: الشرط الاصلي في الزعامة ٣٨٨
القسم الثامن: أهل البيت عليهم السلام ٣٩١

الخطبة المأة وعشر

نظرة إلى الخطبة ٣٩٣
القسم الأول: فرائض الإسلام ٣٩٥
فلسفة الأحكام ٤٠١
القسم الثاني: القرآن والسنة ٤٠٣
تأمّل: عاقبة العالم غير العامل ٤٠٦
الفهرس ٤٠٩

مكتبة الروضة الحيدرية
الرقم ٥٥٠٠١
التاريخ ١/١/ ٢٠٠٥

Nafahät al-Weläyah

Description of Nahj al-Balägha

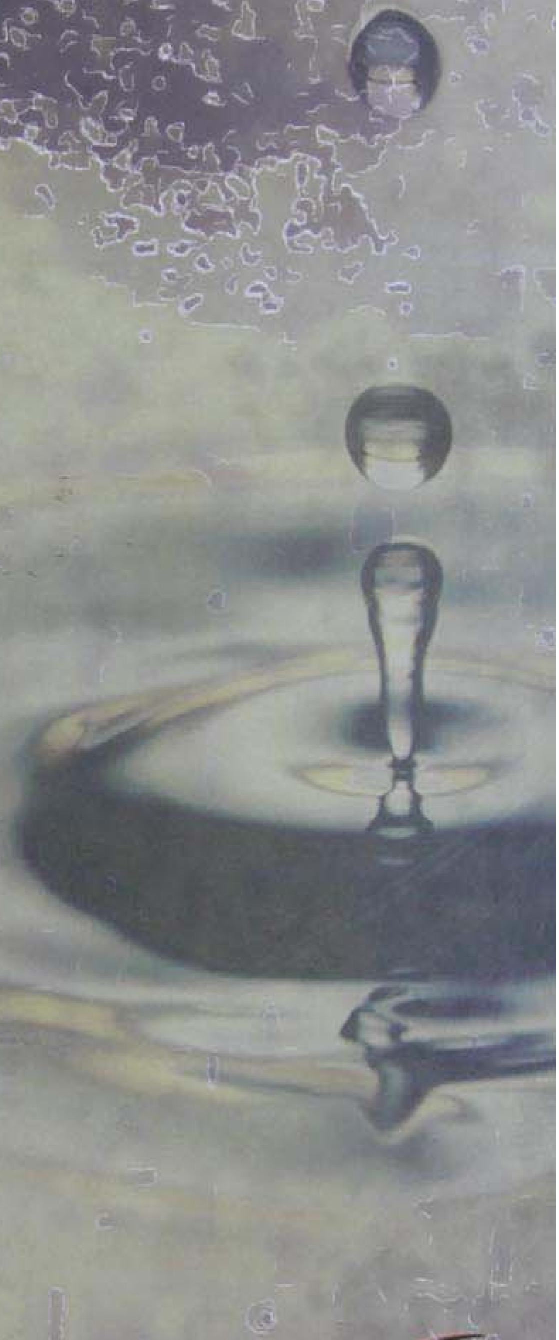

آذین گرافیک

ISBN 964-8139-18-0